الطاقة الإنسانية

الطبعة الثانية
١٩٦٣

احمد حسين

الطاقة الإنسانية

الناشر



بالقاهرة

الإهــداء

إلى : الشهيد مصطفى الوكيل قديس الوطنية والعروبة والإســلام ، ومثلى الأعلى فى الحياة .

إلى : جميع إخوانى وأصدقائى الذين ربطنا الحب برباطه المقــدس ، ولم تستطع عاديات الأيام أن تنال منه ، والذين لولاهم لما خرج هذا الكتاب إلى النور .

إلى : بنى البشر ، مذ كانوا ، وأينما كانوا .

أهدى الصفحات التالية :

مقدمة الطبعة الثانية

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

كتاب الموسم

كتب الموسم فى اصطلاح النقاد والناشرين ، هى كتب تتوافر لها فى جميع الأحوال خاصتان : إحداهما فى الموضوع والأخرى فى التأليف .

ويغلب فى الخاصة الموضوعية أن يكون موضوع الكتاب محورا للبحث فى مسألة إنسانية كبرى ، تتناولها الأفكار من وجهات نظر متعددة وعقائد مختلفة ، ولا ينقطع البحث فيها زمنا من الأزمنة ، ولا سيما الأزمنة التى توصف بأنها أزمنة استقبال ، أى أزمنة البحث عن قبلة واتجاه .

ويغلب على خاصة التأليف أن يكون للمؤلف طابعه الخاص فى كل فكرة عامة يعرضها ، فلا تتماثل الكتب المتعددة فى الموضوع بعينه إذا هى صدرت من أقلام شتى .

والكتاب الذى بين أيدينا من كتب الموسم بموضوعه وبتأليفه ، وهو كتاب « الطاقة الإنسانية » لمؤلفه الأستاذ أحمد حسين المحامى .

موضوعه هو تدبير طاقة النفس الإنسانية بوسائل الإرادة والمعرفة ، وطريقته تظهر للقارىء من كلمات قليلة تحت عنوانه كتبت على منوال المعادلات الرياضية . فكل هدف إنسانى بحسب درجة الضرورة ووضوح الصورة الذهنية ، مع شدة التركيز ، هو طاقة تتحقق فى الخارج عند غياب الظروف المعاكسة .

ويدل وضع الطريقة بصيغة المعادلة الرياضية على أن الكتاب برنامج علم وعمل ، وأن المؤلف يرسم به « هندسة » قابلة للتعليم والتطبيق ، ويعامل فيه « الطاقة النفسية » كما تعامل كل طاقة لها هندستها العملية ، وفى وسع من يتعلمها أن يستقل بتطبيقها ويصل بها إلى نتيجتها .

صلاحية الكتاب للمنهج الدراسى

ومع ظهور الطابع الخاص للمؤلف فى كل رأى فاصل من آراء الكتاب ، يجرى نظامه على المنهج الدراسى التعليمى ، ويصلح للاعتماد عليه فى معهد الدراسة على يد كل معلم ولفائدة كل طالب ، لأن آراءه الفاصلة التى يظهر فيها طابع المؤلف تترتب على تفسيراته الراجحة عنده بمقدار مرجحاتها فى ميزانه ، ولا تتعرض لتغيير الوقائع أو تغيير نتائجها عند من يخالفه ، إذا شاء أن يفصل بين الواقعة وتفسيراتها ، وأن يستخلص منها غير خلاصتها التى بدا من المؤلف أنه يميل إليها .

ومما يساعد على حرية القارىء ، فى حالتى الموافقة والمخالفة ، أن المؤلف يعتمد على كثير من الوقائع والشواهد ، ولا يقيد أحكامه فى المسائل الحاسمة بواحدة منها تتوقف عليها ، فيجوز أن يختلف المؤرخون فى تصحيح بعض هذه الوقائع على حسب أسانيدها ، ولكن النتيجة التى يربطها بها المؤلف لا تتوقف على صحتها ، لأنها نتيجة تثبت بغيرها من الوقائع التى لا خلاف عليها .

مثال ذلك أن المؤلف يقرر أن الإرادة تعمل عملها فى تعويض الطاقة النفسية التى يفقدها الإنسان بفقدان حاسة من حواسه أو عضو من أعضائه ، ويضرب المثل لذلك بنبوغ الشاعر هوميروس من جراء فقدان بصره وحاجته إلى التكسب بتلاوة شعره .

هوميروس أعمى أم بصير؟

فمن الجائز أن يشك المؤرخ فى عمى الشاعر هوميروس ، أو فى درجة هذا العمى أو درجة هذا الإبصار على رواية أخرى ، وقد شك المؤرخون فعلا فى ذلك ورجح أكثرهم أنه لم يوصف بالعمى فى غير الأسانيد التى نشأت بعد عصره بعشرة قرون ، ولكن الحقيقة النفسية التى قررها المؤلف لا تتوقف على رواية من هذه الروايات عن الشاعر اليونانى دون غيرها ، لأنها ثابتة من مئات الحوادث التى نشاهدها اليوم فى كل بيئة وفى كل عمل ، وما من « فقيه » ضرير فى زماننا إلا وهو متكفل للقارىء بشاهد حى يغنى عن جميع الشواهد التاريخية ، لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة ولكنه يحفظ القرآن والبردة ودلائل الخيرات وموشحات الأذكار والموالد ودعوات المواسم والمحافل ويسابق المبصرين فيكاد أن يسبقهم فى ميدانها .

والوقائع أو الشواهد ، تبلغ المئات خلال فصول الكتاب العشرة ، وتتردد فى كل صفحة من صفحاته منسوبة إلى مصادرها ، متبوعة بتعقيبات المؤلف عليها .

فصول الكتاب

فالفصل الأول بعد التمهيد موضوعه « نسبية المعرفة » مع تقدم العلوم الإنسانية على حسب العصور المتتابعة ، ويتلوه الفصل الثانى فى التساؤل عن أثر التقدم العلمى فى سعادة الإنسان أو صلاح قواه النفسية ، ويتلوه الفصل الثالث عن الكون وعمل المدارك الإنسانية فى تقرير وجوده وتمحيص حقيقته ، ويتلوه الفصل الرابع عن تطور العقل الإنسانى وتمام هذا التطور بين الماضى والحاضر والمستقبل ، ويتلوه الفصل الخامس عن تكوين الإنسان الذى جرت عليه هذه الأطوار ، ثم الفصل السادس عن موضوع يكاد أن يكون هو موضوع الكتاب كله ، وهو موضوع الإرادة الإنسانية ، ثم الفصل

السابع عن الإيمان وعمله فى الإرادة وعمل الإرادة فيه ، ثم الفصل الثامن عن تطبيقات قوة الإيمان ، ثم الفصل التاسع عن إثبات وجود الطاقة الإنسانية بالطرق التجريبية العملية ، ثم الفصل العاشر وفيه شرح وافر لقانون الطاقة الإنسانية ، ثم يختم الكتاب بتذييل ينتهى إلى الطريق التى تمهدت للسلوك بعد كل هذه المقدمات ، وفحواه أن دراسة الطاقة الإنسانية قد أسفرت عن إدراك الهدف ، وإدراك الوسيلة إليه ، وإدراك القدرة على تحصيله بهذه الوسيلة الناجعة ، وهى وسيلة المعرفة والإيمان .

وقد استطاع المؤلف أن يقرر بالوسائل التجريبية ، أن الإنسان لا يحلم بشىء فى الخيال يعجز عن تحقيقه فى صورته العملية ، وأن الطاقة الإنسانية تصنع المعجزات لتحقيق تلك الأحلام متى استعدت لها بعدة الإرادة الصادقة ، وتمكنت من توجيه تلك الإرادة إلى هدفها على طريق السواء والهداية .

الطاقة النفسية :

وللمؤلف جهد موفور فى البحث عن حقيقة الطاقة النفسية : هل هى قوة قائمة بذاتها يمكن أن تنتقل من نفس إلى نفس ، كما تنتقل قوة الحرارة من مادة إلى مادة ؟ أو هى قوة إيحائية يقوم تأثيرها الأكبر على الوحى الذى توحيه إرادة نفس ترسلها إلى إرادة نفس تتلقاها ؟

ونمثل للفرضين بإنسان أرسل من نفسه قوة الشفاء إلى نفس إنسان آخر تتمنى شفاءه ، فهل يحدث الشفاء — إذا حدث — من طاقة نفسية تفعل فعلها ، سواء شعر المريض برغبة طبيبه أو لم يشعر بها ولا بوجود ذلك الطبيب ؟ أو يحدث الشفاء لأن الرغبة القوية من الطبيب أوحت إلى المريض بما يعزز فيه رغبته ، ويبتعث منه كوامن صحته ، ويعينه على استنهاض عزيمته ، فلا يتم الشفاء بغير هذا الإيحاء ؟

إن المؤلف يميل إلى الرأى الأول ويستشهد ببعض تجاربه فى طفولته

وفى حاضره ، فيرى أنه مقتنع بأن الطاقة النفسية يمكن أن تفعل فعلها على غير علم من المستفيد بها أو المصاب بضررها .

وباب الفصل بين الرأيين لا يزال مفتوحا للباحثين من أصحاب النظرة العلمية التجريبية وأصحاب النظرة الصوفية الباطنية ، ولكن المباحث النفسية فى العصر الحديث تأبى أن تتجاهل النتائج العلمية التى أسفرت عنها تجارب الإنسان قبل اليوم فى المعمل والمعبد على السواء ، فلا يسلك الباحثون عن حقيقة الطاقة النفسية مسلكا يرفضه العالم الذى يجرى تجاربه على الطاقة المادية والحركة الآلية ، ولا يحاول النفسانيون والرياضيون على النهج الحديث إقناعا للعقل والضمير بغير البرهان المفهوم الذى يوضع موضع التطبيق والتكرار ، وإن كانوا — باعترافهم — لم يجاوزوا به أوائل الخطوات من عتبة الطريق إلى منتصف الطريق .

فمن المدارس العصرية التى تبحث عن أسرار طاقة النفس مدرستان كبريان : إحداهما أقرب إلى العلم والفلسفة العقلية ، وهى مدرسة « الباراسيكولوجى » أو علم النفس المشابه .

والأخرى أقرب إلى الفن والرياضة الصوفية ، ويجوز أن تحسب من فروع « الثيوسوفية » الحديثة ؛ لأنها لا تتقيد بتجربة الواقع كما تتقيد بالملهمات الوجدانية .

فعلماء « الباراسيكولوجى » يبحثون فى انتقال المشاهدات والمؤثرات بغير وساطة الحواس ويقررون أن الظواهر التى جربوها لا تقبل التفسير بالفروض المعهودة ، وأن الأمانة العلمية تتقاضاهم أن يثابروا على تجربتهم إلى أن يهتدوا إلى تفسير مطابق للعلم وللواقع غير تلك الفروض المعهودة ، وهم حريصون على اجتناب الخلط بين مشاهدات النجوى على البعد أو التلباثية ومشاهدات الكشف والاستجلاء أو « الكلارفيانس » ولم يمض على نشأة هذه المدرسة بجامعة ديوك ثلث قرن إلى الآن ، لأنها نشأت فى سنة ١٩٣٠ ،

ولكنها استطاعت أن تثبت وجود الصلة النفسية بغير وساطة الحواس فى نسبة لا تقل عن أربعين فى المائة ، ولا يتيسر تفسيرها بوسيلة من وسائل الانتقال تغنى عن القول باحتمال التأثير المباشر من نفس إنسانية إلى أخرى ، وإن تكن عوامل هذا التأثير مجهولة إلى الآن .

أما المدرسة الأخرى فاعتقادها الغالب أن المادة قابلة للتأثير بالعوامل النفسية ، كما تتأثر بعوامل الضوء والحرارة والمغناطيسية ، أو بعوامل الطاقة المادية على عمومها ، وقاعدة التفكير على هذا النحو عندهم أن الموجودات فى الكون ترجع كلها إلى الذرات ، وأن ذرات العناصر كلها ترجع إلى أشعة من النور ، وأن تركيبها أشبه شىء « بالتنغيم » على النسب الموسيقية ، فمن شأن النفس التى تناسبت موسيقاها وتناسقت ملكاتها أن تنقل بوسيلة النسب الموسيقية قوة تعمل عملها فى تعديل الأشعة وتقويم حركاتها ، وقد زعم الثيوسوفيون من مدرسة «أنا بيزانتى» وخلفائها أن تركيب صخور الأهرام بعضها على بعض مستحيل بغير الاعتماد على المغناطيسية النفسية إلى جانب الاعتماد على الآلات ، لأن وضع الصخرة على الصخرة بأحدث الآلات فى العصر الحاضر لن يتأتى بغير فراغ بين الصخرتين يتسع لجسم فى عرض الشعرات الحيوانية ، ولم يكن بين صخور الأهرام التى بقيت على حالها متسع لمثل ذلك الفراغ .

وسيمضى البحث على كلتا الطريقتين زمنا لا ندرى مداه ، وقد يثبت وجود الطاقة النفسية مستقلة عن الإيحاء أو مقرونة به على درجات ، ولكن الدراسة التى تعمل الآن فى توجيه الطاقة النفسية ويشرحها الأستاذ أحمد حسين فى كتابة لا تنتظر النتيجة ولا تتوقف عليها ، وكذلك يبحث العلماء اليوم عن الضوء هل هو موجات أو ذرات ، ويقولون بأحد القولين أو بالقولين معاً فى بعض الظواهر ، ولكن المخترعات التى تنشر الضوء وتحفظه وتتحكم فى الإنارة والإطفاء ماضية فى تقدمها وتعميم فوائدها دون أن يعوقها عن مداها أن نحسبها بحساب الدقائق الصغار وهى على هذا الغموض فى تركيبها أجلى ما تجلوه الأنظار .

مقدمة الطبعة الأولى
للمؤلف

هذا الكتاب

هذا الكتاب حديث عن الإنسان فى مواجهة الكون الخارجى وأيهما مركز للآخر ، ومحاولة لإعادة مفهوم الإنسان إلى ما كان عليه منذ كان إنسانا ، سيداً لهذا الكون ومسيطراً عليه ، حراً مختاراً مريداً فعالا ينطوى على القدرة التى تحقق كل إرادته وتخلق أعماله فى الحدود التى لا تتعارض ونواميس الطبيعة .

وهو محاولة لوضع قانون يحكم العلاقة بين ما يدور فى ذهن الإنسان من صور ، وبين تحقق هذه الصور بالفعل فى الخارج عن طريق الطاقة الإنسانية الكامنة فى كل إنسان بالفطرة كجزء من طاقة الطبيعة الكبرى إذا تحدثنا بلغة المادة ، أو قبس من روح الله إذا تحدثنا بلغة الدين والإيمان (الفصل العاشر) .

ولو أن كتابى هذا نشر منذ بضعة قرون فقط لما كان فى جوهره أو ما يهدف إليه أى جديد يستحق الذكر ، فقد كان البشر حتى ذلك الوقت يؤمنون بقدسية الإنسان التى لاحد لها ، وقدرته على الاتصال بالملأ الأعلى (السماء) أو الملأ الأدنى (الجن والأشباح) مستمدا من هذا الاتصال قوة خارقة يحقق بها العجائب والمعجزات والكرامات (الفصل الثانى) .

أما اليوم فى دنيا المادة والافتتان بالعلم الطبيعى ، فلن يكون كتابى جديداً وغير مألوف فحسب ، بل إن الكثيرين ممن سيطالعونه سواء من الماديين الطبيعيين أم من المؤمنين المتدينين ، سينكرونه باعتباره لونا من ألوان

الوهم والخيال والعودة إلى الخرافات والأساطير ، ولا عجب فى أن يلتقى المؤمنون بالماديين فى إنكارهم قدرة الإنسان ، واعتبارهم كل حديث فى هذه الناحية وهما وخرافة ، ذلك أن المؤمنين أنفسهم قد استسلموا لتفوق العلوم المادية ، فأصبح إيمانهم بما وراء المادة يحاول أن يأخذ له صوراً وأشكالا منتزعة من دنيا المادة وعلوم الطبيعة .

الإنسانية أم الإنسان ؟

وقد أنزلت هذه العلوم الطبيعية الإنسان الفرد من عليائه ، وجردته من تاجه وصولجانه ، فهو ليس إلا هباءة هائمة لا حول لها ولا طول ، أمام طبيعة عمياء غاشمة مجردة من كل شعور أو حياة فضلا عن عقل وحكمة ، حقاً إن هذه النظرة قد تبدلت أخيراً كما سنرى فى بعض فصول الكتاب ، فعاد الحديث يتردد عن عظمة الإنسان وقدرة الإنسانية التى لا حد لها ، وعن المستقبل الذى ينتظر الإنسانية ، ولكن ذلك لا يرجع الإنسان الفرد إلى مركزه الحقيقى فى الوجود ، فالإنسانية معنى مجرد لا وجود حقيقيا له إلا فى عالم المثل لمن يؤمنون بالمثل من تلامذة أفلاطون ، أما فى دنيا الواقع المحسوس ، دنيا التجربة التى يدعونا العلم للأخذ بها والاعتصام بحبالها ، فليس فى هذا الكون ما يمكن أن نسميه بالإنسانية وإنما هناك إنسان ، أنت وأنا وهذا الطفل وتلك المرأة العجوز ، هناك آدم ونوح وإبراهيم وإسحق وموسى وعيسى ومحمد وأبو بكر وبوذا وكونفشيوس وفاطمة ومريم واستر وحنا وبطرس وجورج ، إلى آخر ملايين الملايين من أسماء البشر الذين عاش كل منهم حياته وألف سيرته وأنشأ كتابه ثم مضى لطيته . هذا هو ما نعرفه كلنا وما نحسه ونشاهده ونحياه . هذا هو الإنسان .

أما الإنسانية فكلمة مجهولة غامضة لا تعدو أن تكون وصفاً يطلق على الأعمال التى تقع من الإنسان فتوصف بأنها إنسانية ، أو على مجموع الناس

للفصل بينهم وبين سائر الكائنات الأخرى من حيوانية ونباتية ومادية ، فليس هناك شيء مادى اسمه الإنسانية ، وإنما هناك شيء مادى اسمه الإنسان .

هذا الإنسان الفرد هو الذى يجب أن نضعه فى الميزان ، ما هو ؟ ما قدره ما طاقته ؟ ما هو مكانه فى هذا الكون فى حد ذاته واستقلاله عن غيره من بنى البشر حتى ولو لم يكن فى جماعة ، حتى ولو كان فى صحراء موحشة أو جنة مورقة . (الفصل الخامس) .

أهو حقا هذه الهباءة الهائمة من التراب وسط طبيعة عمياء هوجاء ، أم أن هذا الإنسان الفرد هو أعظم ما فى هذا الكون الطبيعى من طاقة ، وأنه يعلو على كل ما يحيط به من كائنات بما أودع فيه من سر العقل وهو سر الوجود ، وعن طريق هذا السر باستطاعة الإنسان (كل إنسان) أن يفعل ما يريد ، هذا هو محور البحث فى هذا الكتاب (الفصل السادس) .

حديث للناس كافة

ولما كنت لا أخاطب فى هذا الكتاب قراء العربية دون غيرهم ، أو من يدينون بدين الإسلام أو المسيحية ، أو من يعيشون فى الشرق دون الغرب ، وإنما أخاطب البشر كافة ، أخاطب (الإنسانية) فى معناها الواسع الاصطلاحى ، وأنها مجموع الناس منذ كانوا وأينما كانوا ، فقد نحيت عقيدتى الشخصية وحاولت أن أعالج موضوع البحث لا من زاوية دين معين ، أو الأديان فى مجموعها أو من زاوية العلم الطبيعى ، ولم أقصر بحثى على مجتمع دون مجتمع ، ولم أهدف من ورائه تغليب مذهب على مذهب أو فكر على فكر ، أو تفضيل نظام على نظام ، فكل الأفكار وكل المذاهب وكل الأديان وكل النظم وكل الأجناس والشعوب ، وكل الحضارات والمدنيات ، كلها عندى سواء فى أهميتها ، فى قدرها واعتبارها ، لأنها من نتاج الإنسان ، الإنسان (كما أتصوره) الذى لا يعلو فيه فرد على آخر مهما كان ما يدعيه لنفسه

من علو وحضارة وارتفاع . ولغيره من التخلف والبدائية والوحشية . (الفصل الثالث) .

رجاء للمتخصصين

ومشكلة هذا الكتاب أنه قد لا يرضى كثيرا من المتخصصين فى شتى فروع العلوم التى تعرض لبعض موضوعاتها ، لأنهم يعلمون من هذه العلوم ما لا أعلم ، فقد يجدون رغم حرصى الشديد بعض أخطاء فى النقل من كتاب علمى ، أو قصورا فى إدراك بعض الحقائق العلمية التى غمت على ، وربما يضيقون ذرعا بالأسلوب البسيط الذى عالجت به موضوعات خطيرة فى تقديرهم ، والتى لا يمكن أن تعالج إلا عن طريق الألغاز والمعميات التى لا يفهمها إلا الراسخون فى العلم .

وذلك فى الوقت الذى قد يضيق فيه القارىء العادى من ناحية أخرى ، بما قد يعتبره صعوبة أو تعقيدا أو غموضا فى بعض الفقرات والفصول ، فإلى العلماء والمتخصصين الرجاء أن يتجاوزوا عما يصادفون من أخطاء أو قصور فى الإحاطة بجزئيات علومهم ، فلست أدعى لنفسى أننى ندلهم فى علوم الطبيعة أو الكيمياء أو الرياضة أو الأحياء أو ما شاءوا من علوم .

وإنما اعتمدت على مطالعاتى كقارىء عادى للكتب العامة فى هذه الموضوعات ، ولذلك فإننى أدعوهم للمضى فى قراءة الكتاب فى كثير من التسامح حتى نهايته . فأنا زعيم بأن أى متخصص فى علم من العلوم أو فقيه من الفقهاء فى أى مادة سيجد فيه ما يشحذ فكره ويتحدى عقله ويستحق دراسته ، وسيجد فى نهاية الكتاب نظرية علمية وفرضا صيغ على شكل معادلة رياضية فى صورتها الأولى ، وهذه المعادلة الرياضية فى حاجة لمن يدعمها ويزيدها وضوحا ودقة وتحديدا وتعميقا ، أو هى فى حاجة لمن يدحضها ويكشف عن تداعيها وتهافتها وعدم انطباقها على الواقع . (الفصل العاشر) .

أما القارىء العادى فأنصحه أن يمر على بعض الصفحات التى قد يجد صعوبة فى مطالعتها مراً ، ولا يتردد فى إغفال هذه الصفحات والنظر إلى ما وراءها حتى تتصل معه القراءة من جديد فى يسر وسهولة ، فلن يفوته قليل أو كثير بإسقاط بعض الصفحات أو فصل بأكمله إذا شاء ، فالقسم الباقى ، حتى ولو لم يكن إلا هذا الذى يشتمل على لمحات من تاريخ أبطال العالم وعظمائه وبعض نماذج البشر فى الفصلين السادس والسابع (الإرادة والإيمان) كفيل بأن يحقق الهدف المقصود من الكتاب ، وهو إعادة الثقة لكل إنسان فرد بنفسه ، إعادة الإحساس إليه بالكرامة لمحض كونه إنسانا ، إعادة الشعور إليه بالقدرة التى لا حد لها فى مواجهة الكون المحيط به والطبيعة كلها ، وهو ما كتب الكتاب من أجله ، أما الذين يحرصون على استيعاب الكتاب استيعابا كاملا ، فهؤلاء لا مناص لهم من التفرقة بين مطالعة كتاب لمجرد التسلية ، ومطالعة كتاب يحاول من خلال آخر نظريات العلم الحديث ، أن يضع للطاقة الإنسانية نظرية تحدد مكانها بين شتى طاقات الطبيعة الأخرى . ومن هنا يتعين عليهم أن يعيدوا قراءة الكتاب مرة ثانية على مهل وفى تمعن ، بل وأن يعيدوا مطالعة بعض فقرات منه مثنى وثلاث إذا لزم الأمر .

إن هذا الكتاب على صغره قد استغرق منى تأليفه ثلاث سنوات انقطعت فيها للمطالعة والكتابة والتفكير ،ومع ذلك فإن هذا لا يمثل حقيقة ما انطوى عليه ، فما هو إلا ثمرة حياة جاوزت الخمسين عاما وثمرة تجربة العديد من السنين التى عشتها كلها يوما يوما وساعة ساعة منفعلا بالحوادث (شأن أى إنسان آخر) ومحاولا قدر جهدى متابعة مجريات الأمور فى المحيط القريب والبعيد ، للاستفادة منها فى فهم الكون وأسراره ، وتكوين صورة أكمل عن حياة أعلى وأفضل للمجتمع الإنسانى ، مما جعلته خاتمة لهذا الكتاب تحت عنوان (تذييل) .

وسيدرك القارىء منذ الفصل الأول فى الـكتاب عن (نسبية المعرفة) أننى لا يمكن أن أدعى وأنا أسوق للبشرية نظرية جديدة عن الطاقة الإنسانية وبأى قانون تحـكم ، أن هذا الذى أقول هو الحقيقة المطلقة ، فخاشاى أن أزعم هذا الزعم ، وإنما هو رأيى وتصورى وما استقر فى روعى واتضحت صورته فى ذهنى ، فأصبح طبقا للنظرية التى أقمت الدليل عليها فى (الفصل الرابع) يمثل حقيقة كانت أو كائنة أو ستـكون .

وإنى أترك لمن هم أكثر منى علما فى الطبيعيات والرياضيات وعلوم الحياة والنفس تدعيم النظرية إذا هم اقتنعوا بها ، بالأساليب التجريبية المعملية وتحويلها إلى أرقام وقياسات كمية ، أو دحضها ، إذا لم ترق لهم بنفس الأسلوب والمنهاج ، فالنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين وهى أن يعيد كل ذى علم وفـكر دراسة الإنسان الفرد على ضوء ما زودنا به العلم الحديث من معارف ومعلومات ، تبطل الـكثير مما كان يعتبر حتى الأمس القريب حقائق مطلقة .

الإنسان والذرة

وإذا كان العلم الحديث قد صحح معلوماته عن الذرة ، فبعد أن كانت أصغر شىء فى الوجود وأتفهه ، إذا بها تتحول إلى عالم كامل وكون فى مقابل الـكون الأوسع ، فإن من حق الإنسان الفرد (كل إنسان) وهو الذى يتـكون من ملايين الملايين من الذرات ، أن يصحح مكانه من الـكون ، فيعود الفرد كما كان الرأى فيه دائما ، كونا فى مقابل الـكون الخارجى ، بل ويعلو عليه كما هى دعوانا فى هذا الـكتاب .

وما أحوج البشر فى هذه الأيام العاصفة بتجارب القنابل الذرية ، التى تهدد الإنسانية فى مجموعها ، أن يقفوا قليلا ليتأملوا ويطيلوا التأمل معيدين النظر فى أى الطريقين يسلـكون . فثمة طريق يؤدى إلى الهاوية

وآخر يؤدى إلى الخير والرشاد ، إلى الجنة التى طال ما تطلع إليها البشر ، سواء على الأرض أم فى السماء ، والكلمة الآن لهم ، لكل إنسان ، على حدة أن يختار أى الطريقين .

وبعد . فلعلى قد أطلت فى هذه المقدمة بأ كثر مما ينبغى فى نظر البعض ، ولكنى قد قصدت إلى ذلك قصدا ، لأهيىء القارىء نفسيا لهذه الرحلة الطويلة التى سيجتازها خلال فصول الكتاب العشرة قبل أن يأتى على سطره الأخير .

فإلى اللقاء أيها القارىء العزيز ، إلى اللقاء عند هذا السطر الأخير لنسر معا على الطريق فى رعاية الله وبركة الله وباسم الله .

الروضة ١٩٦١/١١/١٥

أحمد حسين

الفصل الأول

نسبية المعرفة

عصر الفضاء — جاجارين وتيتوف — لا نهائية الكون — عصر الذرة — قنبلة هيروشيما — تسخير الطاقة الذرية للأغراض السلمية — حجم أجزاء الذرة — عصر الطيران — من ويلز رايت الى الطائرات النفاثة — أفول نجم الطيران — عصر اللاسلكي والتلفزيون — ماركوني — سر انطلاق الأمواج الكهرومغناطيسية — عصر الكهرباء — اديسون والمصباح الكهربائي — عصر البخار — من الاسكندر حتى نابليون — خريستوف كولمبس وماجلان — هتلر ونابليون — جورج ستيفنسون — اختراع العجلة هو الأساس — عصر المطبعة — جوتنبرج والكتاب والورق — أوراق البردى — عصر الكتابة — عصر الزراعة — عصر النيران — أسطورة أسكالس — عصر الكلام — نسبية المعرفة — جمهورية أفلاطون — علم قدماء المصريين — انقلاب القوانين الطبيعية — بحر المعرفة اللانهائى — نيوتن .

عصر الفضاء

عندما أطلقت روسيا أول قمر صناعى (سبوتنك الأول) فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٥٧ فاخترق طبقات الجو المحيطة بالكرة الأرضية متحرراً من جاذبية الأرض التى سجنت كل ماكان عليها ألوف الملايين من السنين ، اهتز أولو الألباب فى أنحاء العالمين لعظم الوثبة التى استطاع الإنسان أن يثبها فى عالم الطبيعة ، وإدراكه الكثير من نواميسها واستغلال هذه النواميس لتحقيق أغراضه .

وسيظل هذا التاريخ ٤ أكتوبر ١٩٥٧ هو التاريخ الفعلى لبدء عصر الفضاء ، ولكن التاريخ الرسمى أو شهادة الميلاد لهذا العصر تبدأ فى ١٢ ابريل عام ١٩٦١ عندما استطاع « يورى جاجارين » أن يدور حول الأرض داخل أحد هذه الأقمار ثم يعود سالما ، ثم تلاه جيرمان تيتوف فى ٧ أغسطس من

نفس السنة والذى ظل يدور حول الأرض طوال أربع وعشرين ساعة فأكمل سبع عشرة دورة ، وتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية فبدأت تجاربها فى هذا السبيل . وهكذا بدأ بحق ما أطلق عليه اسم عصر الفضاء .

وقد بدأنا منذ الآن نقرأ الكثير عن عصر الفضاء ، وعما سيقع فيه من تبدل فى كل ما اعتاده الإنسان وألفه ، يقولون إن الرحلة إلى القمر ، لن تعدّ رحلة بالمعنى المفهوم من كلمة رحلة ، إذ ستكون مجرد انتقال محلى يشبه انتقال الإنسان من قلب المدينة إلى أحد أطرافها ؛ فالقمر لا يبعد عن الأرض إلا مسافة تتراوح بين ٢٢٢ ألف ميل و ٢٥٣ ألف ميل[١] .

أما ما يمكن اعتباره سفراً إلى المدن القريبة ، فهى الرحلة إلى الزهرة ٢٦ مليون ميل فقط أو المريخ ٣٤,٥ مليون ميل[٢] .

ولن نجد شبها لسفرنا خارج أقطارنا عبر البحار إلى قارة أخرى كأوربا أو استراليا ، إلا أن تكون رحلة لكوكب آخر خارج المجموعة الشمسية . ولعله يحسن بك أن تعرف أن أقرب نجم إلينا بعد الشمس ، يعادل بعده ٢٦٠,٠٠٠ مرة بعد الشمس عنا التى تبعد عنا ٩٣ مليون ميل[٣] .

ويجمح بنا الخيال عن رحلات فى الفضاء عبر نجوم المجرة التى تراها فى السماء فى ليلة صافية وكأنها غبار أبيض أو سحب خفيفة على رقعة السماء ، وقد أسماها القدماء طريق التبانة . والمجرة هذه هى التى تؤلف المجموعة الشمسية إحدى ذراتها ، إذ أنها تحتوى على مائة مليون نجم موزعة فيما يشبه القرص المفرطح الرقيق نسبياً .

ويقول هربرت سبنسر جونز مؤلف كتاب الفلك العام ، إن الضوء

---

(١) كتاب الفلك العام — سير هربرت سبنسر جونز — ص ١٧٦ .
(٢) كتاب الفلك العام — ص ٣١٧ .
(٣) من السديم إلى الإنسان .

يستغرق مائة ألف سنة ضوئية ليصل بين طرفى المجرة ، ومعلوم أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦,٠٠٠ ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلو متر، وعلى هذا فإن السنة الضوئية تعادل ١٠ مليون مليون كيلو متر[١] .

وليست هذه المجرة التى تبلغ هذا الحد من الضخامة التى لا يقوى العقل على استيعابها إلا واحدة من كثيرات لم يحصها العد ، وبقى أن تعرف أن أقرب مجرة لمجراتنا تبعد ٧٠٠ ألف سنة ضوئية[١] .

والفضاء هو شيء يختلف كل الاختلاف عن عالمنا... هناك لا تقاس الأبعاد بالكيلو متر أو الميل أو مئات الألوف من الأميال . وإنما تقاس بسرعة الضوء ، وتقاس بالسنين الضوئية كما رأينا .

وعلى ذلك فإن هذه السرعة التى تدور بها الأقمار الصناعية أو تنطلق بها والتى بلغت حتى الآن ٤٠ ألف كيلو متر فى الساعة ، ليست سوى خطى السلحفاة بالنسبة لمراكب الفضاء فى المستقبل والتى يتخيلون لها سرعات تقترب من سرعة الضوء .

وبقى لكى تأخذ صورة عن تغير المقاييس والقيم فى هذا العالم الجديد أن تعلم أنه بناء على النظرية النسبية التى أصبح معترفا بها علميا الآن ، أنه إذا تحرك جسم بسرعة تقترب من سرعة الضوء ، فإن الزمن بالنسبة لهذا الجسم يصبح بطيئاً جداً . وتستطيع السفينة أن ترحل فى الفضاء كشعاع كونى مدى مئات الألوف من السنين الأرضية من نجم إلى آخر، ولكنها إذا كانت متحركة بسرعة الضوء ، فإن ملاحيها يشعرون بأنه لم يمض عليهم غير أسابيع قليلة[٢] . ولو قدر لهم أن يعودوا إلى الأرض بعد أن يكونوا قد قطعوا فى رحلتهم ٢٠٠٠ سنة ضوئية ، فإنهم سيجدون أهلهم وأصدقاءهم قد ارتدوا إلى الماضى

---

(١) قصة الكون من السديم إلى الإنسان .

(٢) كتاب السفر إلى الكواكب ــ تأليف جوناتان نورتون ليونارد ــ ص ٢٦١

البعيد وأصبحوا جزءاً من التاريخ القديم ، بل ربما وجدوا أن اسم الدولة التى أرسلتهم للقيام برحلتهم قد أصبح نسيا منسيا[1] .

ذلك كون وعالم لا نعرف منه شيئاً ولا نستطيع أن نحيط بأسراره ، ولكن الذى لا شك فيه أننا نشهد اليوم مقدماته ، والشيء المحقق أن الانقلاب الذى سيطرأ على البشر فى هذا العالم الجديد لا يستطيع خيالنا الآن أن يصل إليه ، ولا شك فى أن الناس عندئذ سينظرون إلى ما نحن عليه اليوم من علوم وفنون وأفكار وآراء ، نظرتهم إلى عصور الجاهلية ، أو العصور الحجرية وما قبل التاريخ ، وكل ما نتصوره اليوم علماً وحقائق نعتز بها ، سيبدو الجزء الأكبر منه بمثابة خرافات وأساطير وترهات . لأن كل معارفنا عن الفضاء ، وما يدور فيه ، ليس سوى فروض وتكهنات و نظريات ، وشتان بين من يفرض ويتكهن ، وبين من يعاين ويباشر .

فلندع الآن هذا العالم ، عالم الفضاء ، ولندع عصر الفضاء لأربابه فأغلب الظن أن جيلنا قد قدر له أن يشهد عن بعد أرض الميعاد دون أن يدخلها .

ولننقل حديثنا عن العصر الذى يظلنا بالفعل وأصبحنا نعيش فيه وهو عصر الذرة .

عصر الذرة

بدأ عصر الذرة فى دوائر العلماء ، ثم فى معامل الطبيعة بعد ذلك منذ أكثر من قرن من الزمان[2]، عندما وضع دلتون نظريته الأولى عن الذرة ، ولكن عصر الذرة الرسمى ، أو بالأحرى لم يظل عصر الذرة الدنيا إلا فى ٦ أغسطس عام ١٩٤٥ ، عندما أسقطت الولايات المتحدة الأمريكية أول قنبلة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) احتفل بدلتون عام ١٨٣٤ فى لندن باعتباره اول عالم فى العصر الحديث صاغ نظرية متكاملة عن الذرة ، ثم تتابع بعده العلماء ومنهم طومسون ورزفورد .

ذرية فوق مدينة هيروشيما ، فقتلت فى أقل من ثانية ١٤٥ ألف نسمة ، وحولت مدينة ضخمة تغص بالحركة والحياة والمصانع ، إلى أتون مستعر وركام من الأنقاض والخرائب وسحب من الإشعاعات المهلكة ، ولوثت الجو فى مساحة ضخمة بما يهدد الجنس البشرى بأفدح الأخطار .

وتساءل البشر المذهول عما حدث فقيل له : إن حلم البشرية قد تحقق أخيراً ، وأمكن للإنسان أن يشطر نواة الذرة ، الذرة التى قال عنها دلتون مؤسس نظرية الذرات فى العصر الحديث إنها لاتنشطر ، ولقد مضى الآن على قنبلة هيروشيما أكثر من خمسة عشر عاماً ، أصبحت تعتبر شيئاً قديماً صغيراً جداً بالقياس إلى القنبلة الجديدة ، وهى القنبلة الأيدروجينية والتى تحتاج لتفجيرها إلى قنبلة ذرية فى داخلها[1] .

وبالرغم من أن بضع قنابل أيدروجينية تكفى لمحق دولة بأسرها من الوجود ، فقد وضعت الخطط لصنع قنبلة تتضاءل إلى جوارها القنبلة الأيدروجينية ، وتلك هى القنبلة الكوبالتية[2] .

ومعنى ذلك كله ، أن الإنسان أصبح مسلحاً بما يستطيع به أن يقضى على المدنية الحاضرة فى بضع ساعات ، وإذا كان هذا هو الجانب المظلم فى عصر الذرة ، فإن له جانبه المشرق ، إذا لم يجن جنون القوم ويشعلوا نيران الحرب التى لن تبقى ولن تذر ، ففى خلال هذه الأعوام الخمسة عشر أمكن السيطرة على هذه الطاقة المنطلقة من شطر الذرة وتوجيهها للأغراض

---

(١) فجر الاتحاد السوفييتى ، يوم الاثنين ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٦١ ، على ما ذكرت وكالات الأنباء ، قنبلة أيدروجينية مقدارها خمسون مليون طن ديناميت ، أى خمسمائة ضعف قنبلة هيروشيما .

(٢) تقوم فكرة قنبلة الكوبالت على مضاعفة الجانب المخيف فى الانفجارات الذرية ، ألا وهو النشاط الإشعاعى ، ويمكن أن يستخدم هذا النشاط فى تسميم العدو ، ولكن زمامه قد يفلت فيسمم الجميع (من كتاب مستقبلنا الذرى) .

السلمية ، فبدأنا نرى محطات لتوليد الكهرباء تدار بقوة انشطار الذرة ، ورأينا غواصات وسفنا بحارية ومحطمات جليد ، تستخدم هذه الطاقة الجديدة ، وليس ذلك سوى نقطة البداية ، ولن ينقضى جيل واحد منذ الآن ، حتى تكون هذه الطاقة قد سخرت لتحقيق أغراض ضخمة ، كتحويل ماء البحار إلى مياه عذبة لرى الصحارى ، وبالتالى زراعة ألوف الملايين من الأفدنة ، بل ولاستخلاص كل أنواع المعادن والأغذية من مياه البحار التى لاتنفد بكل مايعنيه ذلك من رخاء للبشر .

ويقف العقل حائراً مشدوها ، أن تكون أتفه الجسيمات فى هذا الوجود التى لا ترى بأعظم الميكرسكوبات[1] ، منطوية على هذه الطاقة

---

(١) تتألف المادة من ذرات لا يمكن رؤيتها بأقوى المجاهر (الميكرسكوب) ولكى نتصور حجم الذرة علينا أن نتصور أننا لو رصصنا مائة مليون ذرة جنباً إلى جنب لبلغ طولها بوصة تقريباً . ومن ناحية أخرى يوجد فى قطرة من مياه البحر خمسون مليون مليون ذرة من الذهب .

وتتألف الذرة من نواة تدور حولها كهارب سلبية (إيلكترونات) فى أفلاك مستديرة وبين الإثنين فراغ ، يشبه الفراغ بين الكواكب والشمس من حيث النسبة بين الحجم والأبعاد .

ويبلغ وزن أخف نواة ١٨٥٠ ضعف وزن الإيلكترون ، ولو رصت عشرون ألف نواة جنباً إلى جنب لبلغ طول قطرها قطر الذرة ، أو بعبارة أخرى نسبة النواة إلى الذرة كرأس الدبوس ، بالنسبة إلى منزل متوسط الحجم .

وتدور الإيلكترونات حول النواة فى أفلاك كأفلاك الكواكب إذ تدور حول الشمس ، ولكن هذه الأفلاك أكثر حساسية وأقل تحديداً من أفلاك الكواكب ولو أن المادة كانت مؤلفة من النوى الذرية فقط مكدسة مع بعضها أى بدون الفراغ الموجود بين النواة والإيلكترونات لبلغ وزن قطعة نقدية فى حجم القرشين حوالى ٤٠ مليون طن .

وتتألف النواة من كهارب موجبة (بروتونات) يساوى عددها عدد الكهارب السالبة (الإيلكترونات) التى تدور حول النواة — ويوجد إلى جوار البروتونات كهارب أخرى متعادلة الشحنة تسمى نيوترونات ، ولو استطعنا أن نتخلخل من هذه الرابطة التى تربط بين البروتونات والنيوترونات ، أو بالأحرى لو استطعنا أن نهيء =

الجبارة التى لا حد لها ، والتى جعلت من الإنسان سيد هذا الكوكب الأرضى بلا منازع ، إن شاء أبقى على حضارته وزادها ازدهارا لم يسمع بمثله فى التاريخ ، وإن شاء حولها حطاما وركاما كأن لم تغن بالأمس ، فهل وراء ذلك قوة ، أو وراء ذلك علم ؟ . . ومع ذلك فقد رأينا كيف أن عصر الفضاء يوشك أن يطمس على ذلك كله ويجعله فى الدرجة الثانية من الأهمية إن لم يكن دون ذلك .

عصر الطيران

ذكرنا فيما سبق أن طائرة هى التى ألقت القنبلة الذرية على هيروشيما ، وذلك يذكرنا بالدور الذى لعبته الطائرة فى حياة البشر ، سواء خلال الحرب أو أيام السلم ، ولعله لم يحدث فى تاريخ الصناعة كلها أن تطورت آلة هذا التطور العجيب ، فابتدأت منذ ستين سنة فقط أشبه بلعبة من اللعب،وانتهت لتطبع عصراً بطابعها ، خُيّـل لمن يعيشون فيه أنهم وصلوا إلى قمة السيطرة والسيادة فيه على الجو . ففى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٣ استطاع أمريكى يدعى ويلبر رايط أن يمتطى طائرة من صنعه هو وشقيقه ، فطار بها ٨٥٠ قدما فى ٥٩ ثانية [١] وكان يجب أن تنقضى على هذه التجربة الأولى خمس سنوات كاملة قبل أن يتقبل العالم نهائياً فكرة إمكان الطيران ، فقد كان العلماء يؤكدون أنه من المستحيل الطيران بآلة أثقل من الهواء ونحن نعرف كلنا باقى القصة ، فهذه الطائرات النفاثة التى تئز فوق رؤوسنا بالليل والنهار ، تحدثنا عن هذه الأعجوبة من أعاجيب التطور . . . فلم تعد الطائرة تحمل

= السبل لهرب نيوترون واحد من بين مجموع النيوترونات التى تحيط بالبروتونات إذن لانطلقت طاقة كبرى كان إينشتين أول من قدرها بأنها تساوى الكتلة فى مربع سرعة الضوء مقدرا بالسنتى متر فى الثانية .

(مستقبلنا الذرى — تأليف إدوارد تيلر وألبرت لاتر) .

(١) أساطين العلم الحديث لفؤاد صروف .

رجلا أو رجلين بل تحمل المائة والمائتين ، بل إنها أصبحت تحمل الدبابات والمدافع الثقيلة والسيارات ، والطائرة التى عجزت عن أن تقطع المسافة منذ خمسين سنة بين مصر الجديدة والأهرام ذهابا وإيابا [1] ، تدور الآن حول العالم كله دون توقف ، وباستطاعتها أن تظل فى الجو أياما وأسابيع إذا لزم الأمر ، بعد أن أصبح من الممكن تغذيتها بالوقود وهى طائرة فى الجو ، وأصبح باستطاعتها أن ترتفع إلى مائة ألف قدم أو يزيد ، بل إن بعض الطائرات اليوم بعد أن تصل إلى هذا الارتفاع الشاهق ترسل من بطنها طائرة أخرى أخف وزنا لتحلق إلى ما فوق ذلك ، إلى حافة الفضاء الخارجى . وأصبح متوسط سرعة الطائرات هو خمسمائة ميل فى الساعة لطائرات الركاب . . أما الطائرات الأخرى المقاتلة فقد بلغوا بها سرعة الصوت ، بل واخترقوا حاجز الصوت فانطلقت طائرات بسرعة ٢٠٠٠ كيلو متر فى الساعة ، وحق للعالم أن يصف العصر بأنه عصر الطيران ، ولكن ها نحن أولاء نشهد قرب أفول نجم الطيران كوسيلة سريعة للمواصلات فى المسافات البعيدة ، فالصواريخ اليوم باتت تنطلق بسرعة عشرة آلاف ميل فى الساعة فتلاشت الحواجز والمحيطات ، وإن هى إلا بضع سنوات حتى تصبح الطائرات كسلاح من أسلحة الحرب إحدى التحف القديمة والعاديات الأثرية ، فلا يحتاج الصاروخ لكى يصيب أى هدف على سطح الأرض إلا مجرد ضغطة على زر وبضع دقائق أو بضع ثوان .

وقد تظل الطائرات كوسيلة من وسائل المواصلات للنقل المدنى ، ولكنها

---

(١) أقيمت فى مصر بضاحية مصر الجديدة (هليوبوليس) فى فبراير سنة ١٩١٠ مسابقة دولية للطيران توافد لها أشهر الطيارين فى العالم فى ذلك الوقت ــ وكانت المسابقة هى الطيران من مصر الجديدة إلى الأهرام وبالعكس ففشل جميع الطيارين فى تحقيق هذا الهدف .

(مذكرات لندبرج ــ ترجمة الأستاذ كمال نجيب) .

عندما تقارن سرعتها بسرعة الصواريخ التى ستنطلق عبر الفضاء ، ستكون أشبه بحمار الأمس فى نسبته إلى طائرة اليوم .

وهكذا ما تصورناه فى يوم من الأيام قمة ما وصل إليه الإنسان من رقى وسيادة على الجو ، يوشك أن يصبح لونا من ألوان التخلف والعجز والقصور بالنسبة لإمكانيات البشر الجديدة ، وما انكشف له من قوى جديدة وطاقات .

عصر اللاسلكى والتليفزيون

وإذا كان عصر الطيران يعتبر وثبة كبرى من وثبات البشر فى العلوم التطبيقية ، فإن وثبة أضخم قد سبقته وعاصرته ، وتدل كل الدلائل على أنها ستخلفه وتخلف سائر العصور الماضية ، وستجد مكانها فى عصر الفضاء وتلك هى وثبة اكتشاف الأمواج الكهرومغناطيسية التى تنطلق بسرعة الضوء والتى مكنت الإنسان من إسماع صوته عبر البحار والخلاء والفضاء ، وكما ارتعش أولو الألباب من بنى الإنسان يوم سمعوا بنبأ إطلاق أول قمر صناعى ، فكذلك كان شأنهم عندما استطاع ماركونى أن يبعث عبر المحيط الأطلسى (١٨٠٠ميل) ثلاث نبضات لا أكثر ولا أقل (تك — تك — تك) وذلك فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠١ وهو التاريخ الخالد فى حياة دنيا اللاسلكى . . .

ففى هذا اليوم انهارت كل آراء العلماء والأساتذة الذين أجمعوا بالدليل والبرهان الحسى والمعادلات الرياضية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، على أن إرسال مثل هذه الإشارة اللاسلكية عبر المحيط الأطلسى أمر مستحيل ، ذلك أن الأمواج الكهرومغناطيسية ، وهى أمواج تسير بسرعة الضوء تسير فى خطوط مستقيمة ، ولما كانت الأرض كروية ، فإن الانحناء بين شاطئى الأطلسى يؤلف جداراً ارتفاعه مائة ميل فى وجه هذه

الأمواج المنطلقة من أحد شاطئيه ، فيستحيل أن تصل إلى الشاطىء الآخر .

أرأيت ماذا قال العلماء ؟ أرأيت حديث العلم التجريبى عندما يتحدث بالحقائق والأرقام ؟ [١] ولكن الإشارات الثلاث وصلت مع ذلك مكذبة كل ما كانوا يدعون ومؤكدة أن فوق كل ذى علم عليم .

ونحن نعيش اليوم فى دنيا اللاسلكى وآيات اللاسلكى ، ففى بيوتنا الراديو والتليفزيون الذى لا يحمل عن بعد الأصوات فقط بل والصور وسائر المشاهد .. وإن هى إلا أعوام حتى يلحق التلفزيون بالراديو ليصبح عالميا فنرى فى بيوتنا كل ما يدور فى العالم ساعة حدوثه .

بقى أن تعرف أن ماركونى ـ وإن كان هو الاسم العلم فى دنيا اللاسلكى ـ لم يكن كشفه إلا كما هو الشأن فى كل اختراع أو كشف سابق ، مجرد حلقة فى سلسلة طويلة من الحلقات التى سبقته [٢] .

عصر الكهرباء

وهل كان من المتصور إمكان التفكير فى اللاسلكى لو لم يكن العالم قد استضاء بنور الكهرباء ، ألم تكن الكهرباء هى صانعة هذه الحضارة التى نعيش فيها . . أكان من الممكن أن تطير الطائرات أو تنطلق السيارات ، أو تنتقل المحادثات أو تسجل البرقيات ، أو تفتح دور السينما ، وأن تحتشد الملايين فى المدن مواصلة العمل بالليل والنهار ، إلا بعد أن استظل البشر

---

(١) اكتشف العلماء بعد ان تمت هذه التجربة ، أن فى الجو طبقة مؤينة ionized تعكس هذه الأمواج فتردها إلى الأرض التى تعكسها من جديد ، لتعكس مرة أخرى وهكذا حتى تصل إلى هدفها — (أساطين العلم الحديث — فؤاد صروف) .

(٢) تعتبر مباحث جوزف هنرى الأمريكى (١٨٤٢) ودافيد هيوز مخترع الميكرفون وأديسون ومكسويل وهرتز من العلماء الذين هيأوا السبيل لإمكان اكتشاف اللاسلكى — (أساطين العلم الحديث) .

بعصر الكهرباء ، وهل تنطلق الصواريخ التى تنطلق اليوم ، وتدور الأقمار الصناعية التى تدور وترسل لنا كل ما نطالعه فى صفحة الفضاء الخارجى ، بل ترسل لنا صور الوجه المختفى من القمر إلا بواسطة الكهرباء . . ومع ذلك فما أكثر ما أصبحت الكهرباء فى حياتنا شيئاً لا يلفت الأنظار . . وكم من الناس يعلم أن هذا المصباح الذى يضىء حجرته بالليل فلا يكاد يتأمل فى صنعه قد هز الدنيا كلها هزاً عندما صنعه أديسون لأول مرة فى التاريخ . . واعتبر ولا يزال يعتبر عند البعض من أعظم الاختراعات التى جاء بها البشر[1] .

عصر البخار :

وإذا كان عصر الكهرباء قد تربع على عرش العلوم الإنسانية فى القرن العشرين ، فقد كانت الصيحة فى القرن التاسع عشر لعصر البخار ، والذى قالوا عنه وما أكثر ما قالوا وسوف يقولون ، قالوا عنه إنه هو الذى قلب حياة البشر رأساً على عقب ، وهو الذى يفصل بين تاريخ الإنسان ، ما قبل عصر البخار وما بعد هذا العصر ، فالإنسانية بعد عصر البخار قد دخلت فى دنيا جديدة ومفاهيم جديدة ومقاييس جديدة ، ويدللون على ذلك بمثال لا تنقصه الطرافة ؛ فقد اضطر نابليون أن يتقهقر عن موسكو عام ١٨١٢ ، وأسرع يعدو إلى باريس لإنقاذ عرشه المنهار ، تاركا جيشه فى سهوب روسيا وجليدها تتناوشه عوامل الفناء . . ومع ذلك فلم يكن باستطاعة نابليون أن يسرع من موسكو إلى باريس بأداة أسرع مما كان يستطيعه الإسكندر المقدونى قبل ذلك بأربعة وعشرين قرناً من الزمان وهى العربة التى تجرها الجياد . أما بعد اكتشاف قوة البخار فانظر الانقلاب الذى وقع فى العالمين .

---

(١) لم يكن اختراع إديسون لمصباحه هو أول عهد البشر بالكهرباء ، فقد كانت اسماء مكسويل وفراداى وأمبير وفولتا أعلاما فى دنيا الكهرباء ، وكل منهم قد أسهم بنصيب فى تقرير بعض الحقائق وصنع بعض الأجهزة .

ولو أنهم تعمقوا قليلا فى البحث ، ولم تخطف أبصارهم هذه القعقعات التى تثيرها الاختراعات الجديدة ، لوجدوا أن البشر قد طافوا حول أفريقيا من ألوف من السنين قبل اكتشاف البخار . ولقد اكتشف خريستوف كولمبوس أمريكا ولم تكن سفينته ذات بخار [1] ، وطاف ماجلان حول الدنيا كلها بمركب ذات شراع [2] . ووصل الإسكندر المقدونى من أوروبا إلى أسوار الصين هو وجنوده سيراً على الأقدام ، وحكم الرومان العالم القديم واحتلوا الجزر البريطانية وسيطروا على أوروبا وأفريقيا وشرق آسيا . . ولم يكن ثمة بخار أو كهرباء ، وفعل العرب بعدهم مثل ذلك ، عندما خرجوا من جزيرة العرب وساروا شرقا حتى الصين ، وجنوبا حتى جزر الهند الشرقية فى أندونيسيا ، وغربا خلال أفريقيا ، وعبروا جبل طارق إلى الأندلس . . وأنشأوا هذه الدولة التى لا تغيب عنها الشمس . ولم يكن ثمة برق أو تلغراف أو بخار أو سيارات أو طائرات .

نابليون وهتلر فى روسيا

وها هو هتلر يلقى فى روسيا نفس المصير الذى لاقاه نابليون من قبله ، وهو الهزيمة الساحقة الماحقة التى أدت إلى نهايته . . ولقد تصور هتلر بالنظرة السطحية التى ينظر بها العوام ، أن لا محل للمقارنة بين نابليون الذى كان يجتاح روسيا سيرا على الأقدام ، وبين جيوش ألمانيا التى تجتاحها بالدبابات والطائرات والسيارات ، والتى تتراسل باللاسلكى والتليفزيون ، والتى يزودها القرن العشرون بأعظم الطاقات التى أذهلت بنى الإنسان . ولكن الجليد الذى هرأ جيوش نابليون قد فعل مثل ذلك بجيوش هتلر ، وقد

(١) وصل خريستوف كولمبس إلى أمريكا أول مرة عام ١٤٩٢
(٢) بدأ ماجلان رحلته من مدينة اشبليه عام ١٥١٩

استطاع نابليون راكب الحصان أن يدخل موسكو ، ولكن هتلر راكب الطائرة لم يستطع أن يدخلها أبدا . .

وما حدث فى الشرق قد حدث مثله فى الغرب . . فقد وقف نابليون الذى وضع قدميه على القارة الأوروبية عاجزا عن غزو الجزر البريطانية ، لأن قنال المانش وقف حاجزا فى وجه أطماعه . . وصرخ هتلر فى يوم من الأيام أنه لم يعد هناك مانش يفصل الجزر البريطانية عن أوروبا ، بعد أن أصبحت ألمانيا سيدة الجو بطائراتها . . ومع ذلك فقد وقف هتلر عاجزا عن غزو الجزر البريطانية فى صيف عام ١٩٤٠ ، تماما كما عجز نابليون راكب الحصان من قبله .

فالقول بأن قوة البخار قد قلبت الدنيا رأسا على عقب ، وتعد تاريخا فاصلا بين حقبتين من حياة البشر ، هو قولٌ ساذج تلهيه القشور عن جوهر الأمور .

ومع ذلك فأى هزة عمت الدنيا فى ذلك الوقت عندما استطاع جورج ستيفنسن (١٧٧١ — ١٨٤١) أن ينشىء أول قاطرة تسير بالبخار . . لقد وصف الإنجليز هذه المركبة التى لا تجرها الجياد بأنها مركبة الشيطان ورجموها بالحجارة ومنعوا دخولها فى أراضيهم ، بينما كان أولو الألباب يتصورون أن الإنسان قد وصل إلى ذروة العلم والسلطان بعد أن اكتشف قوة البخار .

ولم يقف واحد منهم ليتساءل أكان هذا الاختراع متصورا أو ممكنا لولا هذا الشىء البسيط الذى يبدو لنا اليوم تافها ، وأعنى به العجلة ؟ ألا يجب اعتبار اختراع العجلة وثبة من وثبات الإنسانية الكبرى ، فهل الآلات كلها صغيرها وكبيرها بسيطها ومعقدها ، إلا عجلات تدور . فالعربة والسيارة والقاطرة وكل آلة رحوية من أى نوع كان ، قد اخترعت يوم

أن اصطنع الإنسان الأول عجلة تدور ، ويجب أن تعود إلى عصور موغلة فى القدم لم يسجلها التاريخ إذا أردت أن تعرف متى وأين كانت هذه الوثبة الضخمة من وثبات البشرية .

عصر المطبعة والكتاب والورق

وما لنا نذهب بعيدا إلى العجلة ، ولدينا ماهو أقرب عهدا منها ، وما كانت كل اختراعات القرون الحديثة لتوجد لولاها ، وأعنى بذلك اختراع المطبعة (جوتنبرج ١٤٠٠ — ١٤٦٨ م) والتى جعلت العلم فى متناول الجميع بنشر الكتاب ، وهل كانت المطبعة توجد لو لم يوجد الورق الذى اخترعه الصينيون على هذه الصورة منذ ألفى عام[1] ، وصنعه المصريون من قبلهم من ورق البردى منذ خمسة آلاف عام .

إنك لم تفكر لحظة فيما يعنيه الورق بالنسبة لحياتنا .. إنه شىء لا يثير فيك أى اهتمام ومع ذلك فلو تلفت حولك ، لما وجدت حضارتنا كلها تقوم على عنصر أهم من عنصر الورق ، فلو لم يتسلح الإنسان بالورق لما أمكن بحال أن يشيد هذه الحضارة الإنسانية الباذخة .

عصر الكتابة

بل إنه لا الورق ولا الكتاب ولا المطبعة بالذى كان يأخذ طريقه للحياة لولا الكتابة ، فهل يمكن أن تقاس الوثبة التى وثبتها الإنسانية فى أى مرحلة من مراحلها بتلك التى كانت تثبها عندما اهتدت إلى فكرة الكتابة فاخترعت رموزا تسجلها على قطعة حجر أو خشب أو ورق شجر ؛ لتعبر بها عن معنى مشترك بين الكاتب والقارىء والإنسانية فى مجموعها . . وعندما أخذت هذه الرموز شكلا محددا فى أحرف الأبجدية ، ألم يكن ذلك هو بدء

(١) الكشف والفتح فى الميدان العلمى — تأليف مالكوم بير .

صفحة جديدة فى حياة البشر ، إذ أصبح العلم ممكنا ، وأصبح بحرا يغترف منه من يشاء .

عصر الزراعة

وعندما اكتشف الإنسان الزراعة لأول مرة وأدرك أن باستطاعته أن يضع الحب فى الأرض ويستنبته حينما يشاء بالقدر الذى يشاء ، فلا يعيش تحت رحمة الطبيعة عندما اتخذ الإنسان من الزراعة على نطاق واسع سبيلا لإطعام نفسه ، والذى يقدر العلماء أنه حدث منذ عشرة آلاف سنة[1] . ألم يكن ذلك انقلابا بعيد الغور ، ختم الإنسان به مرحلة الصيد والقنص والتنقل والهجرة إلى مرحلة الاستقرار وما أدت إليه من كل مظاهر الحضارة ، إن كثيرا من فلاسفة التاريخ يقفون طويلا أمام هذه النقلة فى حياة البشر ، ويعتبرونها النقطة الحاسمة لبدء الحضارة الإنسانية . ولكننا لا نقول بمثل قولهم إن الحضارة بدأت أو ستبدأ من نقطة محددة أو عمل معين .

عصر النيران

وعندما استطاع الإنسان لأول مرة منذ نصف مليون سنة[2] أن يحدث ناراً مثل هذه النار التى كانت تسقط عليه من السماء ، والتى كانت تشعل الغابات فى أيام الصيف القائظ فتحولها إلى جحيم يشوى الأبدان . . عندما حك لأول مرة غصنين فأحدث منهما شرارة ، أو عندما طرق حجراً بآخر فانطلقت منه الشرارة . . ألم يكن بذلك يبدأ البحث فى سر الوجود الذى مازلنا نتيه فى بيدائه . . ماهو البخار ، وماهى الكهرباء ، ماهو انشطار الذرة ، ماهى الشمس والنجوم ، بل وماهى الحياة كلها . . نار وحرارة ولاشىء زيادة .

---

(١) الكشف والفتح فى الميدان العلمى . مالكولم بير .
(٢) نفس المرجع السابق .

فالإنسان الأول وهو يحدث لأول مرة ناراً بيديه كان يثب من غير شك أو شبهة ، وثبة لاتدانيها وثبة من بعد[1] .

عصر الكلام

وأخيراً وليس آخراً فباستطاعتنا أن نمضى فى استعراضنا صاعدين إلى مالا نهاية ، لانعرف أين نقف ولا بأى وثبة نعجب أشد العجب . . فعندما نطق الإنسان أول مانطق بالكلام ، وربما حدث هذا منذ أكثر من مليون سنة ، ألم يكن بذلك يخرج لأول مرة من جنس الحيوان ليدخل فى نوع الإنسان ؟ فهل الإنسان إلا حيوان ناطق ، وبالنطق وحده امتاز الإنسان على كل مافى الوجود من موجودات على مايقولون ؟

نسبية المعرفة

وهكذا يتضح لنا من هذا الاستعراض ، أنه من الوهم والخطأ أن يتصور متصور ، أن الإنسانية فى عصورها الحديثة ، قد بلغت من الاقتدار نهايته أو من المعرفة أوجها ، وأنها اخترعت وابتكرت مالم يطف بعقول الأقدمين فى خيال ، وأن العقل البشرى كان فى القرون السابقة يعيش فى جهالة وطفولة

---

(١) لا عجب إذا قدر الإغريق بعبقريتهم الفذة خطورة اهتداء الإنسان إلى النار فصوروا ذلك فى أسطورة رائعة خلدها اسكلس فى القرن الخامس قبل الميلاد فى رواية تمثيلية ، وتقوم الأسطورة على أن بروميثوس قد صعد إلى السماء ، واختلس النار من محفة الشمس الملتهبة فى غفلة من الآلهة ، وهبط بها إلى الأرض خفية ، وقدمها هدية إلى قومه يستخدمونها فى قضاء مآربهم ، وقد كانت قبلا ملكا خالصاً للآلهة الممتازين يحتفظون بجذوتها دائمة الاشتعال فى مغاورهم على قمم الجبال ويحرصون على الانتفاع بها دون الإنسان ، لكيلا يرتفع الإنسان بعض الدرجات إلى مستواهم . ولذلك فقد غضب زيوس كبير الآلهة على بروميثوس وكبله بالأغلال ووضعه فى العذاب المهين ثلاثة عشر جيلا من أجيال الآدميين انتقاماً منه لأنه علم الآدميين فن النار .
(النار والنور — أمين إبراهيم كحيل) .
(وقصة الحضارة البشرية لول ديورانت — الجزء الثانى — المجلد الثانى) .

لا يعرف كيف يخترع أو يبتكر وكيف يزيد سلطانه على العناصر التى تحيط به ، وأنه اليوم واليوم فقط قد بلغ مرحلة النضج والرجولة . . مرحلة الابتكار والابتداع ، مرحلة الإحاطة بحقائق الطبيعة والحياة . إن ما فى أيدينا اليوم من آلات ، وما فى عقولنا من آراء ومعتقدات وأفكار ، هو ثمرة علوم من سبقونا وآلاتهم ، فلولا العجلة ما كانت السيارة ، ولولا كور الحداد ما كانت أفران الصلب والفولاذ ، ولولا المعارف التى تركوها لنا ما استطعنا أن نتطور بالمعرفة أو نزيد عليها ، وأيا كانت الآفاق التى ستصل إليها الأجيال القادمة ، أيا كانت الآلات والقدرات التى سيظفر بها من يجيئون بعدنا ، أيا كانت المعرفة التى سيحيط بها البشر فى المستقبل ، فليس ذلك كله إلا النمو الطبيعى لهذه الشجرة التى سقيناها بعرقنا ، وسقاها من كانوا قبلنا ، وما الشجرة إلا نتيجة البذرة التى انطوى عليها الإنسان الأول ، بذرة الوجود وأسراره .

فالخلاف بين علم أى جيل والأجيال السابقة أو اللاحقة هو خلاف فى الدرجة ، لا فى الكيف أو النوع فضلا عن الطبيعة ، علم أى جيل من الأجيال هو مجرد حلقة من هذه السلسلة التى لا أول لها ولا آخر .

جمهورية أفلاطون

ويخطىء من يتصور أن عقولنا اليوم أنضج من عقول من سبقونا لأننا نعرف مالم يعرفوا ، فإن الإنسان ليذهل وهو يطالع كتب الأقدمين الذاهبين فى القدم ؛ إذ يرى أن كل ما نتصور أنه نظريات وحقائق علمية من خلق العصور الحديثة ، قد طاف بخيال الكتاب والفلاسفة ؛ فكتبوا فيه ودعوا إليه ، مما سنشير إليه فى فصل قادم ، بل إن كتابا واحدا كجمهورية أفلاطون ، قد حمل أمرسون الفيلسوف الأمريكى على أن يقول «احرقوا كل الكتب ففى هذا الكتاب غنى عنها» . ولا يملك ول دورانت أعظم مؤرخ

أمريكى معاصر نفسه عن متابعة أمرسون فيقول « إن جمهورية أفلاطون — من أثمن الآثار التى يقتنيها البشر ، ففيها تجد مباحث ماوراء الطبيعة والآداب وفلسفة النفس واللاهوت والسياسة والفن ، فيها تجد المبادىء التى تنشدها طالبات التحرر من النساء ، وفيها تقع على القواعد التى يدعو إليها علماء الحياة لتحديد النسل ، فيها تعالج مبادىء الاشتراكية ، بل والشيوعية ، واليوجينية ، والأرستقراطية ، والديموقراطية ، والتحليل النفسى ، والمذهب القائل بأن الحياة مظهر من مظاهر التفاعل الكيميائى ، فلا عجب أن يقول أمرسون فى هذا الكتاب — احرقوا كل الكتب ففى هذا الكتاب غنى عنها »[1] .

فإذا كان هذا هو الشعور الذى يتملك جهابذة العقول لدى مطالعة كتاب واحد ، فكم بالأحرى يكون موقفهم لو عثروا على ألوف الكتب التى لم تقع فى أيدينا بسبب الضياع والاندراس ؟

علم قدماء المصريين

وإذا كنا نجد فى الحضارات القديمة بذور مافى أيدينا من المعرفة ، فإن باستطاعتنا أن نعثر على أكثر من ذلك ، على حقائق عرفوها وجهلناها ، وعلى علوم مارسوها ونعجز اليوم عن ممارستها ، فلن تجد اليوم عالما واحدا بين أساطين علم الكيمياء والحياة ، يستطيع أن يفسر لك كيف استطاع المصريون القدماء أن يحنطوا الأجساد فيحولوا بينها وبين البلى ألوف السنين ، حيث لا نستطيع اليوم بكل علومنا الكيميائية أن نحفظ جسما من الفناء إلا أن تعاد عملية تحنيطه عاما بعد آخر[2] .

---

(١) جمهورية أفلاطون ترجمة حنا خباز — الطبعة الثالثة ص ب .

(٢) كما هو الشأن بالنسبة لجدث لينين فى موسكو ، حيث يعالج بالكيماويات من حين لآخر .

ويعجز كيميائيو العصر الحديث عن تركيب ألوان كألوان قدماء المصريين التى تتحدى الزمن والرياح والمطر ألوف السنين ، ويعجز مهندسو العصر الحديث وعلماؤه عن أن يفسروا كيف استطاع المصريون القدماء أن يقطعوا أحجار الجرانيت دون أن يكون لديهم متفجرات أو ديناميت ، وكيف استطاعوا بعد ذلك أن ينحتوها وينقشوها ، ويحملوها مئات الكيلومترات ، ويرفعوها إلى قمة الأهرامات ،دون أن تكون لديهم أدوات من الصلب والفولاذ أو آلات رافعة أو قوة من البخار أو الكهرباء ، وسيعجزون بالأكثر عن أن يفسروا كيف استطاع قدماء المصريين أن يزينوا المقابر المنحوتة داخل الجبل والتى لا ينفذ إليها ضوء الشمس ، على أى ضوء نقشوها ، فنحن لا نعرف ضوءا لا يترك أثرا سوى الكهرباء ؟ كل هذه ألغاز ومعميات لا نجد لها جوابا شافيا إلا محض فروض ونظريات لو صحت لكانت أكثر مدعاة للعجب والدهشة من كل اختراعاتنا الحديثة وما تنطوى عليه من تعقيدات[1] .

وهكذا تقف معارف الأقدمين فى منأى عن كل علومنا واختراعاتنا الحديثة ، وتفسير ذلك أنهم أحسوا بحاجات لا نحس بها ، وكانت لهم معتقدات وتصورات لا ندين بها ، والحاجة أم الاختراع ، والعلم ثمرة التصور .

فلنضع ذلك نصب أعيننا دائما ونحن ننظر لآثار الأقدمين ، وأديانهم وعلومهم وفنونهم ، ولنقتصد فى نظرتنا لأنفسنا كعمالقة بإزاء قطيع من الأقزام .

---

(١) من ذلك قولهم إن الأحجار الجرانيتية كانت تقطع بوضع أخشاب فى ثقوب بين الأحجار وصب الماء عليها فيتمدد الخشب ، وتتمزق الأحجار بالتالى .

ولكن متواضعين بالأكثر فيما نظن أننا قد ظفرنا به من حقائق علمية مطلقة ، فقد بدأ العلم نفسه يحل الاحتمال مكان اليقين ، والنسبية بديلا عن المطلق .

لقد قام علم الطبيعة الشامخ خلال القرون الثلاثة الماضية ، مذ وضع أسسه إسحق نيوتن[1] على أساس آلية الطبيعة وميكانيكيتها ، وأن قوانين الطبيعة ثابتة ومطردة على سبيل القطع واليقين ، وأن الزمان والمكان مطلقان ، فجاءت النظرية النسبية والطبيعة الكمية فى مستهل القرن العشرين تهز هذه المعتقدات من أساسها وتقلب كل القوانين الطبيعية رأسا على عقب .

لم تعد المادة شيئا يغاير الطاقة ، فهذه من تلك ، وأصبح يقال إن كتلة أى جسم تزداد بازدياد سرعته ، وأنه يتقلص تماما إذا بلغت سرعته سرعة الضوء[2] .

وليس هناك وجود للزمان والمكان المطلقين ، فالزمان لا وجود له إلا فى مكان معين ، والمكان لا وجود له إلا فى زمان معين ، الأمر الذى جعل الطبيعة فى هذا التصور لا تقتصر على الأبعاد الثلاثة المعروفة من طول

---

(١) هو إسحق نيوتن العالم الإنجليزى (١٦٤٢ — ١٧٢٧) وقد كتب على قبره فى وستمنستر « هنا يرقد السير إسحق نيوتن الفارس الذى تمكن بقوة عقله التى تكاد تكون فوق الطبيعة ، من إثبات حركة السيارات وأشكالها ، ومسارات المذنبات ، وأسرار المد والجزر ، لقد بحث جيداً فى معرفة انكسار أشعة النور وخواص الألوان ، وكان مفسراً بارعاً حكيما أميناً للطبيعة والتاريخ وآيات الكتاب، أكد فى فلسفته جلال الله ، وكشف فى سلوكه عن بساطة الإنجيل ، فليفتخر الأحياء أنه قام فى العالم إنسان كان فخرا عظيما للجنس البشرى » .

(أساطين العلم الحديث لفؤاد صروف) .

(٢) تطور علم الطبيعة — ص ١٤٠ .

وعرض وعمق ، بل أصبحت تتألف من أربعة أبعاد بعد أن أضيف إليها البعد الرابع أو (الزمكان) أى الزمان المكانى .

ولم تعد قوانين الطبيعة ثابتة أو مطردة ، إلا من حيث النظرة الإجمالية أما بالنسبة للنظرة التفصيلية لكل ذرة على حدة ، لكل كهرب ، فالقوانين احتمالية بحتة .

وفى ذلك يقول أينشتين فى كتابه تطور علم الطبيعة « لقد أدت تطورات العلم الحديث إلى القضاء على المعتقدات القديمة واستحداث أخرى جديدة ، فقد قضت نظرية النسبية على فكرة الزمن المطلق ، والمجموعة الأحداثية القاصرة ، ولم يعد مسرح الحوادث هو متصل الفضاء ذو الثلاثة الأبعاد ، والزمن ذو البعد الواحد ، بل أصبح هو متصل المكان والزمان ذا الأبعاد الأربعة الذى تختلف قوانين تحويله عن القوانين القديمة .

وقد استحدثت نظرية الكم أيضا آراء ومعتقدات جديدة وأساسية ، فقد استبدلت فكرة عدم الاتصال بالاتصال ، وظهرت قوانين الاحتمال بدلا من القوانين التى تتحكم فى حركة الأجسام الفردية[1] » .

وهكذا بدأ هذا البناء الشامخ من العلوم الطبيعية التى تقوم على أساس آلية الطبيعة يهتز من أساسه ، ودل ذلك على نسبية المعرفة ، وأن ما حصله الإنسان أو سوف يحصله ، إنما هى ومضات وشرر من النور الأزلى الخالد ، أو قطرات من بحر المعرفة الطامى الذى لا أول له يعرف ، أو نهاية له تدرك ، وكل الذى يستطيعه الإنسان أن يظل طافيا على سطح هذا البحر ، وأن يعب من مائه العذب ما وسعته القدرة أن يعب ، أما الوصول إلى القاع فيكاد يكون أحد المستحيلات لأنه لا قاع له .

---

(١) تطور علم الطبيعة — ص ٢١٩

وإذا كنا نقول إن بإمكان الإنسان أن يسبح فوق بحر المعرفة ، فإن نيوتن ، أعظم عقل جبار على ما يقولون ، أبى الذهاب إلى هذا المدى ، إذ يقول لنا فى أخريات حياته ، أى فى الوقت الذى كان العالم ينظر إليه فيه على أنه أعلم العلماء « لست أدرى كيف ينظر العالم إلى ، ولكن أتراءى لنفسى كما لو كنت غلاما يلهو على شاطىء البحر ، وأسلى نفسى بين الحين والآخر بالعثور على حصاة أكثر ملاسة أو صدفة أجمل من المعتاد ، بينما كان محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامى دون كشف[1] » .

(١) رجال الرياضة — ص ١٢٦ .

مراجـــع الفصل الأول

١ — كتاب الفلك العام — سير هربرت سبنسر جونز — ترجمة عبدالحميد سماحة والدكتور حلمى عبد الرحمن .

٢ — قصة الكون من السديم إلى الإنسان — تأليف الدكتورين محمد جمال الفندى ومحمد يوسف حسن .

٣ — السفر إلى الكواكب — تأليف جوناثان نورتون ليونارد — ترجمة إسماعيل حقى .

٤ — مستقبلنا الذرى — تأليف ادوارد تيللر وألبرت لاتر — ترجمة الدكتور محمد الشحات .

٥ — أساطين العلم الحديث — للدكتور فؤاد صروف .

٦ — مذكرات لندنبرج — ترجمة الأستاذ كمال نجيب .

٧ — الكشف والفتح فى الميدان العلمى — تأليف مالكولم بير — ترجمة الدكتورين أحمد حماد الحسينى وعبد الحليم منتصر .

٨ — النار والنور — تأليف أمين إبراهيم كحيل (من سلسلة اقرأ) .

٩ — قصة الحضارة البشرية — تأليف ول ديورانت — ٢١ جزءاً — ترجمة محمد بدران والدكتور زكى نجيب محمود .

١٠ — جمهورية أفلاطون — ترجمة الأستاذ الكبير حنا خباز — الطبعة الثالثة .

١١— تطور علم الطبيعة — تأليف البرت أينشتين وليوبلد أنفلد — ترجمة الدكتورين محمد عبد المقصود النادى وعطية عبـد السلام عاشور .

١٢— رجال الرياضة تأليف ا . ت . بل — ترجمة الدكتور حسن محمد حسين وعبد الحميد لطفى .

١٣— استخدام الطاقة الذرية — تأليف البروفسور أتوهان — تعريب الدكتور عفاف صبرى .

١٤— الطاقة الذرية واستعمالها فى السلم — تأليف جرالد وندت — تعريب الدكتورين محمد الشحات ، إبراهيم حلمى عبد الرحمن .

١٥— التلفزيون — تأليف فوزى كامل لطفى .

الفصل الثانى

هل الإنسان اليوم أحسن حالا منه بالأمس ؟

هل للانسانية هدف ؟ المحافظة على الذات — المحافظة على النوع — هل انتصرنا على الموت ؟ ما الذى تعنيه زيادة السكان ؟ — هل زاد متوسط العمر ؟ — هل قضينا على الأوبئة ؟ — حوادث السيارات — حوادث اصابات العمل — تنوعت الأسباب والموت واحد — مشكلة المرض — أمراض الحضارة — السرطان — مشكلة الغذاء — مشكلات البشر المعنوية — الانسان وشريعة الغاب — جرائم القتل والعدوان — الحروب — جريمة ابادة الجنس — مذبحة دير ياسين — دماء فى الهند — ثورات — مصرع لومومبا — هل ألغى الرق ؟ — هل قضى على التعصب ؟ — السعى لتحقيق العالمية — افلاس — أين تقهقر البشر — الانسان بين التأليه وذرة التراب — دارون والانتخاب الطبيعى — اهدار حقوق الفرد .

الانسان ... بين اليوم والأمس

بينا فى الفصل السابق نسبية المعرفة الإنسانية ، وأنها واحدة فى طبيعتها لا تختلف على مر العصور إلا فى الدرجة ، وتزداد نتيجة الحاجات التى يحسها الإنسان فى وقت من الأوقات ، وهى تتسع باستمرار دون أن يكون لأية درجة من درجات المعرفة فضل أو امتياز من حيث النوع أو الكيف . ونريد أن نتساءل فى هذا الفصل عن موقف الإنسان بين أمسه ويومه .

الإنسان اليوم يطير بالطائرة النفاثة ، ويركب عابرات المحيط ، ويمتطى السيارات والقطارات ، ويستطيع أن يرى ما يقع فى العالم كله ، وأن يسمع ما يقال وهو جالس فى عقر داره ، وأصبح يستطيع بالضغط على أزرار أن يفعل فى لحظات مئات الأشياء التى كان يستغرق صنعها فى الماضى أياما وشهوراً .. إلى آخر هذه القدرات الصناعية والإنتاجية التى يسرها استخدام الكهرباء ، فهل نستطيع أن نقرر أن إنسان اليوم أكثر سعادة من إنسان العصر الماضى فى أى قرن من القرون السالفة ؟! وإذا كانت السعادة كلمة

غامضة قد يختلف على مدلولها ، وما يراه قوم سعادة قد يراه الآخرون نهاية الشقاء ، فقد يكون من الخير أن نضع السؤال بصيغة أخرى ، هل أصبح الإنسان اليوم أكثر قدرة على حل ما يعترضه من مشكلات الحياة من الإنسان فى العصور الماضية ؟

ولنضع السؤال من زاوية جديدة ، هل للإنسان فى هذه الحياة هدف ؟ فإذا كان له هدف ، فهل هو اليوم أقدر على تحقيق هذا الهدف من إنسان العصور السالفة ؟ فأما أن لكل إنسان هدفا يهدف إليه ، فذلك هو المشاهد والمحسوس ، وهو مبعث النشاط الإنسانى كله . فالطفل يهدف إلى أن يكبر ، والكبير يهدف إلى المحافظة على ذاته ، ويعمل على تكوين أسرة لإنجاب أطفال يرثونه من بعده ، وهو لا يقف عند المحافظة على الذات بل يرنو ببصره إلى آفاق أبعد ، كل ذلك يقطع بأن الإنسان يندفع نحو غاية ، أو أنه مدفوع لتحقيق غاية ، والنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين وهى أن له هدفا ، فما هو هذا الهدف ؟

هدف الإنسانية

فى ختام هذا الكتاب ، فصلنا ما نتصور أنه هدف الإنسانية مجتمعة ، وكل إنسان على حدة . أما فى المرحلة الحاضرة من الكتاب ، فلست أريد أن أرسم هذا الهدف على ضوء ما تقول به الأديان ، أو مباحث ماوراء الطبيعة ، وحسبى أن أحدد هذا الهدف فى أضيق الحدود التى لا تثير أى جدل ، لأنها أهداف كل إنسان من يوم ليوم ، ومن ساعة لأخرى .

الحصول على الغذاء

فإذا قلنا مثلا إن أحد أهداف الإنسان المستمرة المتواصلة هو الحصول على الغذاء ، باعتباره السبيل الوحيد للمحافظة على البقاء ، الذى هو غاية الغايات ، فلا نعدو الواقع وبالتالى الصواب .

وإذا قلنا إن من أهداف الإنسان المستمرة كذلك ، المحافظة على صحته وسلامته بحيث لا يصاب بمرض أو حادث يعجزه ، باعتبار أن ذلك أحد مقومات الحرص على الذات ، فإننا نكون لا نزال فى دائرة الواقع والمحسوس .

المحافظة على النوع

وإذا قلنا إن الإنسان بعد أن اكتشف أنه مهما يعمل ويجتهد فى المحافظة على جسده ، سليما معافى من الأمراض والحوادث ، فهو لابد ميت فى نهاية الأمر ، فقد جعل لنفسه هدفا آخر ، إلى جوار المحافظة على الذات وهو المحافظة على النوع ، وذلك عن طريق الزواج والتناسل وإنجاب الأطفال ، فالأمر لا يزال فى دائرة الواقع والمحسوس كذلك .

الأهداف المعنوية

وإذا كانت الأهداف المادية التى أشرنا إليها فيما سبق ، لا يمكن أن يحدث حولها خلاف باعتبارها هدف كل كائن حى ، ابتداء من الخلية الواحدة فى النبات ، حتى الإنسان المتكامل ، فإن أهداف الإنسان المعنوية لا تلقى مثل هذا الإجماع ، ومع ذلك فنحن مضطرون أن نسجل ما يحسه غالبية البشر من أنفسهم . فالإنسان لمحض كونه إنسانا ، يحس بامتيازه وتفوقه على سائر الكائنات والأحياء ، ففى الإنسان شعور بآدميته ، وهذه الآدمية تعنى عنده أن يكون حرا مختارا ، ذا إرادة فعالة غير مغلوب على أمره ، أو شاعر بالقهر والإذلال والتبعية ، يحس الإنسان العادى من نفسه بالكرامة ، التى تعنى المساواة مع الآخرين من أبناء جنسه فى كل الحقوق والواجبات بإزاء الطبيعة وكل ما يحيط به .

وإهدار حرية الإنسان فى الاختيار ، والإخلال بحقه فى المساواة وشعوره بقدرته ، هو إهدار لآدميته ، ومن هنا كان من أقدس أهداف البشر المعنوية المحافظة على الكرامة ، وحرية الإرادة والقدرة على العمل . ويمكن تلخيص أهداف الإنسان ، سواء كانت مادية أو معنوية فى المحافظة على الذات ماديا ومعنويا .

والآن وقد عرفنا الهدف ، فقد أصبح باستطاعتنا أن نوجه السؤال الذى جعلناه موضوعا لهذا الفصل : هل يحقق الإنسان فى العصر الحديث أهدافه بأكثر مما كان يحققها إنسان العصور القديمة ؟

ولنبدأ بكبرى مشكلات الإنسان ، ونعنى بها الموت .

هل انتصرنا على الموت ؟

هل استطعنا بكل علومنا ، أن نتغلب على شبح الموت أو أن نبعده عنا أطول مدة ممكنة على الأقل بأكثر مما كان يفعل أسلافنا ؟

يجيب البعض على هذا السؤال بالإيجاب ، مستدلين على ذلك بتضاعف سكان العالم ، حيث أصبح عددهم يقترب من ثلاثة آلاف مليون نسمة[1] .

وهذه الزيادة هى ثمرة زيادة المواليد على الوفيات ، كنتيجة للتقدم الصحى الهائل الذى حققته البشرية فى العصر الحديث . وواضح أن هذه لاتصلح أن تكون حجة قاطعة ، فالزيادة فى سكان البشر ، ليست أمراً طارئا أو جديداً ، ولا هى من نتاج العصر الحديث دون غيره من العصور ، فنمو الحياة هو أحد نواميس الطبيعة . وإذا كان سكان العالم اليوم قد باتوا يقدرون بثلاثة آلاف مليون نسمة ، فإن هذا العدد كله قد انحدر من عدد

---

(١) بلغ عدد سكان العالم حسب إحصائية هيئة الأمم عام ١٩٥٨ — ٢٨٥٢ مليون نسمة ، ولما كان متوسط زيادة سكان العالم سنوياً خمسين مليوناً ، فإن الرقم الآن يناهز الثلاثة آلاف مليون .

أقل فأقل ، حتى نصل فى بادىء الأمر إلى ذكر وأنثى ، فالنمو والتكاثر إحدى خصائص الحياة ، والإنسان ينمو بمتوالية هندسية ، وليس أدل على أن تزايد النسل ليس مظهر الرقى أو الحضارة أو تحسين وسائل الصحة ، من أن سكان الريف ينسلون بأكثر من المثقفين ، والفقراء ينسلون بأكثر من الأغنياء ، وغير المثقفين بأكثر من المثقفين ، والعمال بأبدانهم بأكثر من العاملين بعقولهم ، وشعوب آسيا وأفريقيا بأكثر من شعوب أوروبا وأمريكا ، والزنوج فى داخل الولايات المتحدة أو جنوب أفريقيا بأكثر من البيض .

فتكاثر السكان إذن حتمية . بل إن الصيحة تتعالى من كل مكان بوجوب الحد من زيادة النسل[1] ، وهم يحذرون وينذرون أنه لن يكون باستطاعة أى شعب أن يرتفع بمستواه ، إلا إذا حدد نسله . فزيادة السكان إذن ليست مظهر رقى أو حضارة ، وإلا وجب أن نعتبر أنفسنا اليوم نعيش فى تخلف وانحطاط ، ما دامت الدعوة هى للحد من النسل لا الإكثار منه .

زيادة متوسط عمر الانسان

يقولون بعد ذلك إن متوسط عمر الإنسان فى زيادة مطردة فى بعض البلاد كالولايات المتحدة الأمريكية (٦٨ سنة) وأوربا الغربية ، وأولا وقبل كل شىء فنحن عندما نتحدث عن الإنسان ، فلا يمكن أن نقصد به فئة من البشر فى جزء من أجزاء العالم ، فقد وجدت فى كل زمان ومكان شعوب تمتعت بأكبر نصيب من الصحة وطول العمر والغنى ، فلا جديد فى ذلك ، ونحن عندما نتحدث ، إنما نتحدث عن الإنسانية ككل . والرقم القياسى

---

(١) كان مالتوس الإنجليزى هو أول من لفت النظر فى العصر الحديث إلى تكاثر السكان بمتوالية هندسية فى الوقت الذى لا تتكاثر فيه مواد الغذاء إلا بمتوالية عددية الأمر الذى يهدد العالم بكارثة إنسانية .

لمتوسط أكثر من نصف سكان العالم يقل عن ثلاثين سنة ، وذلك حسبما تقرر الهيئة الدولية للصحة .

فإذا كان من المسلم به أن الإنسان يستطيع أن يعيش حتى مائة سنة بل وأن يتجاوزها ، وإذا سلمنا أن الإنسان العادى يجب أن يعيش فى الغالب حتى سن الستين (موعد الإحالة على المعاش) استطعنا أن ندرك كيف أن متوسط الحياة ، لأكثر من نصف البشر وهو لايتجاوز ثلاثين سنة لايمكن أن يكون مظهر انتصار الإنسان الحديث على الموت[١] .

وحتى القول بأن متوسط الأعمار فى ازدياد فى بلاد كالولايات المتحدة أو أوربا الغربية ، هو مجرد مقارنة بين هذه البلاد ونفسها منذ عهد قريب جدا ، فليست لدينا إحصاءات عن العهود السابقة فى إبان ازدهار مدنياتها ، ليست لدينا إحصاءات عن متوسط أعمار البشر فى عهد الحضارة الفرعونية أو الإغريقية أو الرومانية أو الإسلامية أو الصينية . وإذا أخذنا بما سجله التاريخ ، فالتاريخ يحدثنا عن أقوال يعدها العلم الحديث ضربا من ضروب الأساطير ، لأنه يقول لنا إن أسلاف البشر كانوا يعمرون مئات السنين[٢] . فإذا لم نرد أن نأخذ بهذه الأقوال ، فلا أقل من أن نكف عن الادعاء بأن

---

(١) وحسبنا لكى نجعل الصورة واضحة بالأرقام أن نثبت نسبة وفيات الأطفال فى بعض بلاد العالم ليتضح كيف أن نسبة كبيرة من بنى الإنسان لا تزال تموت وهى لا تزال فى المهد .

ففى كل ألف طفل يولدون فى الولايات المتحدة يموت حوالى ٢٧ طفلا وفى جارتها المكسيك يموت ٨٠ طفلا فى كل ألف طفل ، وفى جواتيمالا يرتفع هذا الرقم إلى ١٠٣ ، وفى جمهورية شيلى يزداد هذا الرقم ارتفاعاً فيصل إلى ١٢٦ فى الألف . وفى جنوب أفريقيا يبلغ عدد وفيات الأطفال بين السكان السود ١٣١ فى كل ألف .
(إحصائيات هيئة الأمم — منظمة الصحة العالمية)

(٢) جاء فى الفصل الخامس من سفر التكوين فى العهد القديم أن آدم عاش ٩٣٠ سنة وابنه شيث ٩١٢ سنة .

متوسط عمر الإنسان فى بعض البلدان يفوق متوسطه فى العصور الماضية ، فهذه دعوى بلا دليل ، وتقوم القرائن التى نشاهدها حتى فى أيامنا الحديثة على عكسها ، فالمعمرون القليلون الذين تجاوز أعمارهم المائة فى العصر الحاضر ، لا يوجدون إذا وجدوا بين سكان نيويورك أو غيرها من المدن التى تغص بأسباب الحضارة الحديثة ، ولا يوجدون بين صفوف الأغنياء وأصحاب الملايين القادرين على توفير آخر ما انتهى إليه العلم من محافظة على الصحة . وإنما يوجدون بين الفلاحين ، أو بين صفوف بقايا الهنود الحمر ، أو سكان الجبال ، أو فى أعماق الصحراء ، كما هو الشأن فى واحة سيوه ، أو إحدى قرى القوقاز النائية .

ومرة أخرى لنا الحقيقة التى تسجلها الأرقام وهى أن أكثر من نصف سكان العالم لا يزيد متوسط عمرهم فى الحياة عن ثلاثين سنة ، ولا يجرؤ مدع أن يقول إن الحال فيما مضى من القرون كان أسوأ من ذلك .

نجاح الإنسان فى القضاء على الأوبئة

وهنا تعترضنا ظاهرة مسلم بها ، ونعنى بها انتصار الإنسان على الأوبئة التى كانت فيما مضى لا تبقى ولا تذر ، ونعنى بها الكوليرا والطاعون والجدرى وأمثالها ، فقد كانت هذه الأوبئة تتقاضى ضريبة باهظة من أرواح البشر ، الذين كانوا يتساقطون بالألوف ومئات الألوف . أما اليوم فلا شىء من ذلك ، واستطاع الإنسان أن يقهر الطاعون والجدرى والكوليرا ..الخ.

وقبل أن نمضى لنبين أثر هذا الانتصار على مشكلة الموت ، يجب أن نسجل بعض الحقائق التى قد تغيب عن بعض الأذهان . فأولا وقبل كل شىء يجب أن يكون معروفاً ، أن هذه الأوبئة لا تزال موجودة وعاملة فى أماكن شتى من أنحاء العالم ، فهى موجودة مثلا فى الحبشة وإيران وعدن وغيرها من بلاد آسيا وأفريقيا ، وقد مات بالكوليرا فى الباكستان الشرقية

عام ١٩٥٨ — ١٦٠١٨ وارتفع هذا الرقم إلى ٢٠٠٣٥ عام ١٩٥٩ .

أما الجدرى فقد مات به أيضاً فى الباكستان الشرقية ٢٤٧٢٤ عام ١٩٥٧ ومات فى عام ١٩٥٨ ضعف هذا العدد تقريباً وهو ٤٧٨٩٧ نسمة ولم تخف وطأة الوباء إلا فى عام ١٩٥٩ حيث لم يتجاوز من أصيبوا بالجدرى ٦٢٩٢ (إحصاءات الهيئة العالمية للصحة) .

ونحن فى مصر لن ننسى وباء الكوليرا الذى اجتاح بلادنا عام ١٩٤٧ والذى مات به حسب الإحصائيات الرسمية ، عشرات من الألوف .

الملاريا

وثمة مرض لا يزال يهدد مئات الملايين من البشر بصورة وبائية وذلك هو الملاريا ، التى يموت بها مليونا نسمة فى كل عام ويبلغ عدد المصابين بها ٢٥٠ مليونا بكل ما تجره الإصابة بالملاريا من هزال وضعف وقصور همة وعزيمة وطحن للصحة العامة للفرد تنتهى بالوفاة بنسبة واحد فى المائة تقريبا[1] ، مما اضطر المنظمة العالمية للصحة التابعة لهيئة الأمم أن تتخذ إجراءات لشن حرب ضد الملاريا بتعاون شعوب العالم .

فالأوبئة إذن موجودة ، وهى كالنار تحت الرماد ، تنتظر أى فرصة من فرص الفوضى وسوء الإدارة أو تقاعس الجهود العالمية فى الوقوف المستمر لها بالمرصاد ؛ لكى تستشرى كما كانت تفعل من قبل كالنار فى الهشيم .

ولن ينسى مواليد مطلع القرن العشرين الذين لا يزالون أحياء ، وباء التيفوس الذى اجتاح أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى والملايين الذين سقطوا صرعى هذا الوباء[2] .

---

(١) المختار عدد أغسطس سنة ١٩٥٨ « لنخرج جميعاً لمحاربة الملاريا »

(٢) ذكرت شركات الأنباء فى ١٩٦٢/١/٥ أن صحف وارسو نشرت أن نحو عشرة آلاف مصاب بالأنفلونزا يدخلون مستشفيات بولندا وعياداتها للعلاج فى كل يوم بعد أن انتشر وباء الأنفلونزا بشكل مخيف . (الأهرام ١٩٦٢/١/٦)

فالقول إذن بأن العلم الحديث قد قضى نهائياً على الأوبئة هو قول غير صحيح أو هو على الأقل قول غير دقيق ، والصحيح أن يقال إن الإنسان قد استطاع أن يحد من استشراء هذه الأوبئة إذا هي حلت بشرط أن تكون هناك سلطة مركزية قوية ، تفرض النظام وتعزل المرضى والأماكن الموبوءة وتقوم بعملية التطهير المستمر ، وبدون ذلك لن يكون نجاح . . وهو عين ما كان يحدث في السابق ، فالأوبئة لم تكن تفتك فتكها الذريع إلا خلال المجاعات والحروب وفترات الفوضى .

الحقيقة الثانية التي يجب أن تسجل بخصوص مفعول الأمصال المضادة للأوبئة ، أن مفعولها ليس مائة في المائة ، فليس كل من يحقن ضد الكوليرا أو الطاعون أو الجدري ، ينجو حتما من الوفاة بهذه الأوبئة ، فقد يحقن المريض بالمصل ويموت مع ذلك . بل إن حقنة المصل قد تكون هي السبب المباشر في الوفاة ، كما أن أشخاصاً لا يحقنون ومع ذلك لا تمتد اليهم العدوى مع أنهم يعيشون في قلب العاصفة .

فغير صحيح إذن أن الإنسان قد استطاع أن يهزم الكوليرا أو الطاعون أو الجدري نهائياً . أو أن اللقاح ضد هذه الأوبئة محقق المفعول مائة في المائة .

تنوعت الأسباب والموت واحد

ولنسلم أخيرا أن العلم الحديث قد استطاع أن ينتصر نهائياً على الكوليرا والجدري والطاعون والتيفوس ، فلم يعد لها على ظهر الأرض وجود ، فهل لذلك أدنى تأثير في هزيمة الموت نفسه ؟! إن هذه الأوبئة ليست سوى سبب من بين ألوف ومئات الألوف من الأسباب المفضية إلى الموت ، وقد يكون باستطاعة الإنسان أن يتجنب أحد هذه الأسباب ، فلا يعني ذلك أنه تقدم خطوة لحل مشكلة الموت ، لأن أسبابا أخرى سرعان ما توجد

لإحداث الموت الذى لا يزال كما كان – مذ عرف الإنسان نفسه – هو النهاية الحتمية لكل كائن حى . فإذا كان الإنسان قد قضى على الكوليرا أو الطاعون مثلا ، فانه لا يزال يموت بالسل أو السرطان أو تصلب الشرايين أو بأمراض القلب . . . وقد بلغ عدد ضحايا أمراض القلب وتصلب الشرايين فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها عام ١٩٦٠ – ٩٢١ر٥٤٠ أمريكيا[١] .

ما هو الفرق بين أن يموت الإنسان بالتيفود ، أو يحترق كما يحدث الآن كثيرا بالطائرة ، أو أن يهلك تحت عجلات السيارات التى فتكت فى سنة ١٩٤٨ وحدها فى بلد كالولايات المتحدة الأمريكية بـ ٣٢ ألف نسمة فقدوا أرواحهم و ١ر١٠٠ر٠٠٠ نسمة أصيبوا بجراحات مختلفة أعجزت الكثيرين منهم عن العمل[٢] . وبلغ عدد الحوادث التى أدت إلى الموت فى المصانع الأمريكية ، ١٦ر٥٠٠ حالة . أما الحوادث الأخرى التى تسبب عنها عجز العمال لمدد متفاوتة فقد بلغت ، ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ حالة . وبلغ مجموع الخسائر المادية بالنسبة لحوادث المصانع والسيارات ، فى عام ١٩٤٨ ما يزيد على ثلاثة بلايين دولار[٣] وبلغ عدد الذين انتحروا فى الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ – ١٨ ألف نسمة قتلوا أنفسهم عن طريق إطلاق النار والشنق ، والتسمم[٤] ، وإذا كانت هذه الأرقام خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية فقد نشرت جريدة الأهرام ، آخر إحصائيات الحوادث فى العالم تحت عنوان حقائق ، فذكرت أن عدد الضحايا الذين ماتوا بالحوادث عام ١٩٦٠ هو ٩٣ ألف نسمة وعدد من أصيبوا بجراح وإصابات تعجيزية

---

(١) جريدة الأهرام ٢٥/١١/١٩٦١ .
(٢) ميادين علم النفس الجزء الثانى – ص ٨٤٣ .
(٣) ميادين علم النفس الجزء الثانى – ٨٤٣ .
(٤) جريدة الأهرام يوم الأثنين ٢٧/٣/١٩٦١ .

هو ٩٫٣٠٠٫٠٠٠ وأن جملة ما نجم عن ذلك من الخسائر المادية قد زاد على ١٤ مليار دولار[1] .

قتلى الحروب

رب قائل إن الوفاة بالسيارات أو فى حوادث المصانع أو عن طريق الانتحار ، هى فى نهاية الأمر حوادث فردية لا تروع البشر فى مجموعهم كما تفعل الأوبئة عندما تجتاح الألوف ومئات الألوف فى أيام وأسابيع . فما الرأى فى أن الانسان الحديث قد جعل من حروبه ما يتضاءل إلى جواره أعنف ما شهد التاريخ من جائحات وأوبئة ؟ ما الرأى أنه سقط فى الحرب العالمية الأولى أكثر من ١٢ مليونا من القتلى فى أربع سنوات فقط ، أما عدد من جرحوا فقد بلغ ٢١٫٢١٩٫٤٥٢ نسمة وهذا القدر من الموتى يربو على كل قتلى الحروب خلال العشرة قرون السابقة على الحرب العالمية الأولى بما فيها حروب نابليون ، وحرب الثلاثين عاما[2] . والمعروف أن ضحايا الحرب العالمية الثانية لا تقل عن هذا القدر إن لم تزد ، ذلك أن الإحصاء الدقيق للقتلى كان متعذراً ، فى ظل هذا الأسلوب الجديد من القتال ، حيث تدك الطائرات البيوت والمدن على رؤوس الأطفال والنساء [3] وقد أشرنا من قبل كيف أن قنبلة هيروشيما وحدها ، قد أبادت فى أقل من لحظة

(١) جريدة الأهرام يوم الخميس ١٩٦١/٩/٢١ .

(٢) دائرة المعارف الأمريكية Americana مادة « حرب » .

(٣) بلغ ما حرق أو دمر فى روسيا وحدها خلال الحرب العالمية الثانية ، ١٧١٠ مدينة ومركز ، ونحو ٧٠٫٠٠٠ مزرعة ، وأصبح ٢٥ مليون شخص بلا مأوى ومات عدة ملايين كثيرة من أبناء الشعب ، وتحملت روسيا خسارة مادية تبلغ ٥٠٠٫٠٠٠ مليون دولار . (من خطاب خروشوف — فى التليفزيون الأمريكى كتاب « فى سبيل السلام والصداقة » ص ٢٨٢ .

وناهز قتلى ألمانيا ستة ملايين نسمة (داخل أوربا الجديدة — جنتر) .

أكثر من ١٤٥ ألف نسمة ، وهو العدد الذى أمكن إحصاؤه من ضحايا هذه المدينة التعسة . ولو قدر اليوم أن تشتعل نيران الحرب ، وهو ما يتحدثون عنه كل صباح ومساء ، ويفجرون القنابل الذرية على سبيل التجربة والإنذار ، فإن المتفق عليه أن عدد الضحايا الذين يسقطون فى الأيام الأولى للحرب فقط سيناهز ٢٠٠ مليون نسمة ، مما يجعل كل إنسان يتساءل ما هو مستقبل البشرية بعد حرب ذرية قادمة . . والتى ستظل تؤثر على البشر حتى بعد انتهائها لعشرات السنين نتيجة الإشعاعات القاتلة . بل أى صورة لهذه الإنسانية المقبلة . ولم تعد الأسلحة التى تعد للحرب القادمة وقفا على القنابل الذرية ، بل تعدتها إلى ما يسمى الحرب الكيماوية والجراثيمية ، حيث أعد العلماء بالفعل داخل المخازن قنابل تصيب العدو بالحمى الجنبية والدوسنطاريا والحمى الراجعة والكوليرا والدفتريا والطاعون الدملى أو الرئوى وحمى التيفود والسل والكساح والتيفوس والجدرى والحمى الصفراء والتسمم [1] .

فالقول إذن بأن الإنسان قد نجح فى حربه ضد الأوبئة ، قول لا يقدم ولا يؤخر ، ما دام قد أصبح يخترع من آلات الدمار ما هو أفتك من ويلات الأوبئة ، وما يجعل مئات الملايين فى الشرق والغرب تصطك أسنانهم رعبا كلما تصوروا الهول الذى يعيشون فى ظله ، والبشر اليوم ينادون بنزع الأسلحة والعيش فى سلام . وإلى أن يتم ذلك فإنسان القرن العشرين يعيش فى فزع من الموت الذى قد يدهمه فى أى لحظة على صورة حرب ذرية أشد من فزع إنسان القرون الماضية من الأوبئة ومختلف أنواع الجائحات .

سعى الإنسان للقضاء على الموت

بقى أن علماء الحياة فى العصر الحديث ، يؤكدون أنهم ماضون فى معركة

(١) المختار عدد أكتوبر عام ١٩٦٠ ص ١١١ .

الصراع ضد الموت بالبحث عن سر الحياة ،ومتى أدركوا هذا السر فسيكون باستطاعتهم هزيمة الموت ، ويتصور أقوام أن مجرد هذا التطلع والسعى هو شيء جديد فى حياة البشر وينسون أن الكيمياء عند العرب كانت تدور حول هذا المطلب . . مطلب الكشف عن « اكسير الحياة » أو ماء الحياة الذى يعيد الشباب ويطيل العمر ويقهر الموت . . فلا جديد حتى فى هذا اللون من ألوان التفكير ، ولسنا الآن بصدد البحث فى إمكان الإنسان التوصل إلى ذلك فكان ذلك فصل تال ، وإنما النتيجة التى يجب أن نخلص بها من هذا العرض المتقدم أن مشكلة الموت لاتزال بالنسبة للإنسان ، كما كانت منذ أى عصر مضى ، لم يتقدم فى سبيل التغلب عليها أىخطوة واحدة نحو الأمام .

مشكلة المرض

فإذا كان موقف الإنسان من مشكلته الرئيسية ، ونعنى بها الموت الذى يختم حياته لاتزال كما كانت ، فهل هو أسعد حظاً فى معالجة المشكلة الأقل استعصاء وهى مشكلة المرض .

إن المرض باعتباره السبيل المؤدى إلى الموت فى نهاية الأمر ، هو المصدر الأعظم لآلام الإنسان . فهل الإنسان اليوم قد حل مشكلة المرض خيراً مما فعل فيما مضى من الزمان ؟

هنا وترتفع الصيحة وتتعالى من كل مكان ردا على هذا السؤال بالإيجاب . انظر إلى ماتحققه العقاقير الحديثة التى توشك أن تكون سحرية . انظر كيف استطاع البنسلين والاستربتومايسين ومركبات السلفا أن تهزم أشد الأمراض عتوا وتعيد الصحة والعافية لمئات الألوف والملايين . . بل انظر إلى ماتحققه الجراحة اليوم من معجزات ، وهى ترد الحياة إلى القلوب التى وقفت ، وتزود الإنسان بالكلى الصناعية والرئات الصناعية والأطراف الصناعية ، للتغلب على كل صنوف الأمراض .

وباستثناء القـدرة على تخدير المريض ، إبان إجراء العملية بحيث لايشعر أثناءها بأى ألم ، فإن مازاد على ذلك فى الجراحة ، مسألة فيها نظر . وحسبنا أن نسأل أشد المغالين فى الإيمان بالتقدم الجراحى ، ألا يحدث أن تجرى الجراحة لعلاج مريض بداء معين ، ثم يظل المريض يشـكو مما كان يشكو منه قبل إجراء العملية ؟ وألا يحدث أنه قد تجرى لمريض واحد أكثر من عملية لعلاج نفس المرض ، ويظل المريض يشكو بعد كل ذلك ؟ وألا يحدث أن عدداً من المرضى يموت بعد إجراء العملية ، والبعض يموت أثناء إجراء العملية ذاتها . بل ألا يحدث أن تـكون العملية هى السبب المباشر لإحداث الوفاة التى لم تـكن متوقعة ؟ الجواب على كل هذه الأسئلة هو بالإيجاب .

ولنفحص هذا التقدم الجراحى المقال به من زاوية أخرى . ألا يحدث أن عمليات يقوم بها أعظم الجراحين فى أرقى المستشفيات وأكثرها استعداداً يمنى بالفشل ، فى الوقت الذى تنجح فيه عمليات مماثلة فى مستشفيات أقل استعداداً وعلى يد أطباء أقل قدرة ؟ ألا تضطر الظروف بعض الأطباء أحياناً أن يجروا عمليات جراحية فى أسوأ الظروف ، حيث لا مخدر ولا أجهزة تعقيم أو أسلحة ممتازة ، ومع ذلك فإن هذه العمليات تنجح ؟ أو لا يحدث إبان الحروب بصفة خاصة أن يجد الطبيب نفسه مضطراً للعمل أربعاً وعشرين ساعة بغير مساعدين فنيين ، فيقطع أوصالا ويبقر بطوناً ويفتح رؤوسا دون أن يستعمل أجهزة التخدير ؟ فهل يموت كل الذين تجرى لهم العمليات بهذا الأسلوب ، أم أن عدداً كبيراً منهم يشفى ويصح ؟ فالمعجزة التى نشهدها فى الجراحة ليست معجزة التقدم الجراحى وأدواته ، وإنما هى معجزة الجسد الحى ، الذى ينطوى على هذه القدرة التى لا حد لها ، للالتحام والالتئام

والتعويض والتحوير ، يستوى فى ذلك أن يكون القائم بالعملية هو أعظم الأطباء أو أصغرهم شأناً ، بآلات ممتازة أو بآلات عادية .

مركبات (البنسلين والسلفا)

وما يقال عن التقدم الجراحى وأثره فى شفاء الأمراض ، يقال عن هذه العقاقير السحرية ، الحيويات المضادة للميكروبات (البنسلين والسلفا) ومشتقاتهما ، فسؤالنا بالنسبة لها هو نفس السؤال . ألا يحدث أن تستعمل هذه العقاقير كلها دون أن يطرأ أى تحسن على المريض ؟ وهلا يحدث أحيانا أن التحسن لا يبدأ إلا بعد أن يكف عن تناول هذه المركبات ؟ وهلا يحدث أن هذه العقاقير نفسها تسبب للمريض بعد شفائه من المرض الرئيسى أو قبل شفائه أمراضاً أخرى؟ والرد على هذا السؤال الأخير ، كبقية الأسئلة الأخرى هو بالإيجاب . فمن المسلم به أن البنسلين يحدث لشديدى الحساسية أمراض الأرتكريا والطفح الجلدى والأديما ، وهو يسبب أعراضا أخرى تشبه أعراض مرض المصل ، وإذا أسيء استعماله بالإكثار منه ، فإن الميكروبات تتعود عليه كما يتعود المريض على المخدرات فيصبح لا مناص من استمرار مضاعفة الكمية اللازمة للتأثير على هذه الميكروبات . وقد يؤدى (الستربتومايسين) إلى الصمم إذا لم يكن الطبيب يقظا ، كما يسبب الطفح الجلدى والتهاب الفم والصداع ومضاعفات أخرى ، مما جعل الأطباء يقللون من استعماله . أما مركبات السلفا فهى تسبب أضراراً كبيرة إذا أسيء استعمالها ، فهى تترسب فى الكليتين مكونة نواة للحصاة والبول الدموى وتؤثر على كريات الدم البيضاء ، فتسبب نقصاً كبيراً فى الخلايا ذات النوايا العديدة ، وقد تحدث طفحا جلديا وتسبب صداعاً وقتيا وغير ذلك من المضاعفات[1] .

---

(١) المواد المضادة للميكروبات — لطيف بسطورس ص ٦١ و ٣٥ و ٤٩ .

وأخيرا ، فليس من الأمور المستبعدة أن يموت بعض الأشخاص بسبب الصدمة التى قد تحدثها لهم حقنة البنسلين عندما تعطى لهم لأول مرة .

العلاج قديما وحديثاً

وآخر ما نستطيع أن نقوله عن العلاج فى عصرنا الحديث سواء كان عن طريق الجراحة أو طريق العقاقير ، أن الأغلبية الكبرى ممن يعالجون يصحون إثر العلاج ، وأن عددا أقل لا يمكن تخليصه من علته بالرغم من استخدام الجراحة أو العقاقير . . وأن أحوالا أقل من هذا القليل يموت منها المريض بسبب الجراحة أو بسبب تناول العقاقير .

وهذا التقسيم الثلاثى لآثار العلاج ، هو بعينه التقسيم الذى كان فى كل عصر وزمان منذ عرف الإنسان شيئاً اسمه طب ودواء . فمذ كان الطب لا يعدو أن يكون سحراً وطرداً للأرواح الشريرة ، والعلاج يتم عن طريق التمائم والرقى والتعاويذ . . . إلى أن تطور العلاج فأصبح كيا أو حجامة ، وإلى أن تطور أكثر من ذلك فاستخدم خصائص الأعشاب والمعادن المختلفة لإحداث الشفاء . . فقد كان الوضع هو نفس الوضع الذى يقوم عليه فن العلاج هذه الأيام ، ألا وهو كثرة ممن يعالجون تصح أبدانهم وقلة لا يجدى فيهم العلاج فيواصلون الشكوى من عللهم ، وعندما يحم القضاء فلا ينفع طب أو علاج وإلا فلو كان الموقف غير ذلك لما كان هناك معنى لوجود طائفة الأطباء منذ أقدم العصور . فوجود هذه المهنة ، هو الدليل القاطع على أن أشخاصاً قد احترفوا شفاء الناس منذ أقدم العصور بشتى الأساليب وأقبل الناس عليهم يلتمسون ما لديهم من علم ، بعد أن شهدوا بالتجربة شفاء المرض على أيديهم . والحقيقة فى كل ذلك أن الشفاء من أى مرض من الأمراض عرضيا كان أو مزمناً ، إنما يرجع إلى درجة معينة من الحيوية فى جسد الإنسان ، فإذا توافرت هذه الدرجة لأى إنسان فهو قادر

على الشفاء حتما ولو لم يتناول أى علاج من أى نوع كان ، وسواء أكان الذى يعالجه ساحرا فى العصر القديم بالرقى والتعاويذ ، أم حلاق الصحة فى القرية ، أم اختصاصياً من أعظم الاختصاصيين من موسكو أو لندن أو نيويورك . أما إذا هبطت هذه الدرجة من الحيوية اللازمة للشفاء عن حد معين فلا جدوى من أى علاج عن طريق الجراحة أو العقاقير ، يستوى فى ذلك العصر القديم والجديد معاً .

ويكون دور الطبيب الرئيسى ، فى الواقع الذى قام به فى كل عصور التاريخ ، هو الإيحاء للمريض بإمكان الشفاء والقدرة عليه . . وبمقدار ما ينجح الطبيب من بث هذه الثقة فى نفس المريض بمقدار ما يكون نجاح العلاج[1] . . فهى مسألة نفسية بحتة كما سنفصل ذلك فى فصل مقبل .

أمراض الحضارة :

فالطب لم يحقق كما يتصور الكثيرون هذا النجاح الساحق الذى يعزونه إليه . . وهو إذا كان قد استطاع مواجهة بعض الأمراض القديمة فقد خلقت له الحضارة الحديثة بأوضاعها الصناعية الجديدة ألواناً من الأمراض التى لم تكن موجودة من قبل ، وما على الإنسان إلا أن يطالع ما تتضمنه قوانين العمل الحديثة من جداول الأمراض المهنية ، التى أصبح العمال يتعرضون لها من تسمم بشتى المعادن كالزرنيخ أو الرصاص أو الزئبق أو الكبريت أو الفوسفور أو البترول أو الفلور وشتى صنوف الأحماض[2] . ناهيك بما أصبح

---

(١) قد لا يعرف الكثيرون أن علاج الكثير من الأمراض لا يعدو أن يكون مجرد إخلاد المريض إلى الراحة فى الفراش ، ولكن الطبيب لا يستطيع أن يقول ذلك لمرضاه ، بل لا بد له من وصف أنواع الأدوية والحقن التى يؤمن المريض أنه لن يكون هناك شفاء إلا عن طريقها .

(٢) راجع جداول أمراض المهنة بالقانون رقم ٩٢ لسنة ١٩٥٩ الخاص بالتأمينات الاجتماعية .

ملايين العمال معرضين له أثناء العمل ، من بتر الأصابع أو فقد الذراع أو أحد الساقين أو الساقين معاً أو ضياع البصر بأكمله ، مما تنظمه قوانين إصابات العمل ، وتحدد فئات للتعويض عن كل عضو من هذه الأعضاء .

بل إن مجرد الحياة وسط المدن الحديثة بما يمتلىء به جوها من غازات سامة لاتفتأ تتصاعد من احتراق البنزين فى السيارات ومن مراجل المصانع ، وما يتعرض له الإنسان العصرى من ضجيج مستمر متواصل ، وما يؤدى إليه تلاحق الحوادث والأخبار وسرعة المواصلات من توتر مستمر فى أعصابه ، كل ذلك قد أدى إلى أمراض وعلل لم تكن معروفة من قبل ، وكل ما يبذله العلم الحديث هو الوقوف فى وجه هذا السيل الجارف من الوافدات الجديدة التى اقتضتها ظروف حياتنا الآلية والميكانيكية .

ماذا يقول الكسيس كاريل :

وحسبى الآن أن أنقل إليك أقوال عالم من أكبر علماء الطب فى العصر الحديث ، والحاصل على جائزة نوبل عام ١٩١٢ لأبحاثه الطبية العديدة وذلك هو الكسيس كارل :

« من المؤسف حقا أن الطب لم يستطع حتى الآن أن يقلل من الآلام البشرية إلى الحد الذى يريد أن يدخله فى روعنا ، صحيح أن الوفيات الناجمة من الأمراض المعدية نقصت كثيرا ، ولكن لا مفر للإنسان من الموت ، وكثيرون منا يموتون من أمراض الانحلال . وسنوات الحياة التى ظفرنا بها نتيجة القضاء على الدفتريا والجدرى والحمى التيفودية . . الخ ندفع ثمنها آلاما مريرة تسببها الوفيات التى تحلق فوق الرؤوس نتيجة للالتهابات المزمنة ، وبخاصة السرطان والسكر وأمراض القلب . وعلاوة على ذلك فإن الإنسان معرض الآن كما كان معرضا من قبل ، لالتهاب الكلى والقروح المخية والتهاب الشرايين والزهرى ونزيف المخ وضغط الدم ، علاوة

على الاضطراب العقلى والفسيولوجى والأدبى الذى تسببه هذه الأمراض ، كما أنه معرض للاضطرابات العضوية والوظيفية التى تأتى نتيجة الإفراط فى الطعام ، وعدم كفاية الرياضة والإرهاق فى العمل .. ثم انعدام التوازن واعتلال الجهاز العصبى الباطن ، يؤدى إلى الإصابة بكثير من أمراض المعدة والأمعاء . كما أصبحت أمراض القلب أكثر انتشارا ، وكذلك السكر وأمراض الجهاز العصبى الرئيسى لا عداد لها .. وكل إنسان يتعرض فى حياته بالإصابة بالنورستانيا والانقباض العصبى اللذين ينتجهما الانفعال المستمر والقلق ، وعلى الرغم من أن علم الصحة الحديث قد جعل الحياة الإنسانية أكثر أمنا ، وأطول مدى وأوفر متعة ، فإننا لم نستطع بعد السيطرة على الأمراض ، وحقيقة الأمر أن الأمراض قد غيرت طبيعتها أو يبدو أن الجسم أصبح سريع التأثر بأمراض الانحلال[1] .

ويقول ذلك العالم الكبير فى موضع آخر من كتابه (الإنسان ذلك المجهول) :

« إن شخصا من كل ٢٢ شخصا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر . وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول ، يعادل أكثر من ثمانية أمثال عدد المصدورين . ففى كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالى ٨٦ ألف حالة ، فإذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل ، فإن حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يذهبون (إلى مستشفيات الأمراض العقلية) إن عاجلا أو آجلا .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول — تأليف الكسيس كارل — تعريب شفيق أسعد فريد — ص ١٤٢ .

فنى عام ۱۹۳۲ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ۲٤٠ر٠٠٠ مجنون كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين والمحجوزين فى المصحات الخاصة ٥٨٠ر٨١ وكان عدد مطلقى السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ٩٢٠ر١٠ ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المصحات الخاصة .

ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصائيات الرسمية يصابون باضطرابات نفسية ، وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشكلات التى يواجهها المجتمع العصرى فإن أمراض العقل خطر داهم ، إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى بل والتيفوس والطاعون والكوليرا ، فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها ، لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتما التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء حاليا »[1] .

مرض السرطان

وقد جاء فى مجلة المختار الأمريكية فى عدد يونيو سنة ١٩٦٠ ، بحث دار بين نخبة من علماء الأطباء المشتغلين بمقاومة السرطان ، وإليك بعض الحقائق التى تكشفت عنها هذه المباحث :

س — هل يرتفع معدل الوفيات بسبب السرطان ؟

ج — (الدكتور رافدين أستاذ الجراحة بكلية طب جامعة بنسلفانيا) بالنسبة لبعض أنواع السرطان كسرطان المعدة مثلا — فإن المعدل فى هبوط أما بالنسبة للأنواع الأخرى — (كسرطان الرئة والدم) فإن معدل

(١) المرجع السابق ص ١٨٧ .

الوفيات يزداد زيادة شديدة ، فإذا جمعت كل أنواع السرطان معا فإن الاتجاه فى ازدياد .

— دكتور وبهل (نائب أول مدير الأبحاث والشئون الطبية بجمعية مكافحة السرطان الأمريكية) :

« كان معدل الوفاة بسبب السرطان فى عام ١٩٣٥ هو ١٠٨ لكل مائة ألف ممن يعيشون فى أمريكا ، وقد ارتفع هذا المعدل الآن إلى ١٤٧ لكل مائة ألف أى بزيادة ٣٦٪ ، وقد يمكن تفسير ذلك جزئيا بتحسين وسائل التشخيص ، أو بزيادة عدد المتقدمين فى السن ، الذين يجد السرطان من بينهم أكبر نسبة من الضحايا — ولكن هذه الزيادة لا يمكن تفسيرها بهذين العاملين » .

وهكذا تنطق الأرقام أن العالم اليوم ، يعانى مشكلة المرض كما عاناها دائما . . وقد تصل بعض الشعوب إلى درجة عالية من الصحة نسبيا ، ولكن السواد الأعظم من البشر يعانون من الأمراض ما عاناه أسلافهم من قبل . . وحتى فى هذه المجتمعات الأعلى صحة . . فإن الأمراض تتشكل وتأخذ ألوانا جديدة وأعراضا جديدة .

أى أنه حتى لو سلمنا بأن الإنسان قد قطع شوطا فى معرفة أسباب كثير من الأمراض ، وبالتالى أصبح أقدر على علاجها ، فإن أمراضا أخرى جديدة قد حلت محل هذه القديمة ، وراحت تتحدى الإنسان بغموضها وجهله حتى الآن معرفة أسبابها . ومرة أخرى يعلن علماء عصرنا ، أن الإنسان لابد واصل إلى القضاء على الأمراض وتطهير العالم منها ، ونحن لا ننازع فى هذه القضية ، بل نحن ممن يؤمنون بقدرة الإنسان على القضاء على كل الأمراض بدون استثناء ، ولكن الحقيقة التى يجب أن نسجلها الآن ، هى أننا لا نزال بالنسبة لمشكلة المرض بصفة عامة ، حيث كان أسلافنا من

قبل ؛ ينجح علاجنا فى بعض الأحيان ويفشل أحيانا أخرى ، والموت لنا بالمرصاد فى خاتمة المطاف .

مشكلة الغذاء :

ولنصل الآن إلى السؤال الذى كان يجب أن يكون أول ما نسأله ، باعتباره الأساس الذى تتفرع منه المشكلتان السابقتان ، ونعنى به السؤال الذى يدور حول مشكلة الغذاء ، فغير خاف أن قلة الغذاء تؤدى إلى المرض وانعدام الغذاء يؤدى إلى الموت .

فهل إنسان القرن العشرين أقدر على تحصيل غذائه من أسلافه ؟ وهل يمتاز غذاؤه فى النوع والكم عن إنسان العصور الماضية ؟ هنا ولا يستطيع أشد الناس تفاؤلا وإيمانا بتقدم البشرية أن يرد على هذا السؤال بالإيجاب . حقا إن بعض الشعوب الغنية كالولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوروبا ، قد حققت لنفسها مستوى عاليا من توفير مواد الغذاء لرعاياها على حساب تجويع ملايين من البشر ، ولكن هؤلاء مع ذلك لا يعدون أن يكونوا قلة بين شعوب العالم الأخرى . إن ما يقرب من نصف سكان العالم لا يجدون ما يسد غائلة الجوع إلا بشق النفس ، فهم يعيشون على الكفاف الذى يبقيهم أحياء فحسب[1] .

وقد كان مالتوس الإنجليزى أول من لفت الأنظار فى القرن الثامن عشر إلى هذه الحقيقة الرهيبة ، ألا وهى أن السكان يزيدون بنسبة تعلو على زيادة المواد الغذائية أضعافا مضاعفة ، فبينما يزيد السكان بمتوالية هندسية ١ — ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ فإن الإنتاج الزراعى لا يزيد إلا بمتوالية عددية أى ١ — ٢ — ٣ — ٤ — ٥ — ٦[2] .

---

(١) من بيانات الهيئة العالمية للتغذية والزراعة .F.A.O

(٢) أصول الاقتصاد — الدكتور محمد حلمى مراد .

ففى العصر الحديث مثلا يتزايد سكان العالم بنسبة ١٧ نسمة فى كل ألف أى ما يقرب من خمسين مليون نسمة سنويا ، ومن المقرر أن يصبح هذا الرقم مضاعفا عند نهاية القرن العشرين[1] . . وواضح أن موارد العالم الغذائية لا تزيد بنفس هذه النسبة . وهذا ما حدا بهيئة الأمم أن تؤلف المنظمة العالمية للتغذية والزراعة F. A. O. وتنشىء منظمة أخرى للمساعدة الفنية لمعاونة مختلف الشعوب على إنتاج مزيد من الطعام . وقد جاء فى إحدى نشرات الهيئة ما يعتبر بحق أصدق تصوير لموقف العالم فى العصر الحديث بالنسبة للمشكلات السابقة .

« يواجه رجل القرن العشرين بكثير من المشكلات الخطيرة . على أنه من بين هذه المشكلات توجد مشكلتان أساسيتان يتوقف عليهما مستقبل الإنسان بأكمله . أما المشكلة الأولى فهى كيف يحول دون وقوع حرب عالمية ثالثة لابد أن تؤدى حتما فى حالة نشوبها إلى تدمير الحضارة الإنسانية بل ومحوها بالكلية . وأما المشكلة الثانية فهى كيف يكون باستطاعة القسم الأكبر من الجنس البشرى ، الاستفادة من التقدم الاقتصادى والاجتماعى الذى أصبح أمرا واقعا لدى عدد قليل من الشعوب . إن العالم اليوم ينقسم إلى عالمين ، عالم يتمتع فيه الإنسان بازدهار نسبى ، وعالم آخر يعيش فيه الإنسان أقرب ما يكون إلى الإملاق والعدم . إن نصف سكان العالم يعيشون فى حالة جوع مستمر ، وثلثى سكان العالم فى أمية مطلقة وتعاسة ، ومتوسط أملهم فى الحياة لا يتجاوز الثلاثين عاما .

إن الفجوة بين الشعوب الغنية والفقيرة تزداد اتساعا بدون انقطاع ، وهذا الفقدان للتوازن من شأنه أن يبقى العالم فى حالة مستمرة من التوتر »[2] .

---

(١) Demographic Yearbook. 1959

(٢) Technical Assistance. A United nations Review.

ولعل حالة العالم المتدهورة فى الناحية الغذائية ، هى التى حدت بالولايات المتحدة وهى من الدول القليلة المحظوظة التى تنتج من الطعام أكثر من حاجتها أن تخصص فائضا من طعامها ؛ لتوزعه على شعوب العالم المحرومة ، مطلقة على هذا العون اسم « الطعام من أجل السلام » ذلك أن الجياع لا يمكن فى يوم من الأيام إلا أن يثوروا ويحرقوا ويقوضوا كل نظام .

وهم يتحدثون اليوم عن وجوب اتخاذ إجراءات واسعة النطاق ؛ لتوفير الغذاء لشعوب العالم عن طريق تقطير ماء البحر وزرع الصحارى الشاسعة ، وإلى أن يتم ذلك فالمشكلة قائمة ، بأحد مما كانت فى يوم من الأيام .

فما لا جدال فيه أن العصور القديمة كانت فى هذه الناحية بصفة عامة (فى غير حالات المجاعة والقحط التى كانت تنشأ إبان عصور الحروب والفوضى) أحسن حالا ، فكانت المواد الغذائية أوفر كمًّا وأحسن نوعاً وأرخص ثمناً بحيث يستطيع الكافة الحصول عليها فى غير إرهاق أو عسر[1] .

---

(١) أتيح لنا نحن الذين ولدنا فى مطلع هذا القرن أن نشهد وفرة المواد الغذائية وجودة نوعها ورخص أثمانها ، فقد كان باستطاعتى عندما كونت أسرتى لأول مرة عام ١٩٣٩ (أى من عشرين سنة فقط) أن أعيش بخمسة قروش فى اليوم الواحد ، فقد كانت هذه القروش الخمسة تكفى لشراء اللحم والخضار والفاكهة . وقد كانت هذه الحالة بدورها تؤلف بالنسبة لوالدتى التى ولدت في القرن السابق حالة من الغلاء تضج منها ، وكانت تنعى الأيام السابقة وجودة الأغذية ورخص ثمنها وأين هذا كله مما يحدثنا عنه الجبرتى عن أحوال مصر فى القرن الثامن عشر الهجرى عندما كان القرش يقسم إلى خمسين نصفاً ، واسمع الآن قائمة الأسعار فى ذلك الزمان :

« ومصر فى تلك المدة هادئة من الفتن والشرور والإقليم البحرى والقبلى أمن وأمان والأسعار رخيصة والأحوال مرضية واللحم الضانى المجروم من عظمه رطله بنصفين والجاموس بنصف ، والسمن البقرى عشرته (أى عشرة أرطال) بأربعين نصف فضة (أقل من قرش) واللبن الحليب عشرته بأربعة أنصاف والرطل الصابون بخمسة أنصاف والسكر المنعاد كذلك والمكرر قنطاره بألف نصف (عشرين قرش) والعسل المقطر=

فإذا استحضرنا في أذهاننا ماقلناه من أن الغذاء هو وسيلة الإنسانية للإبقاء على ذاتها ، وأن قلته مصدر ألم للإنسان ، وتوافره مصدر سعادة ولذة .. أدركنا كم يعانى البشر فى العصر الحديث ، وأن كل هذه الاختراعات والاكتشافات والصناعات لم تستطع أن تحل له حتى الآن ، إلا لعدد محدود ومحظوظ ، أخطر مشكلة من مشكلات الوجود وهى توفير الغذاء . ومادام الغذاء غير متوفر ، فالمرض ينمو ويترعرع ، والموت يزدهر ويضاعف فى حصيلته .

مشكلات البشر المعنوية

ذكرنا من قبل أن الإنسان فى سعيه المتواصل خلال مرحلة الحياة يحس بحاجات مادية وأخرى معنوية ، وقد رأينا فيما سبق أن حظ الإنسان من آلامه ولذاته المادية لايزال كما كان منذ ألوف السنين . فهل إنسان العصر الحديث أهنأ بالا وأكثر أمنا وأرق خلقاً وأشد تراحماً وعطفاً على أخيه الإنسان مما كان فيما مضى من الزمان ؟ هل الناس اليوم أكثر أمانة

= قنطاره بمائة وعشرين نصف ، والرطل البن القهوة باثنى عشر نصفاً ، والتمر يجلب من الصعيد فى المراكب الكبار ويصب على ساحل بولاق مثل عرم الغلال ويباع بالكيل والأردب . والأرز أردبه بأربعمائة نصف (ثمانية قروش) والعسل النحل قنطاره بخمسمائة نصف وشمع العسل رطله بخمسة وعشرين نصف وشمع الدهان بأربعة أنصاف والفحم قنطاره بأربعين نصف والبصل قنطاره سبعة أنصاف ، وقس على ذلك ».

ولو شئنا أن نصعد فى التاريخ قبل ذلك لوجدنا فى كتب رواد الشرق الأوسط في العصور الوسطى من أمثال عبد اللطيف البغدادى وخسروشاه أى فى القرن الثالث عشر الميلادى المعجب والمطرب عن وفرة الأغذية فى مصر .

أما عن تاريخ الفراعنة أى منذ أربعة آلاف سنة أو يزيد فقد سجلت الآثار المنحوتة على الصخر وصية أحد أعيان قدماء المصريين حيث طلب أن يوزع على قبره فى المواسم والأعياد « عشرة أنواع من اللحم وخمسة أشكال من الطيور وستة عشر صنفاً من الخبز والكعك وستة أنواع من النبيذ وأربعة أشكال من الجعة وأحد عشر صنفاً من الفواكه علاوة على أنواع الحلوى العديدة وغير ذلك .

(برستيد — تاريخ مصر القديمة — ترجمة الدكتور حسن كمال)

وأكثر وفاء وأكثر كرماً وأكثر صدقاً مما كانوا عليه فى الأزمان السالفة ؟ هل خلت قلوب الناس من الغل والحقد والأنانية وشهوة السيطرة والغلبة ؟ هل انتفى الظلم وساد العدل وزال الخوف من بين صفوف البشر ؟ لا يوجد إنسان واحد من المفكرين يجرؤ على الادعاء بشىء من ذلك ، بل إن القول المتفق عليه هو أن الإنسانية لم تستطع أن تجارى فى حياتها المعنوية التقدم العظيم الذى حققته فى حياتها المادية ، وأنها إذا لم تبادر برفع معنوياتها إلى مستوى إمكانياتها المادية فسوف تدمر نفسها . ولكن هذا القول الذى يقول به البعض ، قد يشعر بأن البشرية تقدمت فى هذه الناحية أيضاً وإن كان تقدمها بنسبة أقل . ولذلك فسوف أستعرض بعض الحقائق لأترك لكل قارىء أن يحكم بنفسه فيما إذا كانت البشرية قد تأخرت ، ذلك أن القدر الذى يعنينى هو أنها لم تتقدم فى هذا السبيل خطوة واحدة .

هل تخطى الانسان دور الوحشية وشريعة الغاب ؟

يحلو للكتاب والأدباء والمفكرين غير المتخصصين إذا كتبوا عن الإنسان الحديث ، أن يعتبروا الإنسانية قد خرجت من مرحلة الوحشية وشريعة الغاب ، وأنها أصبحت الآن تعيش فى مدنية وحضارة وتطبق قوانين أسمى من شريعة الغاب .

وعبثا حاولت أن أقرأ شيئاً فى جميع مطالعاتى عن هذا العصر الذى كان الإنسان فيه وحشاً يطبق شريعة الغاب . . فلم أجد أمامى فى أبعد تاريخ عرفه الإنسان ، إلا حضارات ومدنيات تقوم على القانون وروابط من الحب والعاطفة ، لا تختلف عن كل ما نعرف اليوم من أرق العواطف ، وقد خلفت لنا من الفنون ما نقف مبهورين حائرين أمام جلاله ، ومن المتفق عليه أن الفنون هى مقياس ما يصل إليه الإنسان من رقى . والإجماع منعقد اليوم على أنه يجب الرجوع إلى الوراء دائما للاستمتاع بروائع الفن سواء كان ذلك

فى البناء والعمارة أو النحت والتصوير أو الشعر والأدب أو الغناء والموسيقى .

ولقد هممت بأن أنقل إليك بعض عبارات ، تصف أقدم ماوصل إليه الإنسان من حضارات منذ خمس آلاف وست آلاف سنة قبل المسيح ، سواء فى مصر أو فى آشور وبابل ، أو عند الإغريق أو فى الهند والصين ، فوجدت أن لو فعلت ذلك لاحتجت إلى مؤلف أضخم من هذا الكتاب ، بل إن عالما أمريكياً قد وضع فى ذلك عشرين مجلداً ، دون أن يفى الموضوع حقه من العرض والإيضاح[1] . ولن تجد صفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب التى جاوزت بضعة عشر ألفا ، خالية من التسبيح والتمجيد لهذه العصور القديمة ، والذهول من سمو أحكام القانون ، ودقة المعاملات ورقى الأخلاق ، ونضوج العاطفة ورقتها مما لا يطوف لنا فى خيال .

فلست أعرف متى وأين وجد هذا العصر ، الذى عاش الإنسان فيه وحشاً لا يعرف نظاماً ولا قانوناً ، ولا يعرف اجتماعاً ولا يعرف حباً ولا رحمة .[2] إن البديهة تملى علينا أنه منذ وجد الإنسان نفسه على ظهر هذه الدنيا لا بد أنه اتخذ له قرينة من جنسه ، فلم يلبث أن أنجب منها أولاداً ، وإذا كنا نرى بالمشاهدة أن جميع الحيوانات بلا استثناء ، تحب صغارها بل وتضحى بنفسها من أجلها ، فلا يمكن أن نتصور الإنسان فى أى مرحلة من المراحل دون ذلك ، وإذن فمذ كوّن الإنسان أسرة ، فقد كوّن مجتمعاً يسوده الحب والقانون الذى ينظم العلاقات بين أفراد الأسرة ، وكلما اتسعت هذه الأسرة اتسع القانون معها .

فما هو المقصود إذن بطور الوحشية الذى عاش فيه الإنسان ردحاً من

---

(١) قصة الحضارة — تأليف ول ديورانت .

(٢) اقرأ للمؤلف كتاب « من وحى الجنوب » وفيه حديث عن قبائل جنوب السودان كما رآها المؤلف فى إحدى رحلاته ، وكيف تعيش هذه القبائل فى حالة بدائية ، ومع ذلك فالأمن بينها مستتب ولا تقع الجرائم ولا يعرفونها .

الزمن ، ثم خرج منه إلى حظيرة المدنية والحضارة التى ما فتئت ترتقى حتى وصلت إلى ذروتها فى عصرنا الحاضر ؟ .

وما هو المقصود بشريعة الغاب التى كان الإنسان يحكم بها فى هذا العصر الوحشى ، ثم خرج منها إلى قانون المدنية والحضارة ؟ .

الوحشية وشريعة الغاب

واضح أن كلمة الوحشية نسبة إلى الوحش ، وهو الحيوان المفترس الذى يعيش فى الغابة يفتك بصغار الحيوانات والضعاف منها ليقتات بها ، ويتلخص قانون الغابة فى أن يأكل القوى الضعيف .

والآن فلنتساءل بم استحق الحيوان المفترس أن يسمى وحشاً ، وأن تكون هذه الكلمة رمزاً على كل ما تشمئز منه النفوس .

هل رأينا أسداً يغتال أسداً ؟ أو هل رأينا حيوانا من هذه الحيوانات يعتدى على صغار نوعه ، فيضربها أو يخطفها أو يفتك بها ؟ لا يحدث شىء من ذلك ، فالحيوانات المفترسة قد يتشاجر ذكورها حول أنثى يريد كل منهم أن يختص بها ، أو حول فريسة يقتنصها ، ولكن هذه المشاجرة لا تصل بحال إلى أن يفتك أحدها بالآخر ، لأن المساواة بين الطرفين تحول دون ذلك من ناحية ، ولأن أحد الطرفين لا يلبث أن يسلم للآخر فتنتهى المعركة .

ولا يمكن أن يكون ذلك الشجار هو ما عناه الإنسان بالوحشية ، لأن الإنسان اليوم وفى كل وقت يتصارع مع أمثاله من الذكور ، للفوز بحب غانية ، وقد يقتل بعضهم بعضا لهذا السبب ، لا فى معركة شريفة كما يحدث بين أسدين أو فهدين ، أو كما كان يحدث فى عصور الفروسية قديماً عندما كان يتبارز الرجلان ، وإنما الذى يحدث اليوم ، أن يفتك العاشق بغريمه غيلة برصاصة ، أو عن طريق دس السم له ، أو بإغراقه أو حرقه بالنار .

لا يستحق الحيوان المفترس أن يلقب إذن بالوحش لتنازعه مع ند له

حول أنثى أو حول فريسة ، ما دام الإنسان يفعل مثل ذلك ، بل ويصل فيه إلى أبشع مما يفعل الحيوان .

أيكون الحيوان المفترس إذن قد استحق أن يوصف بالوحشية لأنه يفتك بالحيوانات الضعيفة ويأكلها ؟ ولكن الإنسان يفعل نفس الشيء . أى فارق بين الذئب يغافل الشاة فينقض عليها ويأكلها ، وبين الإنسان يذبح الشاة ليأكلها ؟ إذا كان هناك فارق فإنه لصالح الذئب والحيوان ، وليس لصالح الإنسان . . ذلك أن الذئب أو أى حيوان مفترس ، يقتنص فريسته وهى حرة طليقة تعيش فى الغابة كما يعيش ، وتستخدم من أساليب الدفاع عن نفسها والاحتماء والاختباء ما تمليه عليها غريزتها ، أى أن كل حيوان فى الغابة له فرصة تكافىء أى حيوان آخر ، فى حرية الانطلاق والهرب أو الدفاع عن نفسه .

الإنسان أكثر إمعانا فى العدوان

أما الإنسان فهو يحرم الحيوانات التى يأكلها من هـذا الحق ، إنه يحبسها ويقيدها داخل الأقفاص والأسوار ، ويتظاهر لها بالحب والرعاية ، أو يقدم لها غذاءها حتى تألفه ويألفها ، وتحبه ويحبها ، ثم ينقض عليها ذات يوم بالسكين ليسد بها نهم نفسه الجائعة ...

ما أكثر ما يصورون لنا فى الأفلام السينمائية الأسود وهى تقتنص فرائسها ، وعندما ينقض الأسد على غزال صغير ، أو عجل رضيع ، فإن قلوبنا تنفطر أسى ولوعة ، ودموعنا تسيل من أعيننا رحمة ورقة بهذا الوليد البرىء الذى يفتك به الأسد المتوحش فتكا . . فما الذى يفعله الإنسان بالليل والنهار وهو يربى الجاموس والأبقار ، لينتزع صغارها من أحضانها ليذبحها ذبحا حيث تظل الأم الثكلى تنوح على وليدها ، وقد يحدث العكس فتؤخذ الأم لتسلم لسكين الجزار تاركة أولادها الذين يخورون ويموءون بالأنين والحزن..

وما الذى نفعله بالذبيحة ؟ أو لا نسلخها ، أو لا نمزقها و نقطعها ، أو لا يأكل بعضنا رأسها ولا يلتذ إلا بمخها وعيونها ولسانها ؟ !

فلماذا نعد الحيوان المفترس وحشا إذا فتك ليأكل ، ولا نطلق هذا الاسم على أنفسنا ونحن نفعل فعلته . الحق أنه لا يوجد ما يبرر هذه التفرقة إلا أننا ما زلنا نحكم بل ونفكر بشريعة الغاب فعلا التى تجعل الحق هو ما يقول به القوى ، وأن ما يعد بالنسبة للضعيف رذيلة ، فهو بالنسبة للقوى فضيلة .

وهل يقتصر حكمنا بشريعة الغاب على معاملتنا للحيوان ، أم إن هذه الشريعة كما نتصورها هى التى باتت تحكم كل أفعالنا ، بل إنها الأساس الذى تقوم عليه فلسفة العصر المادى الحديث ؟ ولنبدأ منذ البداية .. لنبدأ من الجريمة التى يعتدى فيها الإنسان على أخيه الإنسان .

جرائم القتل والعدوان

رأينا فيما سبق أن الحيوان لا يعتدى على جنسه بالقتل ، فضلا عن أنه لم يحدث أبداً أن قتل حيوان مفترس أنثاه أو قتل أشباله وجراءه . فهل استطاعت البشرية فى أرقى مجتمعاتنا الحديثة أن تصل إلى هذه المرتبة ؟! لست أريد أن أعقد مقارنة بين حاضر الإنسان وماضيه فى هذه الناحية ، وهل زادت الجرائم اليوم عما كانت عليه منذ قرون ، والمهم أنها لا تزال موجودة ، وموجودة فى أرقى مجتمعات الإنسان ، وأنها تضم نماذج تقشعر لهولها الأبدان ، لفرط ما فيها من عدوان على مقدسات البشر مذ عرفوا أنفسهم فى هذا الوجود . فهناك أبناء تقتل أمهاتها وآباءها ، وأمهات وآباء يقتلون أطفالهم وأولادهم ، وهناك أزواج يقتلون زوجاتهم وزوجات يقتلن أزواجهن ، وأصدقاء يقتلون أصدقاءهم ، وهناك غاصبو الفتيات الصغيرات اللواتى لا يصلحن للمعاشرة الجنسية ، وهناك خاطفو الأطفال ، وحارقو الدور

والمزروعات ، وبائعو السموم التى تفتك بالبشر على صورة مخدرات ، وهناك المجرمون من كل صنف وطراز . وإذا كانت العدالة [1] تضع يدها من حين لآخر على بعض المجرمين ، فإلى جوار كل مجرم تقتص منه العدالة ، عشرات من المجرمين الأحرار الطلقاء الذين يواصلون جرائمهم فى منأى عن القانون لقوتهم أو حذقهم أو لجاههم وسلطانهم .

الجريمة فى الولايات المتحدة الأمريكية

وحسب الإنسان أن يطالع ما كتبته دائرة المعارف الأمريكية Americana فى جزئها الثامن تحت مادة « جريمة » ، لكى يهوله أن يكون سلطان الجريمة قد وصل إلى هذا الحد فى مجتمع يريد أن يجعل من نفسه قدوة للبشرية . لم تعد الجريمة فى أمريكا عملا فرديا ، بل لقد أخذت صورة الشركات والنقابات ، فهناك نقابات تتولى عمليات القتل ، وأخرى للسرقة والابتزاز ، وبعضها للقمار والمخدرات والرقيق الأبيض ، وبعضها للسيطرة على العمال . وتعمل النقابات بطريقة مكشوفة ، وكثيرا ما يشركون السلطات فى أعمالهم الإجرامية ، وينضمون للحزبين الكبيرين للاستظلال بجاههما . تقول دائرة المعارف « وقد تصل قدرة بعض الجمعيات الإجرامية إلى حد يعلن البوليس معه عجزه عن إمكان التغلب عليها » . وإذا كان هذا ما تقوله دائرة المعارف الأمريكية ، فيجب اعتباره تصويرا متواضعا للحقيقة ، هذه الحقيقة التى حملت إلينا وكالات الأنباء أخيرا صورة منها ، فقد أعلن أنه

---

(١) أيا كان الأساس الذى تقوم عليه شرعية القصاص من أنه ضرورى ولازم لإمكان قيام الاجتماع البشرى — فعملية القصاص (الإعدام) لا تعدو أن تكون إزهاقا للروح البشرية . فالدولة القوية أو صاحب السلطان كائناً من كان يقتل المجرم الذى أصبح ضعيفاً بوقوعه فى يد العدالة وهكذا تطرد القاعدة أن القوى يقتل الضعيف ، فالمجرم كان قوياً فقتل ضحيته الأضعف منه ، والدولة القوية تقتل المجرم الأضعف منها . (انظر خاتمة الكتاب — تذييل) .

قد ظهر أن خمس عدد رجال البوليس فى مدينة دنفر الأمريكية من اللصوص والمجرمين ، وقد ظل هذا العدد من رجال البوليس يسرق وهو يرتدى زيه الرسمى طوال الأربع عشرة سنة الماضية . ولما كان رجال بوليس مدينة دنفر ٨٠٠ ، فمعنى ذلك أن عدد أفراد البوليس الذين اشتركوا فى هذه الجرائم يبلغ ١٥٠ رجلا[١] .

وإذا كنا قد سقنا المثل من الولايات المتحدة الأمريكية ، فما ذلك إلا لأنها تمثل لدى البعض ذروة ما وصل إليه المجتمع الإنسانى من رقى مادى ، وإلا فالجريمة موجودة فى كل البلاد والمجتمعات . وهى أحد معالم عصرنا الحديث بأبشع مما كانت فى أى يوم من الأيام . وإذا كان هناك اليوم مجتمعات برئت من الجريمة ، فهى هذه المجتمعات التى لا تزال فى حالة من البدائية ، ولم تصل إليها نعمة الحضارة الحديثة .

جرائم الأحداث

رب قائل يقول إن ذلك كله من رواسب الماضى التى لا تلبث أن تزول بالتعليم والتربية ، وأن الأجيال القادمة ستكون خيرا من الأجيال السابقة ، ولكن الواقع يؤكد عكس ذلك ، فجرائم الأحداث فى ازدياد مستمر فى كل بلاد العالم ، حتى لقد ألفت منظمة الصحة الدولية لجانا من أعاظم الخبراء من الأطباء والباحثين الاجتماعيين ، فخرجوا من أبحاثهم بأن ازدياد جرائم الأحداث هو مشكلة المشكلات فى المجتمعات الأمريكية والأوروبية ، وأن معدل الزيادة مستمر فى جرائم العنف والجرائم الجنسية (بين صفوف المراهقين) وجرائم السرقة ، بل إن نوعا جديدا من الجرائم قد خرج فى زيادته عن المعدل المألوف ، وأصبح ظاهرة جديدة جديرة بالدراسة ، وتلك هى جرائم

(١) ملحق الأهرام الأدبى يوم الجمعة ١٩٦١/١١/٢٠ ص ٨ .

تحطيم النوافذ ومصابيح الشوارع وإتلاف السيارات والسب والعربدة . ولقد وصل الأمر بواحد من هؤلاء الخبراء الذين تصدوا لدراسة هذه المشكلة ، أن تلمس ناحية من نواحى الخير فى جرائم الأحداث ، وهى أن يتعرف المجتمع بالمجرمين القادمين فيبادر بعلاجهم إن كان يجدى العلاج[1] .

الحرب كبرى الجرائم

ولننتقل الآن إلى كبرى الجرائم التى اختص الإنسان بها نفسه دون سائر الحيوانات والحشرات كلها (باستثناء النمل ، أو بالأحرى أحد أنواعه فقط)[2] ونعنى بهذه الجريمة الحرب العدوانية ، التى يحاول فيها المتحاربان أن يبيد كل منهما الآخر. فإذا زعم زاعم أن الإجرام فى نهاية الأمر مقصور على فئة قليلة من المجموع الإنسانى الذى لا يجرم ، فما هو الرأى فى الحروب الجماعية المخربة المدمرة ، والتى يتحول فيها قتل الإنسان ونهبه وتعذيبه وتعذيب أولاده إلى أكبر الفضائل التى يقلد فاعلها الأوسمة والنياشين وسط الحفلات الصاخبة .

هل يجرؤ أى مدع ممن يملأون الجو صياحا عن التقدم الرائع الذى حققه البشر ، أن يزعم أن البشرية قد خطت خطوة واحدة فى سبيل التقدم

---

(١) إليك ما قاله هذا الخبير نقلا عن نشرة تصدرها منظمة الصحة العالمية :

« هناك اعتقاد سائد أن مجتمعاً راقياً وسليما يجب أن يخلو من جرائم الأحداث . ولا شك أن ذلك هو المثل الأعلى ، ولكن ما بقى الأبوان غير مستقرين ، والصغار يجربون كما هو الشأن حالياً ، فإن السؤال يعرض لنا هل من المرغوب فيه حقاً القضاء على جرائم الأحداث فيما لو كان ذلك ممكناً . إن هناك أكثر من عنصر يدل على أن جرائم الأحداث هى نوع من اختلال نظام الحدث مصحوب بما يمكن إلى حد ما من تشخيص علته . الأمر الذى يجعل هذه الجرائم أشبه بصمام الأمن . فمن وجهة نظر الصحة العقلية العامة الأوسع نطاقاً فستبقى مسألة القضاء على جرائم الأحداث محل جدل . فحيث يكثر نزلاء المستشفيات العقلية يقل نزلاء السجون والعكس بالعكس .

Gibben T.C.N. 196 Trends in Juvenile delinquency.

(٢) الإنسان فى العالم الحديث — جوليان هوكسلى — ص ٣٠٨ .

فى هذا السبيل ؟ ما هو أسود ما يسجله التاريخ لجيش من الجيوش فى أى عصر من العصور التى توصف بالهمجية والبربرية ؟ أيمكن أن يقارن بشىء مما ارتكب فى الحربين العالميتين الماضيتين ؟

ألم تستخدم الغازات السامة لإعماء الجنود أو دفعهم إلى الجنون ؟ ألم تهاجم المدن فى الليلة الواحدة بألف من الطائرات التى تحول بعض البيوت بما فيها من سكان ، إلى حطام وشظايا وعجين من دم الضحايا الأبرياء وأجسادهم ؟

ما الذى فعلته قنبلة هيروشيما وهى تقضى فى لحظة واحدة على ١٤٥ ألف نسمة و٧٠ ألفاً فى نجازاكى ، مع أنه لم تكن هناك ضرورة لفعل ذلك ، فقد كانت اليابان قد بدأت تتفاوض فى التسليم بالفعل ، ولم يكن لها من شرط سوى الإبقاء على إمبراطورها . فما الذى دفع إلى الإقدام على هذه المجزرة التى لم يسمع بمثلها التاريخ ؟ ! لقد قيل فى تبرير ذلك إنه قد قصد بها تقصير أمد الحرب . . فما هو الدافع للمغول والتتار لقتل من قتلوا أو ذبح من ذبحوا إلا أن تكون نفس الحجة ونفس الهدف وهو تقصير أمد الحرب ؟!

هل استطاعت الحرب العالمية الأولى بكل فظائعها ، وبكل ويلاتها . . هل استطاعت هذه الحرب التى اصطلى العالم بحرها أربع سنوات ، ذاق فيها الأمرين أن تلقنه درساً فى كره الحروب والابتعاد عنها . . ألم تقع الحرب العالمية الثانية ولم ينقض عشرون عاما على انتهاء الحرب الأولى ؟ . وهل تعلم البشر شيئاً من هاتين الحربين ، أو لا يتصرفون بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة التى أدت إلى قيام الحربين السابقتين ؟ أولا يحشدون الأسلحة ويتكلمون عن نزع السلاح كما كانوا يفعلون قبـــل الحربين الماضيتين ؟ أو لا ينفقون نصف ميزانية البشر[1] لإعداد وسائل التخريب والتدمير التى

---

(١) كانت ميزانية إيرادات الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦١ — ٨٢ ألف مليون دولار ، خصص منها للدفاع ٤٢ ألف مليون دولار ، وليس ذلك إلا نموذجاً لباقى الدول .

تقضى على الحضارة والإنسانية من أساسها ؟ فما هو المبرر لذلك كله ؟ يدعى كل من الطرفين أنه يفعل ذلك دفاعا عن نفسه . وكل الفظائع التى ارتكبها الطرفان فى الحربين الماضيتين لم تكن إلا دفاعا عن النفس . . فهل كان الإنسان القديم يقول غير ذلك . . وهل كان يفعل إلا هذا إذا حارب ؟ وعندما نتحدث عن الإنسان القديم ، فنحن نعنى به الإنسان الذى وضع قدمه على سلم مايسمى بالحضارة و نشوء الممتلكات والمقتنيات ، وإلا فإن علماء الحياة يقررون أن الإنسان البدائى فى العصر الحجرى لم يكن يعرف الحرب[1] .

جرائم إبادة الجنس Genocide

بقى ما قد يقال أحيانا من أن العادة جرت فى القديم بإعدام الأسرى ، وهو ما لم نعد نفعله ، ولقد فعلت ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية مالم يسمع بمثله فى التاريخ على هذا النطاق الواسع . فقد أباح الألمان لأنفسهم أن يفتكوا ببضع ملايين من اليهود[2] باعتبارهم أعداء للريخ الألمانى ، فكانوا يسوقون اليهود المنكودين ، الذين كانوا يعيشون فى البلاد التى فتحها الألمان ، إلى أفران الغاز ليختنقوا فى داخلها ، فلم تكن هناك وسيلة لقتل هذا العدد الضخم إلا عن هذا الطريق الوحشى . وقد أطلق على عملية إبادة اليهود بهذا الأسلوب إسم « الحل الأخير » . وقد احتفل بمصرع هذا العدد الضخم من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، كما يحتفل بأعظم الانتصارات .

ولو أن ألمانيا خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية لظل موضوع إبادة هذا العدد من اليهود إحدى المفاخر التى يحتفل بها فى كل عام ، ولأصبحت

---

(١) الإنسان فى العالم الحديث — ص ٣١٨ .

(٢) يقدر اليهود عدد من قتلوا فى هذه المذابح بستة ملايين ، كما تردد ذلك إبان محاكمة « إيخمان » فى إسرائيل ، وحتى لو كانت حقيقة الرقم لا تتجاوز النصف ، فإنها تظل رهيبة .

قدوة تحتذى فى كل بقاع العالم . ولكن ألمانيا خسرت الحرب فوصف هذا الذى فعلته بأنه جريمة إبادة الجنس التى يجب أن يتضامن العالم لاستنكارها ومحاربتها ، ووضعت لذلك معاهدة ، وإليك بعض ماقيل حول هذه الجريمة :

« جريمة إبادة الجنس اسم جديد لجريمة قديمة — والمعنى الحرفى للكلمة هو تعمد القضاء على جماعة وطنية أو جنسية أو دينية وقد كررت هذه الجريمة نفسها عبر التاريخ منذ اليوم الذى محت فيه روما قرطاجنة من الوجود ، كما لو كانت أحد قوانين الحياة ، ومع ذلك فقد كان مقدوراً على جيلنا (على ما يقول الدكتور روفاييل لمكين الذى صك اسم هذه الجريمة) أن يشهد هذه الجريمة وهى تمارس على أوسع نطاق بمعرفة ألمانيا النازية ، حيث اتخذت الدولة من جريمة إبادة الجنس سياسة عليا دائمة نفذتها فى برود وإصرار مستعملة فى ذلك آخر ما انتهى إليه العلم الحديث فى إنكار تام للإنسانية » .

وقال الدكتور W. J. ممثل استراليا فى الجمعية العمومية لهيئة الأمم عام ١٩٤٨ .

« لا يمكن للعقل أن يتصور أن تقوم الحيوانات نفسها ، أو الهمج الذين لم يتعلموا شيئاً على الإطلاق ، بارتكاب هذه الأعمال التى دبرت بأساليب جهنمية ، فى تعمد وقسوة ، ونفذت بدم بارد فى عصرنا الحديث لإبادة أحد الأجناس .

إن أعصاب الجنود الذين تمرسوا بالحرب ، وتحجرت عواطفهم لكثرة ما عانوا من ويلاتها وارتكبوا من فظائعها ، لم تستطع أن تحتمل رؤية هذه النفايات الجسدية لبعض ضحايا جريمة إبادة الجنس ، ممن ظلوا على قيد الحياة ، عندما رأوهم لأول مرة »[1] .

---

(١) The Crime of Genocide. A United Nations Convention

وقيل إن ضمير الإنسانية قد اهتز لهذا النوع من الجرائم ، فاجتمعت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، وأصدرت قرارها بإعداد معاهدة بين الدول للحيلولة دون تكرر المأساة . وحتى أول يناير سنة ١٩٥٩ كانت ٥٩ دولة قد وقعت هذه المعاهدة . فهل احترمتها دولة واحدة ممن وقعتها ؟

مذبحة دير ياسين

ولنبدأ باليهود أنفسهم الذين كانوا هم محل العدوان ، ألم يكونوا هم أول من ارتكب هذه الجريمة ضد العرب الذين آووهم وأحسنوا إليهم خلال القرون ؟ أو لم يعمدوا عقب صدور القرار بتقسيم فلسطين إلى إفزاع العرب لحملهم على الهجرة من فلسطين ، فأوقعوا المذابح التى يشيب لهولها الولدان فى دير ياسين ، حيث كانوا يفقأون العيون ويقطعون الأوصال ، ويبقرون بطون الحبالى ويمزقون الأطفال فى حجور أمهاتهم[1] . ولولا أن هبت الجيوش العربية لحماية الشعب الفلسطينى لكان مصيره الذبح عن بكرة أبيه ، ولكم أذهلنا نحن الذين عاصرنا الحوادث فى ذلك الوقت ، كيف راحت العصابات الإسرائيلية تتنافس للاستئثار بشرف نسبة هذه العملية إليها ، إلى أن استقر الشرف لدى عصابة « شترن » . ونجح اليهود فى الوصول إلى هدفهم وهو إجلاء العرب عن بيوتهم وقراهم وأراضيهم ، لينعم بها اليهود ويؤلفوا دولة إسرائيل . ويعيش الآن فى الصحارى المحدقة بفلسطين ، أكثر من مليون عربى من اللاجئين[2] بعد أن جردوا من كل شىء إلا من حياة التشرد ، فما هى إبادة الجنس إلا هذا ! !

(١) الصحف ووكالات الأنباء إبريل عام ١٩٤٨ — وانظر جريدة مصر الفتاة العدد ١٥٥ الصادر فى ١٩٤٨/٤/١٢ — والمؤرخ الإنجليزى « توينبى » .

(٢) يبلغ العدد الرسمى للاجئين كما هو مسجل فى سجلات المنظمة العالمية التابعة لهيئة الأمم .U. N. R. W. A قرابة المليون ، موزعين على الوجه التالى :

٦٠٠ ألف فى الأردن ، و ٢٤٠ ألفاً فى قطاع غزة ، و ١٤٠ ألفاً فى لبنان ، و ١١٠ آلاف فى سوريا .

سيول من الدماء فى الهند :

وعندما قضى بتقسيم الهند إلى دولتين مستقلتين فى سبتمبر عام ١٩٤٧ — الهند والباكستان — أى مذبحة مروعة تلك التى حدثت أثناء الرحلة بين البلدين ، والتى قدرت ضحاياها ببضعة ملايين ، ولم تقف هذه المجازر ولم يكن مقدراً لها أن تقف ، لولا أن ضحى غاندى بحياته ، فكان دمه المطلول هو الذى وضع حداً لهذه الكارثة ، التى لم يسمع بمثلها فى أى زمان أو مكان[١].

حرب الجزائر :

وما الذى يحدث فى الجزائر منذ سبع سنوات[٢]، ولا يزال يحدث فى هذه اللحظات التى أكتب فيها كتابى ، ألا يحاول نصف مليون جندى فرنسى مدججين بآخر ماعرف البشر من أسلحة الدمار أن يحولوا بين شعب من الشعوب وتقرير مصيره فى حرية ، بالرغم من إجماع العالم ممثلا فى هيئة الأمم على وجوب ذلك ؟ أو لم يبلغ عـــدد ضحايا الثورة الجزائرية حتى الآن على ما يقول الجزائريون ، ما يناهز المليون قتيل ؟ فما هى جريمة إبادة الجنس إلا هذا . ولندع ما يجرى فى الجزائر نفسها مما كان محل استنكار العالم كله وتبرؤ الفرنسيين[٣] لنرى ما الذى يجرى فى باريس هذه اللحظات ، باريس عاصمة النور كما يحلو لهم أن يسموها ، أو لم يقذف البوليس الباريسى المتمدن بمائة جثة من المتظاهرين الجزائريين فى مياه السين ، الأمر الذى أثار — على ما تقول الصحف — ثائرة نقابة المحامين الفرنسيين فطالبت بإجراء

---

(١) اغتال هندوكى متهوس غاندى فى ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ — طالع فى تفصيل المذابح التى جرت فى الهند عقب التقسيم كتاب « أمة تبعث » للمؤلف .

(٢) صدرت الطبعة الأولى قبل استقلال الجزائر .

(٣) اقرأ كتاب « عارنا فى الجزائر » لجان بول سارتر الفيلسوف الفرنسى — ترجمة الدار القومية للطباعة والنشر .

التحقيق ، وبدىء التحقيق بالفعل بعد أن انتشلوا ستين جثة غداة اليوم الذى كان المجلس البلدى يهنىء بوليس العاصمة[1] .

ألا يزيد عدد المعتقلين فى سجون فرنسا من الجزائريين على خمسة عشر ألف جزائرى يسامون سوء العذاب لا لذنب أو جريرة ، إلا أنهم يطالبون باستقلال بلادهم . الأمر الذى حملهم جميعاً على الإضراب عن الطعام ، احتجاجا على وحشية الفرنسيين[2] . وإذا كان الجزائريون لا يزالون صامدين أمام هذه المحن والويلات ، فليس ذلك إلا آية الإعجاز البشرى ، مما ندرسه فى هذا الكتاب[3] .

وما الذى يفعله البرتغاليون فى أنجولا هذه الأيام أيضاً ؟ أو لم يقتلوا فى الأسابيع الأولى لقيام الحركة التحررية ٥٠ ألف رجل وامرأة وطفل ؟ فما هى جريمة إبادة الجنس إلا هذا الذى ترتكبه هذه الشعوب المتحضرة والمتمدينة والتى استنكرت عمل هتلر من قبل !

الثورات :

وأخيراً ما الذى يحدث عندما تقوم الثورات فى أى بلد من البلاد لقلب نظام وإقامة نظام ؟ أى انفجار دموى ذلك الذى يحدث ، عندما يلغ الإنسان فى دم أخيه الإنسان ، وهو فى هذه المرة ليس بالعدو الخارجى وليس الثائرون فى حالة دفاع عن النفس ، يبررون بها ما يفعلون ، ذلك أن القائمين بالثورة يكونون هم المهاجمين فى أغلب الأحوال . ولست أريد أن أن أعود إلى الثورة الفرنسية وكم أريق فيها من دماء ، وارتكب من مظالم باسم الحرية ؛ لئلا يقال إن ذلك قد مضى وانقضى فى القرن التاسع عشر ، ولأسرع إلى الثورة التى قلبت نظام الحكم فى روسيا القيصرية ، ولن أرجع

(١) جريدة الأهرام يوم الثلاثاء — ٧ نوفمبر ١٩٦١ .

(٢) جريدة الأهرام ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦١ .

(٣) حصلت الجزائر على استقلالها أخيرا فى يوليو عام ١٩٦٢

إلى ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ وما جرى فيها من مذابح ، فلست أريد كما أكرر دائماً أن أخوض فى مناقشات مذهبية ، فلندع ثورة أكتوبر ، بل فلندع ما تلاها من حرب أهلية ، يمكن أن يتخذها البعض مبرراً لأشنع الجرائم ، ولنصل إلى عام ١٩٣٧ حيث كان الحزب الشيوعى أكثر ما يكون استقرارا فى حكم البلاد ، وديكتاتورية العمال لا تجد من يفكر فى تحديها ولو فى الخيال، فما الذى حدث وما الذى جرى ؟ ما الذى فعله ستالين باسم التقدم وباسم العمل من أجل الشعب والإنسانية ؟ ولأدع خليفته هو الذى يقول لنا ماذا فعل ستالين : —

« لقد لقى آلاف من الشيوعيين الأبرياء المخلصين حتفهم نتيجة تلفيقات وحشية دنيئة ، وكان المتهمون يرغمون على اتهام أنفسهم فضلا عن اتهام الآخرين ، تخلصا من العذاب .

وكانت الوسيلة الشريرة فى هذا الشأن ، أن يعد البوليس السرى قوائم بأسماء الأشخاص الذين تنظر قضاياهم ، ثم ترسل القوائم إلى ستالين شخصيا ، ليصدق على العقوبات سلفا . وقد أرسلت له خلال عام ١٩٣٧ — ١٩٣٨ قوائم بلغ عددها ٣٨٣ تحتوى على أسماء ألوف من أعضاء الحزب ومنظمة الشباب (الكوسمول ورجال الجيش وبعض العاملين فى الحقل الاقتصادى) ، وصدق ستالين على هذه القوائم » .

وبهذا الأسلوب لقى عشرات الألوف حتفهم أيام ستالين ، ومن هم هؤلاء الذين لاقوا حتفهم ؟ إنهم أعضاء الحزب ، بل أعضاء اللجنة المركزية فمن بين المائة والتسعة والثلاثين عضوا الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر أعدم بالرصاص ، ٩٨ أى ٧٠ ٪ من أعضاء اللجنة المركزية .

ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ، وإنما كان مصير الغالبية العظمى ممن اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر ، فمن بين ١٩٦٦ عضوا

يملكون حق الاشتراك والاقتراع ، ألقى القبض على ١١٠٨ أعضاء بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة . من هذا يتبين أن عدد الذين قبض عليهم كان أكثر من الغالبية – ولا شك أن هذه الحقيقة فى ذاتها كافية بأن توضح مدى ما كانت عليه تلك الاتهامات من سخف وقسوة ومجافاة للمنطق ، إذ كيف يعقل أن توجه تهمة ارتكاب أعمال مناهضة للثورة إلى غالبية المشتركين فى هذا المؤتمر »[١] .

وإذا كان خلفاء ستالين يرون من مصلحتهم أن ينددوا بما فعله ستالين بأعضاء الحزب ، فمن حق التاريخ أن يذكر ما عمل فى الفلاحين ممن أسموهم الملاك الجدد (الكلاك) عندما استؤصلت على ما يقولون شأفة عشرة ملايين إنسان ، ما بين مقتول أو مذبوح أو محروق أو منفى فى سيبيريا ليموت[٢] . إن خلفاء ستالين لا يقولون كلمة واحدة عن هذا العدد الضخم من الضحايا ، بل إن ذلك يعتبر من مفاخر ستالين ، كيف لا وهو قد قضى نهائيا على أعداء الثورة فى الاتحاد السوفيتى ؟

وما الذى عاناه الشعب الصينى لا من اليابان التى حاولت السيطرة عليه ، بل من الجيوش الصينية المتحاربة فيما بينها بعد جلاء اليابانيين ، عشرات بل مئات الألوف إن لم يكن ملايين ، سقطوا صرعى فى الخلاف الناشب بين أبناء البلد الواحد ، بعد أن أصبح لهؤلاء مذهب وأولئك مذهب آخر .

وماذا حدث فى المجر عندما ثارت بعض الطوائف على الحكم القائم فرد الحكم عن نفسه ، كم من ألوف الأرواح التى أزهقت فى بطش وضراوة

---

(١) خطاب الرفيق خروشيشيف فى المؤتمر العشرين — ترجمة ماهر نسيم

(٢) ذكر هذا الرقم تشرشل فى مذكراته نقلا عن ستالين شخصياً — أنظر صفحة ١٦٥ من كتاب : Khrushchev and Stalin's Ghost.

سواء كان من هذا الجانب أو ذاك ، وعندما قامت ثورة قريبة فى أحد الأقطار العربية أو لم يفتك الجمهور الغاضب بأعداء الأمس ؛ فدك بيوتهم ، وقتل نساءهم وأطفالهم ، بل ومزق أجسادهم ، حتى إذا فرغ من أعداء الأمس راح يتخاصم فيما بينه ويمثل بعضه بأجساد بعض[1] . .

مصرع لومومبا

وأخيرا وليس آخرا ماذا كان نصيب لومومبا رئيس وزراء الكونغو الذى أعلن استقلال بلاده ، أو لم يقيد بالحبال ، كما تقيد الحيوانات ، ويضرب بالنعال والسياط ، أو لم ينزع شعر رأسه ، ثم يدس فى فمه ويطلب منه أن يأكله. وعندما اشمأز الضمير العالمى من هذا التعذيب والتنكيل لرجل أعلن استقلال بلاده على يد مواطنيه ، أو لم يستأنف تعذيبه بأشد مما جرى من قبل ثم قتل فى خسة ودناءة وأخفيت جثته حتى لا يعرف مكانها ؟

رب معترض يقول ولكن ذلك حدث فى الكونغو وهى بلاد لم تتهذب بعد ، ولكن الذى فعل ذلك بلومومبا ليسوا غير المهذبين وليسوا من القبائل الهمجية ، وإنما فعله المتعلمون . . فعله الحكام الذين تتعامل معهم الدول. ولقد رأينا صورة الذى حل به فى الصحف وفى السينما وفى التليفزيون، أى أنه كان يقع على ملأ من العالمين الذين لا يرون فى ذلك إلا مجرد رواية تمثل . . . وحدث بالأكثر وللأمم المتحدة جيش فى الكونغو ليحول دون ذلك ، جيش قد ذهب إلى الكونغو بناء على طلب لومومبا بالذات . . ولكن الأمم المتحدة رأت فى هذه الوحشية أمورا داخلية لا يصح لها أن تتدخل لمنعها .

وقد كان من جراء هذا التهاون ، أن صرع هامرشولد نفسه ، أمين

---

(١) الإشارة إلى المجر لما وقع فيها من أحداث عام ١٩٥٦ ، والقطر العربى المقصود هو العراق وثورته عام ١٩٥٨ ، وما أعقبها من ثورة الشواف فى الموصل .

هيئة الأمم ، على يد الأشخاص الذين صرعوا لومومبا . فهل تغير وجه البشرية عام ١٩٦١ عما كان عليه فى أى قرن سابق على الميلاد ؟ على كل إنسان أن يكون لنفسه رأيا فى هذا الموضوع .

وقد بقى لكى يكون استعراضنا كاملا أن نشير إلى ما يتصوره البعض امتيازا للعصر الحديث ، من أنه لم يعد هناك رق ، كما زال التعصب الدينى من الوجود ، وانتشرت الدعوة للعالمية ، لنرى إلى أى حد يمثل هذا القول الحقيقة .

إلغاء الرق

فهل صحيح أن الإنسان قد ألغى الرق لأنه أصبح أكثر إنسانية ؟ أم أنه ألغاه لأنه لم يعد نافعاً بصورته القديمة ، فجاء بصور جديدة من الاستغلال والاسترقاق ، تجعل الرق فى صورته القديمة نعمة ورحمة من السماء ؟ يرد على هذا التساؤل الواقع الذى نعيش فيه . ما هو الاستعمار الذى ساد القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، إلا أن يكون استرقاق شعوب بالجملة ، واليوم والاستعمار يتداعى كما يقال ، أولا تتشبث شعوب أوربية بضرورة إبقاء بعض الشعوب فى العبودية الكاملة كما يحدث الآن فى أنجولا على يد البرتغال [1] ، وكما يحدث فى جنوب إفريقيا حيث يأبى البيض إلا أن يعتبروا السود قد وجدوا فى الدنيا لخدمتهم . أولا يوجد فى الولايات المتحدة نفسها من يتصور هذا التصور ويصر على التفرقة العنصرية ؟

ولندع موضوع الاستعمار جانبا ونتكلم عن علاقات البشر داخل الوطن الواحد ، ما الذى مارسته الرأسمالية فى عصورها الأولى ، كيف عومل

---

(١) راجع « الرق الحديث فى أفريقيا البرتغالية — للدكتور راشد البراوى »

العمال باعتبارهم سلعة كأى سلعة أخرى فى السوق ؟! كيف كان الصبيان والنساء يشتغلن اثنتى عشرة ساعة أمام الآلات ؟! كيف وصل الأمر إلى حد أن بعض الآباء كانوا يحملون أولادهم المرضى للعمل فى المصانع ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد للحصول على القوت ، وكان بعض الآباء يطعمون أولادهم وهم وقوف أمام الآلات ، فليس هناك وقت لتناول الطعام [1] ؟! كل ذلك وأكثر منه قد حدث ، مما تغص به كتب التاريخ والاقتصاد والاجتماع ، وما كان هو السبب المباشر لاندلاع الثورات الشيوعية ، كرد فعل لهذه المظالم .

الأرقاء الذين صاروا ملوكاً

أين هذا مما كان يتمتع به الرقيق من عناية سيده فى الزمن القديم ، باعتباره مالا مملوكا له يحرص عليه من الضياع ، ولو حدث أن أظهر الرقيق شيئاً من الإخلاص والوفاء فضلا عن الذكاء ، فإن سيده كان يبادر بتعليمه ، والاعتماد عليه فى كل شئونه ، وكثيراً ما كان الرقيق يصبح شريكا لسيده ، أو ابنا له بالتبنى [2] ، ويسجل لنا تاريخ مصر ، كيف أن طائفة من الرقيق قد استطاعوا أن يصبحوا حكاما وأمراء ، وأن يصلوا فى نهاية الأمر إلى أن يكونوا ملوكا من أعظم من عرفتهم مصر فى كل تاريخها الطويل ، من أمثال قطز قاهر التتار ، والظاهر بيبرس وقلاوون والغورى .

فالتشدق بأن العصر الحديث قد ألغى الرق وحرر الإنسان ، هو مجرد قول سطحى لا يمثل حقيقة الواقع .

رب قائل يقول إن العمال اليوم قد تحرروا من الرأسمالية ، وأصبحوا

---

(١) رأس المال لكارل ماركس — ترجمة الدكتور راشد البراوى .

(٢) من الأمور المألوفة فى مجتمعنا المصرى القديم هذه الأوقاف المخصصة لذرية من كانوا فى القديم من الأرقاء .

يستمتعون بالحياة ، ولكن الواقع مرة أخرى يؤكد أنه فى المجتمعات الأكثر تقدمية على ما يقولون ــ وهى المجتمعات الشيوعية ــ قد فقد العمال حريتهم، وعاشوا فى ضنك لم يسبق له مثيل ، حتى يكون فى استطاعة الدولة أن تقوم بعمليات التصنيع ، واليوم يعيش العمال فى الصين فى أشق أنواع العمل والعبودية لما يسمونه « الكميونات » ، أى العمل الجماعى لمصلحة المجموع. ولسنا الآن فى صدد الحكم على هذا النظام أو ذاك ، ولكننا فى صدد إثبات أن كل حديث عن التقدم البشرى المزعوم ، هو حديث خرافة ، وأن الرق بمعنى فقدان الحرية الشخصية ، يمارس الآن فى أنحاء العالم على صورة أو أخرى ، فالسيد هو الذى يتغير فتارة يكون أميرا ، وتارة يكون رأسماليا ، وثالثة يكون الدولة ، ولكن المضمون واحد فى كل هذه الأحوال ، وهو أن يشقى السواد الأعظم من الشعب ، تحت أسوأ الظروف لينعموا فى المستقبل البعيد ، أو ينعم أولادهم من بعدهم ، أو لتنعم الأجيال القادمة من بنى الإنسان . أما الرؤساء والمديرون ، أما المنظمون والقادة ، فمن حقهم أن ينعموا فى التو واللحظة .

هل قضى على التعصب ؟

وإذا كان الأمر فى موضوع الرق يقوم على مجرد اللعب بالألفاظ ، ونقل حقيقة الرق من ميدان إلى ميدان ، فكذلك الشأن بالنسبة لهذه الدعوى التى تقول إن العصر الحديث قد قضى على التعصب الدينى ، وحرر العقل من القيود التى كانت تكبله بها الكنيسة أو رجال الدين فى أى عهد من العهود .

ويحلو للكتاب دائما أن يذكروا بأسماء برونو الذى حرق لأنه خرج على الكنيسة ، واسم جاليلو الذى أوشك أن يحرق لأنه قال بكروية الأرض ، وأن يتحدثوا عن محاكم التفتيش التى كانت تعذب المتهمين للحصول

على اعترافاتهم ، وأن يشيروا إلى المذابح التى أوقعها البروتستانت بعد ذلك بالـكاثوليك فى المجتمعات التى آلت إليهم فيها السلطة .

ويتنفس الناس الصعداء أنهم لا يستظلون بهذه العهود ، ويفركون أيديهم فرحاً وابتهاجاً .

وصحيح أن كل إنسان اليوم حر فى أن يكفر بالله والـكنيسة والأديان كلها ، وحقاً أن كل إنسان يستطيع أن يقول اليوم إن الأرض تدور أو لا تدور ، وأنه يوجد فى الـكواكب الأخرى حياة أو لا توجد عليها حياة ، وأن الإنسان سيخلق المادة الحية ، وألا إله سوى الطبيعة إن كان هناك إله على الإطلاق .. أجل باستطاعة كل إنسان أن يقول ذلك اليوم بملء حريته . ولـكن هل معنى ذلك أن الإنسانية قد قضت على التعصب ، وأن العقل قد أصبح حراً طليقاً يمرح كما يشاء ويقول ما يشاء ؟ والجواب على ذلك بالسلب. فالتعصب هو التعصب كما كان فى أى عصر وزمان ، وكل ما فى الأمر أن ميدان التعصب الذى تزاوله الدولة قد تغير ، فانتقل من ميدان الدين إلى ميدان الوطنية أو ميدان المذهب .

فبالأمس كان الدين هو الأساس الذى يقوم عليه البنيان الاجتماعى ، فكل محاولة لهدم الدين ومعتقداته الأساسية هى عدوان على أسس النظام الاجتماعى ، الأمر الذى يهدد سلامة الجماعة ، وإذن فقد كان لا بد أن يقمع وأن يقمع بالشدة التى تراها الجماعة محققة لأمنها وسلامتها .

وعلى هذا الأساس قامت محاكم التفتيش ، وعلى هذا حرق من حرق ، وسجن من سجن ، ومنع الناس من أن يقولوا بدوران الأرض ما دام أن القول بذلك يخالف ما هو مثبوت فى التوراة والإنجيل ، وهو الأساس الذى يقوم عليه النظام الاجتماعى .

واليوم أصبح الولاء للوطن لا للدين هو أساس المجتمع ، فهل يسمح لمسلم فى بلد مسيحى ، أو هل يسمح لمسيحى فى بلد مسلم ، أو يسمح

الكاثوليكى فى مجتمع بروتستنتى ، أن ينادى بالولاء لبلد آخر كاثوليكى والعكس بالعكس . . إن مثل ذلك يعتبر خيانة للوطن ، يدفع المنادى به حياته ثمناً لذلك ، مع دمغه بالخيانة والمروق .

وفى مجتمع ملكى رجعى هل يسمح لإنسان ما أن يدعو للنظام الجمهورى ، وأن يعمل على تقويض النظام الملكى ؟ أو لا يكون جزاؤه الإعدام شنقاً أو حرقاً أو رمياً بالرصاص ، من خلال محاكمة عادلة أو بدون محاكمة على الإطلاق ؟ !

وأخيرا فى مجتمع شيوعى يقوم على أساس الملكية الجماعية ونظريات كارل ماركس .. هل يستطيع إنسان أن يندد بالملكية الجماعية ، وأن يدعو للملكية الفردية ، وأن يحقر من شأن كارل ماركس ، أو يجدف بكتابه رأس المال ؟ هل يستطيع إنسان فى الاتحاد السوفيتى أو فى الصين ، أن يدحض المادية الجدلية ؟ ألا يكون نصيب هـذا الشخص هو الشنق أو الحرق أو الإعدام رميا بالرصاص ، من خلال محاكمة عادلة ، أو غير عادلة أو بدون محاكمة على الإطلاق ؟

ومثل ذلك يقال عن المجتمع الرأسمالى . . هل يسمح فى ذلك المجتمع بقيام من يدعو لتقويض هذا النظام ؟ لا أحد يسمح بذلك[1] .

وهكذا نرى أن المسألة بالأمس لم تكن مسألة تعصب أو تسامح ، وإنما مسألة أسس المجتمع التى يراد المحافظة عليها لصالح حاكم أو جماعة ، أو طائفة من أى نوع كان . والأمر اليوم كما كان بالأمس ، لا علاقة له بالتعصب أو التسامح ، وإنما هى مسألة كيان يعمل المجتمع على المحافظة عليه ، والبطش بكل من يهدد أسسه . ولحماية الدولة ونظامها الاجتماعى ، تجرى وسائل التعذيب

---

(١) راجع فى ذلك الموضوع بالتفصيل — رسالة الدكتوراه للدكتور محمد عصفور حول « وقاية النظام الاجتماعى باعتبارها قيداً على الحريات » .

للحصول على الاعترافات بأبشع مما حدث فى أى يوم من أيام التاريخ ، وتقع المذابح وحمامات الدم بما تعـد إلى جواره مذبحة سانت بارتلمى مجرد مناوشة صغيرة[1].

فالتسامح اليوم الذى تبديه الدولة فى الأمور الدينية ، لم ينبع من رقى أو تطور فى طبيعة الإنسان ، وإنما يرجع إلى أن الدولة قد أخرجت الدين من الحساب ، وأحلت أمورا أخرى هى التى تتعصب لها ولا تقبل فيها تسامحاً من أى نوع كان ، ويكون الإنسان اليوم كما كان فيما مضى من الزمان .

السعى لتحقيق العالمية

ونصل أخيراً إلى ما يعتبره البعض سمة تميز عصرنا الحديث ؛ ذلك أنه يدعو بل ويعمل لتحقيق الدولة العالمية التى تصون السلام وتقضى على الحروب ، وتحقق التآخى بين البشر . وهيئة الأمم هى أكبر شاهد على ذلك ، ليس فقط فى جهودها السياسية ، بل هيئاتها الفنية الأخرى التى تضم جهود شتى الدول لمواجهة المشكلات على الصعيد الإنسانى[2] . ونحن ممن يؤمنون بأن البشرية لابد محققة فى يوم من الأيام هذا الهدف ، ولـكنه حتى الآن لم يتحقق بعد ، والحقيقة الواقعة التى نحياها هذه الأيام هى أنه لم يحدث أن انقسم العالم إلى كتلتين متباغضتين بأشد مما يحدث اليوم ؛ حيث يغرق العالم نتيجة هذا التباغض فيما أسموه الحرب الباردة ، والتى قد تتحول فى أى لحظة — ولو بسبب غلطة عابرة — إلى حرب ساخنة أو بالأحرى إلى كارثة .

فإلى أن يتم الوفاق وإزالة أسباب الشحناء ، فـكل حديث عن توحيد

(١) حدثت أيام هتلر مذبحة رهيبة أطلق عليها اسم حمامات الدم وقد قتل فيها عشرات الألوف . كما استغل حادث حرق الريشستاغ ، للتنكيل بمئات الألوف من الشيوعيين ومطاردة الملايين منهم .

(٢) راجع التذييل فى آخر الـكتاب .

العالم لا يزال فى دور المحاولة، وليست هذه المحاولة فضلا يستأثر به العصر الحديث دون العصور الماضية؛ فالدعوة للعالمية لم تنقطع فى أى يوم من الأيام . . وقد حققتها روما بصفة جزئية فى فترة من الفترات ، حيث كان حوض البحر الأبيض المتوسط كله والجزء الأكبر من أوروبا تسيطر عليه حكومة واحدة وقوانين واحدة .

وعملت عليها الأديان التى ليست فى طبيعتها إلا دعوة لتوحيد بنى الإنسان، تحت لواء رب واحد وقانون سماوى واحد . ووصل الإسلام فى ذلك للذروة، سواء من الناحية النظرية أو العملية . . فمحمد رسول قد أرسل للناس كافة ورحمة للعالمين؛ ليعبدوا ربا واحدا ويستظلوا بشريعة واحدة ، ويؤلفوا دولة واحدة لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، لأن القرآن يقول « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وعلى هذا الأساس قامت الدولة الإسلامية من غرب الصين حتى ساحل المحيط الأطلسى وكان المسلم ، كل مسلم ، يعتبر نفسه مواطنا فى هذه الدولة المترامية الأطراف ، يتجول فيها وينتقل ويتاجر ويملك ويتزوج ويخاصم ويصالح دون أن يطلب منه إبراز جواز سفر ، أو تقف فى وجهه حواجز جمركية ، وحسب الإنسان أن يطالع كتب الرحالة من أمثال المسعودى والبغدادى وابن جبير وابن بطوطة وخسروشاه ؛ ليرى كيف ساح هؤلاء فى هذه الدولة الإسلامية التى تؤلف الجزء الأكبر من آسيا وأفريقيا ، فكانوا هم هم فى كل مكان يحلون فيه ، مسلمين فى دولة إسلامية ، يتمتعون بكل حقوق المواطن فى هذه الدولة الواحدة ، أيا كان الحكام الذين يحكمونها . بل إن العجب ليذهب بنا إلى أبعد من ذلك ونحن نطالع كتب هؤلاء الرحالة ، عندما يقولون لنا إن الحروب الصليبية بكل أهوالها ، كانت وقفا على المتحاربين من الجانبين ، أما المدنيون فلم يكن يتعرض لهم أحد ، فكان المسيحيون يدخلون إلى مدن المسلمين ، والمسلمون

يدخلون إلى مدن النصارى ، والحرب دائرة بين الطرفين ، دون أن يفكر أحد فى منعهم أو التعرض لهم بأى صورة من الصور[1] . ولم يكن ذلك وقفا على الشرق الإسلامى ، فقد كان الحال كذلك فى أوروبا تحت حكم شارلمان ، ومن قبل تحت حكم بيزانطة والرومان من قبل . فالدعوة للعالمية ليست شيئاً جديداً ، ولا هى من خلق العصر الحديث أو ثمرة حضارته كما يظن البعض ، بل إن الذى لا شك فيه أن العصر الحديث متخلف جدا فى هذه الناحية بالنسبة للإمكانيات المتاحة له ، ونعنى بها انتشار اللاسلكى والتلفزيون والطائرات .. الخ .

إفلاس

وهكذا يقف الإنسان فى منحدر القرن العشرين ، وهو فى حالة إفلاس بالنسبة لتحقيق أى تقـــدم حقيقى فى علاج المشكلات المزمنة التى واجهت البشر منذ أقدم العصور . فالآلام البشرية مادية كانت أو معنوية ، لا تزال هى الآلام ، والحرمان والمرض والجوع هى الطاحونة التى تطحن السواد الأعظم ، ولا يزال القانون السائد فى علاقات البشر بعضهم ببعض هو غلبة الأقوياء على الضعفاء وتحكم القلة فى الغالبية .

ولا يزال الحقد والحسد والبغضاء والمنازعات والفتن ، هى أسلوب الحياة المتبع ، سواء فى المعاملات بين الأفراد أو الجماعات . ولا يزال ملايين البشر يعيشون فى رعب دائم ، وهم مقيم من خوف الحرب الطاحنة التى لا تبقى ولا تذر .

فكل حديث عن تقدم البشرية نحو المثل الأعلى الذى ينشده بنو الإنسان ، هو مجرد وهم وسراب يحسبه الظمآن ماء ، فإذا جاءه لم يجده شيئا ، والأمر لا يعدو أن يكون قعقعة بالألفاظ ، ولونا من ألوان الغرور الذى يتردى

(١) الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى — للدكتور نظير حسان سعداوى ص١٦٨.

فيه كل جيل من الأجيال الحديثة عندما يتصور نفسه ، أحسن حالا مما كان عليه السابقون .

أين تقهقر البشر ؟

وإذا كنت أريد أن أترك للقارىء نفسه ، الحكم على ما إذا كانت البشرية قد تقدمت أو تخلفت ، واقفا عند حد القول بأنها لم تتقدم على تحقيق ، فإن هناك ناحية لا أتردد بالنسبة لها فى الجزم بأن الإنسانية قد تخلفت فيها ، بل وتدهورت ، تلك الناحية هى النظرة إلى الإنسان الفرد وتقويمه ، ووزنه فى المجتمع ومكانه فى هذا الكون .

ولن أحاول أن أقارن بين نظرة القرن التاسع عشر إلى الإنسان الفرد ونظرة القرن العشرين ، لئلا يزج ذلك بنا فى مناقشات مذهبية ، تخرج عن نطاق هذا الكتاب ، وإنما سأعود إلى العصور القديمة، لأحاول أن أستشف نظرة الإنسان الأول إلى نفسه ، لنرجع إلى الآراء والمعتقدات القديمة ، التى يحلو للكثيرين منا أن يسخروا منها ، لنبحث عن قيمة الإنسان الفرد .

الانسان فى العالم القديم

الإنسان فى كل المعتقدات القديمة هو الله بذاته ، أو هو من سلالة الآلهة ، أو هو المسكن الذى يمكن أن تحل به الآلهة . فتأليه الأجداد وعبادتهم باعتبارهم آلهة ، هو أقدم العبادات ظهورا فى الوجود . وكان المصريون القدماء يعتقدون أن كل إنسان صالح يتحول بعد موته إلى أوزوريس ، ولذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموت فى خوف أو وجل[1] . وكان مجتمع الآلهة الإغريقية فوق جبل الأولمب لا يختلف عن أى مجتمع إنسانى ، وكانت العلاقة مستمرة بين الإنسان والآلهة ، فيدخلون فى علاقات

(١) تاريخ مصر القديمة — ترجمة حسن كمال ص ٤٣ .

مشتركة من كل لون وطراز[1] . والفكرة الرئيسية فى أديان الهند، تقوم على وحدة الوجود ، فالإنسان من الله والله فى الإنسان . ومن المشهور والمعروف أن اليابانيين يعتبرون أن الميكادو هو ابن الشمس ، وعندما كان للصينيين امبراطور فقد كانوا يعتبرونه ابن السماء .

فإذا انتقلنا إلى الأديان السماوية ، فإن العهد القديم يقول لنا « إن الله قد صنع الإنسان على صورته ومثاله »[2] . والعقيدة المسيحية كما نص مجمع نيقية عام ٣٢٥ م تقول « يسوع المسيح هو ابن الله ، المولود غير المخلوق من نفس جوهر الأب ، وبأنه من أجل البشر ومن أجل نجاتهم ، نزل وتجسد ، وصار إنسانا وتعذب ».

فإذا جئنا إلى الإسلام الذى انفرد بتنزيه الله عن الحلول والتجسيد والتشبيه ، فالإنسان فى تعاليم هذا الدين الحنيف ، به نفحة من الله ، وقد سجدت له الملائكة ، التى لا تسجد إلا لله ، وقد اختاره الله ليكون خليفته على الأرض وسيدا للكون . ويتصل الله بالبشر عن طريق الروح الأمين وهو جبريل ، والذى وصف فى بعض الآيات بأنه روح القدس .

وطبقا لهذه العقيدة والتصور ، فإن أى إنسان يمكن أن يقع عليه اختيار الله ، ليكون رسولا أو نبيا أو وليا أو قديسا ، فيتصل برب العالمين ويعمل بقوته ، ويبشر بحكمته ، ويفيض على الناس بهدايته ، وهو فى كل الأحوال قادر على أن يغترف من قدرة الله مايجعله يقوم بالمعجزات والخوارق.

ومرة أخرى لست بصدد مناقشة هذه الآراء والمعتقدات ، ومدى حظها من الخطأ أو الصواب فذلك يخرج عن دائرة بحثنا فى هذا الفصل ، وإنما سقنا هذه الأقوال لأنها تدلنا على نظرة البشر المؤمنين منذ أقدم

---

(١) قصة الحضارة الجزء الأول — المجلد الثانى ص ٨١ .

(٢) سفر التكوين — الفصل الأول .

العصور إلى الإنسان وقد كان العلم فى القديم يقوم على تأكيد هذه النظرية وتدعيمها بالدليل المنطقى والعقلى والتجريبى . وهو ما كان الناس جميعا ، لا فرق فيهم بين عالم وجاهل يعتبرونه حقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فعلام يؤدى هذا التصور ، أو بالأحرى ما هى العناصر التى يقوم عليها كيان الإنسان فى سائر الأديان والعقائد التى توصف بالقديمة كلها؟

تقوم عناصر الكيان الإنسانى على الحقائق الآتية :

١ — خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم .

٢ — لا حد لقدرة الإنسان ولما يستطيع أن يفعله إذا أفاض الله عليه من قوته .

٣ — روح الإنسان خالدة لا تموت لأنها قبس من روح الله .

خلق الإنسان فى أحسن تقويم

وتلك هى النتيجة الطبيعية لكونه سليل الآلهة ، أو خلق على صورة الله ، أو اتخذ الله من صورته محلا ليتجلى على البشر ، أو كان خليفة الله ونائبه فى السيادة على هذا الكون .

وقد كان هذا الشعور الإنسانى بالصلة التى تربط الإنسان بالله الذى يمثل الكمال المطلق ، هو الحافز القوى الذى دفع البشر لالتماس الكمال فى كل شىء ، كما يتجلى ذلك فى صناعاتهم وأعمالهم ونفوسهم ، بل وأخلاقهم وفلسفاتهم . ولم يتصوروا الكمال المطلق أمراً مستحيلا أو بعيد التحقيق ، بل تصوروه دائماً أمراً مستطاعاً كامناً فى نفوسهم ، فقد ولدوا كاملين ، وإذا كانت بعض العناصر قد انحرفت بهم عن طريق الكمال ، فإن بعض المجاهدة تردهم إلى هذا الكمال الذى هو نصيب الإنسان .

ولا حد لقدرة الإنسان

ولم يتصور الإنسان القديم أن هناك حداً تقف عنده قدرته ، فالإنسان قادر على كل شيء ، مستطيع لكل شيء ، وقد انعكس ذلك على آداب هذا الإنسان ، فقد أطلق لخياله العنان، ولم يضع على هذا الخيال قيوداً أو سدوداً ، فحيثما حلق الإنسان بخياله فقدرة الإنسان واصلة حتما إلى هذا الخيال . والمستحيلات لا تعدو أن تكون حقيقة أو حقيقتين ذهنيتين ، كقولك إن الشيء لا يمكن أن يكون معدوماً وموجوداً فى ذات الوقت ، أو قولك إن الجزء لا يمكن أن يكون أكبر من الكل . . وفيما خلا ذلك فكل مادار فى الذهن على أنه ممكن ، فهو جائز الوقوع وليس بعيداً عن قدرة الإنسان . فلو قال قائل لآخر إنه سمع أن إنساناً طار فى الهواء فلن يكذبه مكذب ؛ ذلك أنه قادر على ذلك بتسخير بعض القوى الأرضية أو العلوية . . ولو روى إنسان أنه شهد إنساناً قد شرب البحر ، فلا محل للقول بأن ذلك مستحيل ، فالإنسان قادر على كل شيء ، لو أنه أدرك بعض الأسرار وهيمن على بعض القوى .

خلود الروح الإنسانية

وأخيراً فإن حياة الإنسان لا تنتهى بموته ، فإن روحه خالدة لا تموت ؛ لأنها من روح هذا الكون وقبس منه ، وليس الموت سوى نقله من صورة إلى صورة ، ومن حالة إلى أخرى ، فالروح خالدة ولا فناء للروح

وقد انبثق من هذه الأسس التى قامت عليها عقيدة الإنسان القديم كل مايهزنا ويروعنا من هذه الحضارات القديمة ، سواء فى آثارها المادية أو المعنوية والتى تصل إلى ذروتها فى تقديس الحياة الإنسانية ؛ إذ يعبر عنها القرآن أروع تعبير عندما يقول :

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس

جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »[1] أو قوله : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا »[2] .

وليس وراء ذلك مطمع يمكن أن يطمع فيه بنو البشر لإعلاء مكانة الإنسان الفرد ، وهو أن تصبح حياة الفرد الواحد منهم مساوية لحياة البشر أجمعين ، فمن اعتدى عليها فكأنما اعتدى على الإنسانية كلها . وأنه يفوق السموات والجبال والأرض فى القدرة ، إذ احتمل من المسئولية مالم تحتمل ، إما عجزاً ، أو خوفاً .

نكسة العصور الحديثة

هذا هو المكان الرفيع الذى كان الإنسان يتبوأه فى هذا الكون حتى أنزلته عنه العصور الحديثة ، عصور المادة والآلة وجحود الروح والرب وكل المعنويات والقيم والأخلاق .

وباستطاعتنا أن نضع أيدينا على الفكرة التى كانت السبب فى النكسة التى أصابت مكانة الإنسان الفرد فى العصور الحديثة . كان ذلك عندما نشر لأول مرة فى مدينة نورمبرج عام ١٥٤٣ كتاب كوبرنيكس ، الذى هدم فيه نظرية بطليموس وأرسطو من قبله ، وهى التى سادت العالم بضعة عشر قرناً من الزمان ، والتى تقول بأن الأرض هى مركز الكون وهى ثابتة لا تتحرك والشمس وباقى الأجرام السماوية هى التى تدور حولها .

فجاء كوبرنيكس الفلكى البولندى يقول لنا : بل الأرض هى التى تدور حول الشمس ، وبالتالى فهى ليست مركز العالم[3] . ولم يكن فى هذا الذى قاله كوبرنيكس شىء جديد فى عالم العلم والمعرفة ، إلا بالنسبة لسكان أوروبا ،

(١) المائدة ٣٢ . (٢) الأحزاب ٧٢ .
(٣) أساطين العلم الحديث — ليعقوب صروف .

فقديما قال بهذا الرأى فيثاغورس (٥٧٢ — ٤١٧ ق . م) وزاد عليه استرخس (٣١٠ — ٢٣٠ ق . م) أن الأرض تدور دورتين ، مرة حول نفسها كل ٢٤ ساعة ومرة حول الشمس كل عام[١] . فليس فيما جاء به كوبرنيكس جديد ، ولكن الجديد أن الكنيسة فى أوربا كانت قد اتخذت من نظرية بطليموس وأرسطو أساساً لتعاليمها التى تفسر بها الكتاب المقدس. فالأرض هى مركز الكون ، والإنسان هو مركز الأرض ، فالإنسان هو مركز الكون،ولذلك فقد بعث الله ابنه الحبيب،ليقيل عثرته وليخلصه من خطيئته التى ارتكبها أبوه آدم من قبل . ولقد تصورت الكنيسة فى ذلك الوقت ، أن هذه العقيدة تضطرب وتتزعزع من أساسها ، إذ لم تعد الأرض هى مركز الكون ، ومن هنا ولهذا السبب كان حرب الكنيسة لفكرة دوران الأرض حول الشمس[٢] .

وتحولت الكنيسة التى كانت أكبر مشجع على العلم ، إلى أكبر عدوة له ، وبدأ العلماء يعملون خارج نطاق الكنيسة ويعادونها ، وبدأ هذا العداء يجرف فى طريقه كل ما تتمسك به الكنيسة ، فإذا كانت الكنيسة تعتبر أرسطو هو المعلم الأول ، إذن فليسقط أرسطو ولتسقط كل العلوم التى تجىء عن طريق أرسطو وأفلاطون معاً ،ولقد زاد فى تأكيد هذا المعنى ، أن أرسطو قد قال بأنك لو ألقيت بجسمين من مكان عال ، فإن الجسم الكبير

(١) أساطين العلم الحديث .

(٢) لولا أن كوبرنيكس الذى دعا إلى هذا القول قد مات فى نفس العام الذى نشر فيه كتابه لربما كان مصيره مصير برونو من بعده ، ذلك الذى دفع حياته ثمنا لتمسكه بهذا القول من دوران الأرض حول الشمس .

كما أوشك جاليليو (١٦١٠) أن يلقى ذات المصير ، لولا أنه كان من الحكمة بحيث تراجع عن قوله فى الظاهر . وإلى جاليليو يرجع الفضل فى إثبات ما قال به كوبرنيكس لاختراعه (التلسكوب) أى المنظار المكبر الذى أمكن بواسطته رؤية أقمار تدور حول الزهرة ، وأوجه للمريخ ، وهو ما قال به كوبرنيكس باعتباره النتيجة الطبيعية لدوران الأرض حول الشمس .

أو الثقيل يسقط بأسرع من الجسم الصغير أو الخفيف ، ولقد أثبت جاليليو فساد ذلك ، فلا بد أن تكون كل المعارف القديمة على هذه الوتيرة . وإذن فلا مناص من إنكار كل ما قال به الأقدمون جملة ، وأن يعاد النظر فى كل شيء ، فما ثبت بالتجربة فهو العلم الصحيح ، وما لم يثبت فلا يمكن أن يكون علماً[1] .

ورفع لواء هذه الصيحات الجديدة (فرنسيس بيكون الإنجليزى ١٥٦١ — ١٦٢١) ورينيه ديكارت الفرنسى (١٥٩٦ — ١٦٥٠) .

ومع كل اختراع جديد أو كشف جديد ،كانت الصيحة تقوى ضد كل ما هو قديم ، ومع رغبة الإنسان الحديث فى التحرر من سلطان الكنيسة وقيودها ، راح يحطم كل ما يمت إلى الدين والكنيسة بصلة . . . راح يكفر بالمعجزات وبالدين من أساسه ، بل وبفكرة الله ، وبالروح وبالنفس ولا يؤمن بغير المادة موجوداً وبالطبيعة خالقاً ، واعتبر كل تراث الإنسانية القديم ليس سوى لون من ألوان الخرافات والترهات والأساطير .

وفات هؤلاء الثائرون على الله وعلى تراث البشرية القديم ، أنهم إذ يحطمون فكرة الله . فهم يحطمون الإنسان معه ، فقدرأينا الصلة الوثيقة بين الله والإنسانورقىالإنسان ومكانته فىهذا الكون ، مستمدة من فكرة الألوهية ، وعلى ذلك فلم يعد الإنسان يزيد فى عالم القيم الجديدة عن ذرة تراب هائمة فى هذا الكون اللانهائى ، بلا هدف أو غايةأمام قوى الطبيعة الساحقة الماحقة ، المجردة من كل حياة وشعور ، الطبيعة العمياء التى لا تنطوى على حب أو رحمة أو معاملة خاصة لهذا المخلوق الذى يسمى الإنسان .

---

(١) اعتبار التجربة عند إمكانها أساسا لإثبات الحقائق لم يكن أمرا جديدا إلا على أوربا فقد كان علماء العرب يدعون إليه ويمارسونه .

وأسرع علم القرن التاسع عشر ليجهز على يد شارل داروين (١٨٠٩ — ١٨٨٢) على آخر ما بقى للإنسان من امتياز أو تفوق على سائر الكائنات .

فالأحياء الأرضية كلها قد نشأت من أصل واحد ، فمن الأحياء المائية نشأت الأحياء البرمائية ، ومن هذه الأحياء نشأت الأحياء البرية . . ومن الحيوانات البرية نشأ الإنسان الذى لا يفصله عن القرد سوى حلقة واحدة ، إذا كانت لا تزال مفقودة فسوف يكشف عنها فى مقبل الزمان .

ولو أن نظرية داروين قد وقفت عند حد القول بأن الإنسان قد نشأ من القرد ، لما كان فى ذلك أى خطر أو جديد ، ولا هو ينقص من شأن الإنسان ، فقد قدس الإنسان على مر العصور والأزمان شتى صنوف الحيوانات ، والقرد بالفعل حيوان مقدس لدى الهنود ، ولقد دخلت معابد فى بنارس ، يسرح القرود فيها ويمرحون ، ويتقرب إليهم بالهدايا[1]. وتصور المصريون القدماء الآلهة على صورة بشر لهم رؤوس حيوانية ، أو أجسام حيوانات لها رأس إنسان ، (كما هو الشأن فيما يتعلق بأبى الهول) ، فالمزج بين الإنسان والحيوان كصورتين لجوهر واحد ، اعتقاد جد قديم ولا جديد فيه ، وغير خاف أن تعريف الإنسان منذ وضعه أرسطو يقوم على أن الإنسان حيوان ناطق .

ولكن الخطير فى نظرية داروين ، هو أن التطور من الكائنات الأدنى إلى الأعلى يتم بطريقة حتمية آلية ، على أساس الانتخاب الطبيعى ، الذى يقوم على تنازع البقاء . والبقاء للأصلح . فعملية التطور نحو الأرقى لكى تتم ، لا مناص لها من القضاء على الضعيف ، وإبادة الأدنى لحساب الأعلى ، وإلا فلن يكون رقى ولن يتحقق تطور .

---

(١) أمة تبعث — للمؤلف .

وهكذا انهار كل ما حاولت الإنسانية أن تبنيه خلال الأجيال من رحمة بالضعفاء، وأخذ بيد المنكوبين، والتقريب بين البشر على أساس من الحب والتسامح، وإحلال التعاون بين البشر محل الصراع. كارثة الداروينية على البشر أنها لم تجعل فى الطبيعة مكاناً إلا للصراع، حيث يفوز الأقوى ويندحر الضعيف بلا رحمة ولا كرامة. وأصبحت هذه الفكرة ديناً لدى البشر المتحضرين، وأصبح العمل على أساسها هو مقياس الرقى والحضارة. فراح نيتشه يبشر بالقوة الساحقة، ويقول فيما يقول: إن المسيحية بحضها على الرفق بالضعفاء، لا تستحق أن تعيش. وكانت مأساة الاستعمار فى القرن التاسع عشر إحدى ثمرات هذه الفلسفة الرهيبة، وكانت هذه الحروب التى غرقت فيها أوروبا إلى الأذقان، بعد أن تجردت من تقاليد الشرف والفروسية القديمة، التى كانت تنأى بنفسها عن المساس بالضعفاء، وتعتبر إهانة النساء الجريمة التى لا تغتفر، ناهيك بالاعتداء عليهن. أما قتل الأطفال فهذه لم تكن تطوف لأى محارب فى الخيال.

وكان طبيعياً — وقد أصبحت الحياة ليست شيئاً سوى الصراع والقضاء على من يمكن القضاء عليه، أن تنبثق الفلسفة الماركسية التى تصور الطبيعة كلها حربا بين المتناقضات، والتاريخ بالتالى حرباً بين الطبقات؛ ولما كان العمال هم الطبقة الأقوى والأكثر عدداً، فيجب أن يقوموا بدورهم بالقضاء على الطبقات الأخرى ولا تأخذهم بهذه الطبقات رحمة ولا شفقة، فتلك هى سنة الحياة التى لا سنة لها غيرها[1].

---

(١) ختم كارل ماركس البيان الشيوعى بهذه العبارات:

« إن الشيوعيين يأنفون من إخفاء حقيقة آرائهم وأهدافهم. إنهم يعلنون فى صراحة وعلى رؤوس الأشهاد، أن هدفهم النهائى لا يمكن تحقيقه، إلا بقلب جميع النظم الاجتماعية القائمة بالقوة. =

هذه هى نتائج العلم الحديث وبركاته ، هذه هى هدية الحضارة فى عصرنا للجنس البشرى .

هذا ما نحن مدعوون جميعا لاعتناقه باسم التمدن والتقدم ، تلك هى النتيجة الطبيعية لتصور هذا الكون خاليا من كل قوة حكيمة مدبرة ، هذه هى النتيجة الحتمية للقول بأن ليس فى الكون إلا المادة العمياء المجردة من كل شعور ، والتى يقف أمامها الإنسان ضعيفا ، لايعدو أن يكون ذرة من تراب ، تنتهى قصته بانتهاء هذه الحياة الظاهرة . وبعد أن كان مضمون الحضارة ، أى حضارة ، هو محاولة الترقى بعواطف الإنسان وتنظيمها والسمو بها ، لتحقيق مثل أعلى لخصته الأديان كلها فى أن يحب الإنسان جاره كنفسه ، أصبح الشعار : «اسحق جارك إما استطعت إلى ذلك سبيلا ، لأنك إن لم تسحقه فسوف يسحقك هو» . وتلخصت الحضارة ، نهاية الحضارة ، فى إطلاق الغرائز من عقالها ، فى كل الاتجاهات ، ومحاولة إشباعها ولو على حساب الآخر إذا استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا .

وأصبح العلم كل العلم ، أن يسخر الإنسان بكلمات الشرف والضمير والأخلاق ؛ فكل هذه لا تعدو أن تكون كلمات جوفاء لا معنى لها ولا مدلول ، فقد اصطنعها الأغنياء ليسخروا من خلالها الفقراء .

هوان الفرد

وتضاءل الإنسان الفرد إلى جوار الجماعة ، وكيف يكون له قدر أو اعتبار ما دامت المسألة قد أصبحت مسألة غلبة وقوة . ليس للفرد اليوم

= فلترتعد الطبقات الحاكمة من الثورة الشيوعية . ليس لدى الكادحين ما يخسرونه سوى أغلالهم . فى الوقت الذى أمامهم الدنيا كلها ليربحوها . أيها العمال فى أنحاء العالم اتحدوا» .

Manifesto of the Communist Party.

حق إلى جوار حق الجماعة ، لا حديث — كما قلنا من قبل — إلا عن الشعوب وعن الدول والكتل ، فهى وحدها القوية ، وهى وحدها الباقية ، أما الإنسان الفرد فإلى زوال ، لم يعد الإنسان الفرد يزيد عن أن يكون لبنة فى البناء الكبير ، إنه ليس شيئا إلا ذرة فى الصحراء الشاسعة ، أو قطرة من مياه البحر المالح ، وهو على أحسن الأحوال مسمار فى الآلة الكبيرة ، آلة الدولة أو الإنسانية أو الأمة أو الحزب ، أو ما شئت من أسماء ضخمة رنانة . ولا عجب فى ذلك ، فما دامت البشرية أصبحت تقاس كأى شىء آخر بالعدد والوزن والكيل ، فما قيمة إنسان فرد إلى جوار الملايين ، بل ما قيمة المليون من البشر إذا قورن بالمائة مليون ، وما قيمة المائة مليون نفسها إذا تحدثنا عن البشرية فى مجموعها ، عن الأجيال القادمة كلها ؟! وهكذا أصبح البشر أرقاما ، أرقاما تجمع وتطرح وتضرب ، وتطحن إذا لزم الأمر باسم التقدم والعمران . لقد قال لنا فلاسفة النازية وعلماء العصر أن ليس « للفرد أى حق أو واجب فى الوجود ، ما دامت جميع الحقوق والواجبات مشتقة من الجماعة فقط »[1] .

وهكذا بعد أن كان الفرد وإسعاد الفرد وحرية الفرد وكرامته ، هى الهدف النهائى من كل نشاط إنسانى ، وهى الأصل فى الاجتماع ، ومحور الأديان والنظم والقوانين والفلسفة ، أصبح من أيسر الأمور وأهونها أن يضحى بالفرد من أجل المجموع ، وأن يشقى الفرد لإسعاد المجموع ، بل وأن تشقى الأقليـــة لحساب الأغلبية . فالعدالة هى القوة ، والحق ليس شيئا إلا الغلبة والقوة .

ولسنا نزعم أن ذلك لم يكن يحدث فى الماضى ، فقد حدث وكان من غير شك ، ولكنه عندما كان يقع كان يعتبر استثناء من القاعدة ، وكان يعتبر

(١) اتوديتريتش — مدخل إلى الفلسفة ص ١٩٤ .

انحرافاً وشذوذاً ، أما اليوم فهو يحدث باعتباره الأساس والقاعدة ، باعتباره المثل الأعلى الذى يجب أن يسعى البشر لإدراكه ، أو لم يأتك نبأ النزاع الذى يدور بين الشيوعيين هذه الأيام ، حيث تعتبر الدعوة إلى التعايش السلمى ، وإلى إمكان تحقيق الاشتراكية بالطرق السلمية ، لوناً من ألوان الرجعية ، وخروجاً على الماركسية المقدسة التى تقول بحتمية الصراع ، ووجوب إراقة الدماء باعتبارها السبيل الوحيد لتحقيق الاشتراكية ؟ .

فهل صحيح أن الحياة ليست شيئاً سوى الصراع والحرب بين المتناقضات ، وأن ذلك قدر محتوم على الإنسان لا فكاك له منه ، فيجب أن يمضى إلى قدره قاتلا أو مقتولا ، ساحقاً أو مسحوقاً ، آكلاً أو مأكولاً ؟.

هل صحيح ألا حق للفرد إلى جوار الجماعة ، وألا قدرة للفرد إلى جوار قدرة الجماعة ؟ .

هل صحيح أن كل دعوة للحب والتآخى والفضيلة والتطهر والكمال ، هى دعوات خرافية عفى عليها الزمان ؟ .

وأخيراً بل وأولا ، هل صحيح أن الإنسان الفرد لا يعدو أن يكون ذرة بإزاء الطبيعة الجبارة ، أم أن الإنسان قوة تعلو على الطبيعة المادية نفسها ؟ .

هذا هو ما سنحاول أن نجيب عليه فى الفصول التالية .

مراجع الفصل الثانى

١٦ — ميادين علم النفس — النظرية والتطبيقية — جزآن .
أشرف على تأليفه ج . ب جليفورد أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا — وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد .

١٧ — المواد المضادة للميكروبات فى الماضى والحاضر والمستقبل .
تأليف الأستاذ لطيف بسطورس مدرس أول العلوم — طبع لجنة البيان العربى .

١٨ — الإنسان ذلك المجهول — تأليف الكسيس كاريل — تعريب شفيق أسعد فريد — مكتبة المعارف ببيروت .

١٩ — أصول الاقتصاد للدكتور محمد حلمى مراد — الجزء الأول .

٢٠ — رواد الشرق الأوسط فى العصور الوسطى — تأليف نقولا زيادة — طبع مجلة المقتطف ١٩٤٣ .

٢١ — عجائب الآثار للجبرتى — طبع جريدة الشعب .

٢٢ — تاريخ مصر القديمة — تأليف بريستد — ترجمة الدكتور حسن كمال .

٢٣ — الإنسان فى العالم الحديث — تأليف جوليان هكسلى — ترجمة حسن خطاب .

٢٤ — الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى — للدكتور نظير حسان سعداوى .

٢٥ — الكتاب المقدس (العهد العتيق) طبع جمعيات الكتاب المقدس المتحدة — بيروت عام ١٩٥١ .

٢٦ — مدخل إلى الفلسفة — تأليف جون لويس — ترجمة أنور عبد الملك .

٢٧ — وقاية النظام الاجتماعى — للدكتور محمد عصفور — رسالة دكتوراه .

٢٨ — خطاب الرفيق خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى — ترجمة ماهر نسيم .

٢٩ — مجموعة مجلة المختار (ريدرز ديجست) .
٣٠ — مجموعة جريدة الأهرام .
٣١ — فى سبيل السلام والصداقة .
(مجموعة خطب خروشوف فى التلفزيون الأمريكى) طبع مكتب الصحافة التابع لسفارة الاتحاد السوفيتى .
٣٢ — داخل أوربا — جون جنتر — ترجمة الدار القومية للطباعة والنشر.
٣٣ — قانون التأمينات الاجتماعية ٩٢ لسنة ١٩٥٩ .
٣٤ — من وحى الجنوب — للمؤلف — طبع دار المعارف .
٣٥ — أمة تبعث — للمؤلف (كتب للجميع) .
٣٦ — عارنا فى الجزائر — چان پول سارتر — ترجمة الدار القومية للطباعة والنشر .
٣٧ — Khrushchev-And Stalin's Ghost. By B.D. Wolfe.
٣٨ — Annual Report. World health Organization.
٣٩ — Demographic Yearbook 1959 - U.N.
٤٠ — The crime of Genocide U.N.
٤١ — The Encyclopedia Americana.
٤٢ — Manifesto of The Communist Party - By Karl Marx and F. Engles.

مراجع سبقت الإشارة إليها

— قصة الحضارة .
— أساطين العلم الحديث .

الفصل الثالث

هذا الكون . . . أهو من صنع الإنسان؟

— أيظل الكون محتفظاً بصورته الحالية لو لم يكن للانسان بصر ؟
— هل يبقى من الكون شىء اذا فقد الانسان السمع والشم والاحساس بعد فقد البصر ؟
— أيمكن اثبات الوجود استقلالا عن الانسان ، بغير العقل البشرى ؟
— لكل انسان دنياه وعالمه الخاص .
— الخير والشر من صنع الانسان — القبح والجمال — الحلال والحرام .
— معالم الحضارة تتغير بتغير البشر .
— الحقائق المادية الكونية من صنع الانسان كأى شىء آخر .
— لاحرارة ولابرودة — لاصغر ولا كبر — الزمان والمكان لامعنى لهما بغير الانسان .
— أكوان وعوالم بعدد أفراد الجنس البشرى .

الكون . . . أهو من صنع الانسان ؟

لا يتصور القارىء العزيز أننى فى الرد على هذا السؤال ، سأغرق فى طوفان من هذه المباحث الفلسفية ، التى قسمت الفلاسفة منذ عصر أفلاطون وماقبله ، حتى هيجل ومن بعده ، إلى فريقين ، فريق يقول إن الوجود الحقيقى هو للفكرة وليست المادة سوى وهم وتخيل ، وفريق يقول ألا وجود حقيقى إلا للمادة ، وما الفكرة إلا انعكاس هذه المادة وصداها[1] .

لن نخوض فى هذه المباحث ، فليس ذلك موضوع كتابنا ، وإنما سنسلك فى الرد على السؤال طريقاً عملياً بسيطاً باستطاعة كل قارىء ، بل وكل إنسان أن يقول فيه كلمته .

(١) يعتبر الماركسيون هم حملة هذه الفلسفة فى العصر الحديث — انظر ص ٥٢٦ من كتاب مدخل إلى الفلسفة .

نحن نعلم أن الضوء هو أعظم ظواهر الطبيعة على الإطلاق ، وإليه ترتد باقى العناصر الأخرى حسب آخر النظريات العلمية ، فمن الضوء كان الإشعاع ، ومن الإشعاع تنبعث الطاقة ، ومن الطاقة تنبثق المادة ، والضوء سواء كان طبيعياً أو صناعياً ، سواء كان منبعثاً أصلاً من مصادره التى تشعه نتيجة الاحتراق ، أو كان مجرد انعكاس لأشعته من الأجسام العاكسة ، فإنه هو الذى يكشف عن كل مافى الوجود ، ويحدد معالمه ، ويبرز كيانه ، ويخلع عليه اللون أو الألوان التى تميزه . والعين هى سبيل الإنسان لإدراك ذلك كله بالرغم من صغر حجمها ، فالكون كله يلتقى فى بؤرتها بواسطة الأشعة الصادرة من كل جزء من أجزائه ، فالسموات بكل شموسها ، ونجومها ، وكواكبها ، وأقمارها ، ومجراتها وسدمها ، والأرض بكل ماعليها من صحارى ، أو جبال أو مزارع وحقول وسهول ووديان ، وترع وأنهار ، ومساكن وقصور ، أو حيوانات وحشرات ، كل ذلك يلتقى فى عين الإنسان بمجرد أن يفتحها ويديرها نحو القطاع الذى يريد رؤيته ، ويتم الإلتقاء فى نقطة صغيرة جداً من شبكية العين . ولقد استطاع الإنسان على مر العصور أن يدرك الكثير مما سماه حقائق علمية عن القوانين التى تحكم الضوء ، ويعمل بها ابتداء من ألوان الطيف وانكسار الضوء ، وانتهاء بسرعة الضوء ، ومعارف الإنسان عن الضوء واستعماله ، كانت خير معين له منذ أقدم العصور حتى اليوم على معرفة باقى أسرار الطبيعة ونظمها وقوانينها ، وقد زاد فى قدرة الإنسان على اكتناه هذه الأسرار ما استحدثه من آلات تعتمد على قوانين الضوء ، كالمرايا والعدسات والمجاهر والمراقب والمطياف والسينما والتلفزيون . . . الخ .

الانسانية بغير بصر

والآن يحق لنا أن نتساءل ، ماذا كان الحال سيكون لو أن الإنسانية خلقت

عاطلة من حاسة البصر ، فلم يكن للإنسان عينان ، ولم يكن مزوداً بأى جهاز آخر للقيام بوظيفتهما . أو ما كانت صورة الكون ، كما نعرفها الآن و نتحدث عن قوانينها و نواميسها وأسرارها ، أو ما كانت هذه الصورة الكونية بكل مايتبعها من حقائق علمية ، و نواميس نعزوها للطبيعة ، تصبح ولا وجود لها ، فلا نعرف ما السماء ولا الشمس ولا الكواكب . . . ولا صورة أى شىء آخر فى هذا الكون ؟ أحسب أن ذلك هو النتيجة الحتمية لو جرد الإنسان (كل إنسان) من بصره ، ولقد اضطررت لذكر هذا الاحتياط (كل إنسان) خوفاً من أن يخطىء البعض فيقول إن المكفوفين يعيشون بين ظهرانينا وهم يعرفون كل شىء عن الكون ، بل إن الأمر قد وصل ببعضهم فى القديم والحديث ، ليكونوا أعلاماً فى الأدب يبرعون فى تصوير بعض الأحداث بأبلغ وأبهى مما يصوره المبصرون[1] .

إن هؤلاء المكفوفين إنما قد وصلوا ، ويصلون إلى إدراك صورة الكون كما ندركها ، بمعاونة المبصرين الذين ينقلون لهم مايرون. والمكفوفون من ناحية أخرى يتلقون معلوماتهم عن الكون بواسطة السماع والشم والذوق وسائر الإحساسات الأخرى ، ويقف العقل وراء ذلك كله ، ليتخيل ويتذكر ويفكر ويدرك ثم يتحكم ويقرر .

والفرض الذى تقدمنا به هو أن يكون البشر جميعاً قد خلقوا بغير حاسة البصر ، فلا مناص من الإقرار بما قررناه آنفا من اختفاء صورة الكون كما هى ثابتة الآن فى أذهاننا واختفاء كل العلوم والمعارف وما نتصوره من قوانين للطبيعة نفسر بها تصرفاتها .

---

(١) يروى لبشار بن برد الذى ولد مكفوفاً هذا البيت من الشعر الذى يعتبر آية فى الوصف وهو قوله :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ولننتقل خطوة أبعد لنتساءل عن هذا الإنسان (كل إنسان) الفاقد لحاسة البصر ، ماذا يمكن أن تكون معارفه عن هذا الكون . لا جدال فى أن هذا الإنسان سيظل يعرف الكثير ، سيكون بقدرته أن يفرق بين الكائنات قبل اقترابها منه أو اقترابه منها ، سواء كانت هذه الكائنات ماديات أو نباتات وحيوانات أو إنسانا من نوعه .

ستبقى لهذا الإنسان عواطف الحب والكره والانشراح والانقباض ، والشعور باللذة والألم . فعن طريق الأصوات والروائح واللمس ، يستطيع الإنسان أن يميز الأشياء كلها وأن يفرق بينها . فلو كان للإنسان سمع وشم ، فسيظل يدرك الكثير من أمر هذا الكون ويتفاعل معه حتى لو لم يكن له بصر . سيظل كونه طويلا عريضاً عميقاً مليئاً بكل ما تمتلىء به دنيا الصورة والنظر من كل ما يخيف ويرعب ، أو يؤنس ويفرح ، أو يلذ ويؤلم . فالأذن فى الدرجة الأولى ، والأنف فى الدرجة الثانية ، ينقلان للإنسان صوت أو رائحة أى شىء من الأشياء قبل أن يقترب منه .

وقد أدرك الإنسان من حقائق الصوت[1] (بمساعدة البصر طبعاً) الكثير من قوانينه ونواميسه التى يعمل بها ، واستفاد بذلك فى صنع آلات تقوم على هذه النواميس ، كالصفارات والآلات الموسيقية والحاكى وأجهزة التسجيل والتليفون والتلغراف والميكروفون والراديو . . إلى آخر كل هذه الآلات والاختراعات التى تنقل الصوت أو تسجله .

فلو تصورنا — كما تصورنا من قبل — أن هذا الإنسان الذى ولد بغير بصر

---

(١) نشوء الصوت من الاهتزازات . كيف تنتقل الأصوات فى الأجسام الصلبة والسائلة وفى الهواء — سرعة الصوت — الحركة الإهتزازية والحركة التموجية — درجة الصوت — شدة الصوت ونوعه — انعكاس الصوت وانكساره — الرنين — اهتزازات الأوتار والقضبان والصفائح — الآلات الموسيقية والصوتية .
(راجع كتب الطبيعة) .

قد ولد أيضاً بغير سمع أو شم[1] . فلا شك فى أن هذا الكون الطويل العريض العميق ، الذى يكونه الصوت وتشترك فى تكوينه الرائحة ، لا يصبح له وجود بالنسبة للإنسان ، ويصبح الكون بحيث لا يزيد فى حجمه عما يلامس جسد الإنسان مباشرة . ويختفى من عقل الإنسان كل ما يمكن أن يكون قد تصوره ، من قوانين ونواميس وتفسيرات وتحليلات لهذا الكون .

الإنسانية بغير حاسة على الإطلاق

ومع ذلك فإن الكون يبقى موجوداً بكل التمايز بين الكثير من أجزائه ، إنه يضيق حقاً ، ولكنه لا يختفى ، فإن حاسة اللمس التى تشمل جلد الجسد كله وتتركز بالأكثر عند أطراف اللسان والأصابع وأجزاء أخرى من جلد الإنسان ، ستظل تحمل للإنسان فيضاً غزيراً من المعلومات والمعارف . . . سيظل يشعر بالبرودة أو الحرارة ، بالصلب واللين ، بالنعومة والخشونة ، بالحلو والمر ، بالكبير والصغير ، سيظل يحس بما يلذ ويؤلم ، بما ينبسط له ومالا ينقبض منه ، وسيؤلف الإنسان مجموعة من الحقائق من هذه الأحاسيس التى تتدفق إلى رأسه من خلال الأعصاب المنتشرة على جلده .

العقل مدرك الوجود

فلو تصورنا أن هذه النافذة المطلة على العالم قد أقفلت بدورها ، فماذا يبقى للإنسان فى هذا الكون ؟ لا شىء . . . لا شىء على الإطلاق اللهم إلا أنه موجود ، فما دمنا لا نزال نفرض للإنسان عقلا يعمل بداخله ، فإنه سيظل بقدرة هذا العقل أن يشعرنا بأننا شىء موجود ، وقد كانت هذه هى

---

(١) من حسن الحظ أن الطبيعة تقدم لنا من حين لآخر بعض النماذج لمثل هذا الإنسان الفاقد البصر والسمع — فقد ولدت هيلين كيلر الأمريكية بلا سمع أو بصر

نقطة الابتداء عند ديكارت ليستمد اليقين بالوجود ، فقال قولته المشهورة « أنا أفكر فأنا موجود » .

فلو أننا تخيلنا كتلة من اللحم البشرى تحتوى على عقل ، فإن هذا العقل سيمنح هذه الكتلة شعوراً بالوجود ، وعلى ذلك فالوجود باق ما بقى عقل الإنسان . فإذا اختفى العقل بدوره بعد اختفاء الحواس ، فقد زال الوجود نهائياً ، ولم يعد له أى مدلول[1] .

وهنا أعرف أن البعض سيبادرون بالسؤال عما أعنيه بزوال الوجود كنتيجة لزوال العقل والحواس ، هل أقصد بذلك زوال الوجود من أساسه ، أم زواله بالنسبة للإنسان ؟

وعندى أن النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين ، مادام الإنسان هو الذى يوجه السؤال ، وهو الذى ينتظر الجواب ، ذلك أن شيئاً لا نكون طرفاً فيه ، لا نستطيع التحدث عنه بأى حال من الأحوال ، يستوى فى ذلك النفى والإثبات .

صحيح أننا ندرك بعقولنا إمكان وجود هذا العالم ، حتى ولو لم نكن موجودين فيه ، بل لقد استطاع الإنسان عن طريق الوجدان أو الإلهام حينا ، وعن طريق العقل المجرد حينا آخر ، أن يؤكد نشوء الكون قبل الإنسان ، وأن يرسم لذلك تصورات يستمدها من محض الخيال ، أو على ضوء معارفه العلمية ، وقد جعل الإنسان لوجوده على الأرض تاريخاً حديثاً نسبياً لا يعدو أن يكون خمسين مليوناً من السنين فقط ، وهو قدر تافه من الزمن الذى حدده لبدء تطور الكون ، وهو بليون بليون سنة[2] .

---

(١) ينطبق هذا المعنى الذى نقول به على ما يستفاد من الحديث القدسى . « كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف ، فخلقت العقل فبه عرفونى » .

(٢) الرأى عند علماء الفلك وطبقات الأرض ، أن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة ، أما الأرض فقد نشأت حديثاً جداً إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين =

والإنسان يدرك من أمر نفسه أنه لم يكن هو الذى خلق نفسه ، فلا بد أنه قد خلق من شيء سابق عليه وأكثر قدرة منه ، كل ذلك حق وواقع ، يشهد به الحس ويؤكده العقل ، ومن هنا يأتى فرضنا ، فإذا لم يكن هناك حواس لتشهد وعقل ليقرر فكيف يكون بوسعنا أن نناقش هذه القضية ، قضية وجود الكون ولو لم يوجد الإنسان ، فضلا عن إقامة الدليل عليها ؟ أليس كل دليل نسوقه هو من صنع عقولنا التى فرضنا أنها لا وجود لها ؟ الحق أنه حيث لا حواس فلا شعور بوجود الكون ، وحيث لا عقل فلا يمكن إقامة برهان على وجوده ، ولا يعود هناك مجال لبحث هذه القضية من أساسها .

إن كل شيء فى هذا الكون يصيح بنا ويهتف أنه من صنع الإنسان ، كل إنسان على حدة ، ذلك أن صورة الكون لا تختلف فقط من عصر إلى عصر ، ومن إقليم لآخر ، بل إن صورة الكون تختلف من إنسان لإنسان ، تبعاً لما إذا كان مبصراً أو كفيفاً ، طويل النظر أم قصيره ، حاد السمع أم ثقيله وهكذا . ومن الأمور المحققة أن دنيا الطفل غير دنيا الرجل ، ودنيا العالم غير دنيا الجاهل ، ودنيا ساكن الغابة غير دنيا ساكن مدينة نيويورك ، أو ساكن الصحراء ، وهكذا . فكل ما حولنا من مناظر وصور وفى عقولنا من أفكار يقوم عليها الكون ، هو مما ارتضاه كل إنسان لنفسه واعتبره حقاً فى تصوره ، فلا حقيقة إلا ما رآها الإنسان حقاً ، ولا وجود إلا ما اعترف الإنسان بوجوده ، والأمور كلها نسبية تتغير تبعاً لتغير كل إنسان على حدة ، وتعال نستعرض سويا شتى المعارف البشرية ، سواء فى الأمور المعنوية أو المادية ، لتتضح لك هذه النسبية فى كل شيء .

= فقط ، وظهرت الحياة على الأرض منذ مليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ ٢٠٠ مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الإنسان أحد فروعها ، فقد بدأ ظهورها على الأرض منذ ١٢٠ مليون سنة ، والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض ، إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ ٥٠ مليون سنة . (تاريخ الأرض — لجورج جامبو) .

ولنبدأ بموضوع الخير والشر، الذى يتصل بعقيدة البشر، كل حسب دينه، فيعتبر دائماً من الأمور المطلقة. أصحيح أن هناك ما يمكن اعتباره شراً وخيراً مطلقين فى كل زمان ومكان؟ لقد حاولنا أن نجيب عن هذا السؤال من وجهة نظرنا فى آخر الكتاب، فنقرر ما يمكن اعتباره شراً أو خيراً بصفة مطلقة[1]، أما الآن فسوف نستعرض ما يجرى عليه العمل بالفعل، حيث يقرر كل جماعة من الناس الخير والشر طبقاً لرغباتهم وأهوائهم.

إن الأمر الواحد يكون شراً لدى البعض، وهو خير لدى البعض، مما عبرنا عنه بالقول المشهور (مصائب قوم عند قوم فوائد) فالمرض هو فرصة الطبيب لكى يحصل رزقه، ومواسم الأمراض التى يضج منها الناس هى مواسم العمل عند الأطباء، وجريمة قتل تقع هى فرصة المحامى لكى يجد مجالا للعمل، وكل خلاف من أى نوع بين اثنين هو فرصته للعمل كذلك، واندلاع نيران الحرب هى فرصة مصانع السلاح وغيرها وهكذا. بل إن العمل الواحد الذى ينظر إليه باعتباره شراً فى بعض اللحظات قد ينقلب إلى خير فى لحظة أخرى، (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

بل إن العمل الواحد، يحكم عليه بالخير أو الشر بالنظر إلى نتائجه.

الشرور المادية

والألم والجوع والضعف والموت، كل هذه شرور مادية، لأن الإنسان يراها كذلك، ولكنها فى حقيقتها لا يمكن أن توصف بالخير أو الشر، وليس أدل على ذلك من أن بعض الناس ينظرون إليها كأسمى ما يمكن

(١) انظر « تذييل » بآخر الكتاب.

أن يحققوه لأنفسهم من الخير . فالبعض يرون فى الموت فى سبيل الله أو العقيدة أو الوطن أو الميكادو شيئاً جديراً بأن يسعوا إليه ويتنافسوا فى الحصول عليه ، إيمانا منهم بأن ذلك هو سبيلهم للخلود فى العالم الآخر ، أو فى هذا العالم .

وهناك أشخاص آخــرون يتصورون فى الموت حلا لإشكالاتهم أو لآلامهم ، فيقبلون على الانتحار فى هدوء وببساطة عجيبين. وهكذا يتحول أمقت الأشياء إلى نفوس الأغلبية الساحقة من البشر ، وهو الموت ، إلى أحب الأشياء إلى أقلية منهم .

وكذلك الشأن بالنسبة للألم والجوع والضعف ، فثمة أشخاص يرون فى إضعاف أجسادهم وتجويعها فرصة لطهارة الروح ، ويرون فى إيلام الجسد خلاص الروح ، فيقبلون على ضروب من التعذيب يقشعر لهولها البدن ، بنفوس راضية وقلوب مطمئنة ، بل وفى لذة وسعادة يختفى معها كل ألم[1] ، لذة تتضاءل معها لذة من يشربون الخمر أو يعاشرون النساء .

وإذا كانت هذه هى حقيقة الحال بالنسبة لهذه الشرور المادية ، فإن الأمر أوضح بالنسبة للشرور المعنوية التى تتصل بقيم القبح والجمال والحلال والحرام ، والعقائد الدينية ، من حيث كونها من صنع الإنسان ، ولذلك فهى تتغير بتغير الأشخاص والزمان والمكان .

القبح والجمال

فأروع الآثار الفنية القديمة ، تجد بين نقاد العصر الحديث من يهز كتفيه ولا يراها تنطوى على أى معنى من المعانى ، ويقولون لك : إن أى آلة تصوير تستطيع أن تخرج لك صوراً ملونة تفوق هذه الآثار . ولا يرون الفن الحقيقى إلا بالأخذ بالمذاهب السريالية أو التكعيبية ، أو التأثيرية ،

(١) اتباع طريقة اليوجا .

إلى غير ذلك من الأسماء التى لا نفقه منها نحن القدامى شيئاً على الإطلاق . وتباع صور أعلام هذا الفن بعشرات الألوف من الجنيهات . ولو أن هذه الصور وقعت فى أيدى الأجيال القديمة ، لكان من المحتمل أن يعلق أصحابها على أعواد المشانق كأتباع للشيطان . وقد كان جمال المرأة فى القديم يقاس ببدانتها أحياناً ، فلا تقوم المرأة النحيفة بمال ، واليوم يوشك النساء أن يهلكن أنفسهن توصلا إلى النحافة ، باعتبارها كبرى علامات الجمال . وقديماً كان الرجال يختصون أنفسهم بالتزين ، ولبس أزهى الملابس ، ويضعون على رؤوسهم الشعور المستعارة ، ويطلون وجوههم بالمساحيق ، وكان ذلك هو مظهر الرجولة ، وزى الفرسان فى العصور الوسطى ، واليوم لو فعل رجل شيئاً من ذلك ، لوصف بالتخنث ، ولتبرأ منه أقرب الناس إليه .

وحديث المودة وتقلبات المودة ليس عنا ببعيد ، حيث يعتبر اليوم جميلا ما كان يعد حتى الأمس شيئاً قبيحاً ، ثم يعد قبيحاً ما كان يعتبر جميلا ، وهكذا دواليك .

الحلال والحرام

فإذا دخلنا فى باب الحلال والحرام ، لم نجد عملا واحداً يمكن وصفه بهذه الصفة على سبيل الإطلاق ، فالخمر مثلا لدى قوم من الأقوام رجس من عمل الشيطان ، ولدى قوم آخرين أحسن ما يمكن أن يتقرب به إلى الآلهة . واحتراف البغاء شىء كريه فى أكثر المجتمعات ، وهو لون من ألوان العبادة بحيث يزاول فى الهياكل ودور العبادة فى مجتمعات أخرى[1] .

---

(١) كان الزنا فى الأعم الأغلب مقصوراً على المعابد — ففى الأصقاع الجنوبية من الهند كانت رغبات الرجل الشهوانى تشبعها له من كن يطلق عليهن « خادمات الله » طائعات فى ذلك أوامر السماء ، وما خادمات الله أو — دافداس — إلا العاهرات ، وكان فى كل معبد فى تامل مجموعة من هذه النسوة .

(قصة الحضارة — الجزء الثالث ص ١٧٤) .

والبكارة عند النساء هى على ما نعرف فى بعض المجتمعات ، مقياس الشرف الوحيد لا للبنت فحسب ، بل لكل من يتصل بها من الرجال على سبيل القربى ، ونحن نعلم كيف تفقد البنات اللواتى يفرطن فى بكارتهن حياتهن أحياناً على يد الآباء أو الأخوات ، كل ذلك معروف ومشهور وفى بعض المجتمعات التقدمية ، يعتبر البعض البكارة كلون من ألوان الأمية عند المرأة[1]. أما فى بعض المجتمعات القديمة ، فكانت البكارة تعتبر بمثابة لعنة تحول بين البنت وبين الزواج ، ولذلك تلتمس أى وسيلة وتستجدى أى عابر سبيل أن يفتض بكارتها ليكون بقدرتها أن تجد لها زوجاً[2] .

وفى المجتمعات الشرقية بصفة عامة ، يعتبر الزواج بأكثر من واحدة من الأمور المشروعة ، بل والمندوبة ، وفى مجتمعات أخرى يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون . وأن يكون للمرأة أكثر من زوج هو أشنع ما يمكن أن يطوف بخيال البعض ، مع أن أفلاطون اعتبره مثلا أعلى دعا إليه فى جمهوريته[3] .

والنهب والسلب هو كبرى الجرائم فى مجتمع يقوم على أساس الملكية الفردية واحترامها ، وهو عند البعض كالعرب فى الجاهلية ، النشاط العادى الذى يزاوله رجل القبيلة ، وتقاس به قدرته وبطولته . والقتل أخذاً بالثأر هو أحد الواجبات الملقاة على عاتق كل إنسان ، بحيث يسقط اعتباره إذا لم يقم بهذا الواجب ، وهو يؤلف جريمة فى عصرنا الحديث يعاقب عليها القانون . ومن لم يتعصب للقبيلة بالأمس كان يرتكب شراً ، ومن يتعصب لها اليوم يرتكب نفس الشر . ومن كان لا يتعصب

---

(١) الباحثون — غرانين — ص ٣٧٢ .
(٢) قصة الحضارة — الجزء الأول المجلد الأول — ص ٨١ .
(٣) جمهورية أفلاطون — ١١٤ .

للوطن فهو خائن ، ومن يتعصب اليوم للوطن فهو خائن ، فى تقدير الشيوعية العالمية مثلا .

العقيدة الدينية

وبالنسبة للعقيدة الدينية ، جاء وقت كان فيه من لم يسجد للأصنام يعتبر كافراً يحرق بالنار ، ثم جاء الوقت الذى أصبح فيه الحرق بالنار من نصيب الساجد للصنم . ومن لا يقول عند المسيحيين إن يسوع المسيح هو ابن الله فهو كافر ، ومن يقول إنه ابن الله من المسلمين فهو كافر ، ومن يقول بوجود الله اليوم فى روسيا ، فهو كافر بالتعاليم الماركسية التى لا تقل فى قداستها عن أى دين من الأديان ، وهكذا . .

معالم الحضارة

والاشتغال بالزراعة كان هو ذروة ما وصل إليه الإنسان من حضارة فى وقت من الأوقات ، والأمم التى تقتصر اليوم على احتراف الزراعة هى رمز على التخلف والانحطاط . وفى النظم الاجتماعية كانت الملكية الفردية هى أقدس حقوق الإنسان ، بحيث أجيز إعدام الإنسان دون إجازة مصادرة أمواله ، ونحن نعلم اليوم كيف أن الشيوعية والاشتراكية تعتبرها لعنة اللعنات التى نزلت بالبشر . والحكم الملكى المطلق هو خير فى بعض العصور ونعمة من السماء ، وهو شر ونقمة فى الوقت الحاضر ، والديمقراطية كانت المثل الأعلى فى الحكم ، وهى تعد اليوم أكذوبة من أكبر الأكاذيب ، وكانت الديكتاتورية تعتبر أشر ما يمكن أن يبلى بها مجتمع ، وهى التى يبشر بها اليوم كوسيلة وحيدة لوصول العمال إلى المجتمع المثالى المنشود . وهكذا نستطيع أن نمضى على هذه الوتيرة مستعرضين كل ما تعارف عليه البشر من قيم خلقية ، أو أنظمة اجتماعية ، لنراها تتبدل فى كل وقت وآن من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، بل ومن إنسان إلى إنسان .

والحق أن التقرير بأن قيم الجمال والخير والشر والحلال والحرام والعقائد الدينية ، هى من صنع الإنسان مسألة لا تثير كبير صعوبة ، فالذين يقولون إن لهذه القيم وللخير والشر معالم ثابتة جاءت بها الأديان ، فلا فكاك لهم من الاعتراف أنها جاءت عن طريق إنسان لخير الإنسان . وهؤلاء الذين ينكرون أن تكون هذه القيم قد أوحيت إلى الإنسان ، وإنما هى تنبع من ضميره ووجدانه ، فهم يسلمون بدور الإنسان .

والخلاصة أنه سواء أكان الإنسان هو مستودع قيم الجمال والخير والشر أم كانت أوحيت له ، فهو محورها وغايتها وهدفها ، بحيث لا إنسان فلا خير ولا شر ولا جمال أو قبح على الإطلاق .

الحقائق المادية

وإذا كان من السهل التسليم بأن المسائل المعنوية هى من خلق الإنسان ، فكون القيم المادية البحتة من صنع الإنسان فى حاجة إلى مزيد من الشرح ، فكيف يقال إن الأبيض والأسود والحار والبارد والصلب والسائل والمادة والطاقة والزمان والمكان هى أشياء من صنع الإنسان . وأنا أقول لك إنها من صنعه تماماً ككل الأفكار المعنوية ، وأنها كسابقتها فى تغير مستمر تبعاً للزمان والمكان واختلاف الأشخاص .

النور والظلام

ولنبدأ بالنور والظلام ، هاتين الظاهرتين اللتين حملتا الإنسان منذ أقدم العصور ، على أن يتصور الكون خاضعاً لقوتين متناقضتين ، ولا يزال متأثراً بهذا التفكير حتى الآن ، والحقيقة ألا فرق بين ما نسميه نوراً أو ظلاماً إلا بالنسبة لعين الإنسان ، فالعين تتجاوب مع بعض الأشعة دون غيرها ، فما تجاوبت معه اعتبرته ضوءاً ، وما لم تتجاوب معه عدته ظلاماً ،

فهى لا ترى من أشعة الطيف الشمسى إلا ما يتوسط الأحمر والبنفسجى ، أما ما فوق البنفسجى وما تحت الأحمر من الأشعة ، فالعين لا تراه فتتصوره ظلاماً ، مع أنها عناصر الضوء ، وهى لا تختلف عن الأشعة التى تراها العين إلا من حيث طول موجتها ، ولما كان لا حد لما فى الكون من أمواج متناهية فى الطول ، وأخرى متناهية فى الصغر ، فإن مدى الأمواج المرئية يكاد يفقد فى هذا المجال الشاسع[1] .

وليس أدل على أن النور والظلام ليسا إلا انطباعا إنسانياً بحتاً فى ظل ظروف معينة ، أن الإنسان لايكاد يخرج من الغلاف الجوى للأرض حتى يرى السماء مظلمة ، ويتجلى له قرص الشمس قرصاً لامعاً وسط السواد[2] ، وقد أكد هذه الحقيقة ، جاجارين وتيتوف ، إذ قالا لنا إن النور كان أسفل منهم، أما السماء فظلمة ، مع أن الأشعة الكونية وأشعة الشمس تغمر مافوقهم كما تغمر ماتحتهم ، ولكن ماتحتهم كان يعكس أشعة بأطوال تراها العين ، أما الفضاء الخارجى فليس ثمة مايعكس الأشعة فلا يعود الإنسان قادراً على رؤية ما اعتدنا أن نسميه ضوءاً . فالنور والظلام ليسا ظاهرتين متناقضتين إلا بالنسبة لعين الإنسان ، وليسا كذلك فى حقيقة الأمر .

وإذا كان النور والظلام لايعدوان أن يكونا مجرد اختلاف فى أطوال أمواج الأشعة ، فإن الحال كذلك بالنسبة لجميع الألوان ، التى لاتعدو بدورها أن تكون مجرد اختلاف فى أطوال الأمواج ، فليس بينها هذا التناقض الذى يتصور الإنسان وجوده بين الأبيض والأسود ، أو بين الأحمر والأصفر .

وبعض الأشخاص يكونون مصابين بما يسمى عمى الألوان فيرون الأصفر

(١) العين والشمس — ص ١٤٥ .

(٢) مع الله فى السماء — الدكتور أحمد زكى — ص ٢٤٩ .

أخضر والأحمر أسود والأرجوانى أزرق ، وعلى ذلك تختلف صورة الكون فى أذهانهم عما هى فى أذهان الأغلبية الساحقة من الناس ، ولا يعود للون الأصفر عندهم أى مدلول ، ولا يكون باستطاعتهم تمثله أو تخيله .

الحرارة والبرودة

ولنأخذ موضوع الحرارة والبرودة ، وهما أهم ماديات هذا الكون تأثيراً فى الإنسان ، فالحرارة عنده صنو الحياة ، والبرودة قرينة الموت ، وقد جرى الإنسان على اعتبارهما كالظلام والنور ظاهرتين متناقضتين على طرفى نقيض بحيث لا يجتمعان ، وإذا وجدت إحداهما انعدمت الثانية ، وليس ذلك كله إلا شيئا خاصاً بالإنسان ومن تقرير الإنسان ، فهو الذى اختار حالة تحول الماء إلى جليد لتكون مقياسا له ليقارن به درجة حرارة الأشياء الأخرى فجعلها صفرا ، وراح يقول إن حرارة هذا الشىء تعلو الصفر بكذا وكيت فدرجة برودته كذا .

والطبيعة لا تعرف هذا المقياس الذى صنعه الإنسان ، فثمة أشياء تبلغ حرارتها ملايين الدرجات فوق الصفر الإنسانى ، وأشياء أخرى تبلغ الملايين من الدرجات تحت الصفر الإنسانى وهى كلها درجة حرارة إذا شئت ، وهى كلها درجة برودة إذا شئت . . لأنها ليست حرارة أو برودة إلا فى تسميتنا وبالنسبة لنا . . أما بالنسبة للطبيعة فهى مجرد ذبذبات تختلف سرعتها صاعدة إلى مالا نهاية ، وهابطة إلى مالا نهاية دون أن يكون هناك أى معنى لهذا الصفر الذى افترضه الإنسان . . فهذا الماء الذى تصوره الإنسان شيئاً هاماً ، ليتخذه مقياساً للبرودة والحرارة ، وخطيرا لأنه حيوى له . . لا يساوى فى عالم الطبيعة شيئاً أكثر قيمة من أى شىء غيره .

وإذا كان الإنسان قد أعد لنفسه مقياساً لقياس الحرارة والبرودة ،وراح ينظم حقائق الكون ويرتبها ، فيصف هذا بالحرارة والبرودة مع أنهما بالنسبة للطبيعة لاحرارة ولابرودة . . فكذلك شأنه بالنسبة لكل مايحيط به من ظواهر مادية. فقد جعل من نفسه مقياساً لكل شيء ، وراح يرتب الحقائق على هذا الأساس . فالشمس مثلا جرم كبير جدا بالنسبة للإنسان ، والشمس ذرة بالنسبة للمجرة ، والمجرة ذرة فى الفضاء ، والنملة شيء صغير جدا بالنسبة للإنسان كذلك ، فتكون النملة بالنسبة للشمس شيئاً لايذكر ، وعلى هذا الأساس راح العقل الإنسانى يرتب هذا الكون وينظمه ، فهذا شيء وهذا أكبر . . وهذا أكبر جدا وهذا أصغر ، ويؤلف من ذلك علماً ومعرفة يطلق عليها اسم الحقائق الكونية . . مع أن الكون لايمكن أن يعرف كبيرا أو صغيرا ، وليس لهذه المقارنة عنده أى مدلول.

وحسبنا أن نستحضر هذا الذى تقوله كتب الطبيعة من أن وزن ذرة الايدروجينين يساوى ٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠١,٧ من الجرام[1] . فما الذى يعنيه إذن قولنا إن الجرام شيء صغير إلا أن يكون ذلك بالنسبة لنا .

فها هى ذرة الايدروجين تصغر الجرام بهذا الرقم الذى لايستطيع البشر أن يطالعوه فيكتفون برسمه .

ويقول العلم لنا : إن نواة الذرة تساوى جزءا من ألف مليون جزء من حجم الذرة ، أى لو أنك أردت أن تعرف وزن حجم نواة ذرة الايدروجين ، فيجب أن تضرب ألف مليون فى هذا العدد المؤلف من ٢٥ رقماً ، ولكى

---

(١) تطور علم الطبيعة لاينشتين — ص ١٨٦ .

تصل إلى حجم البروتون الذى هو أحد أجزاء النواة ، فلابد لك من الوصول إلى أرقام أضخم وأضخم للتعبير عن هذه الأجسام الصغيرة ، وترى أى رقم هذا الذى يعبر عن حجم الإنسان بالنسبة للنواة وبالنسبة للالكترون أو البروتون وإلى مادون ذلك كالفوتون . وهكذا إلى مالا نهاية . ليس فى الطبيعة حد لما يتصوره الإنسان كبيرا ليقف عنده ، أو لما نتصوره صغيرا لنقف عنده ، فليس ثمة جرم كبير أو صغير إلا بالنسبة للإنسان ، وليس للكبر والصغر من أى معنى إلا فى عقل الإنسان ، ولذلك اعتبر ذلك بديهية من البديهيات التى لاتحتاج لبرهان .

الزمان والمكان

لايمكن فهم المادة ووجودها إلا متصلة بالزمان والمكان ، فهل للزمان والمكان كما نفهمهما وجود فى غير ذهن الإنسان ؟

لقد قسم الإنسان الزمان إلى ماض وحاضر ومستقبل ، وهو تقسيم لامعنى له ولا وجود إلا بالنسبة له . لأن الانسان هو الذى يجعل ماوقع له أو منه من الحوادث شيئاً قد مضى وفات ، وما لم يقع بعد فى طى المستقبل ، ثم مد ماضيه ليشمل تاريخ كل من سبق ، ومد فى آفاق المستقبل إلى مالا نهاية له ، أى الخلود الأبدى سواء لروحه ، كما كان يتصور قديماً ، أو لجنسه كما يتصور اليوم .

وحقيقة الحال أن الزمان لا يمكن أن يكون له ماض ومستقبل ، إلا مقاساً بنوع معين من الساعات ، سواء كانت من صنع الإنسان أو من صنع الطبيعة ، كدوران الشمس أو الأرض والكواكب والنجوم الأخرى ، فقبل أن توجد هذه الأجسام التى تقسم بحركتها الزمن ، لم يكن للزمن وجود أو مدلول من أى نوع كان .

والإنسان وحده هو الذى اتخذ من دوران الشمس والقمر ساعات يقيس

بها الزمن ، ثم صنع المزاول والساعات لقياس الزمن ، واتخذ من شتى الحوادث كميلاد شخص أو وفاته نقطة ابتداء ليؤرخ منها ، أو يعتبر قيام حضارة أو انهيارها ، أحد المعالم التى يؤرخ بها . فالإنسان هو صانع التاريخ ولو لم يكن الإنسان لما كان هناك تاريخ ، وهو الذى راح يقيس الزمن بمقياس تحكمى من صنعه ، تماماً كمقياسه للبرودة والحرارة . وعندنا أنه مادام الزمان لا يمكن أن يكون له أول أو آخر ، لأنه من المستحيل عقلا أن تكون هناك بداية لم يسبقها زمن ، أو نهاية يتوقف بعدها الزمن ، فالزمن لا يمكن أن يكون له ماض وحاضر ومستقبل . إنه ليس شريطاً يلف على بكرة ، فيصبح له جزء مطوى وآخر لا يزال منشوراً ، إنه مجرد معنى من خلق الإنسان وحواسه ، وشعوره بالتغيرات التى تطرأ عليه ، إذ يرى نفسه طفلاً فرجلاً فشيخاً ، فميتاً ، ويرى النهار يعقبه الليل ، وقمراً يروح وآخر ينمو ويكبر ، فخلق لنفسه مفهوم الزمن ، ليستطيع أن يرتب معارفه ، وحياته القصيرة . فالقول بالقبلية والبعدية ، وأن شيئاً قد حدث قبل شىء آخر ، وأن شيئاً سيحدث فى مقبل الزمان ، هو قول لا يعنى شيئاً إلا بالنسبة للإنسان . وإن الحادث الواحد ليقع فيكون ماضياً بالنسبة لأقوام ، ويكون مستقبلا بالنسبة لمن لم يعرفوه بعد . ولو كانت الكواكب مسكونه بالناس ، لرأوا ما وقع على الأرض منذ آلاف السنين .

فكرة المكان

وإذا كان الزمان هو إحساس إنسانى بحت ، فكذلك الشأن بالنسبة للمكان على الصورة التى يصوره بها الإنسان من حيث أن له طولا وعرضاً وارتفاعاً . إن الإنسان يصف الشىء بأنه فوق ، لمجرد أنه يقع فوق رأسه فى لحظة معينة ، وأن هذا تحت ، لأنه يقع تحت أقدام الإنسان فى لحظة معينة

ونحن نعلم أن ليس هناك ما يمكن أن يكون فوقاً ، أو ما يمكن أن يكون تحتاً ، ما دام كل شيء فى هذا الكون يدور ، وماهو فوقنا فى لحظة يكون أسفل منا فى لحظة أخرى ، وما يصدق على الفوقية والتحتية يصدق على كل ما نسميه الجهات الأصلية ، من شرق وغرب وشمال وجنوب ، فليس ذلك كله الا أموراً اعتبارية فى لحظة من اللحظات ، وبالنسبة لانسان معين فى لحظة معينة . بل إن الامتداد نفسه من حيث الطول والعرض والسمك أو الارتفاع ، لا يعنى شيئاً إلا بالنسبة للإنسان وحواس الإنسان . ونسبية الزمان والمكان قد أصبحت على كل حال أحد مسلمات العلم الحديث ، كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الأول .

بحيث لا عقل إنسانى يحاول أن يستوعب الكون ونواميسه ، ويقدم ويؤخر ، ويرتب وينظم ، قايساً الأشياء بمقاييسه التى اخترعها منسوبة إلى نفسه ، فلا زمان ولا مكان ولا حرارة أو برودة ولا أبيض أو أسود ولا كبير أو صغير ولا سائل أو صلب فإنما هى كلها ذبذبات . . . ذبذبات لا نهاية لها أو بداية[1] ، وهذه الذبذبات إذا تكدست إلى درجة معينة من التركيز أصبحت بحيث يدركها الإنسان بحواسه ، فأطلق عليها اسم مادة ، وإذا خف تركيز هذه الذبذبات خرجت عن دائرة السمع والبصر ، فأصبحت طاقة ، ويكون مفهوم الكون فى العلم الحديث أنه مجرد حركة[2] .

والإنسان وحده عن طريق حواسه أولا وعقله ثانيا ، هو الذى يكيف هذه الحركات ويصنع منها كوناً على هذه الصورة المستقرة فى أذهاننا ، والتى هى صورة إنسانية بحتة .

---

(١) أثبت العلم الحديث أن الذرة فى حركة مستمرة .
(٢) كان أرسطو أول من لخص علم الطبيعة فى الحركة (علم الطبيعة لأرسطو) .

ولما كان لا حقيقة إلا ما اطمأنت إليه عقولنا ، وما رفضته عقولنا فلا مجال له فى عالم الحقيقة ، ولما كانت العقول فى تطور مستمر ، فقد تغيرت حقيقة العالم من عصر إلى عصر ومن مكان إلى آخر ، وقد اعتبر كل جيل من الأجيال أن معارف الأجيال السابقة ، خرافات وأساطير ، أو على أحسن تقدير معلومات خاطئة .

لقد حاول المصرى القديم أن يتصور هذا الكون ، ففرض أنه على صورة بقرة كبيرة قائمة فى الفلك على أرجلها الأربع متجهة الرأس نحو الغرب ، والأرض بين رجليها الأماميتين والخلفيتين ، واعتبر السماء بطن البقرة مزدانة بالنجوم . وتخيل فريق آخر السماء على شكل امرأة منحنية الجسد مستندة إلى الأرض بطرفى رجليها وغرباً بطرفى يديها[1] . وقد وصل بهم اليقين فى هذا الفرض إلى حد أن صوروها ونقشوها على آثارهم الخالدة فبقيت لنا حتى اليوم تحدثنا عن تصور الكون فى ذهن المصرى القديم . ولم يكن المصرى القديم الذى سجل هذه النقوش على آثاره ساذجاً أو غريراً ، ولم يكن جاهلا أو همجياً ، وإنما كان صاحب أعظم حضارة عرفها البشر حتى اليوم ، ولا تزال الأهرام أعجوبة الدنيا أثراً حياً شاهداً على ذلك ، ولا يزال معبد الكرنك ناطقاً بأنه أعظم بناء شاده الإنسان فى كل عصور التاريخ ، ويتضافر العالم اليوم للمساهمة والاكتتاب لإنقاذ معبد أبى سنبل وبقية معابد النوبة كأعظم تراث خلده البشر .

وكان للإغريق كون من صنع أذهانهم ، تصوروا فيه امتلاء العالم بعدد لا يحصى من الآلهة ، يتولون الإشراف على كل مرفق ، وكل نشاط يطوف للإنسان فى ذهن .

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الأول — ص ١٥٦ .

وكان لعدد من هذه الآلهة مجمع فوق الأولمب ، يديرون فيه شئون البشر ، وعلى هذا التصور قامت آدابهم ، وحول هذا المعنى نسجت إلياذتهم التى تعد أروع ما يملك العالم من تراث شعرى ، ولهذه الآلهة الجالسة فوق جبل الأولمب شيدت المعابد التى يحج البشر لزيارتها من أربعة أرجاء الدنيا ، ليعجبوا بعظمة هؤلاء الفنانين والمهندسين والبنائين الذين شادوا هذه الهياكل الرائعة .

ومرة أخرى لم يكن الإغريق بلهاء أو سذجا أو بسطاء ، ولم يكونوا جهالا ولا هم من الهمج والبرابرة . وإنما كانوا هم من يعترف العالم لهم بالأستاذية فى شتى العلوم ، فنهم فيثاغورس وإقليدس وأرشميدس ، وسقراط وأفلاطون وأرسطو معلم الإنسانية الأول . وقد حفظ لنا التاريخ بصفة خاصة ، أن سقراط الأب الأكبر للفلسفة الذى جعل الفضيلة فى ذروتها هى المعرفة ، كان ممن يؤمنون بمعتقدات قومه ، بل إنه بدأ حياته الفلسفية إثر وحى هبط على الكاهنة فى دلفى معلناً أن سقراط هو أعقل الناس طرا . ويدهش الكثيرون فى عصرنا من هذه الظاهرة التى يعتبرونها غير مفهومة ، فكيف يستسيغ أصحاب هذه العقول الجبارة التى استطاعت أن تشيد هذه المدنيات القديمة ، أن تشيد الأهرام والكرنك والأكروبول ، وأن تضع جميع أسس العلوم والمعارف البشرية ، أن تتصور الكون على صورة بقرة ، أو أن تكون الآلهة مشغولة بالمشاجرات والمخاصمات فوق جبل الأولمب ؟ يدهش الكثيرون كيف أن اليابانيين على الرغم من قدرتهم على اللحاق بالأوربيين فى صناعاتهم وإنتاجهم الفذ ، لا يزالون يؤمنون بأن الميكادو هو ابن الشمس ولا يزالون يقدسونه ، حتى بلغ الأمر بهم أن جعلوا المحافظة على شخص الميكادو هو الشرط الوحيد الذى يشترطونه لكى يسلموا نهائياً فى الحرب الماضية .

وكيف لا يزال الهنود بكل ما فيهم من علماء وحكماء ومفكرين ، ينظرون إلى البقرة كشيء مقدس لا يجوز المساس به فيتركونها تسرح وتمرح وسط المدن الكبرى الغاصة بالحركة الحديثة ؟

وعندنا أن ذلك كله ليس أعصى على الفهم ، من حيث تقديس الإنسان لبعض المعانى ، مما يفعله الروس المعنون فى التقدمية والأخذ بالمادية والعلم الحديث ، وهم يحتفظون بجسد لينين محنطاً ، ويتجمع فى كل يوم على مقبرته ألوف من الشيوعيين ، ينظرون إليه على سبيل التقديس والتكريم ، بينما هو من الناحية العملية والمادية البحتة لا يعدو أن يكون مجرد جيفة ، يرى الكثيرون أنه من الأكرم لها أن توارى التراب. أما من ناحية تصور الكون على صورة ما ، فأى فرق بين تصور الكون على صورة بقرة ، أو تصوره على صورة فقاعة صابون ، على ما يقول به فى عصرنا الحديث العالم الطبيعى الكبير السير جيمس جينس[1]؟ الحق أنه لا فرق هناك إلا أن القدامى لم يكونوا يحتقرون البقرة ، أما نحن فنحتقرها ونؤثر عليها فقاعة الصابون كصورة للكون . فهى مسألة مزاج كما ترى ومسألة تصور ذهنى لا أكثر ولا أقل . . فما هو فى الذهن ينعكس على الخارج ، فإذا الأمور كلها تجرى وكأنها تثبت هذا الذى نعتقد . فالذين يؤمنون بالمعجزات والخوارق يرون فى أعمال الرسل والأنبياء والقديسين والصالحين خوارق ومعجزات ، والذين آمنوا بأن المسيح ابن الله يمشى على الأرض رأوا فى كل حركة من حركاته مصداق هذا الذى آمنوا به ، وعندما وجدوا قبره مفتوحاً فى اليوم الثالث ولم يجدوا جثته قال المؤمنون بالمسيح : إنه رفع إلى السماء ، ورأوا فى هذا الدليل على ربوبيته ، والذين لم يؤمنوا بالمسيح قالوا : إن جثته قد سرقت وأخفيت ، فازداد الأولون إيمانا وازداد الآخرون جحوداً وكفراً .

---

(١) العالم وأينشتين — ص ١٠٢ .

والمسلمون فى صدر الإسلام كانوا يؤمنون بأن الله لابد ناصرهم ، وأنه باعث الملائكة لتحقيق هذا النصر ، فرأوا الملائكة وسمعوا أصواتهم وصهيل خيولهم ، بل إنهم ليصفون لنا ملابسهم[٢] أما المشركون فلم يروا فى انتصار محمد فى غزوة بدر إلا سوء حظ وفشلا فى تدبير الخطة العسكرية .

والذين يؤمنون بالجن والعفاريت يرون الجن والعفاريت ، والذين لا يؤمنون لا يرونهم ، ويسفهون القائلين برؤيتهم .

وفى عصرنا الحديث : الذين يؤمنون بإمكان تحضير الأرواح ؛ يرون الأرواح ويسمعون أصواتها ، والذين لا يؤمنون لا يرون فى كل ما يوصف بأنه تحضير الأرواح إلا أنه دجل فى دجل .

التجربة تؤيد الأفكار المتعارضة

ولا يتخيلن متخيل أن هذا الذى نقول به من رؤية كل إنسان ما يتوهمه ، أنه وقف على أفراد الشعب الجاهل أو العوام ، أو على المباحث والأفكار النظرية البحتة ، أما العلماء وفى العلوم التى تقوم على التجربة وشهادة الحس ، فلا محل للتحدث عن الوهم أو التصورات الذهنية التى تختلف من إنسان لآخر. ولكن الواقع أن القاعدة تطرد حتى فى هذا الميدان من العلوم ، وحتى بالنسبة لهذا الطراز من العلماء ، فقد رأينا فيما سبق كيف أن العلوم والمعارف قد تطورت أحياناً من النقيض إلى النقيض ، واعتبر خطأ ما كان يعتبر حتى الأمس القريب علما ، ولن أحدثك كيف أن هتلر عندما قال بتفوق العنصر الآرى والألمانى بصفة خاصة على بقية العناصر الإنسانية ، كيف أن كل علماء ألمانيا فى شتى فروع العلم قد راحوا يجرون التجارب التى تثبت هذه الحقيقة ، وكيف كانت الاكتشافات العلمية فى هذه الفترة من حياة ألمانيا

---

(١) الطبرى — تاريخ الأمم والملوك . الجزء الثانى — ص١٥٣ طبعة مصطفى محمد .

كلها تتوالى فى هذا الاتجاه ، وكيف ثبت ثبوتا علميا بالتجربة والبرهان اختلاف الدم الألمانى عن دم بقية بنى الإنسان .

لندع ذلك ولنسق لك مثالا واحداً من دنيا الطبيعة والكمياء ، حيث لا مجال إلا للتجربة والحقائق الثابتة . فهذا عالم هولندى يدعى « بشر » طلع على أوروبا قرب نهاية القرن السابع عشر بما أسماه الفلوجستين ، زاعماً أن الفلوجستين هو العنصر الكامن فى كل جسم ، ويؤدى خروجه منه إلى عملية الاحتراق المعروفة . هذه النظرية التى لا أساس لها من الواقع كما نعرف الآن ، سرعان ما سيطرت على عقول العلماء أكثر من قرن من الزمان ، وكان ممن آمن بها علماء أفذاذ من أمثال بريستلى كاشف الأوكسجين بالذات ، وكانت هذه النظرية هى التى يفسر بها كل شىء فى دنيا الكيمياء فى يسر وبساطة لا تدع مجالا للشك فى صحتها . ومعنى ذلك أن باستطاعة أى تفسير خاطىء أن يكون أساساً لعديد من التجارب الناجحة ، ويوصف بأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها . ومثال ذلك تفسير الكون على أنه يتألف من عناصر أربعة ، وهى الماء والنار والهواء والتراب ، فقد كانت هذه هى الحقيقة العلمية الثابتة ، التى يفسر بها كل شىء فى الكون ، وتتواتر الأدلة والآيات على صحتها ، ويعالج المرضى ويبرأون على أساسها ، وتقوم الصناعات والفنون على هديها ، وهكذا .

وعندما كان الظن أن الشمس هى التى تدور حول الأرض ، فقد استطاع هذا التصور أن يفسر كل الظواهر الفلكية ، بحيث كان بقدرة الأقدمين أن يتنبأوا بالكسوف والخسوف بنفس الدقة التى نحسبهما بها ، وأن يجوبوا الآفاق فى البر والبحر على هديها ، وأن يشيدوا هذه الحضارات التى تذهلنا ، ومعنى ذلك أن هذا التصور المقلوب لما نعتبره اليوم حقائق كونية ثابتة ، لم يكن له أى أثر على حياتهم .

إن أقصى ما يمكن أن يقال رداً على سؤالنا ، الذى جعلناه موضوع هذا الفصل ، « هذا الكون أهو من صنع الإنسان ؟ » أن هذا الوجود المادى للكون إن كان له وجود حقيقى بالفعل خارج الإنسان ومستقل عنه ، فإن هذا الوجود لا يمكن أن يزيد فى حقيقته ، على مجرد كيفية معينة من الطاقة أو القوة التى لا نستطيع لها تصوراً أو إدراكا ، فهى مجرد حركة أو ذبذبة على ما يقولون ، تسرع حينا ، وتبطىء حينا آخر ، ولا زيادة . ثم يأتى الإنسان بحواسه وعقله ، فيقسم هذه الحركات والذبذبات إلى طاقة ومادة وضوء وظلام ، وأصوات ومشمومات ، وحركات وأبعاد فى الزمان والمكان ، ويروح العقل الإنسانى يربط بين الظواهر ويرتبها ويبوبها ويقارن فيما بينها ويجمع بين الأشباه والنظائر ، مكوناً من ذلك كله علماً ومعرفة ، جاعلا من هذه المعرفة قوانين يفرضها على الطبيعة فرضاً ، مدعياً أنها لا تعمل إلا من خلالها وبواسطتها .

ولما كانت ظروف الحياة الإنسانية حتى الآن ، قد فرقت بين كل إنسان وآخر ، من حيث القدرة على أى شىء ، على السمع والبصر والشم والحس ، على التفكير والتصور والتخيل . ولما كان الظلم الاجتماعى الذى يرزح تحته الإنسان قد جعل التفاوت بين البشر يكاد يكون إحدى حقائق الحياة الثابتة ، فقد انبنى على ذلك اختلاف الصورة الذهنية لهذا الكون من إنسان لآخر . بحيث نستطيع القول إنه لو كان عدد سكان العالم هو ثلاثة آلاف مليون نسمة ، فإن هناك بالتالى ثلاثة آلاف مليون صورة مختلفة لهذا الكون ، تتغير باستمرار من لحظة لأخرى ، بحيث لا يمكن أن تنطبق الصورة الكونية لأى إنسان على الصورة الكونية لأى إنسان آخر ، كما لا يمكن أن تنطبق بصمة إبهام أى إنسان على إنسان آخر .

ولعل هذا يثبت لنا بوضوح ذاتية الإنسان الفرد ، وعلاقة كل إنسان المستقلة بالوجود ، وأن ليس هناك إنسان أو جماعة من الناس ، مهما بلغ عددهم ، يمكن أن يسدوا فى الوجود مسد أى إنسان كائناً من كان ، ما دام لكل إنسان تصوره الخاص عن الكون ، وبالتالى دوره الخاص فى الوجود.

قد يقول قائل : ولكنك بذلك تكاد تجعل المعرفة شيئاً مستحيلا ، ومجرد وهم يختلف من إنسان لإنسان . وحقاً كان يمكن أن يكون الأمر كذلك ، لولا أن كل إنسان ليس منبت الصلة عن بقية البشر ، وعقله ليس نسيج وحده من سائر العقول . لقد جاء الإنسان من إنسان آخر ، والعقل تراث ينتقل بين رؤوس البشر ، فالناس جميعاً بما فيهم عقولهم قد جاءوا من أصل مشترك ، وكأثر من هذا الأصل المشترك تلتقى العقول على مايسمى بديهيات مقررة ومسلمات متفق عليها ، وتتأثر العقول من خلال الحواس بمؤثرات مشتركة كذلك ، وتلقى العلم والمعرفة عن الآخرين يؤدى إلى انطباعات مشتركة فى العقل .

ومن هذه المؤثرات المشتركة والبديهيات الكامنة فى كل عقل ، تصاغ هذه الفروض والنظريات التى توصف أحياناً ، بأنها حقائق علمية يرتب البشر عليها معاشهم .

فالخلاف بين كل عقل وعقل موجود ، ومسألة مقررة ومؤكدة يؤكدها الحس والعقل كما رأينا ، ولكن القسم المشترك موجود كذلك ، وبهذا القسم المشترك يتفاهم البشر ، ويتعاطفون ويتعاونون .

وباستطاعتنا الآن وقد أدركنا مدى العلاقة بين ذهن الإنسان والوجود الخارجى ، أن ننتقل إلى البحث التالى لنقرر أن : كل مايدور فى عقل الإنسان ، إما أنه كان أو كائن أو سيكون .

مراجع الفصل الثالث

٤٣ — العين والشمس — تأليف س . فافيلوف — ترجمة الدكتور عطية عبد السلام عاشور .

٤٤ — الصوت والضوء (كتاب مدرسى) تأليف الأساتذة : محمد محمد فياض ، محمد عاطف البرقوقى ، عبد المنعم السيد عشرى ، وأحمد أمين إبراهيم .

٤٥ — تاريخ الأرض — تأليف جورج جامبو — تعريب محمد أبو شلباية .

٤٦ — العالم واينشتين — تأليف لنكولن بارنت — وترجمة محمد عاطف البرقوقى .

٤٧ — بواتق وأنابيب — قصة الكيمياء — برنارد جافى — ترجمة الدكتور أحمد زكى .

٤٨ — تاريخ الأمم والملوك — للامام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى راجعه وصححه وضبطه نخبة من العلماء — طبع المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد — عام ١٩٣٩ — ثمانية مجلدات .

٤٩ — مع الله فى السماء — تأليف الدكتور أحمد زكى — من كتب الهلال .

٥٠ — الباحثون — تأليف غرانين — من مؤلفات الأدب السوفيتى .

٥١ — علم الطبيعة — أرسطو — ترجمة لطفى السيد .

مراجع سبقت الإشارة إليها

— تطور علم الطبيعة .
— مدخل إلى علم الفلسفة .
— قصة الحضارة .
— جمهورية أفلاطون

الفصل الرابع

كل ما يدور فى عقل البشر ، إما أنه كان أو كائن ، أو سيكون

التـلازم بين ما يدور فى الذهن وما يقع بالفعل — حقيقة الاحـلام — الاساطير والخرافات — الافـكار الدينية — الـكون المخـلوق — السبب الاول الخـالق — صلة الانسان بالسبب الاول — موت الانسان أهو نهايته ؟ — الثواب والعقـاب — السجل الاحصـائى لاعمال الانسان — الله نور السموات والارض — كائنات تصورها العقل — المردة والغيلان والرخ — الجن والعفـاريت والارواح — الملائـكة وسكان السماء — وعدنا نتطلع للسماء — فكرة الطيران — أفكار جميع المخترعات — الحقائق العلمية—حجر الفلاسفة أو الاكسير — كشوف القرن التاسع عشر الثلاثة — أينشتين والمادة والطاقة .

رأينا فى الفصل السابق كيف أن العقل البشرى هو أحد محاور هذا الوجود الذى لا يتم الوجود بصورته التى نعرفه بها إلا بواسطته ، وسواء كان للوجود حقيقة ذاتية خارج الإنسان ، التى تنعكس على عقله عن طريق الحواس ، فيراه على هذا النظام والإحكام كما يقول أصحاب النظرية الواقعية فى المعرفة ، أو لم يكن للوجود من حقيقة إلا عقل الإنسان الذى يضفى على الـكون من حوله هذه الصور والأشـكال التى هى من صنعه وخلقه كما يقول المثاليون .

أو كان الوجود مزيجاً من الوجود الواقعى ، خارج عقل الإنسان ومن مبادىءأساسية مستقرة فى العقل ، تضفى على المؤثرات التى تأتيها من الخارج أحكاماً هى من صنع العقل ، كما يقرر بعض المذاهب الفلسفية[1]، أقول

---

(١) مسائل فلسفية — للدكاترة توفيق الطويل وعبده فراج وزكى نجيب محمود .

أيا ما تكون العلاقة التي تقوم بين العقل والوجود ، فالأمر المحقق أنه عنصر لازم وضروري ، إما لخلق الوجود كما نعرفه ، أو للكشف عنه بالصورة التي نعرفها ، وينبني على ذلك في كلتا الحالتين ، أن تكون الحقائق الكونية كلها مستقرة في عقل الإنسان ، ومجبولة فيه مذ يولد ، أو أنها منعكسة عليه مذ يولد كذلك ، أو أنها من صنعه تمهيداً لإيجادها في الخارج .

ومن هنا جاز لنا أن نفرض أن كل ما دار في ذهن الإنسان على أنه أمر واقع ، فإن هذا الأمر لا يمكن إلا أن يكون قد وقع بالفعل في زمن مضى ، وهو يستثار في الذهن من قبيل الذكريات ، أو يكون انعكاساً لأمر يقع في التو واللحظة التي تتم فيها عملية الفكر ، أو أنه تنبؤ عن أمر سيقع في المستقبل يعبر عنه العقل بصيغة الماضي ، لأن العقل المطلق لا يعرف ماضياً أو مستقبلا .

وفي رأينا أن الأمر لا يمكن أن يكون إلا كذلك . . فإحدى المسلمات التي نتفق عليها جميعا ، وقد تكون إحدى البديهيات المجبولة في العقل : أنه لا يمكن خلق شيء من عدم ، كما أن لا شيء موجود يذهب إلى عدم ، أو بتعبير آخر « فاقد الشيء لا يعطيه » وينبني على ذلك أنه يستحيل عقلاً أن يدور في ذهن الإنسان شيء ليس له أصل من واقع سبق ، أو حال أو سيكون.

هنا ويحق للكثيرين أن يتساءلوا : فإذا كان الأمر كذلك فما الرأي في الأحلام والرؤى سواء في اليقظة أو في المنام ، وهي محض تخليط وتخرصات؟ بل ما هو القول في الأساطير والخرافات وحكايات الأطفال ، التي تغص بها الآداب الشعبية في كل زمان ومكان ؟

وما الرأي في العقائد الدينية على اختلاف أنواعها وتناقضها من شعب إلى شعب ، ومن عصر إلى عصر بل ومن قبيلة إلى قبيلة ، وهي لا يمكن إلا أن تكون من نسج الخيال . وأخيراً ماهو الرأي في هذا الخيال الإنساني

بصفة عامة ، وهو الذى ينطلق غير متقيد بزمان أو مكان ، غير متقيد بما يعد مستحيلا وما لا يعد ؟ .

وجوابنا على كل هذه الأسئلة أو بالأحرى الاعتراضات ، هو نفس ما قررناه حتى الآن ، فما من صورة يمكن أن ترد على الذهن ، إلا وهى على صلة بالحقيقة والواقع بعلاقة ما ، وإلا لما اتخذت سبيلها إلى الذهن . وحسبنا أن ندرس آخر ما أصبح يقال عن الأحلام ، والأساطير والخرافات والعقائد الدينية ليتبين لنا مصداق ذلك .

الرؤى والأحلام

كانت العقيدة المستقرة فى عقول الناس منذ أقدم العصور ، أن للأحلام وجوداً حقيقياً ، أو بالأحرى تمثل حقيقة بعض ما جرى أو يجرى أو سوف يجرى ويقع . وقد ذهب الرأى فى تفسيرها مذاهب شتى ، فمن قائل إن الأحلام هى حياة لروح الإنسان التى تنفصل عن جسده إبان النوم وتنطلق فى متاهات ومجاهل لا نعرف من أمرها شيئا ، ومن هنا جاء فى أحد كتب (يوبانشاد) الهندية القديمة « لا يوقظن أحد نائما إيقاظا مفاجئاً عنيفاً ، لأنه من أصعب الأمور علاجا أن تضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها »[1] .

وفى رأى آخر أن الأحلام لون من ألوان ذكريات الروح عن تجاربها فى حياة مضت . (مذهب تناسخ الأرواح) والإجماع منعقد منذ القديم على أن الأحلام فى كل الأحوال ، تتكلم بلغة الرموز ، ومن هنا جاء الغموض

---

(١) قصة الحضارة الجزء الأول — ص ١٠٠ .

وقد أشار القرآن الكريم لفكرة انفصال الروح عن الجسد خلال النوم فى الآية الكريمة « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » الزمر ٤٢ .

الذى يطبع الأحلام بطابعه . ولم يكن هناك فى القديم من يداخله الشك فى أن الأحلام قد تكشف عن مستقبل الإنسان وعما قد يقع له من الحوادث ، ومن الأمور المقررة فى الفقه الإسلامى أن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة[1].

ولقد أقدم رسول الله (صلعم) على خوض معركة بدر الفاصلة فى تاريخ الإسلام والإنسانية بالتالى ، بناء على رؤيا رآها فى المنام ، من أنه سينتصر على المشركين[2]. كما رأى فى منامه مرة أخرى أنه سيدخل مكة آمناً مطمئنا هو وبقية المسلمين ، رغم الحرب التى كانت مستعرة بينه وبين قريش ، وأنه سيطوف بالمسجد الحرام ، فكان الذى رأى فى منامه[3].

ومن هنا قام للأحلام وتفسيرها علم شامخ فى القديم ، ساهم فى تشييده الفلاسفة والعلماء والكهنة والسحرة ، وكما يلتمس الناس الأطباء لعلاج ما يلم بهم من أمراض ، فقد كانوا يلتمسون أهل الذكر لتفسير ما يعرض لهم من أحلام ، إذا لم يستطيعوا هم أو ذووهم أن يفسروا هذه الأحلام .

وكل ذلك يدل على أن أحداً فى الماضى لم يتشكك فى انطواء الأحلام على حقائق وأسرار تتصل بالوجود ، وبما كان وسوف يكون ، أيا كان التشويش الذى قد ينتابها .

ثم كانت موجة العلوم المادية ، علوم التجربة والحواس والمشاهدة التى

---

(١) فى الحديث الشريف عن عائشة قالت « أول ما بدىء به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » (رواه الشيخان والترمذى) وتضمن العهد القديم إشارات للأحلام المنبئة بالمستقبل كما فى قصة يوسف وما رآه فرعون ، على التفصيل الذى ورد فى القرآن الكريم .

(٢) « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا » (سورة الأنفال — آية ٤٣).

(٣) « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » — سورة الفتح ٢٧ .

لاتؤمن إلا بما نمسك أو نشم أو نرى ، والتى ترى فى كل حديث عن الروح ، حديثاً عن مجهول وفرض لا لزوم له ، لأن المادة كفيلة بحل كل إشكال ، فكان طبيعياً أن يجرف هذا التفكير الجديد كل ماقيل فى القديم عن تفسير الأحلام ، ولم تعد الأحلام شيئاً حقيقاً بأن يشغل نفسه به عالم أو فيلسوف ، وإلا كان معنى ذلك اشتغاله بالأوهام ، وسقط بالتالى كل تصور أن تتضمن الأحلام حديثاً عن المستقبل أو تنبؤاً بالغيب . ولكن العقل البشرى من ديدنه أن يفكر فى كل شىء ، وأن يقلب الأمور على كل وجه ، وأن يرى اليوم وجهاً من الصورة وفى يوم آخر الوجه الثانى ، ثم الوجه الثالث وهكذا ، فلا خوف منه على الحقيقة أبداً ، مهما كان انحرافه أو نكسته ، لأن الانحراف لايلبث أن يعود إلى الاستواء والنكسة تعود إلى انطلاق ! فقد كان الماديون ورسل المادة المؤمنون بها ، هم الذين أعادوا للأحلام سابق مكانتها وخطورتها فى حياة الإنسان ، ونددوا بهذا الإغفال الذى أصبحت تلقاه الأحلام .

وكان نبى هذا البعث الجديد هو سيجموند فرويد[1] الطبيب العالم الذى بدأ حياته باحثاً خلف العناصر وتركيبات المادة وطرق العلاج ، عندما أصدر كتابه (تفسير الأحلام) فى سنة ١٩٠٠[2] مبتدئاً بذلك علم الطب النفسانى ، صاحب الصولة والجولة اليوم فى العالم الغربى ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية . وإليك ماقاله سيجموند فرويد عن حقيقة الأحلام ، وكيف أنها تمثل الرغبات المكبوتة ، وترمز إلى الحقيقة بصورة من الصور :

---

(١) بدأ فرويد حياته طبيباً فى المستشفى العام فى مدينة ڤينا ، وقد راح يجرى سلسلة من التجارب الشاقة لشفاء المدمنين بالمورفين بإعطائهم حقنا من الكوكايين (قصة العقاقير — الدكتور محمود سلامه ص ٤٥) .

(٢) الأحلام والرؤى — عبد العزيز جادو — ص ٥٣ .

١ — إن عدد الذكريات التي تظهر في أثناء الحلم ، يفوق كثيراً عدد الذكريات التي تظهر في أثناء اليقظة . فالأحلام تعيد ذكريات كان الشخص قد نسيها ، ولا يستطيع تذكرها في أثناء اليقظة .

٢ — تستخدم الأحلام رموزاً لفظية بصورة لا حد لها ، ويكون معنى هذه الرموز في معظم الأحوال غير معروف للحالم ، غير أننا نستطيع بما لنا من خبرة أن نعرف معناها . ومن المحتمل أنها تنشأ من المراحل الأولى لنشوء الكلام .

٣ — غالباً ما تستعيد الذاكرة في أثناء الأحلام ذكريات من أيام الطفولة الأولى للشخص الحالم ، نستطيع منها أن نؤكد في يقين أنها ليست فقط نفسية ، بل إنها أصبحت لاشعورية بما عانت من كبت . وهذا يفسر لنا المعونة — التي لا غنى عنها عادة — التي تقدمها لنا الأحلام عندما نحاول أثناء علاج الأمراض العصابية بالتحليل ، أن نعيد بناء الحياة الأولى للحالم .

٤ — وفيما عدا ذلك فإن الأحلام تظهر مادة لا يمكن أن تكون أتت من شباب الحالم ، ولا من طفولته المنسية ، ونحن مضطرون إلى اعتبار هذه المادة جزءا من الميراث الفطري الذي يحضره الطفل معه إلى هذا العالم نتيجة خبرات أسلافه ، وذلك قبل أن تحدث له أية خبرة خاصة . ونجد في الأساطير القديمة ، وفي التقاليد الباقية ، عناصر تماثل هذه المادة المتعلقة بنشوء الجنس . وهكذا نرى الأحلام تمدنا بمصدر لتاريخ الإنسان لا يجب التقليل من شأنه »[1] .

وهكذا لم تعد الأحلام أضغاثا ، وإنما هي إشارات ورموز وذكريات

---

(١) معالم التحليل النفساني — فرويد — ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتي — ص ٩٣ .

وتعبير عما يخالج النفس ، فهى الدليل على أن كل مادار فى الذهن ، حتى ولو فى حالة النوم ، هو تعبير عن حقيقة كانت أو كائنة أو سوف تـكون . ولم يـكن فرويد إلا الطليعة لسيل من الأبحاث المماثلة ، وعديد من العلماء الذين وإن اتفقوا معه فى المنهج ، فقد اختلفوا معه فى التعليل ، من أمثال أدلر ويونج .

وما من طبيب نفسانى فى طول العالم وعرضه فى أيامنا هذه ، إلا ويتخذ من أحلام مريضه ، سبيلا لمعرفة مايعتلج فى صدره من الذكريات والرغبات ، والعقد النفسية التى تسبب له المتاعب أو الآلام .

الاساطير والخرافات

وإذا كانت الأحلام قد عادت إلى سابق أهميتها ، من حيث كشفها عن مكنونات النفس ، وذكريات الإنسان عن حوادث ماضية ، فـكذلك أصبح الشأن بالنسبة لما اعتدنا أن نطلق عليه أساطير العصور الأولى وخرافاتها ، مما ألقى به جملة فى سلة المهملات فى وقت من الأوقات ، باعتباره لونا من ألوان الهذيان الذى طاف فى العقل البشرى فى مراحله الأولى البدائية ، التى كانت تتسم بالفجاجة والطفولة .

ومما يؤسف له حقاً ، أن البعض قد ذهب إلى اعتبار المعتقدات القديمة كلها ، بما فيها الأديان ، سواء كانت أديانا سماوية أو وثنية ، لاتخرج عن أن تـكون ضربا من ضروب الأوهام والأساطير ، بحيث لاتستحق أن يختلف مصيرها عن مصير بقية الأساطير والأوهام ، ألا وهو سلة المهملات. بل لقد ذهب بعض المذاهب إلى حد التسامح مع الخرافات والأساطير ، فلم يعد يلقيها فى سلة المهملات ، أما بالنسبة للأديان والمعتقدات فلم يعد يرضيها إلا أن تحاربها ، وتحارب معتنقيها وتستأصل شأفتهم ، كما كان يفعل بالأمس بالـكفار والمشركين بمقولة ألا سبيل لرقى الإنسان إلا بعد أن يطهر نفسه

وذهنه من هذه السموم والمخدرات[1] . ولو صح هذا القول لكان معناه أن هذا الذى دار فى عقول البشر خلال عشرات القرون ، كان وهما ولونا من ألوان الخزعبلات التى لا تنطوى على حق أو واقع من أى شىء كان ، وهو مايهدر العقل البشرى ويزرى به ويدفع إلى التشكك فى كل مايقول به العقل البشرى اليوم أو غداً أو فى أى يوم من الأيام . . . مادام أن أموراً ظل يرددها خلال القرون وآلاف السنين ليست سوى أكاذيب وترهات وأوهام ، فليس مايمنع أن يكون كل مايقوله اليوم هو من هذا القبيل . وبدأ العلماء بحثهم فى الأساطير والخرافات والسحر القديم والشعوذة ، كما لا تزال ممثلة لدى بعض الشعوب البدائية فى أفريقيا وآسيا واستراليا ، وإذا العلماء يرون فى هذه الأساطير والخرافات حديثا جديرا بكل تقدير واعتبار ، فهى ليست سوى التاريخ . . . تاريخ البشر ، وتاريخ جماعة من الجماعات مصاغا بلغة قديمة ومفاهيم قديمة .

فعندما يعتقد المصرى القديم فى الإله رع ، وأنه حكم الأرض ثم صعد إلى السماء ، وعندما نتحدث عن هذا النزاع الدموى بين ست وبين أوزوريس ، وكيف قتل ست أخاه ومزق جسده أشلاء فعملت إيزيس زوجة أوزوريس على تربية ابنها حوريس على فكرة الانتقام لمقتل أبيه ، وكيف جمعت أشلاء زوجها لتدفنه ، ليس ذلك كله إلا حديثا عن وقائع حدثت بالفعل وملوك كانوا أول من حكم مصر ، ثم قدسهم الناس بعد موتهم ، كما يحدث فى كل زمان ومكان .

---

(١) اتخذ المؤتمر الشيوعى الدولى السادس المنعقد عام ١٩٢٨ القرار التالى :

إن أحد المهام الملقاة على عاتق الثورة الثقافية التى تؤثر على الجماهير ، هو واجب العمل المنظم الدائب فى محاربة الدين ، هذا الأفيون الذى يخدر الشعوب . . . ويتعين على الدولة فى الوقت الذى تسمح فيه بحرية العبادة بعد إلغاء المركز الممتاز الذى كان يتمتع به الدين فى القديم ، أن تقوم بدعاية ضد الدين بكل الوسائل التى تسيطر عليها الدول وتعيد بناء العمل التربوى والتعليمى على أساس المادية العلمية .

الدين — تأليف لينين المجلد السابع ص ٦ Religion - By V. I. Lenin

وعندما يتحدث الإغريق عن آلهة الأولمب ، وما يقع بينهم من نزاع وصدام ومناقشات ومحاورات ، فليس ذلك كله إلا حديثا عن أصول الإغريق القدامى ورؤساء القبائل والعشائر ، الذين نسلوا أحفادهم الذين قدسوا أجدادهم ، كما هو شأن الطبيعة البشرية فى احترام الموتى وإجلالهم .

وليس أدل على هذا الفهم لهذه الأساطير القديمة ، وأنها تمثل تاريخاً إنسانياً ، أنه لا المصرى القديم ، ولا الإغريقى ، ولا الرومانى ، نسبوا إلى هذه الآلهة المعبودة خلق هذا الكون ، فقد كان موجوداً قبل أن توجد الآلهة من أمثال رع أو أوزوريس أو آمون أو زيوس أو جوبيتر ، والآلهة المصرية كالآلهة الإغريقية كالرومانية ، كلها لا تستطيع أن تتحكم فى القضاء والقدر الذى يهيمن على أقدارها كما يهيمن على أقدار البشر سواء بسواء . فدل ذلك على أن هذه الآلهة المعبودة ، ليست فى طبيعتها إلا بشراً ممن سبق[1] . وهكذا لم تعد الأسطورة شيئاً من اختلاق العقل البشرى ، وإنما هى تسجيل لوقائع حدثت بالفعل ، وتحدث عنها الخلف نقلا عن السلف ، بلغة تختلف عن لغتنا الحاضرة فى مدلول معانى الكلمات وما ترمز إليه ، فكلمة إله لدينا فى الوقت الحاضر ترمز إلى معنى ضخم لم تكن ترمز له فى القديم ، ومن هنا جاء اللبس الذى وقعنا فيه ونحن نطالع هذه الأساطير .

وبدأ علماء كبار يعنون بكل ما يؤثر عن الماضى فيقول لنا FRAZER الذى يصفه ول ديورانت بأنه عالم مبدع موهوب « إن أمجاد العلم تمتد بجذورها إلى سخافات السحر ، لأن الساحر كلما أخفق فى سحره استفاد من إخفاقه هذا استكشافاً لقانون من قوانين الطبيعة ، وعلى هذا النحو كان السحر هو الذى أنشأ لنا الطبيب والصيدلى ، وعالم المعادن وعالم الفلك[1] . »

(١) كتاب قصة الحضارة — الجزء الأول — المجلد الأول .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (وحدة المعرفة) « الخرافة أول العلم ، فهى نظرية لم تثبت ،أما العلم فخرافة قد ثبتت أصولها ، واطردت نتائجها إلى حد ما . وعلم الأمس لا يعدو أن يكون خرافة اليوم ، وعلمنا سيكون عند أبنائنا خرافة ، وقوام المذهب الخرافى العلمى ، هو قدرة العقل على تنظيم ما يعلم »[1] .

وراح العقل يحفل من جديد بكل المعتقدات والأديان القديمة ، فبعثت كتب البوذية والهندوكية والزرادشتية . وطاف العلماء بين شعوب أفريقيا واستراليا وآسيا يبحثون أصول المعتقدات والأديان ، واستخلص من ذلك كله ومن الأديان السماوية الأخرى ، كالموسوية والمسيحية والإسلام علم من أكبر العلوم ، وهو علم الدين المقارن ، الذى دل على أن للمعتقدات وللأديان ، على اختلاف أشكالها وتباعد أزمانها ، جوهراً مشتركاً يلتقى عند أفكار وصور معينة ، طافت كلها بالذهن البشرى ، سواء كان هذا الذهن مستقراً فى رأس أحد الهنود الحمر ، أم أحد أبناء الدنكا والشلوك فى مديرية خط الاستواء ، أو كان عالماً من كبار علماء اللاهوت فى الفاتيكان ، أو ابن رشد وابن سينا والغزالى من فلاسفة الإسلام ، أو أرسطو وسقراط وأفلاطون من أعلام الإغريق .

ولو أننا لخصنا هذه الأفكار التى تؤلف جوهر الأديان ، لوجدناها لا تخرج عما أصبح العلم الحديث يعتبره حقائق مقررة ، يثبتها الحس والتجربة ، وما تكشف عنه الآلات فى المعامل والمراصد ودور الأبحاث ، فما هى هذه الأفكار ؟

أفكار العقائد الدينية

مامن دين من الأديان إلا وهو منطو على الأفكار الآتية ، وإن اختلفت التعابير والأسماء :

(١) وحدة المعرفة — ص ١٦ — الدكتور محمد كامل حسين .

١ — هذا الكون قد خلق أى أنه كان حيث لم يكن من قبل موجوداً على هذه الصورة .

٢ — يرجع خلق هذا الكون إلى سبب أول ، أقدر وأكفأ وأكمل من الإنسان .

٣ — إن الإنسان على صلة مستمرة بهذا السبب الأول ، الذى منه نشأ الكون .

٤ — إن موت الإنسان ليس هو نهاية قصته .

٥ — ما يأتيه الإنسان من أعمال فلا بد أن يحاسب عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . هذه هى الأفكار التى دارت فى رؤوس البشر منذ عرفوا أنفسهم حتى الآن ، فأى شىء فى هذه الأفكار مما يصح أن يوصف بأنه محض هذيان ، أو ضرب من ضروب الأوهام ، أو بالأحرى أى شىء قد أثبت العلم الحديث بطلانه أو لم يقم الدليل على صحته ؟ ! .

الكون المخلوق

فأما أن هذا الكون قد خلق حيث لم يكن من قبل على هذه الصورة ، بمعنى أن له بداية تختلف عما انتهى إليه حتى الآن ، فهذه إحدى مسلمات العلم الحديث فى جميع فروعه ، سواء كانت علوماً فلكية ، أو علوماً طبيعية ، أو علوماً خاصة بطبقات الأرض والحياة .

وهناك اليوم عدة نظريات فى كيفية نشوء المجموعة الشمسية ، وكيف انفصل بعضها عن البعض ، ولكن لا خلاف عندهم فى أن القمر قد انفصل من الأرض ، بل ويحدد بعض العلماء مكان انفصاله وهو حيث يوجد المحيط الهادى . والأرض وسائر الكواكب الأخرى قد انفصلت عن الشمس ،

والشمس فى بادىء أمرها لم تكن شيئاً سوى كتلة غازية كسائر النجوم الأخرى ، التى لم تكن قبل ذلك إلا سديماً ، على تفصيل طويل فى مختلف فروع العلم[1] .

وهكذا لم يكن وهماً عندما تصور العقل البشرى أن هذا الكون قد خلق حيث لم يكن على صورته هذه من قبل .

السبب الأول

يقول علم الطبيعة الحديث إن المادة هى سبب هذا الكون ، فلولاها لما كان . وهذه المادة قديمة أزلية ، تنطوى على النواميس اللازمة لانتهاء الكون إلى هذه الصورة التى انتهى إليها ، وهى منطوية كذلك على النواميس التى تبقيه متحركا فعالا متطوراً كما هو شأنه الحالى .

وهذا الذى يقول به علم الطبيعة لا يخرج فى حرفيته عما تقول به الأديان كلها وهى تصف الله الخالق من أنه قادر مريد فعال قديم أزلى . ولعل الفارق هو فى اللفظ ، فالمعتقدات القديمة قد خلعت على هذا السبب الأول شتى الأسماء فهو أهورامزدا لدى أتباع زرادشت ، وهو يهوه لدى الإسرائيليين القدامى ، وهو رع أو آمون لدى المصريين القدامى ، وهو الآب لدى المسيحيين ، وهو الله لدى المسلمين ، إلى آخر هذه الأسماء التى اختلفت باختلاف اللغات واللهجات . وعلم الطبيعة الحديث يسمى هذه القوة الخلاقة باسم المادة ، فهو اسم جديد يضاف إلى ألوف الأسماء التى رمزت لهذا السبب الأول .

يقول لنا العلم الطبيعى : لايوجد فى هذا الكون سوى المادة ، المادة

---

(١) الفلك العام — سير هربرت سبنسر جونز . تاريخ الأرض لجورج جامبو . قصة الكون من السديم إلى الإنسان .

هى سدى الوجود ولحمته ، إنها مبثوثة فى كل مكان ، إنها الشمس فى عليائها ، وهى النملة فى جحرها ، وهى الرياح فى هبوبها ، وهى العقل البشرى فى إبداعه ، وليست المادة سوى الطاقة ، وليست الطاقة سوى المادة ، فهذا الكون كله ينتهى إلى أصل واحد ، هو المادة قوام كل شىء .

فأى جديد فى هذا يختلف عما يقول به الهندوكى من وحدة الوجود ، وماتقول به منظومة الأديان كلها ، ومايقول به كل مؤمن ، من أى لون وطراز ، من أن الله فى كل مكان ، وأن قدرته مبثوثة فى كل شىء ، وهى قوام كل شىء ، ولا يقوم شىء إلا بها .

أغلب الظن أن الماديين عندما ينكرون فكرة الله الخالق كما تصورها الأديان والمعتقدات ، فهم لاينكرون وجود السبب الأول للوجود ، ولكنهم ينكرون الصورة البشرية التى اعتاد البشر أن يخلعوها على الله الخالق ، وينكرون ما اعتاد البشر أن ينسبوه إلى الله ، من أنه قال كذا وفعل كيت ، وأنه جالس على هذا الكرسى أو فوق هذا العرش ، وأنه يروح ويجىء ويصعد وينزل . وينسى الماديون ألا وسيلة للإنسان للتعبير عن أى معنى من المعانى إلا بالقياس على حركاته وتصرفاته وأفكاره ، مما جعلنا نتساءل فى الفصل السابق عما إذا كان الوجود من خلق العقل البشرى ، فمحال على العقل البشرى أن يتحدث عن شىء إلا وهو يضفى عليه الحياة الإنسانية ، وإلا فبأى شىء يستطيع أن يتحدث عن حركات الشمس ، إلا أن يقول عنها إنها تشرق وهى تغرب ، وهى تكسف وهى تحمر ، وهى تصعد وهى تنزل . . . الخ . بل ماذا يقول علماء الطبيعة الماديون وهم يتحدثون عن المادة ، أو لايخلعون عليها الحياة ، فيقولون إن المادة تفعل كذا ، وهى فى تطور مستمر ، وهى تنزع نحو الأصلح ونحو الأكمل . . . أليست كل هذه معانى بشرية نخلعها على المادة بمقاييسنا وآرائنا وأفكارنا ؟

فلا مناص للإنسان فى كل عصر وزمان ومكان من أن يخلع الحياة على كل مافى الـكون .

صلة الانسان المستمرة بالسبب الاول

أما ثالث هذه الأفـكار التى تنطوى عليها الأديان والمعتقدات كلها ، فهو الاتصال المستمر الدائم بين الإنسان وبين هذا السبب الأول للوجود ، والذى يجعل الإنسان بذلك منطوياً على قبس ، أو نفحة من هذا السر الآلهى ، وبهذه المشاكةر فى سر الوجود ، استحق الإنسان أن يكون سيداً على كل مافى هذا الـكون من كائنات ماظهر منها ومابطن ، وراح يتسلط على مافى الطبيعة من قوى ونواميس ، ويسخرها لخدمته وأغراضه .

فما الذى يقول به علم الطبيعة أو المادة ، وهل يختلف فى قليل أو كثير عن هذا الذى تقرره الأديان؟ أليس الإنسان بلغة الطبيعة ، كما سنرى فى الفصل التالى ، هو أسمى ما أنتجته المادة ؟ أليس العقل البشرى هو ذروة ما وصلت إليه الطبيعة من تطور ؟ الإنسان هو الـكائن الوحيد من بين الـكائنات الأخرى القادر على فهم الطبيعة وأسرارها واستغلالها وتسخيرها لما يعود عليه بالنفع ؟ أليس ذلك هو بعينه التفـكير الدينى فى كل المعتقدات القديمة ، كما أشرنا إليه فى الفصل السابق .

موت الانسان أهو نهاية ؟

ونتقل بعد ذلك إلى الفـكرة التالية التى تجمع عليها الأديان ، من أن وفاة الإنسان ليست نهاية قصته ، فهى لا تعدو أن تـكون مجرد تغيير من حالة إلى أخرى ، أو من صورة إلى صورة ثانية ، أو نقله من هذه الدار إلى الدار الخالدة . فأى شىء فى العلم الحديث لا يهتف بهذه الحقيقة ويؤكدها ، بل ويسوق البراهين عليها ؟ أليس علم الطبيعة هو الذى يقول لنا إن المادة

لا تفنى ، وإنما تتشكل وتتغير وتنتقل من حالة لأخرى ، ومن صورة إلى صورة ثانية . أليس هو علم الطبيعة الذى يقول لنا إن الماء إذا تبخر فلم يعد له وجود فى الإناء ، فهو لم يتلاش ، بل ولم ينقص مقدار ذرة ، ذلك أننا لو جمعنا من جديد هذا البخار المتصاعد فى الهواء ، إلى هذه الأملاح الراسبة فى الإناء لوجدناها تزن نفس المقدار الذى كانت تزنه كمية الماء . بل إن هذا البخار المتصاعد إلى عنان السماء ، لن يلبث حتى يؤلف سحابا ليعود من جديد ماء زلالا ، أكثر عذوبة من هذا الذى كان فى الإناء .

وعندما نحرق بعض هذه الأخشاب فيتصاعد منها اللهب والدخان الأسود وبخار الماء ، ثم لا يبقى منها سوى بعض الرماد ، أو لا يقول لنا العلم (كما قال الهنود من قبل) إن هذه الشجرة التى احترقت لم تتلاش ولكنها تحولت إلى عناصرها التى تكونت منها ، وهى الضوء والماء والكربون والأكسجين ، والتى لن تلبث أن تكون الشجرة من جديد ؟

فإذا كان هذا هو الذى يثبته العلم ، من أن المادة لا تفنى ، والطاقة لا تفنى بل تتحول لتأخذ صورا متعددة ، بل إذا كان العلم قد انتهى إلى أن الطاقة ليست شيئاً سوى المادة ، والمادة ليست شيئاً سوى الطاقة وأن التبادل بين الاثنين كان وسيبقى إلى ما شاء الله . فعلى أى أساس يريد البعض أن ينحرفوا بهذه القواعد والنواميس ليبطلوها بالنسبة للإنسان ، فيقولون إن صفحته تنتهى بموته وهذه خاتمة المطاف ؟ أغلب الظن أن ما ينكره الماديون على الأديان ليس قولها بقاء الإنسان بعد موته فى صورة من الصور ، وإنما هم ينكرون هذه الصور الحسية التى تعزى لهذه الحياة الثانية ولهذه التقسيمات من جنة ونار ؛ ومرة أخرى نذكر بإسقاط الخلاف اللفظى وطريقة التعبير ، لنبحث عن الفكرة التى يراد التعبير عنها . فالأديان تقول إن الإنسان بعد موته يعود من حيث بدأ ، يعود إلى سبب وجوده

الأصلى ليعيش فى كنفه ، أو ليتحد معه بحيث يصبح فى كلتا الحالتين خالداً لا يعرض له الموت أو الفناء . فأى شيء فى ذلك لا يقول به العلم المادى ، أليس الإنسان قد جاء من المادة فإذا مات عاد إلى المادة ، أو ليست المادة خالدة ؟ فالفكرة واحدة وإن اختلف التعبير .

بقى أننا لا نعرف على أى أساس يجحد العقل فكرة أن تعود الحياة الإنسانية بكامل صورتها ، بحواسها وبكل مشاعرها ، وهو ما نراه كل صباح ومساء فى الدورة النباتية ، حيث يموت أو تموت الشجرة وتذوى ، ثم لا تلبث أن تعود سيرتها الأولى . وقد ألحت فكرة دورة الحياة على أذهان كثير من الفلاسفة والعلماء ، حتى الذين ثاروا على الدين ، ومن هؤلاء فردريك نيتشة الذى قال بفكرة العود الأبدى : « كل شيء يغدو وكل شيء يعود ، وإلى الأبد تدور عجلة الوجود ، كل شيء يبيد وكل شيء يحيا من جديد وإلى الأبد تسير سنة الوجود[1] » .

الثواب والعقاب

ونصل أخيراً إلى فكرة الثواب والعقاب ، التى هى الهدف الرئيسى لأى دين من الأديان ، وفكرة الثواب والعقاب تقوم على عدة عناصر ، العنصر الأول أن أعمال الإنسان لا يمكن إلا أن تنقسم إلى خير يعود على شخصه وعلى الآخرين من بنى الإنسان ، وإلى شر يؤذيه ويؤذى غيره من بنى الإنسان ، وألا قوام للجماعة إلا إذا دعت إلى الخير وكافأت عليه ، وحظرت الشر وعاقبت عليه . هذه الفكرة الأساسية فى كل دين ، لا نحسب أى عالم أو مفكر ، مهما يكن جحوده للأديان أو إنكاره لها ، يمكن أن يقول بغير ذلك ، أو يدعو لغير ذلك . وتقوم القوانين التى تسنها كل الأمم والجماعات

(١) نيتشة — الدكتور عبد الرحمن بدوى — ص ٢٣٦ .

شاهدا على أن هذا الذى دعت إليه الأديان لم يكن وهماً ولا سذاجة ، وإنما هو ضرورة اجتماعية عمرانية .

هنا ويقال لنا إن الاعتراض ليس على فكرة العقاب والثواب فى حد ذاتها ، وإنما هو على الصورة التى تقول الأديان إنه سيتم بها ، وهذا تعلق بالأعراض والقشور وإغفال اللب والجوهر .

إحصاء أعمال الإنسان وأقواله

وأعود إلى الدعامة التى استندت إليها المعتقدات الدينيـــة فى أن الإنسان مجزى بأعماله إلى أبد الآبدين ، وكيف تقوم على فكرة تسجيل أعمال الإنسان وأقواله بمجرد صدورها عنه.

لقد وجد فى كل عصر وزمان ومكان من لا يسيغ هذه الفكرة ، فهو يرى بالتجربة أن ما ينطق به يتلاشى بمجرد النطق به ، وما يعمله فى الخفاء دون أن يراه أحد يصبح فى طى النسيان .

ثم جاء العلم الحديث ليبرهن على صحة ما ذهبت إليه الأديان ، وليثبت بالطريق المادى أن كل ما يلفظ به الإنسان مسجل فى كتاب ، وما يقوم به من عمل فهو فى إمام مبين ، أو لم يعد بقدرة الإنسان اليوم أن يسجل على الأشرطة أصوات البشر ، فإذا هى خالدة إلى أبد الآبدين ، أو لسنا نسمع فى الإذاعة اليوم أصوات من بارحوا هذه الدنيا منذ أمد بعيد ، وإذ نستمع إلى تسجيلات أصواتهم يخيل إلينا أنهم أحيـاء يرزقون ، فتتصاعد زفراتهم مع القول أو الغناء ، ومع ذلك فهم أموات منذ عشرات السنين . ولو أن واحداً من هؤلاء الذين سجلت أصواتهم قد أخطأ (كما حدث بالنسبة لبعض كبار المطربين) فى نطق كلمة أو إعرابها ، أو لا تظل هذه الغلطة محصاة عليه ومسجلة ، كلما دار الشريط ولو بعد ألوف السنين .

ولست أذكر موضوع أجهزة التسجيل ، إلا لأقرب الموضوع إلى ذهن

القارىء من إمكان تخليد الأصوات ، وإلا فهذا الخلود ليس فى حاجة لأن يسجل فى اسطوانة أو على شريط مغناطيسى ، إذ لا تكاد الكلمة تخرج من فم الإنسان حتى تكون قد سجلت على صفحة هذا الكون، فتظل تدوى وتدوى إلى أبد الآبدين ، ولا سبيل لأن تختلط أى كلمة بأى كلمة أخرى كما لا تختلط هذه الملايين التى لا حد لها من الكلمات المذاعة بالراديو ، والتى تحملها أمواج الأثير فى هذه الكون اللانهائى .

وما يقال عن الصوت وتسجيله على صفحة الكون ، يقال بالمثل عن الحركات وصور الأفعال ، فنحن نرى اليوم أشرطة السينما لممثلين غابوا عن الوجود منذ أمد بعيد ، ومع ذلك يروحون ويجيئون أمامنا كما اعتادوا أن يفعلوا طوال حياتهم ، يضحكون فنسمع ضحكاتهم ، ويبكون فنئن لشكاتهم ، ويرتكبون الشر فنحنق عليهم ، وليس شريط السينما أو التليفزيون ضرورياً لتخليد الصورة والحركة ، فمنذ وجدت الصورة ، أى صورة ، وهى تعكس نفسها على صورة أمواج تنطلق فى هذا الكون ، ولا ينبغى أن نذهل لذلك أو نعجب ، فهو العلم الذى يقول لنا هذا القول ، بل إن العلماء ليقولون لنا إنه قد يكون من المستطاع فى يوم من الأيام استعادة الحوادث الكونية التى حدثت منذ ألوف السنين . ولو أن أقواماً يعيشون الآن على بعض الكواكب التى تبعد عنا بضعة ألوف من السنين الضوئية ولديهم بعض المراقب الكبيرة ، لرأوا فى هذه اللحظات ما كان يجرى على الأرض أيام المسيح وعصر بناة الأهرام .

اللوح المحفوظ

وما دمنا بصدد تسجيل أعمال الإنسان بعد وقوعها ، فمن الحق أن نسجل أن أحد المبادىء التى تقوم عليها الأديان ، هو القول بأن أعمال الإنسان لا تسجل بعد وقوعها فحسب ، بل إنها كانت مسجلة قبل ذلك ومقررة

فى اللوح المحفوظ ، وجرى بها قضاء الله وهى فى مكنون علمه من قبل أن يولد الإنسان ، أو توجد الحياة الإنسانية من أساسها .

هذه الفكرة ، أليست هى ما يقول به علماء المادة والطبيعة بصفة عامة ، وهم يتحدثون عن آلية الطبيعة ، وأن كل شىء يجرى فى الطبيعة وفق النواميس المقررة ، وأن التاريخ الإنسانى يقع بحتمية لا فكاك له منها . أو لا ينفى علماء السلوك عن الإنسان الإرادة كما سنرى ، بمقولة أن كل ما يصدر عن الإنسان هو انعكاسات محتومة لمؤثرات خارجية لا يستطيع الإنسان عنها حولا .

ومعنى ذلك أن العلم المادى ينتهى بنا دائماً إلى ما قال به البشر منذ أقدم العصور ، فى الوقت الذى يندد فيه بتراث البشر القديم ، واصفاً إياه بأنه محض هذيان وأوهام وخرافات .

الله نور السموات والأرض

بقى لكى نختم هذا العرض من الأفكار التى قامت عليها المعتقدات والأديان القديمة ، أن نشير إلى المكانة التى يحتلها النور من هذه التعاليم . فالنور هو أصل الوجود ، وإله النور يعلو دائماً فوق الآلهة الأخرى .

والعهد القديم يقول « إن النور قد بدأ حيث لم يكن شىء فى هذا الوجود ، فقال الله : ليكن نور فكان نور » .

ويقول القرآن بلسان عربى مبين « الله نور السموات والأرض » . واليوم يدور العلم الطبيعى فى هذه الدائرة ، فاينشتين أبو الطبيعة الجديدة يقول إنه ليس فى الكون سرعة تفوق سرعة الضوء ، فهى نهاية السرعة كلها ، والجسم الذى ينطلق بسرعة الضوء لايلبث أن يتلاشى ، وعلماء الطبيعة يحاولون أن يردوا كل الظواهر الكونية إلى الضوء ، فهم بعد أن فرغوا من إثبات أن المادة هى الطاقة ، قد بدأوا يتساءلون هل الطاقة شىء غير

الإشعاع ، وهل الإشعاع إلا الضوء . . . وهكذا لم يكن العقل البشرى يلغو أو يخرف وهو يقول : « وقال الله ليكن نور فكان نور » أو ليردد مع القرآن « الله نور السموات والأرض » .

ثالثاً تصور العقل البشرى وجودها

إذا كانت الأفكار السابقة هي الأفكار الرئيسية فى الأديان ، وقد رأينا كيف أنها كلها بدون استثناء ، تنطوى على ما يعمل العلم التجريبى المادى على إثباته وإقامة البراهين عليه . فقد تفرع من هذه الأفكار الرئيسية ، أفكار أخرى ثانوية ، ومع ذلك فقد احتلت مكاناً ملحوظاً فى الشعر والأدب والفنون والأديان أيضاً ، ومن ذلك تصور العقل البشرى ، وجود كائنات أخرى تختلف عن الإنسان ، يعيش بعضها فى السموات العلا ، ويعيش بعضها الآخر على الكوكب الأرضى ، وتنقسم هذه الكائنات التى تشارك الإنسان معيشته على هذه الأرض إلى قسمين : كائنات منظورة وأخرى غير منظورة ، ومثال الأولى الغول والمارد وبعض الطيور الضخمة المخيفة كالرخ والعنقاء . ومثال الكائنات غير المنظورة الجن والعفاريت والأرواح الشريرة .

وقد نسبت إلى هذه الكائنات غير المنظورة قوى خارقة ، وطاقات لاحد لها ، كما نسبت إليها بالدرجة الأولى شتى صنوف الأمراض التى تصيب الإنسان ، ولا يعرف لها علة مفهومة أو دواء شافياً .

وقد اعتدنا عندما نطالع هذا الذى يقول به القدامى ، ويستسيغه الأطفال فى كل زمان ومكان ، أن ترتسم على شفاهنا بسمة الإشفاق مما كان عليه الأقدمون من جهل ، وعقلية لا تتميز عن عقلية الأطفال ونمتلىء شعوراً بالغبطة لما أصبحنا عليه من علم ونضج ، وارتفاع عن مستوى الخرافات .

فهل صحيح أن هذه الكائنات التى قال الإنسان القديم بوجودها لا وجود

لها ، أو لم يكن لها وجود فى يوم من الأيام ، أو يمكن أن يكون لها وجود فى مقبل الزمان ؟

حقيقة الفيلان والمردة والطيور الخرافية

يقول علماء الحفريات ، وتقوم بعض الهياكل التى عثر عليها فى طبقات الأرض كشاهد على صحة ما يقولون ، إن الأرض قد حكمت منذ عهد سحيق (يقدرونه بمائة وخمسين مليوناً من السنين) بكائنات حية متناهية فى الضخامة ، وقد أخذت عدة أشكال ما بين أسماك فى البحر ، وزحافات وحيوانات وطيور ، حتى ليذهب البعض فى تعليل انقراض هذه الكائنات إلى القول بأن إفراطها فى الضخامة ، كان أحد أسباب ضعفها ، بحيث استطاعت كائنات أخرى أقل منها ضخامة وهى « الماموث » أن تتفوق عليها ، وأن تخلفها فى سيادة الأرض ، ويقول علماء الأحياء إن الإنسان هو واحد من هذه الفصيلة الأخيرة فصيلة الماموث .

والذى يعنينا الآن أن العلم الحديث قد أصبح يقرر أنه قد عاش على هذا الكوكب الأرضى كائنات مخيفة أطلق عليها اسم الديناصورات (الملك المرعب) وقد عثر على بقايا بعض هذه الديناصورات ، فكان ارتفاعها يبلغ عشرين قدماً ، وطولها ٤٥ قدماً ، كما قيل بوجود كائن آخر يسمى البروتنوسور يبلغ طوله مائة قدم ، أى أكثر من ثلاثين متراً ، ويبلغ وزنه خمسين طناً ، كما قالوا بوجود طيور عملاقة ، يبلغ طول جناحها ٥٥ قدماً ، ومن حسن الحظ أن الطبيعة قد حفظت لنا حتى الآن بقية حية من بقايا هذه الكائنات المفرطة فى الضخامة ، حتى لا يكون لدى إنسان شك فى وجودها فى عصر مضى ، وتتمثل هذه البقية فى حيوان الحوت الذى قد يتجاوز المائة قدم طولا .

فتصور القدامى وتصور الطفل فى كل زمان ومكان ، وجود كائنات

جبارة من المردة والغيلان والرخ والعنقاء ، وتصوره مع ذلك غلبة الإنسان عليها بالرغم من خطورتها وضخامتها ، ليس وهماً لا وجود له ، بل هو استعادة لذكريات طبعت فى العقل البشرى منذ عشرات الملايين من السنين . وعلما الحياة والوراثة يؤكدان أن أصغر خلية حية ، تحمل فى ثناياها كل مراحل تطور الحياة الماضية منذ ملايين الملايين من السنين ، ويكون العقل بالتالى الذى هو على حد قولهم جزء من هذه المادة ، لا يمكن إلا أن يكون قد وعى كذلك ما مر به من تجارب عبر السنين الخوالى ، لا تجاربه الذاتية فقط بل تجارب أسلافه وأسلاف أسلافه .

الجن والعفاريت والأرواح الشريرة

وأطلق العقل البشرى على مجموعة من الظواهر التى تخرج عن حدود نطاق قدرته العادية ، أنها لا بد أن تكون من صنع موجودات من الجن والعفاريت ، وعزا للجن والعفاريت القدرة على التشكل فى صورة ريح عاصف ، أو برق خاطف ، أو حيوان ماكر ، وعزا إليها فى الدرجة الأولى أسباب ما يصيبه من أمراض ، وانتهى فى قصصه وأدبه ومعتقداته بتفوق الإنسان حتى على الجن والعفاريت ، واستطاعته أن يقيدها وأن يسخرها وأن يخضعها لسلطانه ، ويستغلها لتحقيق أغراضه . وليس ذلك كله إلا نوعاً مما أشرنا إليه من قبل من عدم استطاعة الإنسان التعبير عن شىء من الأشياء إلا فى صورة حية ، فالحديث عن العفاريت والجن والأرواح الشريرة ليس فى حقيقته إلا تعبيراً عن قوى الطبيعة التى نسخرها اليوم ، لأغراضنا فى صورة الكهرباء والأمواج الكهرومغناطيسية ، وشتى نواميس الطبيعة الأخرى ، والتعبير بكلمة العفريت أو الجن ، لا يعدو أن يكون استخداماً لفظياً ونوعاً من الرمز لظاهرة موجودة لا لشىء غير موجود .

ويظهر لنا ذلك بوضوح من دور هذه الجن والعفاريت والأرواح

الشريرة فى أمراض الإنسان ، فنحن اليوم نقرر أن المرض حقاً وصدقاً ، هو من صنع كائنات شريرة متناهيـــة فى الصغر ، وأطلقنا عليها اسم الميـكروب، وتغزو هذه الميـكروبات الجسم فى شتى الصور والأشكال ، فقد تأتينا مع الهواء والريح ، وقد تنفذ إلينا عن طريق بعوضة تلدغنا ، أو كلب يعضنا ، أو فأر يلغ فى طعامنا ، وكل ذلك تصوره العقل البشرى فيما يفعله الجن والعفاريت لإيذائنا . وإذا كانت المجاهر قد أصبحت ترى الميـكروبات ، فإنها لا تزال فيما هو أدق حجماً من الميـكروب ، وهو الفيروس ترجم بالغيب ، بل إنها لتتصور وجود كائنات دون الفيروس لم تـكشف عنها بعد ، تحدث بدورها بعض الأمراض . . .

وهكذا ترانا نتحدث اليوم عن الميـكروب والفيروس غير المنظورين بالعين المجردة كأسباب للمرض ، كما كان الأقدمون يتحدثون عن الجن والعفاريت . . . ونحن نتصور اليوم أننا نتفوق عليهم باستطاعتنا السيطرة الفعلية على الميـكروب ، وهم لم يكونوا يقلون إيماناً عنا فى استطاعة الإنسان السيطرة على الجن والعفاريت .

والمهم فى ذلك أن العقل البشرى ، لم يكن يخترع شيئاً لا وجود له أو لاحقيقة له فى الـكون ، كما يتصور البعض، وإنما كان يتحدث عن شىء موجود وكائن بالفعل . فنحن نتفق على تصوير الظاهرة ، وإن كنا نختلف فى الأسماء التى نطلقها على علة الظاهرة ، وعلى مدى النجاح فى صدق التفسير الذى نفسرها به ، واقترابه من الحقيقة فى تصورنا .

ولعله من الطريف ، ومما يؤكد هذا التطابق العجيب بين الإنسان فى كل زمان ومكان ، هو أن البعض منا يتحدث فى إشفاق عن هذا الإنسان القديم، الذى كان يعيش فى رعب وفزع دائمين من هذه العفاريت والأرواح الشريرة ، ناسياً أن أبناء العصر الحديث يعيشون فى فزع دائم مستمر من انتشار الأوبئة والميـكروبات التى تجىء مع الهواء ، ويبلغ الوسواس بالبعض حتى لايكادون

يصافحون أحداً أو يمسكون شيئاً ، إلا من وراء قفاز ، ولا يأكلون شيئاً إلا بعد أن يطهر . . . أما زيارة مريض فهذه قد تساوى عندهم نهايتهم المحتومة ، وينتهى الحال بالبعض إلى فقدان العقل جملة خوفاً من هذه الميكروبات والفيروسات التى تتربص الدوائر بالإنسان . ونحن نشهد اليوم الفزع الذى يستولى على شعوب أوربا وأمريكا من الإشعاعات الذرية ، فالخوف واحد ، وهو اليوم كما كان بالأمس ، وإن اختلفت أسماء موضوع الخوف .

سكان السماء

وإذا كان الإنسان قد جعل الأرض مثوى الجن والعفاريت والأرواح الشريرة ، وأبى إلا أن يتخيلها مساكنة إياه ومشاركة له فى داره[1] ، فإنه قد تخيل وجود كائنات أخرى لا تضمر له سوى الخير ، ولا عمل لها إلا السهر عليه ، والعمل على إسعاده ، وقد ارتفع الإنسان بهذه الكائنات إلى السماء ، فجعلها مثوى الأجداد والأسلاف الذين يحفظونه ويرعونه ، ومثوى القديسين والشهداء والصالحين ، ومثوى الآلهة والملائكة ، والأرواح الخيرة . . . وتصور هذه الكائنات دائماً على صورة مضيئة مشرقة ، يحف بها النور ؛ أو بالأحرى هى النور والإشعاع والبهاء .

وعلى ذلك فلم يكن الإنسان يتطلع إلى الأرض قدر تطلعه إلى السماء ، ففى الأرض الجن والعفاريت والشياطين التى تروعه وتتربص به الدوائر لتفتك به ، أما فى السماء فالراحة والدعة والخير والأمل ، لقد كانت أسعد ساعات

---

(١) قارن ذلك بما يتردد الآن من عدم وجود الميكروبات فى الفضاء الخارجى ، وارتفاع الصيحة بتحذير الإنسان من نقل الميكروبات إلى القمر داخل الصاروخ ، وإعلان روسيا أنها عقمت بالفعل صاروخها الذى ارتطم بالقمر ، تدرك مدى التطابق العجيب بين نظريات الإنسان القديمة عن مساكنة الجن والعفاريت فى هذه الأرض وعدم وجودها فى السماء .

الإنسان عندما يستلقى على ظهره تحت أشعة القمر ، يرقب السماء بنجومها وكواكبها وبهائها الذى لا ينتهى .

علم الفلك والتنجيم

ومن هنا كان علم الفلك هو أسبق العلوم ظهوراً فى عقل الإنسان على الإطلاق ، ذلك أن الطفل لا تكاد تنجاب الحجب عن بصره ، حتى يميز بين الظلام والنور ، فيدرك أول ما يدرك تعاقب الليل والنهار ، ويقرن الشمس بالضوء والظلام بغيابها ، ويدرك أن القمر يضيء الكون فى بعض الأوقات، ويختفى عنه فى أيام أخرى . لقد فرضت الشمس والكواكب نفسها على الإنسان قبل أى شىء آخر فى هذا الوجود ، ومن هنا كان علم الفلك أو إن شئت علم التنجيم ، هو أعرق العلوم وأقدمها لدى الإنسان ، لأنه يربطه بالملأ الأعلى ويعده بالتحرر من ويلات الأرض وقيودها .

لم يكن البشر يزاولون عملا من الأعمال ، إلا إذا استشاروا علماء الفلك والتنجيم ، وكان الكبراء والصغار على السواء يربطون مصائرهم بمصائر الأفلاك والبروج .

كانت أعظم وظائف قصر أى ملك من الملوك أو أمير من الأمراء هى وظيفة عالم الفلك أو المنجم ، الذى يستشار فى كل ما حزب من الأمر ، فيسأل عن أحسن الساعات للسفر ، وعن أحسن الساعات لتأسيس مدفن أو بناء دار ، ويسأل عن أحسن الساعات لإعلان الحرب وضمان النصر .

وكان من آثار القول بأن الأرض هى التى تدور حول الشمس وأنها ليست مركز الكون، وبالتالى فليس الإنسان إلا ذرة هائمة فى هذا الكون، أن اعتبر كل هذا الذى عاش فيه الإنسان من تطلعه الدائم إلى السماء وربط مصيره بما يحدث فى الكواكب والفضاء الخارجى ، هو من أوهام العقل البشرى وترهاته فى طفولته . . . وأصبحت الصيحة التى تمثل الحضارة

والمدنية الحديثة هي الإقلاع عن التحليق في السماء والإخلاد إلى الأرض، وقامت الأناشيد والأغاني لأمنا الأرض، منها نشأنا، وعليها درجنا، وإليها نعود، وأصبح كل حديث عن السماء وعن كائنات السماء، عن الملائكة أو أرواح القديسين والشهداء، بما في ذلك الحديث عن رب السماء، هو محض هذيان، وصرف للناس عن حقائق الحياة، وهو حديث العجائز والشعوب المنحلة والعقول المتخلفة.

ومع ذلك فنحن نعلم اليوم بأقوى ما علم الإنسان في أي يوم من الأيام، بارتباط ما يجري على الأرض بما يجري أو يقع في النجوم والكواكب . . . فظاهرة المد والجزر هي من صنع القمر، بل إن ثمة علاقة بين دورة الحيض عند النساء ودورة القمر، ويكفي أن يقع بعض الكلف على سطح الشمس لكي تضطرب المواصلات اللاسلكية. والحياة كلها وقف على أشعة الشمس الكونية، التي تؤثر على حياتنا بشتى أنواع المؤثرات. وإذا كانت هذه حقائق يعنى بها العلماء، فإن حياة الأفراد العاديين في المجتمعات الراقية في أوربا وأمريكا، قد أصبحت معلقة بالأرصاد الجوية. وعادت صورة الأمس كأعنف ما كانت في أي يوم من الأيام، فمصلحة الأرصاد في كل دولة تصبح الناس وتمسيهم بما سيكون عليه الجو في يومهم، فيرتدي بعضهم المعاطف أو يخلعونها طبقاً لهذه التنبؤات، ويقرر بعضهم الخروج إلى المتنزهات أو الإخلاد إلى البيت بناء على هذه التنبؤات، وتخرج الطائرات من حظائرها لتبدأ عملها في نقل المسافرين إلى أطراف الأرض، أو تظل رابضة على الأرض لسوء الأحوال الجوية.

وهل يخرج الصيادون إلى عرض البحار للسعي وراء رزقهم أم يقبعون على الشاطئ خوف العواصف التي يمكن أن تثور؟ . . . ويتم استشارة الأرصاد في أيام الحرب، مثل ما في أيام السلم، فلإمكان القيام بغارة جوية

لا بد من جو معين وساعة معينة تحددها مصلحة الأرصاد ، وللهجوم على غرب أوربا لا بد من ستار معين من الضباب لا يتحقق إلا فى يوم معين وساعة من نهار تحددها سلفاً مصلحة الأرصاد . وكل ذلك ليس إلا عوداً لسلطان الفلكى القديم ، الذى كان يرصد النجوم والأفلاك ويعطى الإذن بعمل هذا أو ذاك . فنحن اليوم نرصد الجو والسماء كما كان يفعل الأقدمون ، وإن اختلفت الآلات ، ونحن اليوم نحاول التنبؤ كما كانوا يحاولون التنبؤ ، بغض النظر عن توفيقنا وسداد تنبؤاتنا ، وأنها أصبحت كما نتصور ، تستند إلى أساس علمى ، فالمهم فى عقد هذه المقارنة أن العقل البشرى عندما كان يربط بين ما يجرى فى الأرض وما حدث أو يحدث فى الفضاء الخارجى ، والشمس والقمر وبقية الكواكب والنجوم ، لم يكن فى ذلك غارقاً فى الوهم أو يتصور شيئاً لا حقيقة له ، وإنما كان يعكس الأمر الواقع الذى نعمل اليوم على إثباته بالتجربة والبرهان .

وعدنا إلى التفكير فى سكان السماء

ومنذ شرع الإنسان يسعى للانطلاق من دائرة الجاذبية الأرضية ، والتحليق فى الفضاء الخارجى ، أصبحت أعناقنا جميعاً مشدودة من جديد إلى السماء ، بأقوى ما شدت إليها فى يوم من الأيام ، والنبأ الذى تنتظره البشرية كلها بفارغ الصبر ، هو إعلان نجاح وصول أول إنسان إلى القمر . وحتى ينطلق الإنسان إلى القمر وإلى الزهرة والمريخ ، ومع اقتراب هذه الأهداف بدأ اللغط يرتفع عن وجود سكان فى المريخ ، أو فى الزهرة ، وأن هؤلاء السكان إن وجدوا ، فلا بد أن يكونوا على صورة تختلف وصورة الإنسان ، لاختلاف الظروف التى انتهى إليها التطور فى كل كوكب من الكواكب . بل بدأ الحديث عن اختلاف قدرة الإنسان نفسه وهو على هذه الكواكب ، فقوة الإنسان على العدو والقفز ورفع الأثقال تزيد أضعافاً

مضاعفة عن قدرته على ذلك كله على الأرض ، وذلك لضعف جاذبية القمر بالنسبة لجاذبية الأرض .

بل إن ما يقال الآن على أنه حقائق علمية ، مما سيكون عليه إنسان الفضاء ، وما أشرنا إليه فى الفصل الأول ، يصور قدرة الإنسان على أن يعيش آلاف السنين الأرضية ، وهو يتصور أنه لم يمض عليه سوى بضعة أعوام . وتقول هذه الحقائق العلمية ، إن الإنسان إذا كان فى الفضاء بعيداً عن جاذبية الأرض ، وقبل أن يدخل فى جاذبية القمر أو أى كوكب آخر ، فلا يمكن إلا أن يهيم فى الفضاء ، لا يقع أو يسقط هنا أو هناك ، وإنما يتحرك فى الفضاء اللانهائى حيث يشاء ، تكفى حركة بسيطة من يده أو قدمه أو رأسه ، لتدفعه فى هذا الاتجاه أو ذاك .

وإذن فلم يكن العقل البشرى وهو يتمثل حياة فى السماء تغاير الحياة على الأرض ، وهو يتخيل للإنسان قدرات فى السماء تختلف عن قدراته على الأرض ، لم يكن العقل البشرى وهو ينشىء فى مصر القديمة مراكب الشمس ، ويطوف حولها ، لم يكن ذلك مظهر لحاجته أو طفولته بمعنى عدم نضجه ، وإنما كان يشير لهذا الذى سوف يكون بعد بضعة آلاف من الأعوام ، عندما أرسل الإنسان صواريخه الأولى التى تطوف الآن حول الشمس ، وليس ذلك سوى البداية . لم يكن المؤمنون إذ يصدقون إمكان صعود الإنسان إلى السماء والعودة منها ، كما هو الشأن عند المسلمين فى الإسراء والمعراج ، بالذين يتصورون مستحيلا ووهما من الأوهام ، إنما كان ذلك مظهر النضج الذى لا يضع حداً على قدرة الإنسان .

فكرة الطيران

وهكذا لم تدر فى عقل الإنسان فكرة من الأفكار ، إلا وكان يعنى ذلك إمكان تحققها بالفعل ، وكان مجرد قيام الفكرة فى عقل الإنسان ، هو

دليل إمكانها ، وإلا لما كان هناك سبيل لوجودها فى العقل .

وإليك مثلا فكرة طيران الإنسان التى ألحت على العقل البشرى منذ أقدم العصور ، حيث يأخذنا العجب لتعدد الطرق التى فكر فيها العقل البشرى لإمكان الطيران ، ومدى مقابلة هذه الطرق المختلفة لشتى الطرق التى يتم الطيران بها فى الوقت الحاضر .

فقد تصور الإنسان أن يستخدم طيور السماء فى معاونته على الطيران ، بمعنى أن يسرجها ويلجمها كما يفعل بسائر الحيوانات ، وتضمن الأدب القديم هذه الفكرة فى قصة السندباد البحرى ، عندما ربط نفسه فى ساق طائر الرخ الضخم ، فنقله من الجزيرة المهجورة إلى العمران .

على أن فكرة الطيران بإلجام الطير والسيطرة عليه ، لم تصور بأجمل مما صورت به فى بعض وقائع التاريخ ، مما رواه لنا الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك ، إذ يقول لنا :

« إن النمرود بن كنعان وهو من حاج إبراهيم فى ربه ، أراد أن يتحدى الله ، ففكر فى التحليق إلى السماء ، فأخذ أربعة من أفراخ النسور ورباهن باللحم والخمر حتى إذا كبرن وغلظن واستعلجن ، قرنهن بتابوت وقعد فى هذا التابوت ، ثم رفع لهن اللحم فطرن به حتى إذا ذهب إلى السماء ، أشرف ينظر إلى الأرض ، فرأى الجبال تدب دبيب النمل ، ثم رفع لهن اللحم ثم نظر فرأى الأرض يحيط بها بحر كأنها فلكة (سفينة) فى الماء ، ثم رفع طويلا فوقع فى ظلمة فلم ير ما فوقه وما تحته ، ففزع فألقى اللحم فاتبعته النسور منقضات وعادت به إلى الأرض »[1].

والعجيب فى هذه القصة بقطع النظر عن حدوثها بالفعل أو عدم حدوثها، هو هذا الوصف للابتعاد عن الأرض ، وكيف تتعاقب صورها المختلفة ،

---

(١) تاريخ الامم والملوك ، الطبرى — الجزء الأول — ص ٢٠٣

وانطباق ذلك على ما يقول به الطيارون الذين وصلوا فى طائراتهم إلى حافة الفضاء . . . بما فى ذلك الظلمة التى يدخلون فيها بمجرد الابتعاد عن الغلاف الجوى الذى يعكس أشعة الشمس .

وفكر الإنسان فى صورة أخرى للطيران ، وهو أن يصطنع له أجنحة كأجنحة الطير ، ورداء كاملا من الريش . كما تصور الإنسان الطيران مستخدما حصاناً سحريا مصنوعاً من النحاس ، إذا حرك الإنسان لولباً فى مقدمته ، طار به فى الفضاء ونقله من مكان إلى مكان . وتصور نقل العدد الكبير عن طريق البساط السحرى ، وتصور الإنسان امتطاء الجن بطريق مباشر ، لينقلوه من مكان إلى مكان .

وإذا كانت بعض هذه الأنواع من الطيران قد اختلط بها السحر ، فقد احتفظ الإنسان بنوع آخر من الانتقال بالروح والجسد فى طرفة عين من مكان إلى مكان ، لأولياء الله الصالحين مستخدمين فى ذلك سر الاسم الأعظم .

واليوم نرى الطيران والانتقال فى الجو ، يتحقق بعديد من الصور والأشكال ، تكاد تقابل هذه الصور والأشكال القديمة .

فهناك التحليق فى الفضاء عن طريق المنطاد (البالون) الأخف من الهواء ، والذى يحمل صندوقا معلقاً يجلس فيه فرد من الناس ، فإذا شاء الهبوط أطلق من داخل البالون بعض الغازات ، وكأن قصة الطبرى التى أشرنا اليها ترمز إلى هذا النوع من الطيران .

وهناك الطيران الشراعى ، الذى يطير الإنسان فيه بغير آلات مستخدما أجنحة أشبه بأجنحة الطير ، ومستغلا التيارات الهوائية لنقله من مكان إلى مكان ، ومساعدته على البقاء أكثر مدة ممكنة فى الجو .

وهناك الطائرات الصغيرة ذات المحرك الواحد والمصنوعة من المعدن ، لا يكاد الإنسان يدير لولبا فيها حتى ينطلق ، أشبه الأشياء بهذا الحصان النحاسى الذى تخيله الإنسان .

وهناك الطائرات الجبارة النفاثة التى تطير الآن حاملة مئات البشر ، وهى تنفث من مؤخرتها النار كأنها جحيم منطلق ، وتملأ الجو أزيزاً يصم الآذان ، أشبه الأشياء بالجن والعفاريت كما تصورها الإنسان وهى تحمل بساط الريح . وأخيراً يجيء دور الصواريخ التى تنقل الإنسان من الشرق إلى الغرب فى بضع ثوان ، أشبه الأشياء بانتقال عباد الله الصالحين فى طرفة العين.

فكرة جميع المخترعات الحديثة

وباستطاعتنا أن نتتبع كل المخترعات الحديثة ، لنجد فكرتها تتردد فى كل المعتقدات والآداب القديمة ، ابتداء من رؤية الإنسان ما يجرى على بعد ألوف الأميال ، وإسماعه صوته لشخص آخر على بعد آلاف الأميال كذلك[1] ، حتى غواصة جول فيرن ، والصاروخ الصاعد إلى القمر ، وجهاز التليفزيون الذى لا يخرج عن فكرة المرآة السحرية ، أو البللورة السحرية التى تغص بها القصص القديمة ، وكان الإنسان يرى فيها ما يقع فى أى ركن من أركان العالم بمجرد التحديق فيها .

بل إن ماتصورناه دائما لوناً من ألوان التخريف والهذيان ، من أن حكة صغيرة على ما أسموه خاتم سليمان ، أو حكة على مصباح علاء الدين ، من شأنها إحضار القوى المنوطة بخدمة الخاتم أو المصباح لتنفيذ مشيئة الإنسان ، فإن شاء دك مدينة بأسرها ، وإن شاء أزال الجبال من أماكنها ، وإن شاء طار حامل الخاتم أو المصباح من مشرق الدنيا لمغربها ، فليس ذلك كله إلا ما أصبحنا نعيش فيه مما نسميه دنيا الأزرار ، بضغطة بسيطة يفتح

---

(١) يسجل لنا التاريخ كواقعة مؤكدة لدى المسلمين فى صدر الإسلام . كيف أن عمر بن الخطاب ، قد رأى جيوشه التى تحارب فى فارس ، وحذر قائدها « سارية » من كمين يدبر له ، وقد سمع سارية صوت عمر وانتبه للخطر بالفعل ، وكان النصر حليف المسلمين . وقد كانت ألوف الأميال تفصل بين عمر فى المدينة وسارية فى فارس — (الطبرى — الجزء الثالث — ص ٢٥٤) .

لنا الراديو أو التليفزيون ليسمعنا أويرينا ما يدور فى أنحاء العالمين ، وضغطة بسيطة تطلق صواريخ جبارة لتنسف مدنا عامرة ، بل وشعوباً بأثرها ، وسوف تصعد بنا غدا ضغطة بسيطة إلى القمر أو المريخ أو الزهرة أو ما شئت من عوالم .

ومعنى ذلك أن العقل البشرى وهو يصوغ هذه الصور ويتخيلها ، كان يبدأ عملية خلق هذه الأشياء بالفعل .

الحقائق العلمية

ولنصل الآن إلى خاتمة المطاف فى هذا الاستعراض بالإشارة إلى ما نعتبره اليوم حقائق عملية وكونية توصلنا إليها نتيجة البحث والتجربة ، وما أصبح يتوافر لدينا من آلات تمكننا من رؤية البعيد والصغير ، وسنجد أن كل هذه الحقائق ، قد أدركها الأقدمون بحدسهم ، أو إن شئت فبخيالهم ، والمهم أنهم أدركوها ، ولو ذكرت كل حقائقنا اليوم للقدامى ، لما دهشوا منها بحال .

فقد قال انكسوجاريس: إن الشمس ليست سوى كرة مشتعلة من النار ، وقال فيثاغورس (٥٧٢ — ٤١٧ ق . م) : إن الشمس لا الأرض هى مركز الكون ، وقال ارسترخس (٣١٠ — ٢٣٠ ق . م) : إن للأرض حركتين ؛ حركة تدور فيها حول نفسها ، وحركة تدور فيها حول الشمس[1]

وقال ديمقريطس : إن الكون يتألف من ذرات متماثلة فى النوع وإن اختلفت فى أوزانها ، وإن هذه الذرات ليست سوى دوامات وفراغ ، منها تكونت الكواكب والنجوم والأشياء جميعها ، بما فى ذلك النفس البشرية ، وهذا هو آخر ما يقول به علم الطبيعة .

وقال الهنود فى بعض كتب حكمتهم : إن عمـــر الأرض يبلغ

(١) اساطين العلم ص ٥ .

٤٨٫٠٤٩٫٩٧٢٫٩٧٢٫١[1] ، ويقدر علم طبقات الأرض الحديث عمر الأرض بعد الحسابات المختلفة سواء عن طريق قياس ملوحة البحار ، أو عن طريق العناصر المشعة ، بـ ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ والفارق بين الرقمين جد طفيف كما ترى ؛ ولعله أكثر دقة بحساب الهنود .

وإذا كان خريستوف كولمبس لم يكتشف أمريكا إلا عام ١٤٩٢ م فقد قال بوجودها استرابون عام ٧ ق ٠ م فى كتابه العظيم « الجغرافيـا » : « إن قارات بأكملها لا تزال مجهولة ، وربما كانت هذه القارات فى المحيط الأطلسى ، ولمـا كانت الأرض شبه كروية ؛ فإن الإنسان إذا سافر من أسبانيا متجها نحو الغرب فإنه يصل بعد وقت ما إلى الهند »[2] .

ونحن نسمى الأمريكتين بالعالم الجديد ، فهل هو جديد حقاً إلا بالنسبة للأوربيين ! ألم يكن فى الأمريكتين وبصفة خاصة أمريكا الجنوبية ، حضارة من أزهى الحضارات ؟

والحق أن الانسان ليذهل وهو يطالع كتب الأقدمين . كيف أن نظريات ضخمة تنسب إلى علماء عصريين ليست فى حقيقتها ، إلا ترديدا لما قاله بعض علماء الإغريق أو الهنود أو المصريين القدماء من قبل .

ومحال أن نمضى فى استعراض كل ما دار فى ذهن البشر قديما واعتبر فى وقت من الأوقات خرافة ، ثم أثبتت الأيام صحتـه ، ومع ذلك لا نجد مناصاً من الإشارة إلى هذا الموضوع المشهور الذى طالما أخذه الـكثيرون على كيميائيي العرب باعتباره لوناً من ألوان الجهل والتخبط ، ونعنى به محاولتهم تحويل الزئبق إلى ذهب فهو مثل صارخ لصحة ما نقول من أنه محال أن يدور فى ذهن البشر شىء لا يمت إلى الحقيقة بصلة .

---

(١) مع الله فى السماء للدكتور أحمد زكى ص ١٤٢ .

(٢) قصة الحضارة جزء ٣ مجلد ٣ — ص ١٤٣ .

فقد ذهب كيميائيو العرب وعلى رأسهم جابر بن حيان ، إلى إمكان تحويل الزئبق إلى الذهب ، وقد تابعهم على هذا التصور كل المشتغلين بالكيمياء من الأوربيين فى العصور الوسطى . وقد أطلق على المادة التى سعى هؤلاء الكيميائيون للحصول عليها ، حجر الفلاسفة أو الأكسير .

وقام علماء القرن التاسع عشر يسفهون هذه الجهود ، ويعتبرونها ضرباً من ضروب الأوهام والفساد التى تردى فيها علماء العرب . فالعناصر فى هذا الكون مستقل بعضها عن بعض ، ويستحيل أن يتحول عنصر إلى عنصر آخر ، لاختلاف طبيعة ذرة كل عنصر عن ذرة العنصر الآخر . وكان معنى ذلك أن هذه الفكرة التى ألحت على عقول علماء العرب بضعة قرون ، لم يكن لها أصل من الواقع ، وكانت لوناً من ألوان التخريف . . . ولكن علم الطبيعة الحديثة ، قد عاد ليرد للعقل البشرى كرامته ، وأنه لا يمكن أبداً أن يتعلق بوهم أو بحقيقة لا وجود لها . فانشطار الذرة قد جعل من المستطاع تحويل أى عنصر إلى عنصر آخر ، بل لقد أمكن تحويل الزئبق بالفعل إلى ذهب ، وتوجد الآن بالمتحف العلمى بشيكاغو عينة من أول ذهب صناعى أمكن الحصول عليه كشاهد على أن ما دار فى ذهن علماء العصور الوسطى بصفة عامة ، لم يكن محض هذيان[1] ... وإذا كان العلم اليوم فى حاجة إلى زئبق نقى بأكثر من حاجته إلى ذهب ، فإن ما يحدث اليوم هو تحويل الذهب إلى زئبق بأكثر من تحويل الزئبق إلى ذهب[1] .

---

(١) استخدام الطاقة الذرية بروفسور انوهان .

ومما هو جدير بالملاحظة أن كتاب العرب المحدثين ، إذا خاضوا فى هذا الموضوع راح بعضهم يعتذر عما يتصوره وصمة فى جبين علماء العرب ، فيشيرون إلى أن ابن سينا تدارك ما فى فكرة تحويل الزئبق إلى ذهب من بطلان وفساد .

كما استمر بعض المؤلفين فى وصف محاولات العرب بالفساد والبطلان ، والتحدث عن استحالة تحويل العناصر كما فى (قصة العناصر) .

وقد سجل لنا القرن التاسع عشر عدداً من أخطر الكشوف العلمية التى تقوم عليها حضارة القرن العشرين ، دارت كلها فى عقل بعض العلماء ، فوصفت بالخيال والتخبط فى بادىء الأمر ، ثم أصبحت حقيقة واقعة تشهد بأنه لا يدور فى ذهن الإنسان شىء لا يمت إلى الحقيقة بصلة .

اكتشاف السيار نبتون

كان أول هذه الاكتشافات التى هزت الدنيا فى وقتها ، ما قال به عالم فلكى يدعى (بسل Bessel) من ضرورة وجود سيار غير معروف بعد أورانوس لايرى بالعين المجردة يؤثر فى أورانوس بالجاذبية ، مما ينشأعنه الاختلاف الذى لوحظ على مسار أورانوس . وقد اتخذ كل من الفلكى الفرنسى لفرييه Leverrier ، والفلكى الانجليزى آدمز Adams ، هذا الرأى أساساً لحساب موقع السيار المزعوم ، لحددا من خلال معادلات رياضية معقدة وعمليات حسابية مضنية ، ما يجب أن يكون عليه جرم هذا السيار ومساره وموقعه بالضبط فى وقت معلوم ، واشرأبت المراقب الضخمة فى الوقت المحدد نحو هذا السيار الجديد ، فإذا بها فى عام ١٨٤٠ تجده هناك، تماماً كما دار فى ذهن بسل ، وكما حقق آدمز[1] ولفرييه . وهكذا سبق العقل بفروضه وحساباته ، ما اهتدت إليه الآلات الجبارة .

الامواج الكهرومغناطيسية

وإذا كان اكتشاف السيار نبتون لم يؤثر فى حياة البشر ، فإن عقل رجل آخر قد اكتشف ما يؤثر اليوم فى حياة كل إنسان منا أعمق الأثر ، وليس ذلك الرجل إلا مكسويل (١٨٣١ — ١٨٧٩) وليس الكشف إلا

(١) الفلك العام — ص ٣٦١ .

الأمواج الـكهرومغناطيسية ، ولم يكن مكان الـكشف أحد المعامل بل داخل عقل الإنسان .

لقد تصور مكسويل أن كل موجة كهربائية لا بد أن تحدث موجة مغناطيسية ، وكل موجة مغناطيسية لا يمكن إلا أن تحدث موجة كهربائية ، لأن الواحدة مستحيلة بدون الأخرى ، ويكون معنى ذلك هو انطلاق هذه الأمواج لانتشارها بسرعة الضوء إلى ما لا نهاية ، ولم يكن ذلك إلا مجرد فرض وتصور قام في ذهن كلارك مكسويل ، فسجله في كتاب له عام ١٨٧٣ عن الـكهرباء والمغناطيسية[1] . ومات مكسويل دون أن يكون قد توصل إلى هذا الفرض نتيجة أبحاث وتجارب علمية ، وقبل أن تـكون لديه أى وسيلة أو فـكرة عن إمكان التحقق من هذا الفرض .

وجاء العالم هرتز بعد ثلاثة عشر عاماً من نشر كتاب مكسويل ، وبعد وفاته بعدة سنوات ، ليـكون هو الرجل الذى يكتشف الأداة التى يمكن بواسطتها التحقق من وجود هذه الأمواج الـكهرومغناطيسية التى قال بها مكسويل ، ثم تتابعت الأبحاث والتجارب ، وإذا بالأمواج حقيقة موجودة وإذا بسرعتها كما تخيل مكسويل أن تـكون ، وهى سرعة الضوء .

وهكذا تتأكد القاعدة من أن الوجود فى الذهن ، هو دليل الوجود فى الواقع .

ثلاثة عناصر

وفى روسيا قام عالم يدعى منديليف عام ١٨٦٩ يحدث العالم عن ثلاثة عناصر ، لم تـكتشف بعد فى الطبيعة ، ولم تقع عليها عينا إنسان ودعا البشر إلى اكتشاف هذه العناصر ، محددا لهم صفاتهـا وأوزانها الذرية

---

(١) أساطين العلم الحديث — ص ١٠٣ .

وخصائصها[1]. وقد سبق منديليف علماء آخرون تنبأوا بوجود بعض العناصر على الأرض مما لم يكشف عنه كالهليوم . . ولكن هذا التنبؤ جاء نتيجة أبحاث فى المعمل ، واكتشاف آثار مادية تدل على وجود الهليوم على الأرض . . ولكن تنبؤات منديليف لم تكن نتيجة تجارب قام بها أو معادلات رياضية وحسابات تحتم وجودها ، وإنما قال ما قال وكأنه نبى يوحى إليه . . وإن هى إلا سنوات هزأ فيها الهازئون بهذا العالم الروسى المخرف ، حتى أعلن بعض العلماء أنهم كشفوا عن عنصر جديد ينطبق على ما قال به منديليف من أوصاف ... وإن هى إلا سنوات أخرى حتى كشف عن العنصر الثانى ثم الثالث ، واستطارت شهرته فى دنيا العلم وطبقت الآفاق ، وبفضل أحد هذه العناصر الثلاثة وهو (الجرمانيوم) أصبح عمل (الترانزستور) ممكناً إذا استبدلت صمامات الراديو الكبيرة بحبة صغيرة من عنصر الجرمانيوم .

اينشتين وقانونه المادة والطاقة

وأخيراً وليس آخراً نصل إلى معجزة العقل البشرى فى جيلنا الحديث، ونعنى به القانون الذى كشف به أينشتين عن العلاقة بين المادة والطاقة (ط = ك × ص^{2}) ومعناه أن الطاقة تساوى كتلة المادة مضروبة فى مربع سرعة الضوء مقدرة بالسنتيمترات . ولم يكن توصل أينشتين إلى هذا القانون ثمرة تجربة ومباحث أجريت فى المعامل ، فقد كان يتحدث عن شىء اعتبر عند علماء العصر تخريفاً ، حتى لقد أذاع لفيف منهم بياناً رسمياً قالوا فيه « إن الموقعين على هذه الرسالة يعتبرون أن إذاعة نظرية معرضة أشد التعرض للنقد ، أمر لا يتفق مع كرامة العلم الألمانى ، وإنه لمن الهون

---

(١) بوانق وأنابيب — وأساطين العلم — ص ١٤٥ .

استخدام جمعية العلماء والأطباء الألمان لتعزيز هذه المحاولة[1] » ومع ذلك فقد كان هذا القانون الذى دار فى ذهن أينشتين عام ١٩٠٥ كنتيجة طبيعية لنظريته فى النسبية ، كان هذا الحساب فى تحول المادة إلى طاقة هو الأساس الذى قامت عليه القنبلة الذرية بعد أربعين سنة ، وشهدت خرائب هيروشيما وأطلالها ، أن ما دار فى ذهن أينشتين عام ١٩٠٥ من أن تحطيم بضع ذرات من المادة يؤدى إلى طاقة لا عهد للإنسان بها من قبل ، لم يكن ذلك وهماً بل كان يصور أمراً واقعاً فى الوجود ، وإلا لما خطر على ذهن الإنسان[2] .

وهكذا تتوالى الظواهر أمام أعين الباحثين وتتكرر من أن جميع الكشوف العلمية والاختراعات قد طافت كلها أول ما طافت فى عقل الإنسان بعيداً عن أى تجربة أو ملاحظة ، وبدلا من أن يسعى المفكرون لجمع المزيد من هذه الملاحظات وضمها كلها إلى مجموعة واحدة منسقة مطردة ، واستخلاص النتيجة الطبيعية من هذا الاطراد ، إذا هم يعملون على تشتيت هذه الظواهر وردها إلى علل متباينة . . . فيحدثوننا مرة عن الصدفة ، هذه الكلمة الغامضة ، ومرة أخرى يتحدثون عن أن الأمر قد تم بطريقة خفية لا سبيل لتعليلها ، ومرات كثيرة يكتفون بتسجيل عجبهم ودهشهم ، دون أن يذهبوا إلى ما وراء هذا العجب والدهش ، مع أن العلم لا يعنى شيئاً سوى ملاحظة اطراد ظواهر معينة ، ومحاولة الكشف عن سبب هذا الاطراد .

وأحسب أن من حقنا بعد هذا الاستعراض الذى قدمناه والذى ينتهى كله إلى نتيجة واحدة ، أن نقرر « أن كل ما دار فى عقل الإنسان على أنه

---

(١) أساطين العلم الحديث — ص ٤٦ .

(٢) يقول الدكتور فؤاد صروف فى كتاب أساطين العلم إن أينشتين الذى جاء بهذا الكشف العبقرى لا يصل إلى حد من سبقوه فى التفوق الرياضى ، ويعرف تاريخ العلم من هم أكثر منه قدرة وإبداعاً فى دنيا التجربة وإنما تتجلى عظمة أينشتين الحقيقية التى رفعته إلى القمة فى قوة خياله الوثاب التى قلب بها نظريات البشر الكونية رأساً على عقب.

موجود فهو ، إما أنه كان موجوداً فى عصر مضى ، والذاكرة هى التى تستعيده ، أو أنه كائن فى التو واللحظة ، والفكر الواعى هو الذى يعكسه ، أو أنه سيكون فى المستقبل ، والمخيلة هى التى تصوره ، ويكون الوجود فى خيال الإنسان لأى شىء من الأشياء ، هو أول مراحل وجوده بالفعل » .

مستقبل البشرية

وقد يكون فى استطاعتنا على ضوء هذه القاعدة التى اطمأنت إليها نفوسنا ، أن نحدد مستقبل الإنسانية أو الهدف الذى تتجه نحوه ، وهو ما سوف نختم به هذا الكتاب ، أما الآن فلنحاول أن نقول شيئاً عن هذا الإنسان ، وكيف ومم ينشأ .

مراجع خاصة بالفصل الرابع

٥٢ — مسائل فلسفية — كتاب مدرسى تأليف الأساتذة الدكتور توفيق الطويل وعبده فراج والدكتور زكى نجيب محمود .

٥٣ — معالم التحليل النفسانى — سيجموند فرويد ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى .

٥٤ — نيتشه — تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوى . الطبعة الثالثة .

٥٥ — تاريخ الأمم والملوك . لابن جرير الطبرى — طبعة مصطفى محمد .

٥٦ — قصة العقاقير — للدكتور محمود سلامة — من سلسلة كتب اقرأ .

٥٧ — وحدة المعرفة — للدكتور محمد كامل حسين .

٥٨ — الأحلام والرؤى — عبد العزيز جادو — من سلسلة كتب اقرأ .

٥٩ — الله — عباس محمود العقاد .

٦٠ — الله يتجلى فى عصر العلم — تأليف نخبة من العلماء الأمريكان — ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

٦١ — قصة العناصر — امبابى أحمد — من (سلسلة اقرأ) .

٦٢ — Religion. By. V. I. Lenin

مراجع سبقت الإشارة إليها

— قصة الحضارة — ول ديورانت .

— الفلك العام — سبنسر جونز .

— استخدام الطاقة الذرية — اتوهان .

— بواتق وأنابيب — برنارد جافى .

— أساطين العلم الحديث — فؤاد صروف .

الفصل الخامس

الإنسان مم تكون ، وكيف تكون ؟

نظرية الخلق فى الاديان — الضوء كأساس للخلق لدى علماء المادة — القوانين الكهرومغناطيسية فالذرية — القوانين الكيميائية فالطبيعية — من المادة الجامدة الى الحياة — الحياة على صورة خلية واحدة — من الخلية الى الحيوانات الثديية — الحيوانات البرمائية — أثمة حلقة أو حلقات مفقودة ؟ — نظرية التطور فى الميزان — نشأة الانسان — الانسان النطفة — الانسان العلقة — الانسان المضغة — الانسان السمكة — الانسان الضفدع — الطور السادس — الطفل بعد الولادة — تكون العين — الدورة الدموية — كريات الدم البيضاء — القلب — الجهاز العصبي — خلية النوع الانسانى — الانسان والحيوان — هل العقل هو المخ ؟ — سيادة العقل على المادة المعروفة — هذا هو الانسان — بين الذرة والنجم — فليختر كل انسان لنفسه .

نظرية الخلق فى الاديان

لم يكن هذا السؤال يثير أى صعوبة لدى الأقدمين للجواب عنه ، فالله الخالق قد خلق الإنسان على هذه الصورة الكاملة التى هو عليها ، خلقه من نفسه كما يقول الهنود « حقاً إنى أنا هذا الخلق نفسه لأنى أخرجته من نفسى »[1] أو أنه مخلوق من تراب و نفحة إلهية كما يقول العهد القديم لليهود « وأن الرب جبل الإنسان تراباً من الأرض ، ونفخ فى أنفه نسمة ، فصار الإنسان نسمة حية »[2] .

أو كما جاء فى القرآن بأبلغ عبارة « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته و نفخت فيه من روحى ،

(١) قصة الحضارة — الجزء الثالث — ص ٣٤ .
(٢) العهد القديم — سفر التكوين — الفصل الثانى — ٨

فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون . »[1] والإنسان فى كل هذه الأحوال كما ذكرنا من قبل فيض من الله ، أو مخلوق على صورة الله ، أو هو خليفة الله ومستودع قدرته ، فليس فى الإنسان شىء يستعصى على الفهم أو الإدراك .

الانسان وكيف تكوين ؟

والأصل الترابى للإنسان مسألة ملموسة ومحسوسة ، فهو لا يكاد يموت حتى ينحل إلى عناصره الأولى التى لا تختلف فى قليل أو كثير عن باقى عناصر الأرض الأخرى ، بحيث يصبح سماداً جيداً لنمو النباتات[2] .

ولا يختلف العلم الحديث عن العلم القديم فى هذا الجزء من تكوين الإنسان ، فهو أحد منتجات المادة كالتراب سواء بسواء ، أما الأقدمون فكانوا لا يقصرون بناء الإنسان على التراب ، بل يضيفون عنصر الروح باعتباره العنصر الأساسى . وقد رأينا فيما سبق كما سنرى الآن بتفصيل أكثر ، أن العلم الحديث قد عاد إلى هذه الثنائية ، وهو يقر بعجزه أمام عملية الفكر البشرى وتذوق الجمال والضمير ، وعدم استطاعة قوانين المادة أن تفسرها ، ولذلك فالرأى الراجح اليوم أن الإنسان مؤلف من مادة وعقل . ومعنى ذلك هو استبدال كلمة العقل بالروح مع الاحتفاظ بالمسمى ، وهو هذا السر الغامض الذى ينطوى عليه الإنسان .

ولنتتبع الآن رحلة العلم الحديث ، وكيف انتهى به الأمر إلى هذا التصور فى تكوين الإنسان .

---

(١) سورة الحجر آية ٢٨ — ٣٠ .

(٢) من الاحصاءات الطريفة عن جسم الإنسان أن به من الكربون ما يكفى لعمل ٩ آلاف قلم رصاص ، ومن الفسفور ما يكفى لعمل ٢٠٠٠ رأس عود كبريت . وفى الإنسان حديد وجير وبوتاسيوم وملح ومغنسيوم وسكر وكبريت ، وهى كلها من المعادن التى تتألف منها تربة الأرض The Human Machine

نظرية التطور التى تقوم على التغيير المستمر الحادث فى المادة ، وتطورها المطرد من حالة بسيطة إلى حالة أكثر تعقيداً ، هى إحدى المسلمات العلمية التى لا تلقى خلافاً حول جوهرها الصحيح ، وإن كانت النظرية الأولى كما قال بها دارون قد تعرضت لكثير من التحويرات والتصحيحات كما سنرى بعد قليل . وآخر الفروض العلمية التى قال بها أينشتين كما ذكرنا من قبل ، أنه فى الأصل كان الضوء (النور) الذى يتألف من وحدات ضوئية هى (الفوتونات) .

ومن الضوء تكونت أول مظاهر الطاقة مؤلفة فى الأمواج الكهرومغناطيسية ، وكان قانون المادة السائد فى هذا الطور هو قانون الكهرومغناطيسيات .

وعملت قوة الاتحاد على جمع المتشابه واللامتشابه ، فكان البروتون والايلكترون وهما تركيبان أشد تعقيداً من مجرد الأمواج الكهرومغناطيسية ، وانتهى هذا التعقيد إلى تكوين الذرة Atom مكوناً معها قانون الذرة ، لأن قانون أى شىء هو الشىء ذاته .

والذرة فى صورتها الأولى هى ذرة الأيدروجين[١] التى امتلأ بها الفراغ الكونى .

القوانين الكيمائية فالطبيعية

واستمرت عملية التطور ، فاتحدت الأشباه بين الذرات ، فكانت الجزئيات (Molecules) وبنشوء الجزئيات نشأت قوانين الكيمياء التى تحكم علاقة جزئيات المادة . واتحدت الجزئيات مكونة الأجسام ، وبوجود

(١) تتألف ذرة الايدروجين من بروتون واحد وايلكترون واحد فهى اللبنة الأولى لبناء المادة فى صورتها المألوفة .

الأجسام وجدت القوانين الفيزيائية (الطبيعية).[1] بهذه القوانين للمادة تألف الكون على صورته التى نعرفه بها الآن: سدماً، ومجرات، ونجوماً وشموساً، وكواكب، وأقماراً.

والرأى الراجح أن الأرض قد انفصلت هى وبقية الكواكب الأخرى عن الشمس، ولذلك فقد بدأت سيرتها كأنها كرة ملتهبة من الغازات، ولكن هذه الغازات لم تلبث أن بردت بالتدريج فتكونت قشرة الأرض، وتكونت السحب والأمطار التى بدأت تهطل على القشرة الأرضية، فكانت المحيطات والبحار، وبدأ تاريخ الأرض كما يصوره لنا علم الجيولوجيا أى طبقات الأرض، عنصراً بعد عنصر ومعدناً إثر معدن.

من المادة الجامدة إلى الحياة النامية

ما بقى العلم يتحدث عن المادة وقوانينها، وكيف تطورت من الأدنى إلى الأعلى، من الأبسط إلى المعقد، فهو يمضى فى حديثه بخطوات ثابتة وإيمان عميق، وهو قادر على أن يعزز كل قول بتجربة يجربها فى المعمل، أو بمعادلة رياضية يصدع بها العقل البشرى، أو بملاحظة ثابتة تسلم بها الحواس.

ولكن العلم عندما ينتقل من المادة الجامدة إلى الحياة، نراه يتعثر

---

(١) تتألف القوانين الطبيعية من ثلاثة قوانين أساسية:

أ ـ قانون الجاذبية الذى ينظم هذه الخاصة التى تعمل دائبة على جمع شتات المادة المتقاربة فى صعيد واحد.

ب ـ قانون التسخين الذاتى حيث ترتفع حرارة كل جسم غازى من تلقاء نفسه عندما يجبر على تقليل حجمه أو يضغط. وهذه الظاهرة عكسية أي أن الغاز يبرد كلما قل عنه الضغط وسمح له بالانتشار.

ج ـ إذا تقلص أى جسم يلف حول نفسه بأن صغر حجمه، فإن سرعة دورانه تزداد.

بعض الشيء ويفارقه ثباته ورباطة جأشه ، وينتابه القلق والاضطراب والتخبط ، ويلوذ بالغموض والفروض التي لا دليل عليها .

لقد قطع العلم رحلته عبر ملايين الملايين من السنين ، متتبعاً السدم حتى صارت شمساً وقمراً وماء وأرضاً ، مطبقاً قوانين ثابتة ومطردة لاشذوذ فيها ولا استثناء ، حتى إذا جاء أمام ظاهرة الحياة ، وجد ناموساً جديداً يختلف كل الاختلاف عما سارت عليه أمور المادة حتى الآن . لقد كانت المادة تتشكل وتتنوع ، ولكنها ظلت دائما ثابتة المقدار والشكل ، فذرات الأيدروجين لا تنبت ذرات أيدروجين ، إنها قد تتحد ببعضها مكونة جزئيات من الأيدروجين التي قد تتحد بجزئيات مادة أخرى موجودة من قبل ، ولكن حاصل الجمع يظل ثابتاً .

أما بالنسبة للخلية ، فالخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم لتكون خليتين ، تنقسم كل منهما إلى خليتين جديدتين وهكذا دواليك ، حتى ينمو الجسم الصغير فيكبر . . . وإذا الخلية الواحدة قد صارت ملايين الملايين ، وكل واحدة منها ذات شخصية خاصة بها ، وعلى خلاف مع الأصل الذي جاءت منه . وهذا الكائن الحي الجديد لا يلبث بدوره أن يهيء السبيل لخلق كائن جديد آخر ذي شخصية مستقلة .

وهكذا يواجه العلم أمام ظاهرة الحياة شيئاً جد مختلف عن قوانين الكهرومغناطيسية والذرة وقوانين الكيمياء والطبيعة .

إن المادة الجامدة (التي كانت تبدو له ثابتة) قد أصبحت متحركة مرنة نامية تتغذى وتتنفس وتفقس وتلد . لماذا ؟ ومتى ؟ وكيف حصل هذا التحول ؟ لايستطيع العلم أن يرد على هذه الأسئلة ردا شافياً ، ولذلك فهو يعترف أن هذه فجوة وثغرة لا بد من سدها ، ولكن العلم يؤمن بأن مقبل الأيام من شأنه أن يسد هذه الثغرة بعد أن يزداد الإنسان علماً ومعرفة

بخصائص المادة ونواميسها ، ويكتفى العلم فى الوقت الحاضر ، بأن يصوغ فرضاً نظريا فى كيفية نشأة الحياة من مجموع الحقائق التى تجمعت لديه .

نظرية نشأة الحياة

يمهد العلم الطبيعى لنظرية فى نشأة الحياة ، بهاتين الحقيقتين اللتين انتهى إليهما بتجاربه .

الأولى : أنه كلما ازداد التعقيد فى جسم مادى أصبح تركيبه قلقا ، فذرة الأيدروجين مثلا لأنها بسيطة التركيب (بروتون واحد وايلكترون واحد) تظل ثابتة لا تقبل أى تغيير ، فليس فى تركيبها أى قلق . أما عندما تتعقد الذرة فتصبح مركبة من عديد من البروتونات والنيوترونات والايلكترونات ، كما هو الشأن فى ذرة اليورانيوم[1] ، فإن تركيب الذرة يصبح قلقاً ، والإشعاع الذى يشعه اليورانيوم والراديوم هو مظهر هذا القلق .

الثانية : اختصاص ذرة الكربون — لسبب خاص فى تركيبها — بالقدرة على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحاداً واسع المدى إلى أقصى حد ، ومن هنا كانت هذه الجزئيات الضخمة المعقدة والتى أصبحت نتيجة تعقيدها قلقة التركيب .

بهاتين الحقيقتين فى الذهن ، يمضى العلماء الطبيعيون لتفسير كيفية نشأة الحياة . فيقول العالم الروسى « أوبرمين » :

«فى المحيطات القديمة كان بها كميات من هدريت الكربون ذاب فى الماء ، فاتحد ببعضه وكون مركبات غاية فى التعقيد ، وقد ألفت المحاليل الغروية

(١) ٩٢ بروتون

لهذه المركبات العضوية الكوزرفيت الذى يشبه مادة البروتوبلازم ، ومن هنا نشأت الحياة »[1] .

أما العالم الأمريكى لورنس هندرسون فيقول :

« مر على هذا الكوكب الأرضى دهور من الزمن السحيق ، لم تكن الظروف تسمح بقيام الحياة عليه .

ثم جاءت مرحلة بدأت الظروف تتطور ، بحيث تسمح بقيام هذا النظام من الطاقة الذى نطلق عليه اسم الحياة . وبالرغم من أن الفرصة التى كانت متاحة لخلق هذا النظام الجديد كانت جد ضئيلة ، فقد قضى الأمر ونشأت الحياة ! .

والظاهر أن بعض خصائص الماء غير العادية ، قد تضافرت مع قوى ذرة الكربون الاستثنائية ، وكل ذلك مضافاً إلى الحرارة ، وظروف من الإشعاع خاصة ، قد هيأ السبيل لهذه المؤامرة التى وفرت الظروف المناسبة لخلق الحياة .

ولا بد أن ظهور الحياة بدأ أول ما بدأ ، فى أحد مجارى الطين الدافىء ، أو بين طيات زبد هذا الطين ورغاويه . وبدأت الحياة شيئاً دقيقاً جداً متراكمة على بعضها ومتنوعة ، ولكن كل شىء حولها كان ينطق باستحالة التصور أن هذا الشىء الجديد ، سينتهى إلى ما انتهت إليه الحياة اليوم ، بعد أن غطت الأرض بوشاحها ؛ ومن قبل ذلك زحمت المحيط الذى كان يعج بها[2] » .

وما أن يجتاز العلم الطبيعى هذه الصعوبة ، صعوبة تحول المادة الجامدة

---

(١) تاريخ الأرض ــ تأليف جورج جامبو ترجمة محمد ابو شلباية .

(٢) شرنجتون ــ ص٨٧ ــ قارن هذا التصور الذى يقول به العلم بقول القرآن « وجعلنا من الماء كل شىء حى » « وخلق الإنسان من طين » .

إلى مادة حية أطلق عليها اسم البروتوبلازم[1] ، ونسب لها قوى وخصائص معينة ، حتى يتابع التطور من هذه الحياة فى أبسط صورها ، وهى الخلية الواحدة ، حتى يصل إلى الحيوان الراقى فى خطى ثابتة ، وتسلسل مطرد يأخذ شكل القوانين وارتباط النتائج بالأسباب . ولقد عرفنا عدداً من هذه القوانين حتى الآن ، ولكن بنشوء الحياة زادت هذه القوانين قانوناً جديداً ، هو قانون الحياة ، الذى يعتمد فى الدرجة الأولى على النمو والمرونة والتكيف والمقاومة ، كمبادىء أساسية لهذا القانون .

الحياة فى صورة الخلية الواحدة

ومادامت الحياة فى صورة الخلية الواحدة هى الأصل الذى نشأ وينشأ منه الإنسان ، فإنه يتعين علينا دراستها بشىء من التفصيل .

ويقول علماء الحياة : إن الأرض قد شهدت الخلية الأولى منذ حوالى ٢٠٠ مليون سنة ، ولسنا فى حاجة للرجوع عبر هذا الزمن الطويل لنشاهد أحد هذه الكائنات المؤلفة من خلية واحدة ، فقد حفظت لنا الطبيعة هذه الصورة الأولى للخلايا ، أو بالأحرى هذه اللبنة التى تألفت منها الحياة ممثلة فى حيوان الأميب . ويعيش هذا الحيوان فى ذات البيئة التى يتصور العلم أن الحياة قد نشأت منها وهى الطين[2] . فلو أخذنا قطرة ماء من قاع بركة أو قناة راكدة ، فقد يكشف الفحص المجهرى عن وجود كائنات دقيقة ، وقد نجد من بين هذه الكائنات حيوانا لايخرج عن كونه « كتلة

---

(١) يطلق على مادة الخلية الهلامية فى الوقت الحاضر السيتوبلازم Cytoplasm ويقسم السيتوبلازم إلى طبقتين احداها خارجية متصلبة تعرف بالأكتوبلازم وطبقة داخلية أقل صلابة وتعرف بالاندوبلازم .

(٢) لعل الصورة التى يوجد عليها الأميب الآن ، هى التى أوحت للعلماء بهذه الصورة التى يتصورون بها نشأة الحياة .

لزجة ليس لها شكل » وذلك هو الأميب ، الحيوان ذو الخلية الواحدة الذى يعتبر تركيباً نموذجيا للخلية .

ويصف لنا العالم الذائع الصيت الكسيس كاريل الخلية فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » بقوله : « إنها قطرة من الهلام (الجيلاتين) يحيط بها غشاء قابل للاختراق . ولقد أصبح فى الإمكان التقاط أفلام للخلايا وتكبيرها إلى درجة تصبح أكبر من الإنسان حين تعرض على الشاشة ، وعندئذ تكون جميع أعضائها مرتبة وتسبح فى جسمها النواة nucleus وهى على شكل منطاد مرن الجدران ، يبدو مملوءا بهلام شفاف عديم الحركة ، وترى فى هذا الهلام نواتان تغيران شكلهما ببطء ، ولكن بلاتوقف ، وتوجد حول النواة حركة عظيمة لذرات صغيرة ، وهذه الحركات تكون أكثر نشاطاً بصفة خاصة حول عنقود من أكياس تتصل بالعضو الذى يطلق عليه علماء التشريح اسم جهاز غولجى أورنيوه وتتصل وظيفته بتغذية الخلية ، كما توجد حبيبات صغيرة غير واضحة تكون نوعاً من الدوامة فى هذه المنطقة ذاتها ، كما أن كريات أكبر لاتفتأ تشق طريقها متعرجا عبر الخلية ، حتى تصل إلى أقصى أذرعها المتحركة الموقوتة . بيد أن الأعضاء الأكثر اعتبارا هى الشعيرات الطويلة والحبيبات البروتوبلازمية الدقيقة التى تشبه الثعابين ، والأكياس والحبيبات والشعريات ، تنزلق وترقص وتتماوج بشكل دائم فى المسافات الخالية من جسم الخلية » .

أرأيت هذا العالم الفسيح الذى تغص به الخلية ، من سوائل وأجهزة ونوايا ومناطيد وأكياس وشعيرات وحبيبات ودوامات ؟ بقى عليك أن تعرف أن وزن هذه الخلية قد يصل إلى ١/١٠,٠٠٠,٠٠٠ من المليجرام ، وإن كان قد يتضخم فى بعض الأحيان ويتعملق ليكون ١/١٠٠٠ من المليجرام .

أما إذا أردت أن نقرب لك موضوع صغر حجم هذه الخلايا أكثر من

ذلك ، فباستطاعتنا أن نقول لك إن ١٦ ألف كرة دم حمراء حيث تؤلف كل منها خلية واحدة يمكن أن تتجمع على رأس دبوس[١] .

وهذا الذى نقوله عن حجم الخلايا إنما ينطبق على خلايا الأنسجة التى تؤلف الكائن الحى النامى ، أما لوشئنا أن نهبط إلى الجراثيم التى تتألف بدورها من خلية واحدة ، فإن الأوزان والأحجام تهبط عن المقادير السابقة بضعة ألوف من المرات ، فإذا وصلنا إلى الفيروس فالحجم والوزن يهبط مئات الألوف من المرات من جديد[٢] .

ومع ذلك فإن هذه الخلية التى لا يعرف الإنسان أين يقف صغرها ، وبأى الأرقام المتناهية فى الصغر يمكن أن يعبر الإنسان عن حجمها ، يقول عنها شرنجتون ، العالم البيولوجى الكبير إن « سطحها (أى سطح الخلية) يغص ببضع مئات الملايين من جزئيات البروتين على شكل عصى وحزم وهى تنتفض بالتفاعلات الكيمائية »[٣] .

فهل يدهشنا بعد ذلك أن نعلم أن هذه الخلية كائن حى متكامل بكل خصائص الكائن الحى؟ إنها تتنفس أى تتفاعل مع الهواء فتمتص الاكسيجين (شهيقاً) وتطرد ثانى أكسيد الكربون (زفيراً) . وهى تتغذى على المواد الحية الأخرى ؛ لتستمد منها الطاقة اللازمة للإبقاء على نشاطها . وهى تصنع بروتينها الخاص من هذه المواد الحية التى تلتهمها ، ثم هى بعد ذلك تتخلص من الفضلات التى لا تحتاجها ، أى الطاقات التى لاتتناسب مع بنيانها ونظامها الخاص من الطاقة .

---

(١) العناصر الطبيعية للشخصية The physical Basis of personality

(٢) الفيروس Virus هو النوع من الجراثيم دون الميكروبات ويعزى له التسبب فى بعض الأمراض كالانفلونزا والسرطان . وهذا الفيروس على ضآلته غير المتصورة لايزال يتألف من أربعين مليون ذرة من الكربون والايدروجين والأزوت والفسفور .

(٣) الإنسان على طبيعته (ص ٧٨) Man on His Nature

وأخيراً فهى تنمو عن طريق إيجاد وحدة أخرى مماثلة لها فى خصائص الحياة الأساسية والصفات الغالبة . وتوريث الخصائص والصفات الغالبة للمولود الجديد هو إحدى مشكلات علم الحياة المستعصية .

عوامل الوراثة

وآخر مايقوله العلم فى هذا الصدد ، أن من محتويات نواة الخلية أجساما مستطيلة أو عضوية ترى بوضوح فى سائل نواة الخلية ، عندما توشك على الانقسام ، وقد أطلق على هذه الأجسام اسم الكروموزومات ، ويقولون إنه يوجد بداخل هذه الكروموزومات ، كائنات أخرى غامضة تتناهى فى الدقة ، بحيث لم يكن من المستطاع رؤيتها حتى الآن ، وهذه الأجسام قد أطلق عليها اسم جينس (مورثات) وكل ما يعرف عنها حتى الآن ، أنها الاتجاهات الوراثية للخلايا والإنسان ، بمعنى أنها هى التى تحدد لون الشعر والجلد والعين والحالة العصبية والطول والقصر ومتانة البنية . . . إلخ .

وعندما يحين موعد انقسام الخلية ، تكون الكروموزومات جماعتين بشكل قد يكون واضحاً (وأحيانا لايكون) ، وتتحرك هاتان الجماعتان متباعدتين إحداهما عن الأخرى ، وفى اللحظة ذاتها تهتز الخلية بعنف وتقذف بمحتوياتها فى جميع الاتجاهات منقسمة إلى قسمين ، وهذه الأقسام الجديدة أو بالأحرى الخلايا الأبناء ، تنسحب إحداهما عن الأخرى ولكنها تظل مرتبطة ببعضها بواسطة شعيرات مطاطة ، وتتمدد هذه الشعيرات ثم لاتلبث أن تستسلم . وهكذا يكتسب عنصرا الجسم الجديدان ذاتهما الفردية ، لقد ولدت الحياة حياة جديدة لها شخصيتها وذاتيتها[1] .

---

(١) الكسيس كاريل . الإنسان ذلك المجهول ـ ص ٩٦

تنقسم الخلايا وتتكاثر طبقا لقانون الحياة الذى وجد بوجود المادة الحية ، وسرعان ما أدى هذا الانقسام المستمر والتكاثر إلى تنوع الكائنات وتخصصها ، وكان أول اختلاف فى تيار الحياة هو ذلك الذى نشأ بين النبات والحيوان . . . فالخلايا النباتية تستمد طاقتها التى تحفظ عليها نشاطها ، وبالتالى حياتها ، من الشمس مباشرة بهذه الخاصية التى انفرد بها النبات وهى خاصة التمثيل الضوئى . أما الخلايا الحيوانية الأخرى فقد رأت أن تستمد طاقتها بالتهام تلك التى استمدت طاقتها من الشمس ، فكان النبات الذى يتغذى بالشمس ، والحيوان يتغذى بالشمس أيضاً ، ولكن عن طريق التهام النبات الذى تغذى بالشمس من قبله .

وقصة تتبع النبات مذ كان خلايا مغمورة فى الماء حتى أصبح نباتات مائية ولكنها طافية على وجه الماء ، ثم نباتات نصف مائية إلى النباتات التى تكتفى بامتصاص الرطوبة من الأرض والجو على السواء ، وهى التى تغطى الآن سطح البسيطة فى تنوع لايكاد ينتهى ، أو جمال لايكاد يوصف ، أو حجم يذهل الإنسان[1] تخرج عن سياق استعراضنا الحالى ؛ لأن الذى يعنينا هو القسم الحيوانى الآخر ، ذلك الذى يعتبرونه الأصل المباشر للإنسان .

الأحياء المائية

بدأ التطور الحيوانى على صورة هذه الحيوانات الهلامية الشفافة التى لاتزال المحيطات تغص بها حتى الآن ويطلق عليها اسم الحيوانات الرخوة أو اللافقرية .

(١) توجد بعض الأشجار الضخمة فى كاليفورنيا تزن الواحدة منها ألف طن .

وتحورت بعض الحيوانات المائية الرخوة ، فأصبح لها قشور وغضاريف وعظام محورية تربط أجزاءها وتصبها فى قالب محدود ، فكانت الأسماك أولى مراحل الحيوانات الراقية ، مما يطلق عليها اسم الحيوانات ذات الفقار ، أى التى لها هيكل عظمى .

وتعيش الأسماك فى أعماق المياه تستخلص بواسطة خياشيمها الأكسجين المذاب فى ماء البحار ، وفيما عدا الخياشيم فللسمكة باقى الأجهزة التى نراها فى أى حيوان فقرى[1] .

الحيوانات البرمائية فالبرية

وخرجت الحياة من البحر الذى لزمته طويلا إلى البر ، لعديد من الأسباب والظروف الطارئة . فقد ينحسر الماء فجأة عن بعض الفجوات فى الشاطىء ، فتجد الأسماك نفسها فى العراء على اليابسة . . ويهلك هذا السمك الذى حيل بينه وبين الوسط الذى اعتاده ، ولكن بعضاً من هذا السمك يجاهد حتى يصل إلى الماء ، وقد تتكرر هذه العملية ، فيكون السمك الذى سبقت له المجاهدة للوصول إلى الماء ، قد أصبح متمرناً على هذه العملية فينجو من الهلاك من جديد ، وتتكون عنده قدرة جديدة هى قدرة العيش بعض الوقت على اليابسة ، وبعض الوقت أو أكثر الوقت

(١) للسمكة رأس وعينان وأنف وفم وفتحة اخراج (شرج) ، وأربع زعانف اثنتان منها فى الصدر وزعنفتان بطنيتان ، ويمكن مقارنة هذه الزعانف الأربع بالأطراف الأربعة ، ولها جهاز تناسلى وجهاز هضمى (بلعوم فمرىء فمعدة ، حيث تصب عصارات الهضم ، ومن المعدة إلى الأمعاء حتى تنتهى إلى الشرج)

وللسمكة كبد ومرارة وبنكرياس ـ ولها دورة دموية تعتمد على قلب (مؤلف من ثلاثة تجاويف) ، ولها شرايين وأوردة ، ولها جهاز بولى يعتمد على كليتين وجهاز تناسلى يعتمد فى الأنثى على مبيضين وعند الذكر على خصيتين وحلمة تناسلية بولية .

(علم الأحياء)

فى الماء . ومن هنا نشأت الحيوانات البرمائية ، أى تلك التى تمر فيها حياة الحيوان بمرحلتين — المرحلة الأولى يتنفس فيها الحيوان تنفساً خيشومياً فى الماء ، ثم يتنفس فى المرحلة الثانية تنفساً هوائياً على البر . ومن أظهر هذا الطراز من الحيوانات الضفدعة . وبينما كان فرع من الأسماك يتطور تحت ضغط الظروف أو الحاجة ليكون حيواناً برمائياً . . كان ثمة طراز آخر من السمك ، يتطور تحت حاجات أخرى وظروف لكى يؤلف فيما بعد طيور السماء .

فكانت هذه الأسماك الطيارة ، حيث تحورت زعانفها الأمامية ونمت نمواً غير عادى إلى ما يشبه الأجنحة ، بحيث أصبح بقدرتها أن تقفز قفزات عالية فى الهواء ثم تعود إلى الماء ، وهى تفعل ذلك هرباً من عدو على استعداد دائم لالتهامها ، ومن هذا الطراز من السمك الطيار نشأت الطيور ، التى لم تلبث أن اختارت أعالى الأشجار سكناً لها [1] .

على أن الفرع الأخير ، فرع الحيوانات البرمائية هو الذى يعنينا أن نواصل تتبع حياته ، لأنه الفرع الذى انتهى إلى الإنسان كما يقولون .

الزواحف

تطورت البرمائيات إلى زواحف [2] تأقلمت نهائياً مع البر ، فاستقرت فيه كالسلحفاة ، وإن ظل بعضها يحن إلى الماء كالتمساح .

وقد ظلت الأغلبية الساحقة من هذه الزواحف ، أمينة على أصلها السمكى فى إيجاد نسلها عن طريق بيض تضعه فتدفنه فى الأرض أو فى الرمل

---

(١) هناك رأى آخر يقول إن الطيور نشأت من الزواحف الأرضية ، والمسألة كلها لاتعدو أن تكون فروضاً .

(٢) تنقسم الزواحف إلى أربع فصائل متميزة عن بعضها باختلافات عديدة وإن جمعت بينها الصفات العامة ، وهذه الأصناف الأربعة هى السلاحف والحيوانات الورلية والثعابين والتماسيح .

فتتولى الأرض حضانة هذا البيض حتى يفقس ، ويخرج النبت الجديد ، مستعداً للحياة على الفور بمجرد خروجه من البيضة .

ومع ترقى الحياة تصبح الأم أكثر عناية ببيضها ، فلا تفكر فى التخلى عنه ، ومن هنا تولت الطيور حضانة بيضها ، حتى إذا فقس وجاءت الأفراخ الصغيرة ، تعهدتها بالعناية وتقديم الغذاء لها وتعليمها كيفية الطيران .

وعلى هذا الأسلوب من التطور والرقى ، نشأ من الزواحف أصناف جديدة من الحيوانات ، تحرص على حضانة بيضها ولا تتخلى عنه ، فتبقى البيضة فى داخل جسمها ، ولكنها تظل منفصلة انفصالا تاماً عن جسم الأم ، فهو مجرد ملجأ ، ويتغذى الجنين من المواد الغذائية المكتنزة فى البيضة كأى حيوان مماثل . حتى إذا انتهت مدة الحضانة ، خرج المولود من البيضة الموجودة داخل الأم . ولا يكاد المولود يفارق جسد أمه ، حتى تنقطع صلتها به[1] .

الحيوانات الثديية

ولكن بالرغم من أن هذه الحيوانات قد أصبحت تحتضن وليدها داخل جسمها ، فهى ما تزال تنسل عن طريق البيض ، ولذلك فقد ذهب التطور إلى أبعد من ذلك ، فلم يعد رحم الأنثى مجرد ملجأ لاحتضان البيضة ، بل إن دم الأم يصبح هو المورد الغذائى للجنين ، فيصبح وكأنه قطعة منها يتفاعل معها وتتفاعل معه . فنشأ لديها جهاز لحضانة البيضة داخل جسدها (وهو الرحم) ولا يكاد الجنين يولد ، حتى تسعى الأنثى لتغذيته بغذاء تفرزه من إحدى غددها ، فكان الثدى الذى يفرز اللبن ، وهكذا شهدت الأرض

---

(١) توجد بعض الضفادع والزواحف والأفاعى تنسل بهذه الطريقة فيظن أنها تلد كما تلد الحيوانات الثديية ، ولكن هناك فارقا كبيراً كما هو مبين بما يليه .

لأول مرة صنفاً من الحيوانات جديداً لا ينفصل عن بيضه، بل تغذى البويضة داخل جسد الأم التى تغذى المولود بلبنها .

وهذه هى الحيوانات الثديية ، أو كما يسميها البعض الحيوانات اللبونة ، أى التى ترضع وليدها لبناً ، وهى هذه الحيوانات الراقية التى تعيش حولنا سواء منها المستأنس أو غير المستأنس ، أى ابتداء من الأرنب والقطة والشاة والبقرة والكلب والحصان ، وانتهاء بالفيل والنمر والذئب والثعلب والأسد . . . . الخ .

القردة الراقية

وراح فرع من هذه الحيونات الثديية يزداد رقيا ، أو بلغة العلم يتعقد أحد أعضائه وهو المخ ، فكانت الحيوانات الراقية العليا ، ممثلة فى صورة القردة العليا الثلاثة ، وهى الأورانج تانج (إنسان الغاب) والشمبانزى والغوريلا .

وما دمنا قد وصلنا إلى القردة ، فإنما هى قفزة واحدة (وما أبدع القرود فى القفز) لكى نصل إلى الإنسان . ولم يتردد العلم فى هذه القفزة فقفزها ، وقال المؤمنون بنظرية التطور الآلية إن الإنسان من القرد .

أثمة حلقة أو حلقات مفقودة ؟

من الخلية الأولى حتى الشمبانزى أو إنسان الغاب ، رأينا العلم كما لخصناه انفاً ينطلق كما انطلق من قبل ، من الذرة إلى الكواكب ثابت الخطى قوى اليقين ، حتى إذا وصل إلى القرد وأراد أن يعبر منه إلى الإنسان ، تعثر من جديد كما تعثر من قبل ، وتلعثم وفأفأ وتزعزع يقينه ، إذ يجد نفسه إزاء فجوة كتلك التى صادفها من قبل بين المادة الجامدة والحياة . حقاً إن الفجوة بين الإنسان والقرد ، أقل اتساعا وعمقاً من الفجوة بين المادة الجامدة والحياة ، ومع ذلك فعلماء الحياة الأعلام الأمناء على عملهم ،

يستشعرون الكثير من الحرج للقفز من القرد إلى الإنسان ، بل إنهم عندما يقررون أن الإنسان من القرد لا يجعلون القرد هو الأصل المباشر أو الجد القريب ، بل يتحدثون عن حلقة أو حلقات لا تزال مفقودة بين القرد والإنسان . فعلام هذا التهيب ولم هذا التردد والاحتياط ؟ لا يتصور أحد أن منشأ هذا التردد هو التأثر بالمعتقدات الدينية ، أو الرغبة فى المحافظة على كرامة الإنسان ، وعدم مصادمة عواطف الجماهير ، فهؤلاء المترددون قوم قد أنكروا وجود الله والأديان جملة ، ولم يعودوا يؤمنون بغير الطبيعة والمادة أصلا للكون والحياة ، وإنما نشأ هذا التردد والتهيب نتيجة أمانتهم العلمية ، وقواعدهم التى التزموها لتفسير نظرية التطور .

فهم يرتبون أنواع الحياة ترتيباً تصاعديا ، ابتداء من الخلية الواحدة كما رأيت ، حتى يصلوا إلى الحيوانات الراقية ، وهم يعرضون علينا درجات السلم درجة فدرجة ، بحيث لا تعلو درجة عن سابقتها إلا بشىء ضئيل بحيث لا يملك الإنسان وهو يرى هذا التدرج إلا أن يؤمن بالفعل بتسلسل الأحياء بعضها من بعض ، ولكنهم عندما يصلون إلى الإنسان يجدون الفارق بين رأسه ، أو بالأحرى بين مخه ومخ أرقى الحيوانات وهى القردة العليا كبيراً جداً . أما بالنسبة لحيوانات أخرى تفوق القردة ضخامة فقد لا يكون لهـا مخ على الإطلاق أو مخ يوزن بالجرامات[1] . وبالنسبة للقردة العليا ، فالغوريلا الذى يصل وزنه إلى أربعمائة رطل ، فإن مخه لا يزيد عن ٣٦٠ ، جراماً بينما يزيد مخ الإنسان الذى يزن فى المتوسط نصف هذا القدر على ١٣٦٠ جراما أى أربعة أضعاف حجم مخ أرقى قرد .

وإذن فهناك فجوة بين مخ القرد ومخ الإنسان . وإذا تحدثنا عن الإنسان فلسنا نعنى به الإنسان المتحضر المتعلم ... المثقف وإنما نعنى به أبسط صورة

(١) يبلغ مخ الحوت الذى قد يزن مائة طن بضعة جرامات .

تتصورها عن الإنسانية ممثلة فى بعض سكان الغابات فى إفريقيا . فمخ أى إنسان يتساوى فى الوزن وفى التعقيد مع مخ أى إنسان آخر ، والفارق بين هذا المخ الإنسانى وبين مخ أرقى حيوان ، فيه هذه الفجوة الضخمة ، ولما كان علماء التطور القدامى وعلى رأسهم دارون ، لا يؤمنون بأن الطبيعة تتطور بقفزات — فالتطور عندهم عملية بطيئة ممعنة فى البطء ، وهى تدريجية تحتاج كل خطوة منها إلى مئات الألوف من السنين ، بل ملايين السنين ؛ — فقد اضطروا للقول بضرورة وجود حلقة أو حلقات مفقودة ، تمثل التطور بين القردة والإنسان ، وأن الإنسان لابد عاثر على هذه الحلقة أو الحلقات المفقودة إن آجلا أو عاجلا[1].

ومع ذلك فحتى لو لم نعثر على هذه الحلقة أو الحلقات المفقودة ، فإن اطراد نظرية التطور هذا الاطراد الثابت ، يجعلها أشبه بقانون ؛ فلا حرج أن يجزم العلم بانحدار الإنسان من القرد .

من مخ القرد إلى مخ الانسان

وقيل إن مخ القرود الراقية عندما ازداد تعقيدا ، فقد أدى هذا التعقيد إلى نشوء خصائص جديدة وهى تقبل المخ للمعنويات ، ويقصد بالمعنويات تذوق الجمال والتمييز بين الخير والشر والقدرة على التعلم والتعليم ، وعندما وصل المخ إلى هذه الدرجة نشأ قانون الإنسان الذى هو قانون أعلى درجة من قانون الحياة[2] .

---

(١) ارتفعت الصيحة من حين لآخر كلما عثر على فك عظمى من عصور قديمة أو جمجمة من الجماجم بأنها تمثل هذه الحلقة المفقودة ، ولكن شيئاً من ذلك لم يستقر بحيث يصبح حقيقة علمية ، ثم انتهى الأمر بالكف عن كل حديث عن الحلقة المفقودة ، بعد أن أصبحت الدارونية الحديثة تقول بتطور الطبيعة على صورة طفرات .

(٢) وحدة المعرفة للدكتور محمد كامل حسين . ص ٦٢

ويمضى المؤمنون بالتطور إلى أنه من الإنسان سيخرج (السبرمان) أى الإنسان المتفوق ، كما بشر بذلك نيتشه ، بل يذهب البعض إلى أن الآلهة نفسها ستخرج من الإنسانية ، كما خرجت الإنسانية من الحيوانية[1].

ونحن ممن يقولون إن الأمر لا يحتاج لملايين السنين لنشوء هذا الإنسان المزعوم ، فالإنسان الحالى ، والإنسان فى كل زمان ينطوى على سر الإله ، ولكن لنتابع حديث العلم الطبيعى أولا .

نشأة الانسان

ينشأ الإنسان مذ كان إنسانا كأى حيوان آخر من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذى يوجد به حوالى ٣٠٠٠٠٠ بويضة تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج ، وتتناهى هذه البويضة فى الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها عن أوقية .

أما الحيوان المنوى اللازم لإخصاب البويضة فإن حجمه لا يزيد على ١/٨٥٠٠٠ من البويضة . وقد قرب لنا عالم بيولوجى أمريكى وهو هـ . ج . مولر نسبة حجم الحيوان المنوى إلى البويضة ، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالى ؛ لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها (وقت كتابة العالم لكتابه) ٢ بليون ومائتا ألف بويضة لما شغلت أكثر من ٥/٨ جالون ، أما نفس العدد من الحيوانات المنوية ، فإن حجمها لا يزيد عن نصف قرص من الأسبرين[2].

عملية التلقيح

وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى ، لتقابل الحيوان المنوى المنتظر

(١) محاورات ريثان الفلسفية ـ لعلى أدهم ـ ص ١٤١

(٢) الوراثة والسلالة والمجتمع ـ تأليف ل . س . دوبراهانسكى .

لإخصابها فى وقت الحيض، حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز البويضة فوق غشاء بوق فالوب ، فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) إلى داخل الرحم . وفى هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغيير هام ، إذ تكون قد قذفت بنصف مادتها أو بعبارة أخرى ، بنصف كل كروموزوم ، وعندئذ يخترق الحيوان المنوى (الذى يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته) سطح البويضة ،ويتحد القسم الباقى من كروموزوماته بما بقى من كروموزومات البويضة ، مكونين بذلك مخلوقاً جديداً مؤلفا من خلية واحدة ، طمست فوق مخاط المهبل . وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام كأى خلية أخرى ، ومع ذلك فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبويها ، إن فيها صفات الأم وفيها بعض صفات الأب ، بل فيها كل الأمراض الوراثية للزوجين وأسلافهما . ومع ذلك فهى شىء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين .

الإنسان الخلية

هذه الخلية الميكروسكوبية الأولى ، هى الإنسان وقد ولد ، إنسان بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى يتضمن تجربة الدهور السابقة كلها ، ويلخص هذا الاستعراض الذى فصلناه من قبل ، ابتداء من الضوء إلى أن كانت الأرض . ويمثل بالدرجة الأولى تطور الحياة منذ أكثر من مائتى مليون سنة .

هذه الخلية الأولى التى تكونت هى كتاب الطبيعة ، كتاب الحياة بكل ما خط فى هذا الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف . وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشراً سوياً ليتحقق لنا مصداق ذلك .

من الخلية الواحدة تبدأ الطبيعة ملحمتها الكبرى، التى لا يمكن أن يوجد فى الطبيعة ما يفوقها، ملحمة الحياة النامية الهادفة، التى تعمل طبق خطة موضوعة لتحقيق غرض معين، كان ولا يزال سراً مغلقاً على البشر إلا على سبيل الحدس والتخمين[1].

ولا مجال للإفاضة فى تتبع تطورات الجنين فى رحم الأم منذ يكون بويضة قد لقحت، حتى يخرج من دنيا الظلام بشراً سويا، وكتب الطب عامة، وعلم الأجنة خاصة تغص بكل ما يذهل اللب ويحير الفؤاد، وبحسبنا أن نعلم أن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين متلاصقتين؛ تنقسمان بدورهما إلى أربع فثمان فست عشرة فاثنتين وثلاثين، وعند هذا القدر من الانقسام ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين الذى يؤلف من نفسه فى هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها ومغمورة بالماء من الخارج، فهو الحياة على صورة النطفة العائشة فى الماء.

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها، طوراً بعد طور ومرحلة إثر أخرى، فإذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبها بالدودة (العلقة)، وتارة أقرب شبها إلى السمكة، والذى يهمنا أن نشير إليه، أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين الملايين من المرات، لقد

---

(١) أشار القرآن الكريم إلى تطورات الجنين فى عديد من الآيات نجتزىء منها ما ورد فى سورة (المؤمنون)

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين » ١٢ - ١٤.

وباستطاعة أى قارىء أن يلحظ انطباق ذلك على ما يقول به علم الأجنة مما أشرنا إليه.

أصبح طول حجمه يناهز البوصة . وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة ، وأصبح أقرب ما يكون فى التكوين إلى الضفدعة . وإذ نكون قد وصلنا الآن إلى الشهر الثالث ، فقد أصبح وزن الجنين أكثر من أوقية ، وطوله أكثر من ثلاث بوصات ، وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ، حتى الأعضاء التناسلية والأذرع والأرجل والأظافر قد تكاملت ، وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتزايد بعد ذلك فى اطراد .

فإذا كان الشهر السادس ، فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمتراً ووزنه ثلثى كيلو جرام . وبعد ٢٥٢ يوماً أى فى أواخر الشهر التاسع ، يكمل نمو الجنين ويصبح مهيأ للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها ، حيث يأتيه رزقه رغداً فى كل وقت وآن ، بدون جهد أو آلام ، ويقذفه الرحم خارج الجسم ، إنه لم يعد بعد الآن جنينا ، إنه طفل الإنسان ، ولما كان الطفل يحرم لأول مرة من المائع الذى كان يعيش فيه ، ويتغير المحيط من حوله ، ويصطدم بالهواء الجوى لأول مرة ، وهو ينفذ إلى رئتيه فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة ، وإعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار .

وعندما يولد الجنين فإن وزنه يكون فى العادة بين ٢¾ و ٣ كيلوجرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمتراً . وقد حان الآن أن أذكرك أن هذا الحجم الضخم قد بدأ من هذه البويضة التى كانت تزن $\frac{١}{٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠}$ من الأوقية ، أى أنها تضاعفت ألوف الملايين من المرات . ولكى تعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر ، فلو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى لأنتج حجما أضخم من كل المجموعة الشمسية ، أى جسما قطره ملايين الأميال[1] . ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة

(١) بواتق وأنابيب — الدكتور أحمد زكى — ص ٢٤٤ .

بضع عشرات أخرى من السنين ، لزاد على المجرات حجما ، ولزحم الكون الذى نعرفه ، ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه الوتيرة ، فهى لاتلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين .

بأى سحر أم بأى سر يعلو على السحر

والآن بأى سحر أم بأى سر يعلو على السحر ، انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون ٢٦ مليون مليون خلية ، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى ، وتتشكل تبعاً لذلك تشكلا خاصاً يمكنها من أداء دورها الخاص ، كيف أن هذه الخلية الأولى التى لايستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى أو الخلية الأولى لأى حيوان ، تبدأ عند مرحلة معينة فى سلم النمو ، فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة أو نجمية أو خيطية أو مستديرة أو على شكل البسكويت أو المكعبات أو العصى أو العناكب أو على شكل القوس أو متفرعة كالشجرة .

بأى سحر أو بأى سر يعلو فوق السحر ، تفرز بعض هذه الخلايا أسمنتا لتربط ، أو سائلا ليتجول فيه بحرية ، أو تغير مادتها لتصبح غضروفية ، أو جيرية لتكون عظاماً ، أو تمعن فى الصلابة لتكون ميناء الأسنان ، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف ، والبعض يصبح معتما كالحجر ، بعضها لا لون له ونوع منها أحمر وآخر أسود ، خلايا تغص بالتفاعلات الكيمائية الثائرة ، كما لو كانت مصانع ، وخلايا خامدة كما لو كانت ميتة . خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكى ، وخلايا تقوم بدور الدعائم التى تدعم أى بنيان . البعض يصبح نظاماً لإعطاء الإشارات الكهربائية ، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة ، ومامن خلية من ملايين الملايين هذه إلا وتعد نفسها بالحجم المطلوب فى الوقت المحدد والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة

المقررة فى العضو ، الذى لن يستعمل إلا بعد فترة معينة وفى ظروف مختلفة . إنها تعمل فى الظلام لإنتاج جهاز الإبصار الذى يعمل فى النور ، إنها تعمل فى صمت جهـاز السمع الذى يتأثر بالأمواج الصوتية ، إنها خلايا عمياء لاتعرف فوقاً ولا تحتاً ، ومع ذلك فإن خليـة الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس فى نهاية الأصبع لتتصل بها . إن كل شىء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوى على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على مايقول شرنجتون .

أما كاريل فيقرب لنا صورة مايحدث فى بناء الجسم ، بأن يطلب منا أن نتخيل « طوبة سحرية واحدة تشرع فى بناء منزل بمفردها ، فتخلق من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين ، وهذه القوالب لاتنتظر رسومات المهندس المعمارى أو مجيىء البنائين والفعلة ، ولـكنها ترص نفسها بنفسها ، صانعة الملاط ومكونة الجدران ، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ ، وزجاج لهذه النوافذ ، وألواح للسقف ، وفحم للتدفئة وماء للمطبخ والحمام . وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك التى تنسب للجنيات فى القصص الخرافية التى تروى للأطفال . . . إنه يوجد بواسطة خلايا عالمة سلفا بالبناء الذى يجب أن تنسقه فى المستقبل ، فتصنع من المواد الموجودة فى بلازما الدم مواد البناء ، بل وتصنع العمال أنفسهم [1] » .

تـكوين العين

ولنعد من جديد إلى شرنجتون ، ذلك العالم الطبيعى المادى الذى لايؤمن بغير المادة ربا خالقاً ، لننقل عنه أروع ما كتب عالم فى كيفية تـكوين العين :

« من مخ الجنين ينشأ برعم صغير ، هو الذى سيتـكون منه الجزء

---

(١) الإنسان ذلك المجهول — ص ١٣٤ .

الأكبر من العين ، ومن الجلد الذى يغطى هذا البرعم ، ينشأ القسم الثانى ، هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة .

وكرة العين ليست فى طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة (إذا جاز أن نعكس التشبيه) وصغر آلة تصوير العين ، هو آية كمالها ودقتها ، والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها فى أى عضو آخر .

إن العين تكون فى الظلام ، ومع ذلك فكل شىء فيها يعد لاستقبال النور ، ويوم أن تتعرض للنور ، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك فى المكان الذى يجب أن تكون فيه ، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب وهو الإبصار . فهى (أى العدسة) محدبة من الوجهين ، وهى معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء فى البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة عند شبكية العين فى المؤخرة .

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين ، من خلايا الجلد ، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجا شفافا ، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر بؤرتها ، هذا الضوء الذى لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر .

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) ، كما هو الشأن فى أى آلة تصوير أو ميكرسكوب ، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لإتمام عملية الإبصار ، فحيث يقل الضوء ، يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر ، أما إذا زاد الضوء واشتد ، فإن حزمة صغيرة منه تكفى لأداء الغرض ، ومن هنا تضيق الحدقة .

وفى آلة التصوير أو المجهر ، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب

أو العامل على الآلة ، أما فى العين البشرية ، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشيء المراد رؤيته .

ولأمر ما شاءت الطبيعة أن تجعل هذه القزحية العينية ذات ألوان مختلفة ، تتدرج من الأسود إلى الأزرق فالعسلى تبعاً للون قزحية الأبوين .

وتقسم العدسة والقزحية حجرة العين إلى نصفين ، أمامى وخلفى ، وكلاهما مليء بسائل شفاف لايعدو أن يكون ماء ، ولكنه محفوظ فى درجة ضغط معينة ، ليحفظ على كرة العين شكلها الذى يجب أن تكون فيه .

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التى تحولت بدورها إلى زجاج شفاف لتكون نافذة للعين ، وهى ما نطلق عليها اسم القرنية ، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية ، حتى لايلقى الدم ظله داخل العين ، فتحجب بعض عناصر الصورة المنظورة . ويغطى هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحى ، بطبقة من الدموع المائية التى تتميز بقوة كيائية خاصة لقتل أى جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها .

وإذا كان من خصائص جلد الإنسان أن ينطوى على مظاهر الإحساس الأربعة من حرارة وبرودة وضغط وألم ، فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التى تكون نافذة العين ، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس ، وذلك هو الإحساس بالألم ، فلمسها يحدث الألم لأنها يجب ألا تلمس بحال من الأحوال .

ويتجمع الجلد فوق هذه النافذة وتحتها مؤلفا أجفانا متحركة ، وهى جافة من الخارج كأى جلد عادى ، ولكنها رطبة من الداخل ، لكى يكون باستطاعتها دائماً أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة ، أو أى جسم غريب قد يقع عليها ، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها .

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسى للعين الذى يقع فى مؤخرتها

ونعنى به شبكية العين ، هذه اللوحة الحساسة للضوء ، والتى يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها ، بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء ، بل بدون تغيير على الإطلاق مذ يبدأ الطفل عملية البصر إلى أن يكون شيخاً هرماً قادراً على الإبصار . ومع ذلك فهذه اللوحة الحساسة ، لا تنفك تقوم بعملها ليلا ونهارا بغير انقطاع ، فتتلقى مختلف الصور من كل لون وطراز وتبرق بها إلى المخ .

وتنظم هذه الآلة التصويرية بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعاً لبعد الصورة التى يهمها التقاطها ،فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف حسب الحاجة ، فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية فى اتجاه المنظر المطلوب رؤيته ، ومهما تكن السرعة التى يندفع بها الجسم المنظور ، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائماً على أحسن نقطة للرؤية فى الشبكية .

وأخيراً ، فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدماً على حفظ ذاتها ، فلو هددها أى خطر ففى أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها لتحمى نافذة العين الشفافة[1] .

وفى نفس الوقت الذى تكون فيه كرة العين آخذة فى التكوين ، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد كأس العين الذى ستستقر فيه ، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذى تكونت منه لتستقر فى كأسها البصرى الجديد ، وفى غضون بضعة أسابيع ينشأ فى قاع هذا الكأس البصرى حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية ، التى تربط بين المخ والخلايا العصبية فى العين .

وينتشر على شبكية العين ١٣٧ مليون عنصر مستقل تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة ، وتظل هذه العناصر والأعصاب التى تنقل المؤثرات

(١) وهو ما يعبر عنه قول العامة الشائع من أن « العين عليها حارس » .

المختلفة إلى المخ ، تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجاوز المليون إلا بقليل ، وما من عصب فى هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب ، وهى هذه المحطات التى توصل كل منها إلى محطة أبعد منها ، والمخ فى حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة من محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك .

وليست العين فى نهاية الأمر سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية التى يتألف منها باقى أجزاء الجسم الأخرى ، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت تعمل متعاونة باتفاق مشترك ، على تنفيذ الخطة الموضوعة . حتى إذا تم تكوين العين ، فإن هذه الخلايا التى ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص ، تقف فجأة عند حد ما أنجزته فلا تزيد عليه ، وتقع فى سبات نسبى فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير .

وقد يتصور القارىء ذلك الذى وصفناه ضربا من الخيال الفج ، أو القصص البارع ، ومع ذلك فإن هذا الذى قلناه ، هو حق لا مرية فيه ، إنه الواقع العجيب الذى يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته ، المختلفة[1] »

بناء الجسم

وليس هذا الذى ذكرناه من كيفية تكون العين ، إلا ما يتكرر بنفس الدقة والإحكام والإعجاز لتكوين سائر أجزاء الجسم وأنسجته وعضلاته ، هذه العضلات التى ليست فى حقيقتها الا (الموتورات) المحركة التى تمكن الإنسان ليس فقط من تحريك أعضائه الداخلية أو الخارجية ، بل وتحريك أى شىء فى الخارج .

يقول شرنجتون : إننا لو أخذنا قطاعا من أحد الألياف العضلية ، لكان

---

(١) الإنسان على طبيعته — ص ١١٣ Man on his Nature .

معنى ذلك أننا نكون قد قطعنا ١٥٠ مليون جزىء من الجزيئات البروتينية ، أى أنه فى كل قطاع من العضلات مساحته ملليمتر مربع ، يوجد خمسة أضعاف الجنس البشرى ، وقد اجتمعوا فى صعيد واحد ليشدوا فى اتجاه واحد ، مستجيبين جميعا كرجل واحد للأمر الذى يصدر لهم بالشد . وهذا الأمر يصدر على شكل رسالة كهربية تسرى خلال عصب العضل ، وقد يكون منشأ هذه الرسالة كيمائيا ولكنها تتم بطريقة كهربية[1] .

وليس من برنامج هذا الكتاب بطبيعة الحال ، أن يتصدى لعلم التشريح أو وظائف الأعضاء ، ومع ذلك فليس باستطاعتنا وقد تعرضنا لكيفية بناء الجسم ، وكيف ينمو ويتطور ويحافظ على نفسه ، ألا نشير إلى بعض الخصائص المعجزة للوسيطين اللذين يوحدان الجسم ، ويخلقان منه وحدة واحدة ، وأعنى بهما جهازى الدورة الدموية والجهاز العصبى .

الدورة الدموية

رأينا فيما سبق أن الحياة قد نشأت فى الماء ، ولا يمكن تصور استمرارها بعيداً عن هذا الوسط الذى نشأت منه . وقد كان ماء البحر على ملوحته لا يصل إلى درجة ملوحته اليوم ، وفى هذا الماء المالح عاشت عناصر الحياة الأولى ونمت وترعرعت وتكاثرت ، فكيف أصبح باستطاعة الحياة أن تواصل وجودها ، بعد أن خرجت من البحر وابتعدت عن الوسط الذى منه نشأت وعاشت فيه ؟ .

كان هذا السؤال هو إحدى المعضلات التى جابهت علماء الحياة القائلين بانبعاث الحياة من الماء ، وسرعان ما قدم لهم دم الإنسان جواب السؤال وحل المعضلة والإشكال . فليس هذا الدم سوى ماء البحر ، حمله الإنسان فى عروقه وشرايينه ، ليهيىء لكل خلية من خلايا جسده نفس الوسط

(١) المرجع السابق — ص ١١٠ .

الذى كانت مغمورة فيه عندما كانت تعيش فى البحر . وكان هذا ثمرة تطور بطيء كما هى العادة دائماً فى نواميس الطبيعة ... فعندما لم تكن الحيوانات الرخوة تتألف إلا من طبقة واحدة من الخلايا تسبح على شكل صفحة الماء ، ولم يكن ثمة حاجة لنشوء أوعية دموية فى هذه الحيوانات الرخوة ، فقد كان الماء يغمر كل خلية على حدة ، ولكن عندما تطورت هذه الحيوانات إلى حيوانات أكثر تعقيداً ، تضاعفت طبقات خلاياها ، وأصبح لها سمك وحجم يجعل من المتعذر ملامسة ماء البحر لكل خلية منها على حدة ، فقد نشأ نظام من الأنابيب فى هذه الأجسام الجديدة ، ومضخة عضلية وهى القلب ، لتزود كل الخلايا المدفونة داخل الجسم بدم مالح ، ويكون بديلا عن ماء البحر الذى ألفته من قبل .

وهكذا نشأ القلب والأوعية الدموية التى تملأ الجسم كله ، لتغمر كل خلاياه بالسائل المائع الذى يذكر بماء البحر . وعندما خرجت الأحياء من البحر إلى البر نقلت معها هذا الجهاز الذى يصنع ماء البحر ، أى أن الحياة نقلت معها وسطها ، وبهذا الوسط عبرت الجبال والصحارى ومشت وطارت وغزت البر والجو ، وستغزو كواكب الفضاء فى الغد ، ناقلة معها هذا الوسط الذى خرجت منه ونعنى به الدم ... أو ماء البحر .

ولقد تغير ماء المحيط بزيادة الأملاح التى تصب فيه عاماً بعد عام لملايين السنين ، ولكن الدم بتوازنه الديناميكى ، ظل ثابتاً عند الحد الذى كان عليه ماء البحر عندما نقله معه .

ودم الإنسان هو نسيج عضوى ، كأى نسيج من الأنسجة العضوية التى يتألف منها الجسم البشرى ، مع فارق واحد وهو أنه نسيج متحرك ، أما باقى الأنسجة الأخرى فثابتة فى إطار . ويتألف الدم من عناصر ثلاثة رئيسية :

١ — بلازما الدم .
٢ — كريات الدم الحمراء .
٣ — كرات الدم البيضاء .

فأما بلازما الدم فهى سائل لزج ، وهى تلك التى تشبه ماء البحر ، ولكن تركيبها ليس بهذه البساطة ، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك كثيراً من حيث التعقيد .

وهى تتألف فى الدرجة الأولى من محلول القواعد والأحماض والأملاح والبروتينات . وما من خلية من خلايا الجسم التى تبلغ ألوف الملايين ، إلا وتجد غذاءها اللازم لحياتها فى بلازما الدم ، وكذلك المواد التى تزيد فى نشاطها أو تعوقه ، وتحتوى البلازما فوق ذلك فيما تحتوى ، على بروتين خاص يخلق خيوطاً ليفية تثبت من تلقاء نفسها على جروح الأوعية الدموية لتوقف نزيفها . أما كرات الدم الحمراء التى تتألف من ٢٥ إلى ٣٠ ألف مليار كرة حمراء ، فهى تسبح فى بلازما الدم ، وهى ليست خلايا حية ولكنها عبارة عن أكياس دقيقة مملوءة بالهمجلوبين ، وهذا اللون الأحمر الذى تتميز به ، هو لون الحديد الموجود بها . وكرات الدم الحمراء هى وسيلة الدم لحمل الأكسجين إلى جميع خلايا الجسم .

عملية التنفس ودورها

ولما كان الدم من ناحية أخرى يقوم بدور البالوعة الرئيسية التى تصب فيها جميع الفضلات التى تطلقها الأنسجة الحية وأكسيد الكربون ، فإن الدم السارى فى الجسد سرعان ما يتلوث بالتدريج لكثرة ما يزخر به من حامض الكربونيك وفضلات التغذية ، ولذلك يفقد لونه الأحمر القانى الذى خرج به من القلب ويصبح داكنا ، ولكن نبضات القلب لا تلبث أن تعيد هذا الدم المتلوث إلى داخل شبكة من شعيرات الرئة الهائلة ، وفى هذه الشعيرات تتصل كل كرة حمراء بأكسجين الجو الذى يكون قد نفذ إلى الرئة

من خلال عملية الشهيق ، وهذا الغاز بالتطبيق لقوانين الطبيعة الكيمائية ، ينفذ إلى الدم فيستولى عليه هيموجلوبين الكرات الحمراء ، وفى الحال يهرب ثانى أكسيد الكربون بداخل الشعب ، ومن هناك يطرد إلى الجو الخارجى بواسطة حركات الزفير . وكلما ازدادت سرعة التنفس ، ازداد نشاط المعادلات الكيمائية بين الهواء والدم . وهكذا يتنقى الدم من ثانى أكسيد الكربون ويشحن بالأكسجين بفضل كرات الدم الحمراء ، ولكنه يظل محملا بأحماض أخرى ليست سريعة التبخر كحمض الكربونيك ، وكذلك لا يزال يحتوى على فضلات تجدد الخلايا ، ولذلك فلا بد له من عملية تنقية أخرى ، وهذه تتولاها الكليتان فى أثناء مرور الدم خلالها ، إذ تفصلان مواد معينة من الدم وتطردها خارج الجسم فى البول ، كما تنظم الكليتان كمية الأملاح اللازمة لبلازما الدم ؛ حتى يظل توترها الأسموزى مستمراً .

عملية التغذية

وهكذا تتعاون الرئتان والكليتان بأعظم درجة من الكفاية والنشاط ، لإبقاء هذا الوسط السائل الحيوى للأنسجة ، فى الحالة التى يجب أن يكون عليها للمحافظة على دورة الحياة . أنه مهما يكن دور الرئتين والكليتين أساسياً للمحافظة على الدم نقياً ، فإن بقية أعضاء الجسم تساهم بدور لا يقل خطورة للمحافظة على هذا الكيان ، وإبقائه فى حالة التكامل والتوازن .

فإذا كان الجسم مثلا فى حاجة إلى الأكسجين فى الدرجة الأولى ، فهو لا يقل احتياجاً للغذاء الذى لا يخرج عن كونه وقوداً يحترق فى الأكسجين ، لتزويد الجسم بما يحتاجه من حرارة وطاقة . ونحن نعرف قصة الأغذية سواء كانت لحماً أو جبناً أو لبناً أو زيتاً أو خبزاً أو سكراً . . . ونعرف قصة هضمها بواسطة خليط من العصارات المعدية وإفرازات البنكرياس والكبد ،

حيث يحملها الدم بعد ذلك عن طريق بلازماه إلى سائر خلايا الجسد كلها لتختار كل منها ما يوافقها من هذا الغذاء .

الكريات البيضاء

أما كرات الدم البيضاء التى يبلغ عددها ٥٠ مليار كرة بيضاء فهى على عكس كرات الدم الحمراء ، أجسام حية وهى تسبح بدورها فى بلازما الدم ، ولكنها تهرب منه أحياناً بالتسرب من خلال جدار الأوعية الشعرية إلى الأنسجة ، وتزحف فوق سطح خلايا الأغشية المخاطية للأمعاء والغدد وجميع الأعضاء . ذلك لأن دور هذه الخلايا هو أن تحافظ على الجسم من كل مايهدده ، إنها تمثل أحد قوانين الحياة فى المقاومة ، فالكائن الحى ينطوى على سر المحافظة على كيانه ، وقد ترك للعقل بمساعدة الأعضاء الخارجية مهمة مقاومة الأعداء الخارجية المنظورة ، أما الأعداء غير المنظورة التى يراها الإنسان ممثلة فى هذه الجراثيم والميكروبات الفتاكة التى تهدد حياة الإنسان ، فإن كرات الدم البيضاء تقف لها بالمرصاد ، إنها السلاح الحى الذى يعده الجسد لمقاومة كل دخيل يضر بسلامته . إنها تهاجم المرض وتحيط بالميكروبات وتسرع إلى سطح الجرح الذى يحدث فى الجلد ، أو فى أى عضو ، وعن طريق كريات بيضاء من نوع أكبر يعاد إنشاء الأنسجة ، ذلك أن هذه الكريات البيضاء لها القدرة على تحويل نفسها إلى خلايا ثابتة ، ولا تلبث هذه الخلايا أن توجد أليافاً واصلة تعمل على إصلاح الأنسجة التى أصيبت من أحد الجروح ، وذلك بعد أن تأكل وتهضم البكتريا التى كانت تسمم الجرح ، كما تأكل الخلايا التى ماتت بسبب الجرح ، إنها كائنات حية تعمل مافيه مصلحتها ، فى الوقت الذى تعمل فيه بالتعاون مع باقى أجهزة الإنسان للإبقاء على كيانه ككل .

هذا هو الدم ، ذلك السائل السحرى أو المنطوى على سر يفوق السحر ،

فهو يبنى الجسد ، وهو يغذيه ، وهو يخلصه من فضلاته ، وهو يدافع عنه ويحميه ، وهو يعيد بناءه وتركيبه .

القلب

ويؤدى الدم وظيفته بالمرور على كل الخلايا ، ومدها بالغذاء وأخذ فضلاتها بواسطة هذه المضخة العجيبة ، التى ترمز لكل ما هو جميل وجليل فى الإنسان ، ونعنى بها القلب ؛ فالقلب مستودع الحياة والحكمة والإلهام والعواطف والمعرفة والفن [1] ، ولكنه بلغة العلم المادى لا يعدو أن يكون مضخة ، مضخة ماصة كابسة ، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة ، حتى يتملكنا العجب بأكثر مما يتملكنا لو نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف ، لأن تشريح ووصف الدور الذى يؤديه القلب للإبقاء على الحياة كلها ، يفوق كل تصور وإدراك . إن القلب يمثل الحركة الدائمة ما بقى الإنسان حيا ، فهو الذى يدق ويدق فى النوم مثل ما فى اليقظة ، فى المرض مثل ما فى الصحة . وهذه الدقة تعنى أن القلب ذلك الجهاز العجيب ، يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان ، فيضخ الدم فى الشرايين ويستجلبه من الأوردة ، فلو عاش الإنسان ستين عاما أو تسعين أو أكثر من ذلك أو أقل ، فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة ، بل ولا لبضع ثوان .

ومعنى ذلك أن القلب إذا كان يضخ فى المتوسط ٧٠ ضخة أو دقة فى الدقيقة ، فإن ما يضخه أو يدقه فى العام هو ٣٧ مليون دقة . فلو أن رجلا عاش إلى السبعين من عمره فإن ذلك يعنى أن قلبه قد دق أو بالأحرى قد ضخ الدم ٢٥٩٠ مليون مرة فى اتصال عجيب عبر هذا الزمن الطويل ،

---

(١) يتحدث القرآن دائماً عن القلب باعتباره مركز الوعى والإدراك والفهم العميق — « أليست لهم قلوب يعقلون بها » .

فإذا علمت أن أى آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع الا لبضعة أيام على الأكثر ، ولابد دائما من تعهدها بالصيانة والإصلاح والرعاية ، استطعت أن تدرك أى إعجاز آلى يعنيه قلب الإنسان .

والقلب يضخ فى الضخة الواحدة ستين سنتيمترا مكعبا من الدم ، أى ما يملأ فنجان شاى فى كل دقة ، ومعنى ذلك أنه يضخ ٣٠٠ لتر من الدم فى الساعة ، أى نحو ٨ آلاف لتر فى اليوم ، وهو ما يساوى ٨ أمتار مكعبة (أو مايساوى ١٥ طناً من الدم فى اليوم الواحد) لايستهلك منها لنفسه إلا شيئاً يسيرا جداً ، ومع ذلك فإن هذا القلب لايزيد وزنه عن نصف رطل فى المتوسط ، ولايزيد عرضه عن ٣,٥ بوصة ، وطوله خمس بوصات ، وسمكه بوصتان ونصف .

فبأى سحر أو بأى سر يعلو على السحر ، تفعل هذه الكتلة الصغيرة هذه الأعمال الجبارة ، التى تعجز آلات فى حجم الجبال عن أن تقوم بها ؟

الجهاز العصبى

وإذا كان القلب والدورة الدموية ، يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل ، فإن الجهاز العصبى هو الوسيط الكهربى الذى يدعم هذه الوحدة ويصونها ، بما لايقل فى الأهمية والخطر عن دور الدورة الدموية ، فالإنسان يناضل فى سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه ، بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه . والجهاز العصبى يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر ؛ أحدهما واع موجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية وأهم أجزائه المخ ، والثانى لا شعورى آلى وذاتى الحركة ، يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم ، وهو مايسمى بالجهاز السمبتاوى .

ويتكون الجهاز الرئيسى أو المركزى من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ، ويطلق على هذه الثلاثة اسم الدماغ ، الذى يحتل الجمجمة ويبلغ وزنه فى الإنسان حوالى ثلاثة أرطال ، ثم النخاع الشوكى أو العمود الفقرى .

المخ

يقع المخ فى أعلى الدماغ ومقدمه ، ويشبه فى شكله نصف الكرة . وينقسم المخ إلى قسمين ؛ أيمن وأيسر ، بكل منهما أربع قطع أو فصوص ، واحد مقدمى ، وآخر جانبى من الخارج ، وثالث جانبى من الداخل ، ورابع مؤخرى . وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين :

١ — إحداها عليا سمراء اللون ، عمقها نحو ٤ ملليمترات وتسمى اللحاء ، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التى يبلغ عمق إحداها بوصة .

٢ — الطبقة الثانية داخلية بيضاء ، تكثر بها الألياف العصبية التى توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض ، وتحتوى المادة المخية على مايقال ، على أكثر من ١٢,٠٠٠ مليون خلية ، وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبى . ولكل ليف عدة فروع ، وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف . وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة ، تعمل بدقة متناهية كما لو كانت خلية واحدة ، برغم تعقدها الذى لايمكن تصوره .

والمخ هو المسيطر على المراكز السفلية ، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا ، ومصدر الأعمال الإرادية . فهو الذى يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد ، ومن أعضاء الحس ، وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية

على اتصال دائم بالعالم الخارجى . والمخ هو الذى يرسل الإشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة[1] .

وتسمى الألياف العصبية التى تحمل الرسائل من الحواس إلى المخ ، أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة ، أما الألياف التى تنقل الرسائل منه إلى العضلات ، فتسمى أعصاب الحركة أو الأعصاب المرجعة . وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى الروابط ، وتقدر سرعة التيار الذى يحمل الرسائل من المخ وإليه عن طريق الأعصاب ، بنحو ثلاثين متراً فى الثانية الواحدة[2] .

مراكز الاحساس والحركة بالمخ

واللحاء أو قشرة المخ وسطحه ، هو مركز الأعمال الفكرية كما أسلفنا ، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة فى اللحاء يتحقق بها الإدراك لمختلف الحواس ، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم . وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث :

(١) حسية (٢) حركية (٣) مشتركة .

فأما الحسية فتشمل مراكز السمع والبصر والذوق والشم والحس ،

---

(١) إذا قورن المخ البشرى بالمخ الألكترونى ، فإنه يوازى مخاً يحوى على الأقل ١٥ ألف مليون أنبوبة ألكترونية .. وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور جوهانس شالريه عالم الأبحاث البيولوجية فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى الذى يؤكد أن المخ البشرى يحتوى على ١٥٠٠٠ مليون خلية عصبية ، كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من « الوات » ، ويعمل المخ كله بقوة تبلغ حوالى عشرة وات .

وعندما يؤدى المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة ، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين وواحد على ٢٠٠ ألف من الفوات ، بذبذبة تتراوح بين ٨ إلى ١٤ سيكل فى الثانية .

(٢) فى علم النفس — ص ٤٩ .

وأما الحركية فهى التى تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للاعضاء ، كاليد والرجل والوجه والعنق واللسان . ويدخل فى هذه مراكز للشعور بحركة الجسم . وأما المراكز المشتركة فهى التى تحتفظ بآثار المراكز السابقة ، وتنتفع بها فى الفكر والتخيل والتذكر .

ويقع مركز البصر فى مؤخر اللحاء من أسفل ، ويقابله مركز الذوق والشم الذى يقع فى مقدم اللحاء من أسفل ، وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع ، ويقع فوق الأذن تقريباً ، وبين مركزى البصر والسمع مركز الكلمات المرئية والكلمات المسموعة ، كل بجانب المركز الذى يلائمه ، ومركز الأفكار السامية فى أعلى المقدم إلى الأمام ، ويقع خلفه مركز الكتابة فمركز الكلام . وفى الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأواسطه تقع مراكز الحركة والإحساس العضلى ، والشعور بحركات الجسم ، على هذا الترتيب من الأمام إلى الخلف . ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام ، وخلفه مركز حركات الرجل ، واليد والوجه على الترتيب من أعلى إلى أسفل . وتحت مركزى حركات الرأس والوجه ، يقع مركز حركات اللسان والشفتين ، وهذه المراكز تقع فى كل من جانبى المخ ، ولكن مراكز الجانب الأيسر هى مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس .

وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التى دلت على أن أى خلل يحصل لأحد هذه المراكز ، يستتبعه على الفور حدوث شلل فى العضو المتصل به . وضربة شديدة على مركز الكلام مثلا ، تسبب تعقدا دمويا قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد . ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب مايريد ، إذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى .

المخيخ

يقع المخيخ تحت المخ وفوق النخاع المستطيل وخلفه ، وفى أسفل مؤخرة الجمجمة . ويتكون مثل المخ من طبقتين ، طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا ، وبها قليل من التلافيف ، وطبقة داخلية بيضاء اللون وتكثر بها الألياف العصبية . وينقسم المخيخ إلى ثلاثة فصوص ؛ واحد فى كل جانب والثالث فى الوسط ، وهو أصغر من الأولين ، ويسمى بالدودة .

ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ بضبط العضلات وتنظيم حركاتها ، كى تحفظ توازن الجسم ، فإذا حصل خلل فى المخيخ ، اضطربت حركات الشخص وسكناته وراح يتمايل تمايل الثمل .

ويؤدى المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة ، ولا يتدخل المخ فى شئونه إلا عند الحركات الإرادية الشعورية كتعليم المشى للطفل ، أو المشى على الحبل .

النخاع المستطيل

ثم يأتى النخاع المستطيل ، وهو فى الحقيقة امتداد للنخاع الشوكى ، بحيث يمكن اعتباره جزءاً منه ، ويملأ الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته فى أسفل الجمجمة وتحت المخ . ويتكون على عكس المخ والمخيخ ، من مادة بيضاء اللون من الخارج وسمراء من الداخل ، ومعنى ذلك أن الخلايا العصبية تكثر بداخله ، أما الألياف فتكثر فى طبقته الخارجية .

ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية ، كالدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والهضم ، ويساعد النخاع المستطيل العصب السمبتاوى فى القيام بوظيفته .

النخاع الشوكى

يملأ القناة الشوكية التى فى العمود الفقرى ، ويتألف من مادة تسمى

النخاع الشوكى ، ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب فى الجسم ويبلغ طوله نصف متر . ويتكون مثل النخاع المستطيل من مادة بيضاء سطحية ، وأخرى سمراء داخلية ، فخلاياه العصبية فى الداخل وأليافه فى الخارج ، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم فى الثلث الأسفل .

وتخرج من كل من جانبى النخاع الشوكى ، أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات ، ووظيفة النخاع الشوكى ، هى القيام بالأعمال المنعكسة ، مما سنتحدث عنه فى الفصل التالى .

الأعصاب

وتكون الأعصاب الجهاز الدائرى للجسم . والعصب مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة ، وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام وهى :

١ — أعصاب حس أو أعصاب مرسلة ، وهى التى تحمل الآثار من الحواس وباقى الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى .

٢ — أعصاب حركة أو أعصاب مرجعة ، وهى تنقل الرسائل من المراكز العصبية إلى العضلات ، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية .

٣ — أعصاب مشتركة أو وصلية ، وهى التى توصل المراكز العصبية بعضها ببعض ، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة ، وقد تكون الرسالة التى تحملها رسالة من مركز إحساس ، وقد تكون من مركز حركة .

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية ، أى الدماغ والنخاع الشوكى ، ولذلك فهى تنقسم إلى قسمين : قسم دماغى ، وقسم شوكى . أما الأعصاب الدماغية فيخرج بعضها من المخ والبعض الآخر من النخاع المستطيل ، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات ، وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكى خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات .

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات ، ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس ، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب .

ثانيا — الجهاز العصبي الآلي أو السمبتاوي

وإلى جوار الجهاز العصبي الرئيسي أو المركزي ، يقوم الجهاز العصبي الآلي ، وهو الذي يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كله في معاملاته مع العالم الخارجي .

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبي العمود الفقري ، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب ، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبي العمود الفقري ، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقري ، ويكونان حبلا واحدا أو سلسلة واحدة .

وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكي بقليل ، وترسل هذه العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية ، كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .

ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض اسم (باراسمبتاوية) ، أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى (السمبتاوية) .

ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم ، تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب في وقت واحد ، فالباراسمبتاوية تبطىء القلب في حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته ، والأولى تمدد حدقة العين بينما تسبب الأخيرة تقلصها وهكذا . وتبعاً لسيطرة أحد هذين الجهازين أو الآخر ، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة . ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه

الأعصاب ، فالأعصاب السمبتاوية تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه ، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة[1] .

سيطرة الجهاز العصبي على الجسم

بهذين الجهازين العصبيين المركزى والسمبتاوى ، تتحقق للإنسان سيطرته الكاملة على جسده ، وذلك عن طريق الإرادة ،وسنرى فى الفصل التالى كيف أن إرادة الإنسان لا تقف عند حد السيطرة على أجزاء الجسم الداخلية ، بل إنها تصل إلى حد السيطرة على كل ما يحيط بالإنسان .

الإنسان الكامل

ولكن أيكمل الإنسان بالفعل ، لمجرد أنه أصبح جسما حياً قادراً على الحياة والحركة والنمو والتناسل ؟ لا ، إنه لا يستحق بعد أن يوصف بالكمال الإنسانى ، إن كل هذا الذى قصصناه مهما يأخذ بلبك ، فهو لا يعدو أن يكون الطريقة التى يتكون بها أى حيوان ثديى ، بل إن الحيوانات الثديية الأخرى تولد بجهاز عصبى أقوى من جهاز الطفل الإنسانى ، الذى يحتاج إلى بضعة أسابيع بعد الميلاد قبل أن تتحول أعماله وحركاته من أعمال آلية بحتة ، إلى حركات انفعالية ، وهى ما يولد عليها أى حيوان . ثم يحتاج إلى بضعة شهور أخرى لتظهر عليه أولى إمارات التمييز ، وبضعة شهور أخرى قبل أن يستطيع النطق أو الانتقال من مكان إلى مكان ، وهو ما يولد عليه أى حيوان .

فالإنسان من حيث هو جسم حى ، ليس فيه ما يعلو على أى حيوان آخر من حيث الحركة والنشاط والعمل على حفظ الذات والنوع ، بل إن الحضارة الحديثة قد هبطت بجسم الإنسان وفاعليته ، إلى مستوى دون

---

(١) اعتمدنا فى الدرجة الأولى فى وصف الجهاز العصبى على كتاب «فى علم النفس» للأساتذة حامد عبد القادر — ومحمد عطية الأبراشى — ومحمد مظهر سعيد .

مستوى أى حيوان ، فبأى شىء يدرك الإنسان كماله الإنسانى الذى جعله سيداً لهذا الكون ؟ إنه يدركه كما هو معروف ومشهور بعقله ، وقد حانت الساعة لنحاول التعرف على هذا العقل الإنسانى ، أى شىء هو ، ماهى طبيعته وهل له مكان معين من جسم الإنسان كما يتصور بعض الماديين ؟

ولن نستطيع أن ندرك شيئاً من كنه العقل الإنسانى إلا إذا حاولنا أن نحدد بالضبط النقطة التى يفترق فيها الإنسان عن الحيوان .

أين يفترق الإنسان عن الحيوان ؟

كان أرسطو أول من حاول أن يحدد الفارق بين الإنسان والحيوان عن طريق تعريفه الخالد « الإنسان حيوان ناطق » . واعتبر النطق دائماً هو آية العقل الإنسانى ، الذى يصل إلى ذروته فى اختراع اللغات بكل ما تحويه من فقه وآداب وفنون وأشعار وعلوم ومعارف .

وعندنا ، أنه مهما يكن الرقى الذى وصلت إليه اللغات البشرية ، فيجب ألا يحجب ذلك عنا الحقيقة التى يقول بها التطوريون ، من أن النطق عند الإنسان لم يكن يعدو فى بادىء الأمر مجرد إخراج الأصوات للتفاهم بين أفراد النوع ، كما هو الشأن بالنسبة للطفل حتى فى هذه الأيام . فإذا كان هذا هو مدلول النطق ، فمن العبث أن ننكر على الحيوانات أنها ناطقة . فالحيوانات تخرج من فمها أصواتاً مختلفة تعبر بها عن أغراض مختلفة ، ومن الواضح أن كل نوع من الحيوانات يتفاهم مع بعضه .

وقد انتهى بعض علماء السلوك فى العصر الحديث إلى القول بأن الحيوانات تتحدث فيما بينها ، بل وصل الأمر ببعضهم إلى حد إعداد قاموس يحتوى على اثنتين وثلاثين كلمة مختلفة يتفاهم بها الشمانزى[1] . وكأن الطبيعة

---

(١) الجانب الإنسانى عند الحيوان ص ١٥١ .

تريد أن تكشف لنا عن أن النطق لا يخرج عن كونه عملية إخراج أصوات ، فكان الببغاء القادر على محاكاة بعض عبارات الإنسان فينطق بها نطقاً فصيحاً مبيناً . فالقول بأن الانسان ينفرد عن الحيوان بالنطق قول غير سديد[1] .

رب قائل يقول ليس المهم هو إخراج الأصوات حتى ولو كانت تقليداً كاملا لصوت الإنسان وكلماته ، وإنما المهم هو الإدراك، وهو مالا يتوفر لدى الحيوان ، فنحن عندما نصف الإنسان بأنه حيوان ناطق فنحن نعنى الإدراك خلف النطق .

ومرة أخرى لا يوجد لدينا أى دليل ينفى الإدراك بمعناه الواسع عند الحيوان ، بل إن الدليل يقوم على توفره عنده ، وأنه قابل للنمو والاتساع كما هو الشأن عند الإنسان . ونحن نشاهد من حين لآخر بعض الحيوانات المدربة وهى تقوم بما يدهشنا بل ويذهلنا ، سواء فى ملاعب السيرك أو لدى بعض الأشخاص . وقد جاء فى كتاب الجانب الإنسانى عند الحيوان حديث عن كلب فى الولايات المتحدة يسمى « تبى » كان محلا لمباحث العلماء ، إذ يقوم بمائة وخمسين حركة مختلفة بناء على التعليمات الصادرة له ؛ فيحرس البقر ويجلب الحطب ويحمل الرسائل ويحضر بكرات الخيط أو الغليون حسب الطلب ، ويفرق بين ورقة الدولار والخمسة دولارات[2] ، كما تحدث الكتاب عن حصان مشهور « كليفر هانز » أشهر الخيول المتكلمه قاطبة والذى بهر

---

(1) لم يشك الإنسان فى العصور القديمة فى أى وقت من الأوقات فى أن الحيوانات تتكلم كما يتكلم الإنسان ، وأن للحيوانات لغاتها الخاصة . وقد جاء فى القرآن الكريم عند الحديث عن سليمان ما يفيد أن النمل يتكلم « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها » . (سورة النمل آية ١٧ — ١٩) كما دار الحديث بين سليمان وبين الهدهد ... الخ .

(2) الجانب الإنسانى عند الحيوان ص ٧٩ — وأسماء الكلاب السينمائية ، رن تن تن ، ولاسى أشهر من أن تعرف .

العلماء فى قدرته على الجمع والطرح[1] . وقد كان من الجائز ألا أصدق أنا شخصياً أن يكون هناك حيوان يجمع ويطرح ، لو لم أشهد ذلك بنفسى ، حيث رأينا فى القاهرة فى أحد الملاعب التى وفدت عليها من الخارج (سيرك) ، فيلا كان يجمع ويطرح ويضرب بعض الأعداد الصغيرة ، وذلك عن طريق طرح السؤال عليه والإجابه عنه بالطرق بخرطومه بعدد حاصل الجمع أو الطرح . ويقول علماء النفس إن الحيوانات فى أمثال هذه الحالات إنما تستجيب لإشارات وتلميحات تصدر من مدربها لكى تقوم بهذه الحركات ، وعندنا أن النتيجة واحدة وهى أن لدى الحيوان ما يجعله يستجيب لهذه الإشارة أو تلك بهذا التصرف أو ذاك ، وهذا هو الإدراك .

وقد أثبت كثير من علماء السلوك الأفذاذ مثل ثورندايك قدرة الحيوان على تعلم الكثير مما كان يظن استحالة أن يتعلمه الحيوان . وأى كتاب حديث لعلم النفس تراه مزدانا بصور بعض قرود الشمبانزى كالقرد (سلطان) الذى دربه العالم كوهلر واعتبر رمزا لما يمكن أن يحققه القرد من ذكاء[2] ، حيث يستطيع أن يحل بعض المشكلات التى تعرض له عن طريق الاستعانة ببعض الآلات التى وضعت فى متناول يده .

ومن هنا لا يمكن اعتبار الإدراك فارقاً من حيث الطبيعة بين الإنسان والحيوان .

الفنون وتذوق الجمال

ويحاول البعض أن يرى فى تذوق الإنسان للجمال ، العنصر الذى يميز الإنسان عن الحيوان . ومرة أخرى لا يوجد لدينا دليل على أن الحيوان لا يتذوق الجمال بدوره ، أو لا يطرب للموسيقى ، أو ينتشى بجمال الطبيعة . وفى بلادنا نرى كيف تستجيب الخيول للموسيقى فترقص رقصها المشهور ،

(١) الجانب الإنسانى عند الحيوان ص ٨٣ .
(٢) مبادىء علم النفس — يوسف مراد ص ٣١١ .

ونحن نسمع صوت الكروان الذى يغرد فى الليالى المقمرة ، بل إن الطيور كلها والعصافير تزقزق عند طلوع النهار كما لو كانت مبتهجة بجمال الصبح الرائع ، ونحن نعرف كيف يزهو الطاووس بذيله شعورا منه بجماله ، كما أن ذكور الطيور والحيوانات كلها بصفة عامة أجمل منظرا وريشا من الإناث ، والرأى مجمع على أن هذا التفوق فى الشكل هو سلاح الذكر لإغراء الأنثى ، ومعنى ذلك هو الإقرار بتذوق أنثى الحيوان للجمال .

وقيل لنا إن إدرار بعض البقر من اللبن قد زاد عند ما صاحبت الموسيقى العملية من خلال الراديو . ومن المقطوع به أن إحاطة المواشى بجو نظيف يساعد على تحسن صحتها وزيادة إدرارها .

الضمير و الكبت

وهكذا تنهار بدورها فكرة انفراد الإنسان بتذوق الجمال ، كحد فاصل بينه وبين الحيوان . ولذلك قيل إن الفارق الحقيقى هو فى قدرة الإنسان على كبت بعض غرائزه ، وما يتمتع به الإنسان من ضمير يأمره وينهاه ، وما استتبع ذلك من تدين الإنسان وعبادته لله .

ومرة أخرى تؤدى بنا الملاحظة إلى إسقاط هذا الفارق بين الإنسان والحيوان ، فالحيوان المدرب يكبح شهواته من غير شك ، فهو لا يأكل وإن وجد الطعام أمامه وكان جائعا ، ما دام أن صاحبه لم يأذن له بتناوله ، وحيوان السيرك يعرف ما يجوز له عمله وما لا يجوز ، وأى حيوان مدرب يخشى طائلة العقاب الذى يحل به إذا هو قام ببعض الأعمال ، ويطمع فى نيل الجائزة إذا هو قام بأعمال أخرى . وخوف العقاب ورجاء الثواب هو ضمير العدد الأكبر من البشر ومظهر تدينهم الوحيد .

والحديث عن وفاء الكلاب أشهر من أن يعرف ، ووفاء الخيول لأصحابها وحزنها عليها مسألة مقررة بدورها ، وكثيرا ما يضحى كلب

من أجل سيده ، أو حصان من أجل سيده كذلك . فليس صحيحا إذن أن الإنسان قد اختص بالضمير ، بل إن الصحيح أن بعض البشر هم الذين قد يتجردون من الضمير ، أما الحيوانات فلا يمكن بحال أن تخلو من كل ضمير ، على الأقل الضمير الذى تفرضه الغرائز .

فلا النطق ولا اللغة ولا حب الجمال أو الضمير والتفريق بين الخير والشر بالأمور التى تفرق بين الإنسان والحيوان ، ومن هنا قال الأقدمون إن الحيوانات تتعبد كالإنسان[1] ، وقال علماء السلوك المعاصرون إنه لافرق بين الإنسان والحيوان فى أى وجه من الوجوه ، ولذلك أصبحوا يجربون على الحيوان مايريدون تطبيقه على الإنسان .

وحقا قد لايكون هناك أى فارق بين الإنسان والحيوان فى كل هذه الأمور التى ذكرناها ، ولكن ذلك لايعنى بحال أن الإنسان هو والحيوان سواء ، ذلك أن عنصر الخلاف إنما يكمن فى الواقع فى هذا الجوهر الفذ ، جوهر الحرية ، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتصف بالحرية حرية التصرف ، حرية الاختيار ، أما الحيوان أيا كان قدره وتدريبه فهو معدوم الحرية .

انظر إلى النملة كم هى مدهشة ورائعة ، انظر إليها وهى تعيش فى مدينة بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى المدينة ، وهى تعيش فى مجتمع مثالى من الناحية الشيوعية البحتة « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » ،

(١) تغص كتب السيرة النبوية بالحديث عن الغزالة والناقة والضب الذى آمن برسول الله وكلمه . وموضع الشاهد هنا أن البشر قد سلموا دائماً بفكرة إمكان تعبد الحيوان .

ومع ذلك فإن هذا النمل بكل هذا الإبداع والإعجاز لا يختلف فى قليل أو كثير عن أى ورقة شجرة تنمو بطريقة معينة ، وتتنفس بطريقة معينة ، وتقوم بدور محكوم لا تستطيع عنه حولا . إن النملة كأى ذرة من الذرات محكومة بقانون ثابت ، فالنملة اليوم كما كانت منذ عشرين مليون سنة ، وكما ستكون بعد ألف مليون سنة إذا لزم الأمر ، والطيور تبنى عشها بنفس الطريقة ومن نفس المواد ، التى كانت تبنى عشها منها منذ ملايين السنين . ومن هنا يبدأ الفارق بين الإنسان وبين سائر مافى الكون من كائنات ، بينه وبين الشمس والقمر وبقية النجوم ، فهى كلها ثابتة على حالها مذ كانت على صورتها الحالية ، أما الإنسان فهو المخلوق الوحيد فى هذا الكون الذى يأبى إلا أن يغير شكله من يوم لآخر ، بل ومن ساعة لأخرى إذا لزم الأمر . أو لم تر إلى هؤلاء الرجال الذين يلبسون فى الصباح زيا غير زى المساء ، وهؤلاء النسوة اللواتى قد يبدلن أزياءهن فى اليوم الواحد بضع مرات ؟ . فالإنسان يأبى أن يستقر على حال ، ويعتبر ذلك جموداً لايليق به . قارن بين الإنسان حين كان يعيش بين أوراق الشجر ، وهذا الإنسان الذى أصبح يعيش فى ناطحات السحاب ، بكل ماتحويه من مصاعد كهربائية وأنابيب للغاز والماء . قارن بين هذا الإنسان الأول وهو يحاول أن يعبر بعض القنوات أو مجارى الماء فوق قطعة طافية من الخشب ، وبين هذا الإنسان الذى يعبر الآن المحيطات فى هذه المدن العائمة ، التى تغص بالفنادق والمسارح والملاعب . قارن بين الإنسان وهو يعدو على قدميه ، كأسرع وسيلة للمواصلات وبينه اليوم وهو يسابق الريح والصوت ويسعى للحاق بسرعة الضوء ، تعرف أين يكمن الفرق الحقيقى بين الإنسان والحيوان ، فحيث كل مافى الكون من كائنات يلزم صورة معينة لايعدوها ، إلا تحت تأثير سبب خارجى ، نرى الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتغير بدافع من داخله ، بقوة عاملة فى نفسه ، بما نسميه إرادته ، الإرادة الحرة المختارة .

وبهذه الإرادة يبدع الإنسان مالم يكن موجوداً فى الطبيعة من قبل . هذه القدرة على الإبداع والخلق هى مظهر العقل الأكبر .

ويقول البعض إن هذا العقل هو آخر تطورات المادة وصورها ، أى أنه جاء حين من الدهر لم يكن للإنسان هذا العقل ، ولقد رأينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، كيف أن قدرة الإنسان على الخلق والابتداع قد صاحبته مذ كان إنسانا . لو لم يكن الإنسان مزوداً بهذه القدرة ، لما استطاع أن يخترع الكلام ، واللغة والآلات والنار والزراعة ، فمحال أن نتصور الإنسان فى أى لحظة من تاريخ حياته ، غير خالق أو مبتكر ، وإلا كان شأنه شأن أى حيوان آخر لايستطيع أن يخرج على الصورة التى هو عليها من الضعف أو العجز أو القصور .

فوهم أن يتصور متصور أن عقولنا اليوم أكمل من عقول إنسان ماقبل التاريخ ، أو أن عقولنا اليوم قاصرة بالنسبة لعقول من سيجيئون بعدنا ، فالعقل جوهر واحد لايقبل الزيادة أو النقص ، فإما أن يكون هناك عقل أو لايكون ، ولقد وجد العقل بكماله مذ كان الإنسان إنساناً .

الأقدمون والعقل

والعقل عند الأقدمين لم يكن يؤلف مشكلة ، فهو أحد مظاهر الروح التى هى قبس من الله ، والعقل كالروح شىء يغاير المادة ، فهو لايتحيز فى مكان وهو يعلو على الزمان والمكان . ولقد بلغ من تكريم علماء المسلمين للعقل ، أن إماما عظيما كالغزالى ، لايتردد فى نسبة حديث إلى رسول الله فى تعظيم العقل ، مع أن علماء الحديث قد شكوا فى صحة نسبة هذا الحديث إلى رسول الله ، يقول هذا الحديث « أول ماخلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال الله وعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً أكرم على منك . بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب » .

ويضيف الطبرانى فى روايته للحديث « بك أعرف وبك أحمد وبك أطاع »[1] .

وأحسب أن ليس وراء ذلك تكريم للعقل البشرى ، ولاعجب أن كان ذلك موقف أئمة المسلمين ، فالقرآن الكريم من أوله إلى آخره إشادة بالعقل البشرى .

وجاءت النظريات المادية تحاول أن تهدم العقل ، كظاهرة تختلف فى طبيعتها عن المادة ، وقد كان ذلك هو النتيجة الطبيعية لإنكارهم الروح من قبل ، وأصبح الرأى أن المخ البشرى هو العقل ، والمخ هو هذه الكتلة المعروفة من المادة الحية ، والتى نجدها عند كل الحيوانات الراقية ، فهو أحد مظاهر تطور المادة الحية ، وقد راح يتعقد ويتعقد ، حتى إذا وصل إلى درجة معينة من التعقد ، انبثق منه هذا العقل الإنسانى الذى أصبح ينفرد بالقدرة على التفكير والابتداع والاختيار .

وعندهم أن عمليات الفكر والتصور والتذكر والتخيل والإرادة ، ليست إلا تفاعلات كيمائية أو كهربية من نوع ما . والتعلم هو عملية تسجيل للمعارف التى يحصلها الإنسان على خلايا المخ ، كما تسجل الأصوات والصور على أشرطة التسجيل وأفلام السينما ، وما الاستذكار والفكر إلا إعادة هذه الانطباعات والتسجيلات المخزونة فى خلايا المخ وتلافيفه ، التى يربو عددها على ملايين الملايين من الوحدات .

---

(١) الإحياء للغزالى الجزء الأول — ص ٨٢ والحديث معدود لدى الفقهاء من الأحاديث الضعيفة ، وهو يروى بصيغة أخرى ليكون أكثر قبولا بإبدال كلمة أول بلما ، بحيث يصبح نص الحديث « لما خلق العقل » . وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » أن بعض المستشرقين يرجعون هذا الحديث إلى أصل أفلاطونى — ص ٢١٩ .

أما أن عمليات التفكير هى لون من ألوان تفاعل المادة على أى صورة من الصور ، فهذا ما أثبت العلم التجريبى فساده وبطلانه ، ذلك أن كل تفاعل فى المادة ، معناه حدوث تغير فى طاقتها بالنقص أو الزيادة ، وقد أصبح لدى علماء السلوك المعاصرين أجهزة دقيقة وحساسة إلى الحد الذى يجعلها قادرة على تسجيل حركة الكترون واحد ، وقد أمكن أن يسجل بهذه الآلات التغيرات التى تطرأ على المخ ، عندما يقوم الإنسان بأى حركة مادية كتحريك أصبع أو ثنى ورقة ، كما سجلت هذه الآلات كذلك التغير الذى يطرأ على المخ ، لدى حصول أى انفعال يطرأ على الإنسان مهما يكن طفيفا ، الأمر الذى أثبت بطريقة جازمة أن جميع حركات الإنسان وانفعالاته هى تفاعلات مادية بالفعل ، ولكنهم عند ما حاولوا أن يقيسوا النشاط الفكرى بنفس الأسلوب ، لم تسجل الآلات أى تغير فى المخ مهما يكن التفكير عنيفا ، فلا حل المعضلات الرياضية ، ولا إطلاق الخيال على سجيته قد سجل أى قدر من الطاقة ، الأمر الذى جعل الكثير من العلماء ينبذون هذا الرأى الفطير ، من أن العقل ضرب من ضروب المادة كما سنرى بعد قليل . على أن بعض العلماء أصروا على الرأى القديم ، قائلين إن عجز الآلات الحالية عن تسجيل أى تغير فى الطاقة عند التفكير ، لا يعنى أن ذلك لن يكون فى قدرتنا فى المستقبل القريب أو البعيد ، عند ما يتاح لنا صنع آلات أدق . وقد كان من الممكن أن تظل هذه الحجة قائمة إلى ما شاء الله دون أن يستطيع الإنسان دحضها ، فتعليق حل أى قضية على المستقبل يخرجها على التو من ميدان البحث ، ولكن من حسن الحظ أن العقل البشرى نفسه قد تولى الإجهاز على مادية الفكر بما لا يحتاج الأمر فى إثباته إلى الآلات الموجودة حاليا ، أو التى يمكن أن توجد فى المستقبل .

وقد كان الفضل فى هذه الناحية للفيلسوف الفرنسى برجسون ، الذى

كان من أوائل الذين تصدوا لدحض مادية الفكر عن طريق العمل والتجريب . فقد راح خلال عشرين سنة يلاحظ المصابين (بالأفزيا) ، أى بأمراض الذاكرة والكلام ، نخرج من ملاحظته بالحقائق القاطعة بأن العقل لا يمكن أن يكون عملية مادية على أى وجه من الوجوه ، وفى ذلك يقول « يتفق حيث يكون الفساد الدماغى خطيرا ، وحيث تكون الذاكرة اللفظية مصابة إصابة بليغة أحيانا ، أن ترجع فجأة الذاكرة التى بدا أنها فقدت فجأة . وذلك على أثر تنبيه قوى بعض الشيء ، كانفعال مثلا . فهل كان يمكن ذلك لو أن الذكرى موضوعة فى المادة الدماغية التى فسدت أو تلفت ؟ الواقع أن الأمور تجرى كما لو كان الدماغ يفيد فى التذكير بالذكرى لا بالاحتفاظ بها »[1]

ومضى العلماء بعد برجسون فى هذا الطريق الذى سلكه ، إلى أن جاء التطور الجراحى فى عمليات المخ ، فإذا بالحقيقة تتضح نهائيا من خلال التجربة ، فقد أجريت عمليات جراحية لبعض الأشخاص حيث استئصلت فيها أجزاء هامة من أمخاخ بعض المرضى [2] ، فإذا هم بعد هذا الاستئصال يذكرون ما لم يكونوا يذكرون ، ويفكرون بخير مما كانوا يفكرون . فلو كانت خلايا المخ هى مخزن الذكريات ، لوجب أن تنقص الذاكرة بمقدار ما نقص من المادة المخية لا أن تزيد ، ولو أن الفكر تفاعلات كيمائية لوجب أن يضعف بإنقاص المادة المتفاعلة لا أن يقوى .

واليوم يعتبر القول بأن المخ هو العقل ، مظهرا من مظاهر الجهل والسوقية العلمية والفجاجة ، والرأى العلمى المتفق عليه اليوم ، أن المخ هو الجهاز الذى يستخدمه العقل لمزاولة قدرته ، ولكن المخ لا يمكن أن يكون العقل نفسه ، إنه مركز التوصيلات التلفونية (السنترال) الذى لا يمكن

---

(١) الطاقة الروحية ص ٤٦ .

(٢) مدخل إلى علم النفس الحديث ص ١٥٥ .

أن تتم مكالمة تلفونية إلا عن طريقه ، ولـكنه ليس المتـكلم نفسه .

يقول ألـكسيس كاريل « ما هو الفكر ، ذلك الـكائن العجيب الذى يعيش فى أعماق ذاتنـا دون أن يستهلك أى قـدر قابل للقياس من النشاط الـكيمائى ؟ هل يتصل بأشـكال النشاط المعروفة ؟ ألا يمـكن أن يـكون هو منظم الـكون ، وإنه بالرغم من تجاهل الأطبـاء له ، أهم من الضوء ، قطعا ؟

هل هو نتاج الخلايا العقلية ، كما ينتج البنكرياس الأنسولين والـكبد الصفراء ؟ وهل يحتوى على نوع من النشاط يختلف عن ذلك الذى يدرسه الأطباء ؟ ويعبر عن نفسه بقوانين أخرى وتولده خلايا الغشاء المخى ؟ أم يجب اعتباره كائناغير مادى يوجد خارج الفراغ والزمن ، خارج أبعاد العالم الـكونى ، ويدخل فى مخنا بطريقة مجهولة لنا ؟ »[1] .

إن كتاب الـكسيس كاريل كله هو رد على هذا السؤال بالإيجاب ، فالعقل عنده شىء غامض مجهول ، ولـكن الأمر المحقق عنده ، أن العقل « أعظم قوة فى الوجود » .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه النفيس (وحدة المعرفة) :

« من المستحيل تفسير الذاكرة أو الحب أو الضمير على أنها نتيجة تغييرات كيمائية أو فيزيائية فى المخ ، فهذه لا يمكن أن تبلغ من الدقة إلى الحد الذى يكون فيه لـكل فكرة أو إحساس معنوى ، مادة كيمائية خاصة أو ضغط كهربى خاص . ثم إن الأعمال العقلية العنيفة لم يصحبها زيادة فى استهلاك الاوكسجين ، مما يدل على أن العمليات العقلية ليست كيمائية . ومن المستحيل أن نتصور إنشاء سفر جميل على أنه عمل كيمائى فيزيائى ،

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٤٧ .

لذلك كان حتما على العلماء أن ينبذوا الرأى القائل إن تركيب المخ هو أصل وظيفة العقل[1] » .

وأخيراً نختتم بقول شرنجتون ذلك الذى اقتبسنا منه كثيراً باعتباره من أئمة علماء الطبيعة الماديين :

« لقد أصبح بقدرة العلم الطبيعى أن يفسر الحياة باعتبارها تنفساً وحركة ونمواً وتوالداً وتحليلا للأغذية فى الأنسجة ... الخ ، ذلك أنه لا يوجد شىء من هذه الظواهر لا يقع تحت سلطان العلم ، إنها كيمائيات وطبيعة . ولكن هذا الشىء الآخر المصاحب للحياة وهو الفكر ، فإنه يهرب من دائرة العلم الطبيعى ويظل بعيداً عنه ، حتى لقد بدأ العلم الطبيعى يتجاهله باعتباره شيئاً يخرج عن دائرة بصره ، وبهذا نشأ فارق أساسى بين الحياة والعقل ، فالحياة موضوع للكيمياء والطبيعة ، أما العقل فيهرب منها ، بحيث يمكن تلخيص الإنسان فى أنه يتألف من : طاقة وعقل » .

وعبثا نمضى فى نقل ما انتهى إليه جمهرة علماء الطبيعة الماديين ، وعلماء الحياة الذين أعلنوا إفلاس قوانين المادة ونواميسها فى تفسير العقل الإنسانى ، وما انتهوا إليه من أن العقل الإنسانى ظاهرة تستعصى على الإدراك .

وعلى أية حال فأيا كانت طبيعة العقل ، وهل هو أحد ظواهر المادة ،

---

(١) على أن الدكتور محمد كامل حسين لايلبث أن يقرر أن علم الايلكترونات قد يفسر عمل الذاكرة فى المخ ولكنه يعود ليستدرك : « وأكرر هنا أننا لانقول بأن عمل المخ الكترونى خالص من نوع الشريط المسجل ، فإننا لا نعلم كثيراً عن الأيلكترونات الخاصة بالمواد العضوية عامة وبمادة الخلايا العصبية خاصة » (ص ١٤٠) .

وعندنا إنه لا جديد فى تفسير الذاكرة تفسيراً آليا من أى نوع كان ، فإن الصعوبة ليست فى الذاكرة ، ولكنها فى المخيلة التى تبتدع شيئاً جديداً لم يسبق له وجود فى الذاكرة ، والذى قلنا فى الفصل الرابع إنه قد يكون تنبؤا بشىء سيكون فى المستقبل ، فأى دور يمكن أن تلعبه الايلكترونات فى ذلك ؟ ؟ !

أم هو شيء يعلو عليها ، فالأمر الذي لم يعد عليه أي خلاف ، هو أن اتصاف الإنسان بالعقل قد جعله أرقى ما فى هذا الكون من كائنات ، وهو أمين الطبيعة على تطورها . يقول جوليان هكسلى أحد غلاة الماديين :

« إن للإنسان عقلا وشخصية لا نظير لهما ، وهما من أرقى ما أنتجه التطور حتى الآن . والإنسان هو المثل الفذ للحياة وأمينها على كل تقدم فى المستقبل[1] .

أليس ذلك عوداً من الباب الخلفى لما قيل قديماً من أن الإنسان ظل الله على الأرض وخليفته ، وحامل أمانته ؟ .

إنه الإنسان[2]

ليس الإنسان إذن كما زعم الزاعمون من علماء القرون الثلاثة الماضية ، ممن فتنوا بالمادة وآلية الطبيعة ، هو هذه الهباءة الهائمة فى هذا الكون اللانهائى ، وإنما هو حيث عرف نفسه منذ أقدم العصور مركزاً للكون ومستودعاً للعقل الخلاق الذى يعلو على الزمان والمكان .

أما أنه مركز هذا الكون فيؤيده بالدليل والبرهان ، أنه يقع فى الوسط تقريباً بين الذرة والنجم ، فلكى نبنى إنساناً فنحن فى حاجة إلى ١٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ذرة ، ولكى نبنى نجماً فنحن فى حاجة إلى عدد من أجسام البشر يساوى هذا الرقم تقريباً[3] أو $١٠^{٢٨}$. » .

ولعل هذا التوسط فى الحجم بين الذرة والنجم ، هو مايجعله أكثر قدرة

(١) الإنسان فى العالم الحديث ص ٣٧ .
(٢) اقرأ بهذا العنوان الكتاب الرائع للأستاذ خالد محمد خالد « إنه الإنسان » .
(٣) الإنسان فى العالم الحديث ص ١٤٦

على رؤية مايعلوه وما يسفله ، ولم يكن الإنسان متجنياً عندما جعل من نفسه أداة القياس ، وأعطى لنفسه الحق فى الحكم على الأشياء بالكبر والصغر ، ولم يكن بمحض الصدفة أو بدون مغزى أن جعل الإنسان الفضيلة وسطاً بين طرفين ، وأصبح خير الأمور عنده ما كان فى الوسط .

والكلمة الآن لكل إنسان على حدة ؛ إن شاء نظر إلى نفسه كذرة من التراب لا حول لها ولا طول ، وإن شاء ارتفع بنفسه إلى فوق النجوم ، بما أودع فيه من عقل خلاق وإرادة نافذة ، وقد حان الوقت لندخل فى صميم نظريتنا وهى ، قدرة الإرادة الإنسانية على فعل ما تشاء فى هذا الكون .

مراجع خاصة بالفصل الخامس

٦٢ — تاريخ الأرض — چورج چامبو أستاذ الطبيعة بجامعة چورج واشنطون تعريب محمد أبو شلباية .

٦٣ — علم الأحياء — كتاب مدرسى .

٦٤ — محاورات رينان الفلسفية — للأستاذ على أدهم .

٦٥ — الوراثة والسلام والمجتمع — تأليف ل . س ودوبزهانسكى ترجمة عز الدين فراج .

٦٦ — هذا الإنسان — للدكتور حبيب صادر (من سلسلة كتب اقرأ) .

٦٧ — فى علم النفس — تأليف الأساتذة حامد عبد القادر — محمد عطية الابراشى — محمد مظهر سعيد .

٦٨ — الجانب الإنسانى عند الحيوان — تأليف فانس باكار — ترجمة سعد غزال .

٦٩ — الطاقة الروحية هنرى برجسون — ترجمة سامى الدروبى .

٧٠ — الإحياء — للغزالى .

٧١ — التراث اليونانى للحضارة الإسلامية — الدكتور عبد الرحمن بدوى .

٧٢ — العلم والحياة — تأليف عز الدين فراج .

٧٣ — الصعود إلى المريخ — الدكتور محمد جمال الدين الفندى .

٧٤ — مدخل إلى علم النفس الحديث — ا . ل . زانجويل ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

٧٥ — The physical Basis Of personality By V.H.Mottram.

٧٦ — The Human Machine By Sir Adolphe Aprahams.

٧٧ — Man on his Nature By Sir Charles Sherrington.

٧٨ — Beyond the Microscops By Kenneth M. Smith.

مراجع سبقت الإشارة إليها

— وحدة المعرفة للدكتور محمد كامل حسين .

— مبادىء علم النفس — الدكتور يوسف مراد .

الفصل السادس

الإرادة الإنسانية

انطواء الانسان على الارادة الخالقة — انكار الارادة الانسانية — الجبر والاختيار — المسلمون الأوائل وكيف فهموا الارادة الانسانية ـ علماء السلوك ونفى الارادة الانسانية ـ أعمال الانسان الالية والمنعكسة والارادية ـ الارادة تعمل من خلال الصور ـ شروط تحقق الهدف ـ الضروورة ـ الوحدة ـ الغاية تبرر الواسطة ـ الثبات أو التركيز ـ كيفية تحقق الارادة ـ نفاذ الارادة الانسانية أحد قوانين الطبيعة ـ الارقام القياسية فى الرياضة ولماذا تكسر دائما ـ المواهب ـ لاعبو السيرك ـ اتباع اليوجا ـ من ديموستين حتى بتهوفن ـ هيللين كيللر ـ عجزة يتحولون الى ابطال عالميين فى الرياضة ـ العقبات الاجتماعية لاتحول دون الوصول الى القمة ـ جوستنيان وتيودور ـ نابليون وجوزيفين ـ هتلر وايفا براون ـ كايمنت السابع ـ الاحوال التى لاتنفذ فيها ارادة الانسان ـ الاصطدام بالنواميس الطبيعية ـ أحوال القضاء والقدر ـ اصطدام الارادات البشرية ـ هل للجماعة ارادة أقوى من ارادة الفرد ؟ ـ تلخيص

انتهينا فى الفصل السابق إلى أن الإنسان ، هو الكائن الوحيد فى الطبيعة المزود بقوى العقل ، وأن مظهر هذه القوة العقلية إنما يتجلى فى الدرجة الأولى ، فى قدرة الإنسان على الخلق والإبداع ؛ إذ يوجد شيئاً لم يكن موجوداً من قبل ، وما كان ليوجد لو لم يوجده الإنسان ، وما الفنون بموسيقاها وأغانيها والرسم والتصوير والنحت والشعر والقصص ، والعلوم والفلسفة بنظرياتها وفروضها وتجاربها ومحاولاتها ، والصناعات بآلاتها ومنتجاتها ، وطرق تنظيمها ، والاختراعات كلها إلا آية هذا الخلق والإبداع الذى انفرد به الإنسان عن سائر الكائنات .

ولقد قلنا من قبل ونقول ثانية ، إن هذه القدرة على الخلق والابتكار هى النتيجة الحتمية لتمتع الإنسان بحرية الاختيار ، إن شاء سار فى هذا الطريق

أو ذاك ، إن شاء أقدم على عمل من الأعمال أو كف عنه ، هذه الحرية فى الاختيار هى ما يعبر عنها بالإرادة .

واتصاف الإنسان بالإرادة مسألة مسلم بها من سائر البشر ، فما من إنسان إلا ويحدثك عما أراده ويريده من نفسه ، ومن أولاده وممن حوله ومن الأيام ومن الطبيعة ومن الله . إذا تحدث الإنسان فبإرادته يتحدث ، وبقدرته فى كل وقت وآن أن يصمت ، وإذا تحرك فبإرادته يتحرك ، لأن باستطاعته دائما أن يسكن ، وإذا تعامل مع الناس فبإرادته يتعامل ، بإرادته يبيع ويشترى ويقترض ويقرض ويودع ويوصى ويهب ، ومهمة القانون فى كل زمان ومكان إمضاء إرادة الإنسان ، فإذا تعاقد مع آخر نفذ عقده ، إذا كان ذلك هو ما أراده الطرف الآخر كذلك . وإذا قتل إنسان آخر عامدا ، فنحن نعاقبه على إرادة إزهاق الروح ، أما إذا حدث ذلك عن غير عمد أو قصد ، فنحن لا نحاسبه إلا عن إهماله ، بمعنى عدم استخدام إرادته فى الأخذ بأسباب الحيطة . وعندما يتعمد إنسان أن يقتل آخر ، فيطلق عليه الرصاص أو يدس له السم ، ولكن الجريمة تخيب لأسباب خارجة عن إرادته ، فنحن نعاقبه على الشروع ، نعاقبه على إرادته الشر الذى إذا كان لم يتحقق ، فلأسباب خارجة عن هذه الإرادة[1] .

فإرادة الإنسان باعتبارها أساس كل نشاط يصدر عن الإنسان ، مسألة مقررة يجمع عليها البشر ويحسها كل إنسان من نفسه ، ويشكو لانعدامها أو ضعفها فيه ، سواء بسبب داخلى أو سبب يأتى من الخارج . وما من إنسان إلا ويتمرد فى وقت من الأوقات على ما يعتبره إهداراً لإرادته ، وكم من الناس لاقوا حتفهم لا لشىء ، إلا لرغبتهم فى الإفصاح عن إرادتهم ، وكم من

---

(١) مادة ٤٥ من قانون العقوبات .

أناس يكفرون بالله وبالحق وبالفضائل كلها ، بل ويرتكبون أشنع الجرائم ، لا لشيء إلا لإعمال إرادتهم والتحدى بهذه الإرادة .

إنكار الإرادة الإنسانية

وقد وجدنا دائما بين البشر ، سواء من آمن منهم بالله خالقا لهذا الكون متصرفا فيه ، أو الذين لا يعرفون غير الطبيعة إلها خالقا ، من ينكرون أن يكون للإنسان إرادة حرة مختارة ، فالله عند المؤمنين هو خالق كل شيء ، وصانع كل شيء . وقد خط فى اللوح المحفوظ منذ الأزل أعمال العباد صغيرها وكبيرها ، خيرها وشرها . والقول بغير ذلك كفر وتجديف وإشراك بالله . وقد انتهى علماء المادة والطبيعيون بصفة عامة ، إلى مثل هذا القول . فكل شيء فى الطبيعة بما فى ذلك أعمال الإنسان ، تتم بحتمية لا سبيل للفكاك منها ، وأصبح القول بحتمية التاريخ والعمل على أساس هذه الحتمية ، هو ما يدعو إليه كل معتنق الشيوعية .

والحق أن هذه المشكلة التى صدعت العقل البشرى مذ كان الإنسان إنسانا ، ولا تزال تصدعه ، من المشكلات المستعصية على الحل فيما يبدو ، باعتبارها تتصل بسر الوجود الذى هو لغز الألغاز . فلا الفلسفة بكل حولها وطولها ، وكل الحرية فى التفكير التى منحتها لنفسها ، ولا العلم بكل ما وصل إليـــه من تقدم ، قد استطاع أن يمضى بنا خطوة واحدة نحو استجلاء هذا السر الرهيب . بل إن الأديان نفسها التى تحدثت عن طريق الوجدان والمشاعر ، لم تستطع بدورها أن تحسم هذ القضية ، بما لا يدع معها مجالا للمناقشة ، حتى من وجهة نظر التسليم المطلق . فالكتب السماوية كلها تتضمن من النصوص ما يوحى بهذه الفكرة أو تلك . فالإنسان طبقا لتعاليم هذه الكتب ، مدعو للقيام بأعمال معينة ، ومنهى عن القيام بأعمال معينة ، وهو موعود بالمكافأة إذا هو قام بالأعمال الأولى ، مهدد بالعقاب

والعذاب إذا هو قام بالأعمال التى نهى عن فعلها . وذلك لا يستقيم ولا يمكن أن يكون مفهوما بحال من الأحوال ، إلا على أساس أن يكون الإنسان حرا مختارا فى كل ما يقول أو يفعل ، إن شاء آمن وإن شاء كفر ، والقول بغير ذلك لا يجعل هناك أى معنى للعقاب أو الثواب ، أو التحدث عن الجنة لمن أحسن عملا ، والنار لمن أساء عملا ، فمن العبث ومما يتنافى مع العدل الذى لا يمكن إلا أن يكون أخص خصائص الله ، أن يعاقب الإنسان على عمل لم يقع بإرادته ، وإنما كان مفروضا عليه فرضا ولا يستطيع عنه حولا . وفى هذا المعنى يقول الإمام الغزالى « واعلم أن من ظن أن الله تعالى قد أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمر ونهى ، ووعد وتوعد لغير قادر مختار ، فهو مختل المزاج يحتاج إلى علاج »[1] .

النصوص التى تشير إلى حرية الانسان

على أن القول بحرية الإنسان وإرادته فيما يفعل ، لا يقف عند حد أنه يستنتج استنتاجا من كون الإنسان مكلفا ، والتكليف والمسئولية لا يكونان إلا حيث تتوافر الإرادة الحرة ، ويفيض القرآن الكريم بعشرات من الآيات التى تبرز هذه الإرادة الإنسانية وتؤكد قيامها ، واقرأوا إن شئتم :

— وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (الكهف — ٢٩)

— إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . (الرعد — ١١)

— من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب . (الشورى — ٢٠)

---

(١) القضاء والقدر لعبد الكريم الخطيب ص ١٦٠ . وقد كان هذا هو رأى المعتزلة جميعاً الذين أعلوا من شأن العقل فى القرن الثانى للهجرة .

— وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى — (النجم — ٣٩ — ٤١) .

— لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (البقرة — ٢٨٦) .

— ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (الإسراء — ١٥) .

وهكذا تنهمر الآيات التى تتحدث عن إرادة الإنسان ومشيئة الإنسان ، وأنه مجزى بأعماله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، بغير ظلم أو إجحاف ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

ومن ناحية أخرى فقد حوى القرآن نصوصاً تمسك بها القائلون بأن ليس للإنسان إرادة فيما يفعل :

— وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (التكوير — ٢٩) .

— ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها (الشمس ٧ ، ٨)

— فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء (فاطر ٨) .

— وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (الأنفال ١٧) .

— الله خالق كل شيء — (الزمر ٦٢) .

ومن هنا افترق متكلمو المسلمين وفلاسفتهم أشد ما يكون الافتراق ، واشتد الصراع بينهم ، وكل فريق منهم يكفر الآخر ويتهمه بالزيغ والزندقة والإلحاد . وبحسب الإنسان أن يطالع أحد الكتب التى تعرضت لهذه الآراء المختلفة بالمناقشة والتمحيص ، ككتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزم أو الملل والنحل للشهرستانى ، لكى لا يتمالك الإنسان أولا من الإعجاب لهذا المستوى الفكرى الرفيع الذى وصل إليه المجتمع الإسلامى

فى ذلك الوقت ، وكيف استطاعوا أن يعالجوا هذه الأمور ، التى تبدو للكثيرين منا فى العصر الحديث شائكة ، بكل هذه الحرية وسعة الأفق .

أما الأمر الثانى الذى يخرج به الإنسان من مطالعة هذه المناقشات والمساجلات ، فهو أن جميع من اشتركوا فيها ، لم يسلموا من الوقوع فى التناقض . فهذا ابن حزم نفسه وهو من الذين شنعوا وأغلظوا على كل من يقول إن الإنسان يخلق أعماله ، لانلبث أن نراه يقرر حرية الإنسان واختياره فيما يفعل « فإن قيل فهو مختار لما يفعل قلنا نعم اختياراً صحيحاً لا مجازاً ، لأنه مريد ، لكونه منه محب له مؤثر على تركه ، وهذا معنى لفظة الاختيار على الحقيقة ، وليس مضطرا ولا مجبرا ولا مكروها »[1] .

فلاسفة المسيحيين وعلماؤهم

ولا يظنن ظان أن هذا الخلاف فى طبيعة أعمال الإنسان ومصدرها ، وقف على مفكرى المسلمين ، بل لقد ثار هذا النقاش لدى المسيحيين فى العصور الوسطى ، كما نراه لدى علماء اليهود وأحبارهم ، ولعل القول بأن أعمال الإنسان هى كلها من عمل الله مباشرة ، قد وجد فى مالبرانش الفيلسوف الفرنسى (١٦٣٨ — ١٧١٥) أعظم نصير ومدافع بلغ به التطرف إلى حد أن يقول : « لاتوجد سوى قوة واحدة هى التى خلقت العالم وهى التى تدبره ، فإذا ما تخيلت يدى تدفع حجرا ، فليست يدى هى التى دفعته ، بل دفعه الله ، وإذا مارميت سهماً فليست يدى التى نزعت القوس بل الله ، بل إذا حركت ذراعى فليست إرادتى علة الحركة بل الله الذى يحرك ذراعى ويرسل ساقى ويفتح أجفانى ويطلق لسانى بالكلام »[2] .

---

(١) الفصل فى الملل والنحل — الجزء الثالث — ص ٥٣ .

(٢) الواجب — جول سيمون — ترجمة محمد رمضان وطه حسين .

وأعيذ نفسى من أن أتصور أن بقدرتى أن أحل هذا الإشكال المستعصى ، وهو على كل حال لا يمكن أن يحل عن طريق التمسك بهذا النص أو ذاك ، فقد رأينا مدى مايمكن استخلاصه من معان متعارضة ، وعلى كل إنسان أن يحل هذه القضية على ضوء ما يحسه من أمر نفسه .

فأحياناً يرى الإنسان نفسه مسوقاً للقيام بأعمال ينكرها ، ومع ذلك فهو يقدم عليها دون أن يكون بقدرته دفعها أو الامتناع عن عملها ، وهناك أمور أخرى يرى الإنسان فيها نفسه يختار بين أمرين أو ثلاثة أمور أو أكثر أو أقل ، ثم يرجح أحد هذه الأمور ، يرى الإنسان من نفسه أنه قد يتصرف اليوم فى أمر ، ثم يتصرف فى اليوم التالى فى نفس هذا الأمر ، تصرفاً يغاير تصرفه بالأمس . يرى كل إنسان من نفسه أنه يندم على بعض الأعمال ، ويجاهد نفسه على عدم الإقدام عليها ثانية ، فينجح أحياناً ويفشل أحياناً أخرى ، فيحس بالسعادة إذا نجح ، ويعزو ذلك لقوة إرادته ، ويحزن إذا فشل ، وينعى على نفسه ضعف الإرادة .

وإذا كان الله الخالق قد وضعنا موضع المسئولية ، وأرسل لنا الرسل ، وبعث لنا بالكتب التى تخاطب عقولنا ، وتستثير فينا وجداننا ، وتحاول إقناعنا عن طريق المنطق والدليل العقلى والبرهان ، إلى السير فى طريق الخير وتجنب طريق الشر ، فمن العبث أن نضع أنفسنا دون ماأراد الله لنا من مكانة ، فننفى عن أنفسنا الإرادة وبالتالى المسئولية ، ونرتكب الجرائم زاعمين أنها بكل ما فيها من فظائع هى من عند الله ، ونؤذى أنفسنا والآخرين عن عمد ، ثم نزعم أن الله هو مصدر الإيذاء .

الحق أن الطريق المفتوح أمام أى إنسان مؤمن بالله أشد الإيمان ، وغارق فى التدين حتى الأذقان ، هو أن يمارس المسئولية التى عهد الله بها

إليه ، معملا إرادته فى كل مايعرض له من أمور ، مؤمنا أشد الإيمان بأن ماوقع منه بإرادته واختياره ، فهو من عمله وصنعه هو ، وعليه أن يتحمل مسئوليته .

وإذا كان هذا هو مايجب أن يكون عليه موقف المؤمنين بالله ، فأولى به أن يكون هو موقف الذين لايؤمنون بغير الطبيعة ، فالإرادة الإنسانية ليست سوى الطبيعة ، فعلى الإنسان أن يعمل هذه الطبيعة طبقاً لما يشاء ويختار .

علماء النفس السلوكيون والارادة

وإذا كان بعض المؤمنين بالله ينكرون أن يكون للإنسان إرادة فيما يقول أو يفعل ، فهم فى نهاية الأمر لاينكرون الإرادة من أساسها ، وإنما ينفونها عن الإنسان ويثبتونها لله ، وهم بذلك لايضعون حداً على قدرة الإنسان مادام الذى يقوم بأفعاله هو الله .

ولكن هناك من الناحية الأخرى بعض علماء النفس المحدثين ، ممن أطلق على مدرستهم اسم المدرسة السلوكية ، ذلك أنهم يدرسون سلوك الحيوان ثم يطبقونه على الإنسان ، يقول أصحاب هذه المدرسة : إن « الإرادة الإنسانية » هى نوع من لغو الكلام أو هى وهم لاحقيقة له ، ولاضرورة لها لتفسير أعمال الإنسان وتصرفاته ، وبالاستطاعة تحليل أعمال الإنسان بغير حاجة لاستعمال هذه القوة الغامضة ، التى لاتعرف لها مكاناً فى جسم الإنسان أو مستقراً .

فالكائن البشرى لا يعدو أن يكون آلة مهيأة بصفة خاصة ، لتحويل الطاقة من صورة لأخرى ، فنحن نستمد الطاقة من الطعام الذى نأكله ، ومن المنبهات التى تنبه أعضاء الحس لدينا ، كما أننا نطلق الطاقة فى كل ما نقوم به من أفعال .

والكائن الحى ينمو فى رحم أمه طبقاً لقانون معلوم كما رأينا ، ثم يولد مجهزاً بميول معينة ، ودوافع تنحدر إليه من طريق الوراثة عن أبويه والجنس البشرى بصفة عامة ، ومن شأن هذه الميول والدوافع والاستعدادات التى فطر عليها الإنسان ، أن تجعله يستجيب لمنبهات أو مؤثرات تقع داخل جسمه أو خارجه ، فتؤثر هذه المنبهات على أعضاء الحس المنتشرة فى أنحاء الجسد وعلى سطحه ، للإحساس بكل صنوف المؤثرات من مرئيات ضوئية ، أو مسموعات صوتية ، أو مشمومات أو مطعومات أو ملموسات ، فلا يكاد يقع واحد من هذه المنبهات المختلفة حتى تنطلق طاقات أعضاء الحس الكائنة فيها ، فتنتقل عبر أعصاب الحس إلى أن تصل إلى الجهاز العصبى المركزى[1] .
ويطلق السلوكيون على هذا الجهاز العصبى المركزى اسم « المعدلات العصبية » ؛ لأن الطاقة الإحساسية التى تصل إليه ، تتحول فى هذا المركز إلى طاقة حركية ، وتعدل قوتها إلى القدر المناسب لإحداث الحركة المطلوبة ، فإذا ماتم التحويل والتعديل انطلقت الطاقة الحركية عبر الأعصاب الحركية ، فتتحقق الاستجابة المطلوبة للمنبه الذى حدث . ويطلق على هذه العملية اسم القوس المنعكس ، وتتم أعمال الإنسان إما بقوس منعكس بسيط ، أو بسلسلة من الأقواس المنعكسة .

ويلخص واطسون عقيدة السلوكيين فى العبارة المشهورة عندهم :

« إذا عرف المنبه أمكن التنبؤ بالاستجابة[2] » فليس هناك شىء اسمه إرادة إنسانية ، وليس هناك فكر أو حرية أو اختيار ، وإنما أعمال آلية بحتة تتم بقوة الانعكاس .

---

(١) راجع ص ٢٠٨ .
(٢) ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية — الجزء الأول — ص ٤٣٧ .

وعندنا أن ليس هناك ما يؤكد انطواء الإنسان على الإرادة ، من هذا الذى انتهى إليه السلوكيون بعد التجارب المضنية والأعمال الباهرة التى يراها الإنسان مشروحة فى كتبهم . ففى عالم الجماد والمادة ، يحدث المحرك دائماً نفس الحركة فى الجسم المتحرك ، أما بالنسبة للإنسان فالسلوكيون لا يمارون فى أن المحرك لا يحدث دائماً نفس الأثر فى الإنسان ، فقد يوجد المحرك فلا يتحرك الإنسان ، وإذا تحرك فقد تكون الحركة إقداماً أو إحجاماً ، أى سلبية تارة وإيجابية تارة أخرى ، وهكذا لا يصدق على الإنسان ما يصدق على الجماد ، وهذا ماحدا بهم إلى استعمال كلمة المنبه بدلا من كلمة المحرك ، تمييزاً للمؤثر الذى يؤثر على الإنسان من المؤثرات على غيره من الموجودات .

الفعل ورد الفعل

ومن ناحية أخرى فإن قوانين المادة ، تقرر أن رد الفعل يكون دائماً مساوياً للفعل ، وفى الاتجاه المضاد له ، أما فى الكائن الحى ، فالتفاوت كبير جداً بين الطاقة التى يطلقها المنبه ، والطاقة التى تتم بها الاستجابة ، سواء من ناحية الكم أو النوع . فالطاقة الحاسة تتحول إلى طاقة محركة تختلف معها فى الكم . ومن هنا فقد استعمل علماء النفس ، وعلى رأسهم السلوكيون ، كلمة الاستجابة تمييزاً عن رد الفعل المستعمل فى الجمادات .

ولقد رأينا أن الذى يقوم بعملية التحويل والتعديل ، هو الجهاز المركزى أو المعدلات العصبية ، ويكون السؤال الذى يجابهنا هو ، بأى قوة وعلى أى أساس تتم عملية التحويل والموازنة ، والتى تختلف من إنسان لإنسان ، بل تختلف بالنسبة للإنسان الواحد من لحظة لأخرى ؟ إن السلوكيين لا يكلفون أنفسهم عناء الجواب عن هذا السؤال ، إنهم يحلون المشكلة بتجاهلها وإخراجها من ميدان البحث ، متعللين أحياناً بأن المستقبل كفيل بإيجاد

الجواب ، وواصفين أحياناً هذا الذى يجرى فى المعدلات العصبية ، بأنه قدرة الإنسان على التكيف ، ففى الإنسان قوة موروثة تجعله قادراً على التكيف مع البيئة المحيطة به ، وبهذه القوة تتم عملية التحويل والتعديل فى المعدلات العصبية ؟ ؟ ! .

وهكذا نجد أنفسنا أمام كلمة جديدة للتعبير عن حقيقة ثابتة ، وهى « القدرة على التكيف » ، ويكون من الأحجى أن نواصل استعمال الكلمة التى يفهمها كل إنسان ويدركها كل إنسان ألا وهى الإرادة[1] ، الإرادة الإنسانية التى يحسها كل إنسان من نفسه ، والتى نظمت المجتمعات على أساسها ، وقامت القوانين لحمايتها إن كانت خيرة ، ولتردعها وتصدها إذا أساءت .

هل للإنسان أعمال إرادية وأخرى غير إرادية ؟

عندما بدأ علم النفس الحديث يشق طريقه من خلال التجارب المعملية ، رئى تقسيم أعمال الإنسان إلى إرادية وغير إرادية . وقسمت الأعمال غير الإرادية بدورها إلى أعمال آلية وأعمال منعكسة وأعمال غريزية .

الأعمال الآلية

والأعمال الآلية هى هذه المجموعة من الأعمال التى تتم داخل الجسم ؛ لتؤدى سائر الأجهزة وظائفها اللازمة لسير الحياة ، والمحافظة على الجسد فى مجموعه فى حالة سليمة ، وذلك كحركة الدورة الدموية ، وعملية التنفس وحركة الرئتين ، وعملية الهضم ، وإفرازات المعدة وتقلصاتها ، وإفراز الغدد الصماء وغير الصماء .

---

(١) يقول الدكتور يوسف مراد فى كتابه « مبادىء علم النفس » « لامندوحة لنا إذن عن مواجهة مشكلة الإرادة ، ومهما حاولنا أن ننكر هذه المسألة بإغراقها فى مياه المجهول فإنها تعود لتطفو على سطح الماء » . ص ٣٢٢

الاعمال المنعكسة

أما الأعمال المنعكسة فهي تلك التي تلي هذه الأعمال الآلية في الأهمية ، حيث تهدف للمحافظة على عضو بعينه ، وتحتاج إلى منبه خارجي لانبعاثها ، ومثالها سحب اليد عند الشعور بالأذى ، واتساع حدقة العين وضيقها حسب شدة الضوء ، أو إغلاق العين عند اقتراب جسم مفاجيء منها ، أو الإجفال عند سماع صوت مفاجيء ، أو عملية العطس والتثاؤب ... الخ .

الاعمال الغريزية

والأعمال الغريزية ، هي مجموعة الأعمال التي تنبثق من القوة الحيوية الكامنة في أفراد النوع كله ، بحيث لا يحتاج أي فرد من أفراد النوع إلى تجربة سابقة أو تدريب من أي نوع كان للقيام بها . فهي سلوك للنوع وليست سلوكاً خاصا بالفرد ، وهدفها المحافظة على بقاء الفرد ، كغريزة الجوع والعطش والنوم ، وإما المحافظة على النوع كله كالتناسل ، وتوصف الغرائز بأنها عمياء ، أي أنها تتابع دون أن تدرك الغرض الذي تحققه[1] .

وهذا الوصف بالعمى في تتابع أعمال الغريزة ، يصدق بالأكثر على ما يقع من الحيوانات ، حيث تأخذ الغريزة شكل الأعمال المنعكسة سواء بسواء .

الاعمال الارادية

ثم تأتي بعد ذلك الأعمال الإرادية ، وهي مظاهر النشاط الإنساني التي يختلف فيها كل إنسان عن آخر ، ويختلف فيها الإنسان مع نفسه من يوم لآخر ، ومن مسألة لأخرى ... وذلك تبعاً لتغير إرادته ، وكنتيجة للأهداف التي يسعى لتحقيقها .

---

(١) مبادىء علم النفس — الدكتور يوسف مراد — ص ٩١

وعلماء النفس الذين ينكرون الإرادة الإنسانية ، يرون أن أعمال الإنسان كلها من نوع واحد ، وهى الأعمال المنعكسة التى تتم آلياً وتلقائياً ، ونحن نوافق على أن جميع أعمال الإنسان لا يمكن إلا أن تكون من طبيعة واحدة ونوع واحد ، ولكن من نوع الأعمال الإرادية ، أى تلك التى يتحكم فيها الإنسان بإرادته ؛ إن شاء أجراها ، وإن شاء منعها .

وحسبنا أن نحلل أى عمل إرادى ، لنرى أنه ينطبق على سائر نشاط الإنسان . فنحن عندما تعرض لنا مشكلة تتطلب حلاً ، وكل مايعرض للإنسان من منبهات ليس إلا مشكلة تتطلب حلاً ، فإن العقل البشرى لايمكن إلا أن يتدخل دائماً لفحص هذه المشكلة أو المنبه ، وتقرير أحسن الطرق للاستجابة إليه . فإذا تم اختيار الحل الملائم ، انعقد العزم على تنفيذه ، وبالتالى انطلقت الطاقات اللازمة للتنفيذ ، فكانت الاستجابة .

وما دام من المسلم به أن طبيعة الحياة وظروف البيئة ، كلاهما فى تغير دائم لاينقطع ، فإن الاستجابة لأى منبه ، لايمكن أن تتكرر بتماثل تام فى حالتين ، حتى ولو تعاقبتا على التو ، وما دام الأمر كذلك ، فلا مناص من تداخل هذه المراكز التى يسمونها المعدلات العصبية ، والتى نسميها نحن العقل ، فى كل حالة لتقرير ماينبغى أن تكون عليه الاستجابة . وكل مافى الأمر أنه إذا كانت المشكلات أو المنبهات التى تعرض للإنسان من النوع المتشابه المطرد المستمر ، الذى لايمكن تصور استمرار الحياة إلا باطراده ، فإن حل هذه المشكلات أو بالأحرى الاستجابة لها ، يتم بسرعة يخيل لنا معها أنها تحدث فى نفس الوقت الذى يحدث فيه المنبه ، كما أنها تتم بطريقة لانكاد نلحظها ، أو نشعر مقدماً بحدوثها ، والسبب فى ذلك أنها تحدث باطراد وثبات على نسق واحد ، ومن هنا لايحس الإنسان بها ؛ لأن الإنسان لايحس أو يشعر إلا بما يطرأ عليه التغير من نوع ما .

على أنه حتى هذه السرعة فى الاستجابة ، والإحساس بعدم وجود فترة للتروى والتفكير بين المنبه والاستجابة ، لا يمكن أن يكون فرقاً بين الأعمال التى توصف بالمنعكسة والآلية ، وبين الأعمال الإرادية . فإن بعض الأعمال الإرادية ، بل وأروع هذه الأعمال ، قد يتم فى أقل من ومض الخاطر . مثال ذلك عندما يلقى إنسان نفسه فى النار أو الماء لإنقاذ إنسان يستغيث بمجرد رؤيته . أو الاندفاع فى ميدان القتال ، للتضحية بالنفس فداء لقائد أو علم البلاد ، فإن هذه الأعمال لا يمكن الادعاء بأنها آلية أو منعكسة ، فليس يقدم عليها إلا نفر قليل من الأبطال أصحاب المروءة والشهامة والفدائية ، فهى أعمال إرادية ، ومع ذلك فهى تقع بغتة كأى عمل منعكس ، ولا يحس الإنسان معها بترو أو بفكر من أى نوع كان ، ومع ذلك فلا جدال فى أن هذا العمل قد اجتاز كل مراحل العمل الإرادى ، من فحص للمشكلة واختيار أنسب الحلول لمواجهتها ، وانعقاد العزم على تنفيذها .

أعمال منعكسة تتحول إلى إرادية

وإذا كانت الأعمال الإرادية قد تأخذ شكل الأعمال المنعكسة ، فإن الأعمال الآلية المنعكسة والغريزية ، وبصفة خاصة هذه الأعمال الأخيرة ، تأخذ صورة الأعمال الإرادية البحتة .

فالصائم عن الطعام عبادة ، والمضرب عن الطعام احتجاجاً على ظلم وقع له ، والممتنع عن أنواع خاصة من الطعام حمية وصحة ، والممتنع عن الزواج والتناسل ترهبا ونسكا ، كل هؤلاء يمتنعون عن إشباع حاجات الجسد الأساسية بمطلق إرادتهم ، وهبطوا بهذه الحاجات إلى أهداف ثانوية بالنسبة لأهداف أخرى معنوية اعتبروها جوهرية .

وعلى العكس من ذلك قد يشرب الإنسان ويسرف فى الشراب بغير حاجة ، عندما يصبح الشرب هدفا فى حد ذاته ، وقد يأكل الإنسان ويسرف فى الأكل حتى لو أضر به ذلك ، عندما تتجه إرادته إلى الأكل لمجرد الأكل .

وهكذا نرى أن الإنسان اليوم إذا أكل أو شرب ، فهو لايفعل ذلك بطريقة آلية كما يفعلها أى حيوان ، بل يفعل ذلك لاتجاه إرادته نحو هذا الأكل أو الشرب بهذا الأسلوب و الكيفية . وكذلك الشأن بالنسبة للأعمال المنعكسة ، لاتتم إلا لأن إرادة الإنسان تريدها فى كل مرة أن تتم على النحو الذى تمت به ، وإلا فباستطاعة الإنسان أن يتدخل فيها بإرادته ، فيقوم بها ولو لم توجد دواعيها ، أو لايقوم بها حتى عند قيام دواعيها ، فباستطاعة أى إنسان أن يسحب يده بسرعة بمجرد ملامسته أى جسم ، كما لو كان ساخنا مع أنه لايكون ساخنا ، وباستطاعته — بتدريب خاص — كما يفعل بعض الناس ألا يسحب يده أو رجله عن حديد ساخن أو جسم مؤذ من أى نوع كان . وليس فينا من لايقمع رغبته فى التثاؤب أو العطس فى بعض الظروف ، حرصاً على بعض الأوضاع الاجتماعية والأدبية .

حتى إذا وصلنا للأعمال الآلية البحتة ، تلك التى تجرى داخل جسد الإنسان على وجه رتيب ، وجدناها ، بدورها لا تمضى فى طريقها ورتابتها إلا لأن الإنسان يريدها كذلك ، فباستطاعة أى إنسان أن يوقف تنفسه بمجرد اتجاه إرادته نحو ذلك ، وكثير من الناس يستطيعون بعد تدريب معين أن يوقفوا تنفسهم إلى مدد لاتكاد تصدق ، كما كان الشأن بالنسبة لغواصى اللؤلؤ فى القديم[1] .

---

(١) جاء فى كتاب مهذب رحلة ابن بطوطه — الجزء الأول — ص ٢٢٠ :
« ويتفاوت غواصو اللؤلؤ فى الصبر تحت الماء ، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين »
وقد علق ناشرو الكتاب على هذا القول بأنه « مبالغة » .

وهناك بعض أشخاص يستطيعون التحكم حتى فى ضربات قلوبهم بالإسراع والإبطاء ، بل إن بعض المتدربين روحيا ممن سنشير إليهم بعد قليل قد يوقف قلبه ، كما سنرى فى الفصل التالى ، وعن طريق إيحاء الإنسان لنفسه أو إيحاء غيره له ، يصبح من المستطاع التحكم فى أى جزء من أجزاء الجسم ، وإحداث كدمات فى الجسم عن طريق الدورة الدموية ، وحروق فى الجلد لمجرد توجيه الإرادة لإحداثها[1] .

وهكذا نرى أن الأعمال التى يأتيها الإنسان كلها ، إنما تنبثق من إرادته وأنها تريدها على هذا النحو .

فسلطان الإرادة الإنسانية لا يحده حد ، وهو ليس أحد مظاهر الحياة أو ذروتها ، بل هو شيء يغاير الحياة ويعلو عليها ، بدليل أنه قد يتجه لإزهاق الحياة وإعدامها ، وصحيح أن الإنسان يوجد فى هذه الحياة بغير إرادته ، ولكن الصحيح أيضاً أنه لا يواصل هذه الحياة إلا بإرادته ، مادام باستطاعته فى كل وقت وآن أن يقدم على مايضع حداً لهذه الحياة .

فلا مناص من التسليم بأن الإرادة شيء يعلو على الحياة نفسها ، ولاعجب فى ذلك ، فهى كما قدمنا إحدى صور العقل الذى اضطر العلم الحديث بالتسليم أنه شيء يعلو على الحياة .

وقد حان الوقت لنتساءل كيف تنشأ الإرادة وكيف تقوم بدورها .

الصور الذهنية :

ما من شيء فى هذا الكون ، إلا وله صورة معينة يقوم وجودها على أساسه ، وإلا فعلى أى قاعدة تنمو بذرة أى نبات من النباتات مؤلفة هذا

= وعندنا أن التعبير بالساعة فى القديم لم يكن يعنى الساعة التى نعرفها ذات الستين دقيقة ، وإنما هو تعبير عن فترة زمنية طويلة طولا نسبياً .

(١) من نافذة العقل — للدكتور نقولا فياض — ص ١٠

الشكل الخاص لعشرات الألوف من النباتات ، التى يتميز كل واحد منها عن الآخر بأوراقه وزهوره وثماره ؟ وعلى أى أساس تتطور خلية كل كائن حى ، لتنتهى إلى هذه الأجناس والأنواع التى تغص بها الحياة ؟ كيف تتم عمليات النمو وتبلغ درجات معينة من النضج تقف عندها ، إلا أن تكون هناك فى كل بذرة وفى كل خلية حية صورة كامنة فى سائر أجزائها ، فلا تكاد الفرصة تتاح لهذه البذرة أو لهذه الخلية ، حتى تنطلق لتحقيق هذه الصورة الكاملة ؟

وليس من أهدافنا كما قلنا أكثر من مرة ، أن نخوض فى أبحاث فلسفية عن أصل الوجود ، وهل سبقت المادة الصورة أم الصورة المادة ، وهل للصور عالم مستقل كما يقول أفلاطون ، أم أن الصورة كما يقول أرسطو ممتزجة بالمادة ، وهو مايقول به العلم الحديث .

حسبنا أن نلوذ بالواقع الذى يستطيع كل واحد منا أن يفهمه بتجاربه الخاصة وبهداية عقله : فكل مايحيط بنا من آلات وأدوات ومهمات ومنشآت وحضارة إنسانية سواء المادى منها أو المعنوى ، هو شىء من صنع الإنسان ، قد بدأ كله صورا فى الذهن ، ثم خرج من الذهن ليتجسد فى الخارج رسوماً على ورق ، أو نقشاً على حجر ، أو حركة فى آلة ، أو نظاماً يسير عليه البشر .

فالتصور فى الذهن إذن هو الأساس لوجود أى شىء من صنع الإنسان ، وهذه مسألة لاتحتاج إلى برهان ؛ لأنها هى مايجربه كل إنسان بنفسه[1] .

---

(١) يقول كارل ماركس : « إن الشىء الذى يميز أقل مهندس معمارى كفاءة عن أحسن النحل ، أن المهندس يرسم صورة الخلية فى ذهنه قبل أن يصوغ الأنموذج لها بالشمع . فعملية العمل تنتهى بخلق شىء كان عند بدء العملية موجوداً فى خيال العامل أى على صورة فكرية .

ولما كانت إرادة الإنسان هي التي تقوم بكل صنوف العمل ، وهى التى تصنع وتبدع ، فهى لا يمكن أن تحقق ذلك ، إلا من واقع هذه الصور الذهنية التى يجب أن يكونها العقل تحت شرائط خاصة ، سنعرض لها عما قليل .

وهذه الشروط هى التى تميز بين الصور الذهنية التى تتعلق بها الإرادة فتنفذ فى الخارج ، وبين هذه الصور الأخرى التى تتدفق إلى الذهن من خلال حواس الإنسان ، فكل حاسة تحمل صور المنبهات التى تتعرض لها ، صورا سمعية وأخرى ضوئية ، وثالثة ذوقية ولمسية . . . الخ ، وكل صورة من هذه الصور ، تثير فى الذهن صورا أخرى ترتبط بها فى الذاكرة بحكم التشابه والتضاد والتجاور .

وقد تتدخل المخيلة إحدى ملكات العقل الإنسانى لتركيب صورة جديدة من هذه الصور القديمة ، ولكن هذه الصور كلها مهما تكن درجة وضوحها فى الذهن ، فهى ليست سوى انعكاس لما وقع فى الخارج ؛ فهى صور سلبية بطبيعتها ، وهى لا تتحول إلى صور إيجابية حركية تكون مصدرا للطاقات الفعالة فى الخارج ، إلا بعد أن يتم العقل عملياته ، فيفرغ من التفكير ويختار الهدف المنشود ، ويعقد العزم على وجوب تحقيقه ، فهنا وهنا فقط تنقلب الصور الحسية أو الطاقة الحسية ، كما يقول علماء النفس الفسيولوجيون ، إلى طاقة حركية أو بالأحرى إلى صورة حركية . والذين يتصورون أن إرادتهم قد خابت فلم تحقق ما أملوا فيه أو حلموا به ، يجب ألا يلوموا إلا أنفسهم ، إذا وقفوا عند دائرة تمنى الغنى والشهرة والمجد

= فالعامل لا يحدث تغييراً فى الأشياء الطبيعية من حيث الشكل فحسب ، بل إنه فى الوقت نفسه يحقق فى الطبيعة التى توجد منفصلة عن ذاته الغرض الذى وضعه نصب عينيه » .

(رأس المال — ترجمة راشد البراوى — ص ١٣٥) .

والنصر والنجاح ، متمثلين صور ذلك كله فى عقولهم عن طريق هذه الصور السلبية ، دون أن يحولوها إلى صور إيجابية حركية ديناميكية ، وإذن لتحققت على الفور ، ولحصلوا على ما تمنوه وحلموا به بعد أن يتحول إلى إرادة فاعلة .

فما هى هذه الشروط الواجبة لتحقق الإرادة هدفها ؟ أو بالأحرى الشروط التى تحول الصور السلبية إلى صور إيجابية ، والطاقة الإحساسية إلى طاقة حركية تفعل فى الخارج ؟

الشروط اللازمة لتحقيق الإرادة هدفها

أولا : ضرورة الهدف :

لو أننا سألنا أى عالم من علماء الطبيعة والمادة : ما الذى يحمل المادة على التطور فى هذا السبيل أو ذاك ، وما هو سر هذه النواميس التى تقولون إنها تحكم المادة ؟ لأجابنا على الفور « هذا هو ما تقضى به الضرورة . » فالضرورة هى القوة التى تعلو كل ما فى هذا الكون ، وهى التى تسيره وتحكم عليه . والضرورة بهذا المعنى شىء غامض لا يمكن للعقل البشرى أن يستوعبه ، ولكن من الحق أن نقرر أن ذلك هو الشأن دائما كلما حاولنا أن نخوض فيما وراء الطبيعة ، باحثين خلف العلل والأسباب الأولى . ولذلك فنحن ننأى بأنفسنا عن هذه المباحثات الغيبية ، متمسكين بمنهاجنا الذى اخترناه لكتابنا هذا ، وهو أن نستقرىء دائما الواقع المحسوس ، الذى يحسه كل إنسان من نفسه .

فمنذ أقدم العصور والبشر يفرقون بين صنفين من الأعمال التى قد تقع من الإنسان ، فثمة أعمال ، كما ذكرنا من قبل ، يرى الإنسان نفسه مضطرا لفعلها بقوة لا يستطيع دفعها سواء كانت من الداخل ، أو آتية من الخارج ، وأعمال أخرى يقدم عليها وهو قادر على عدم الإتيان بها . ولذلك ففى جميع

المجتمعات ، يحاسب الإنسان على ما يقع منه من أعمال على سبيل الرضا والاختيار ، ولا يعاقب على الأعمال التى تقع منه بالضرورة التى يجمع الكافة على أنها ضرورة . ومن المبادىء الأساسية التى تقابلنا فى كل عصر وزمان ومكان ، أن الضرورات تبيح المحظورات ، بمعنى أن الضرورة تسوغ للإنسان فعل ما يعاقب على فعله لو ارتكبه فى غير ضرورة[1] .

وينص قانون العقوبات المصرى كأى قانون عقوبات آخر ، على أنه « لا عقوبة على من ارتكب جريمة ألجأته إلى ارتكابها ضرورة وقاية نفسه أو غيره من خطر جسيم على النفس ، على وشك الوقوع به أو غيره ، أو دفاعا عن نفسه وماله »[2] .

فهناك تسليم من البشر عامة بأن ضرورة محافظة كل إنسان على حياته ، تخوله عمل كل شىء للمحافظة على هذه الحياة ، إيمانا من الكافة أن الإنسان فى هذه الأحوال ، يكون مدفوعا بقوة لا تغلب ، وهى قوة غريزة البقاء .

فالضرورة هى قوة تنبثق منها الطاقات كلها ، طاقات المادة والإنسان على السواء .

وعلى هذا فإن إحساس أى إنسان بضرورة أمر من الأمور ، من شأنه أن يولد فيه طاقة تدفعه لأعمال معينة استجابة لهذه الضرورة ، وكلما قوى الإحساس بالضرورة ، زادت الطاقة المنبثقة من هذا الإحساس . وعلى هذا الأساس يحقق البشر الأمور الضرورية لحياتهم ، بمقدار إحساسهم بالضرورة ، بحيث يمكن القول إن هناك تناسباً طردياً بين ضرورة أى شىء للإنسان ، وبين درجه تحققه .

انظر إلى موضوع الهواء ، إن البشر لا يستطيعون الاستغناء عن الهواء

---

(١) جاء فى القرآن الكريم « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

(٢) مادة ٦١ من قانون العقوبات ، ومادة ٢٤٥ الخاصة بحق الدفاع الشرعى .

ولو للحظة واحدة ، فهو بالنسبة للإنسان الضرورة رقم واحد ، ومن هنا فلن تجد إنساناً لا يحصل على حاجته من الهواء بدون أي جهد أو مشقة ، فلا فقير هنا ولا غنى ، ولا قوى ولا ضعيف ، كل إنسان يأخذ حاجته من إكسير الحياة هذا ، بلا ثمن أو قيود من أي نوع ما ، بل وبلا جهد .

ويأتى الماء فى الدرجة الثانية من حيث ضرورته للإنسان ، فباستطاعة الإنسان أن يصبر على الظمأ بضعة أيام . ومن هنا بدأ البشر يختلفون فى حظهم من الشرب ونوع ما يشربون ، فهناك إنسان إذا أحس بالظمأ بادر بالشرب ، وآخر يختار أن يفرغ مما فى يده من عمل أولا ، وثالث يمتنع عن الشرب يوماً أو يومين لسبب من الأسباب . ولكن النتيجة النهائية بالنسبة لكافة البشر ، أن كل من كان مقدراً له أن يحيا ، فلا بد من أن يحصل على الماء ، وهو يحصل عليه ، يستوى فى ذلك مرة أخرى الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، وساكن الغابة ونزيل القصور .

ثم يأتى الغذاء فى الدرجة التالية من سلم الضرورات ، فباستطاعة الإنسان أن يظل على قيد الحياة بدون طعام لبضعة أسابيع ، ومن هنا بدأنا نرى التفاوت يزداد بين البشر بصورة تلفت النظر ، ولا عهد لنا بها فى موضوع الهواء والماء ، ذلك أن كل إنسان بدأ يعمل إرادته فى القدر الذى يراه لازماً لطعامه فى كل وجبة ، وفى نوع الأكل الذى يقوم بتحقيق الغرض ، وفى الوقت الذى ينقضى بين كل وجبة وأخرى . ولكن النتيجة النهائية ، هى أن كل إنسان مقدر له أن يظل على قيد الحياة ، فهو يحصل على الغذاء الذى يبقيه حياً .

وهكذا تطرد القاعدة ، وما كان ضرورياً للإنسان يتحقق ، ومالا يراه ضرورياً لا يتحقق إلا بدرجة أهميته . وباستطاعتنا أن نفسر كل الخلافات التى نرى عليها البشر ، على ضوء هذه القاعدة . فالذين جعلوا ضرورة حياتهم

هى الحد الأدنى للحياة ، فإنهم يحصلون على هذا الحد ، أما الذين يرفعون حد الضرورة إلى درجات عاليـة ، فهم يحققون إرادتهم بتحصيل هذه الدرجات العالية .

فالذين قد جعلوا ضرورة حياتهم الحصول على وجبة طعام فى اليوم ، يحصلون على الوجبة ، والذين جعلوا ضرورة حياتهم وجبتين فإنهم يحصلون على الوجبتين ، والذين يأبون إلا أن تـكون الوجبات ثلاثا ، فإنها تصبح بالنسبة لهم ثلاثا ، والذين يرون ضرورة توسط وجبة رابعة لتناول الشاى ، فإنهم يحصلون على الوجبات الأربع .

وأقوام آخرون لم يعد الطعام والشراب وحدها ضرورة حياتهم ، بل مدوا هذه الضرورة إلى بيوت مجهزة بالماء والـكهرباء والتليفون ، وهم يحصلون على ما يريدون فحسب ، فإذا زادت الضرورة عندهم على هذا الحد ، فأصبحت لا تقنع بغير الثلاجة الـكهربائية والسخان ، فإنهم يحصلون على هذه الأشياء . والذين يرون فى السيارة والتلفزيون ضرورة حياتهم فهم يحصلون على السيارة والتلفزيون ، أما الذين يرون إمكان المضى فى الحياة بغيرهما ، فإنهم يمضون فى الحياة بلا تلفزيون أو سيارة .

فالمرجع النهائى هو للإنسان ، ما يعتبره ضرورياً لحياته ومالا يعتبره كذلك ، وبمجرد الإحساس بضرورة هدف من الأهداف فإنه لا يمكن إلا أن يتحقق ، ذلك أن الإرادة تتعلق به ، وما تعلقت به الإرادة يتحقق .

ويكون الشرط الأول لتحقق الإرادة أهدافها هو ضرورة هذا الهدف .

ثانياً — وحدة الهدف

الحق أن هذا الشرط ليس إلا إحدى نتائج الشرط الأول ؛ لأن ضرورة الهدف تجعله وحيداً ، وإلا فلو كان هناك هدف آخر أشد ضرورة ، لـكان

هو الذى تتعلق به الإرادة . ولو تساوى هدفان فى درجة ضرورتهما ، بحيث لا سبيل لتقديم أحدهما على الآخر ، لما فعل الإنسان هذا أو ذاك ، فالضرورة فى لحظة من اللحظات لا تكون إلا لهدف واحد .

ولعل عدم إدراك الكثيرين لهذه الحقيقة ، هو الذى يجعلهم يفشلون فى تحقيق أهداف يتصورون أنهم يريدونها ، وهم لا يعرفون حقيقة ما يريدون ، إذ تراهم يترددون بين عديد من الأهداف ، لا يستقرون على واحد منها ، فليس هناك ما يبطل الإرادة أو يهبط بها إلى درجة التلاشى أكثر من التردد . فالإنسان المتردد بين شتى الأهداف والأغراض ، قد لا يحقق شيئاً على الإطلاق ، وإذا هو حقق شيئاً ، فلن يكون إلا هذا الذى لا يتردد حياله ، وهو الحصول على الطعام والشراب .

هل تستطيع أن تعود إلى بيتك إذا كنت خارجاً منه ، إلا إذا أصبح هذا هو هدفك الوحيد ؟ . هل تستطيع أن تذهب كل يوم إلى مقر عملك إلا أن يكون هذا هو هدفك الوحيد ؟ . . . هل تستطيع أن ترفع يدك إلا إذا وجهت اهتمامك إلى هذه الحركة ، بحيث أصبحت هذه هى هدفك الوحيد فى هذه اللحظة ؟ ويخيل لبعض الناس أحياناً ، أنهم يقومون بعملين فى وقت واحد ، كأن يأكلوا ويقرأوا مثلا ، وليس ذلك إلا وهماً ؛ لأنهم فى الحقيقة لا يقومون إلا بعمل واحد فى كل لحظة واحدة ، والذى يحدث أن إرادتهم تتجه تارة إلى المطالعة فيقرأون بعض السطور ، ثم تتجه للطعام فيتناولون بعض الطعام ، فلو اندمج الشخص فى المطالعة لتوقف عن الأكل ، ولو اندمج فى الأكل لتوقف عن المطالعة ، فهو إذن يوجه إرادته بين العملين على التعاقب ، تارة فى هذا الاتجاه وتارة فى الاتجاه الآخر ؛ وتكون النتيجة هى عدم إحسان القراءة وعدم إحسان الأكل معاً ، لأن القراءة لا تحدث أثرها الحسن ، إلا إذا أقبلت عليها بكل طاقتك ، والطعام لا يؤتى ثماره

الشهية إلا إذا أقبلت عليه بكليتك . وكذلك الشأن بالنسبة لـكل ما يهدف إليه الإنسان من أهداف . فالذين يسعون لتحقيق هدفين فى آن وحد ، يفشلون على التحقيق فى الوصول إلى أى منهما .

تجزئة الهدف وترتيبه

ولما كان أى هدف يسعى الإنسان لتحقيقه ، قد يكون فى حاجة إلى عنصر الزمن ، كشرط أساسى لتحقيقه ، ولما كان الهدف من ناحية أخرى ، قد يكون مركباً ومؤلفاً من عديد من العناصر ، التى يجب أن تتجمع وأن تتضافر ، ولما كان الإنسان كما رأينا لا يستطيع أن يعمل شيئاً صغر أو كبر ، إلا إذا كان هو هدفه الأوحد من العمل ، فقد جرى الإنسان على تجزئة أهدافه الـكلية أو النهائية ، إلى عديد من الأهداف القريبة أو الصغيرة ، ومع احتفاظه بوحدة الهدف كرابط بين هذا الحشد من الأهداف . فعندما يكون هدفنا هو صعود سلم البيت ، فنحن نجزىء هذا الهدف إلى حشد من الأهداف الصغيرة القريبة ، وهى صعود درجات السلم واحدة بعد أخرى . وتكون الرابطة بين هذه الأهداف هى الهدف النهائى ، وهو الصعود إلى نهاية السلم .

وعندما يكون هدفنا فى الصباح ، الذهاب إلى مقر العمل ، فإن هذا الهدف يحلل إلى عديد من الأهداف القريبة المتلاحقة ، التى تؤدى إلى هذا الهدف النهائى ، كغسل الوجه وخلع ملابس النوم ، وارتداء ملابس الخروج وركوب (الأتوبيس) ، أو السيارة الخاصة وكل من هذه الأهداف يمكن بدورها تقسيمها لإمكان تحقيقها إلى عديد من الأهداف ، الأقرب والأبسط وهـكذا .

فأعمال الإنسان كلها تتألف من سلسلة من تحقيق عديد من الأهداف ، ولـكن يجب أن ترتبط كلها برباط وحدة الهدف النهائى ، الذى يشعر الإنسان

بضرورة تحقيقه . وكل الذين حققوا عظائم الأمور كما سنرى ، هم الذين وحدوا أهدافهم فى الحياة ، إلى الحد الذى جعل الكثيرين يتخذون شعاراً لهم « الغاية تبرر الواسطة » .

الغاية تبرر الواسطة

سيرى القارىء فى ختام هذا الكتاب ، أننا ممن لا يفرقون بين الغايات والوسائل ، وأنها يجب أن تقاس كلها بمقياس واحد ، ولكن فرق بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل . والغاية تبرر الواسطة ، هى إحدى النتائج الحتمية لتوحيد الهدف ، ذلك أن الإنسان إذا تردد فى استعمال إحدى الوسائل التى تؤدى بالفعل إلى تحقيق غايته ، ولكنها تصطدم مع الدين أو العادات أو الأخلاق الكريمة ، فإنه لن يحقق هدفه الذى يسعى إليه ، ويكون هدفه الحقيقى فى هذه الحالة ، هو صيانة الشرف أو الدين أو المحافظة على القانون . فالذين يريدون الحصول على المال ولا شىء غير المال ، هم فقط الذين يحصلون على المال ، أما الذين يريدون الحصول على المال مع المحافظة على الشرف فهؤلاء لا يمكن أن يكون حظهم من المال كثيراً ، وفى ذلك يقول السيد المسيح « لايستطيع أحد أن يعبد ربين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويرذل الآخر ، لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال»[1] . وفى هذا المعنى قول القرآن الكريم «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه[2] . » فالإنسان لايمكن أن يعمل فى وقت واحد من أجل هدفين ، ولا مناص له من توحيد الهدف ، ومن هنا جاءت هذه القاعدة الكريهة « الغاية تبرر الواسطة » فكل من يستميت فى تحقيق هدف معين ، لا يمكن إلا أن يضحى بما عداه من الأهداف . ففى الصراع

---

(١) انجيل متى الاصحاح السادس — ٢٥
(٢) الأحزاب — ٤ .

حول الشهرة والجاه والسلطان والحظوة لدى النساء والانتصار فى أى حرب ، لا يفوز إلا الذى يطبق هذه القاعدة . ولا تزال كلمات تشرشل فى الحرب العالمية الثانية تدوى فى آذاننا من أن انجلترا على استعداد أن تحالف الشيطان نفسه ، لكى تهزم المانيا . وبهذه الروح فازت انجلترا فى الحرب . ويدعو مكيافللى الأمير فى كتابه ألا يعمل وفق قواعد الفضيلة « حتى لا يلقى الوبال ، ويجب على الأمير أن يفرق فى قوة وحزم ، بين المبادىء الأخلاقية ومطالب الحكم ، أى بين الخاص والصالح العام ، وأن يكون مستعدا أن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شرا فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض . . . ومن واجب الأمير أن يقتل كل من ينازعونه عرشه . . . وعليه أن يعلم أنه يستطيع أن يحصل بالمكر والخداع أحيانا ، أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة ... وعليه أن يكون مرائيا ، لأن الناس سذج منهمكون فى حياتهم الحاضرة ، إلى حد يسهل خداعهم . . . الخ[1]

ويتصايح الناس دائما ضد ميكيافللى ، ولكن هذا لا يمنع أن ما قال به ميكيافللى هو الذى اتبعه ويتبعه بالفعل ، كثير من الحكام فى كل زمان ومكان ، تطبيقا لقاعدة الغاية تبرر الواسطة . وما دام الإنسان قد وضع نصب عينيه ، تحقيق هدف معين فلا مناص له إذا أراد أن يحققه من تضحية كل الأهداف والاعتبارات الأخرى ، إن كثيرين ممن يعدهم الناس ناجحين ، لم يحققوا هذا النجاح إلا لأنهم كانوا أقدر من غيرهم على النكث بالعهد والتضحية بالأصدقاء ، بل والغدر أحيانا بالآباء والأبناء ، والوصول إلى الهدف المطلوب إذا لزم الأمر على أجساد الضحايا .

ويخلص من هذا أنه بغض النظر عن خيرية الهدف أو شره ، فالشرط اللازم لتحقيق أى هدف هو توحيد هذا الهدف ، وجعله فوق بقية الأهداف ، وتضحية باقى الأهداف من أجله .

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الرابع المجلد الخامس — ص ٦٧ .

ثالثا — التركيز على الهدف أي الاصرار

يترتب على الشرطين السابقين ، من ضرورة الهدف وتوحيده ، أن تظل صورته ماثلة فى الذهن ، لا تبرحه بحال من الأحوال ، إلى أن يتحقق . ومعنى ذلك هو تجدد الشعور بضرورة الهدف الوحيد فى كل يوم ، بل فى كل ساعة وفى كل لحظة ، ويكون ذلك بمثابة إذكاء النار المشتعلة داخل النفس ، وبالتالى مضاعفة الطاقات التى تنبعث منها لتحقيق الهدف المطلوب . هذه العملية هى ما نطلق عليها اسم التركيز ، وما قد يسميها غيرنا الإصرار ، فإذا لم يتحقق هذا التركيز ، فإن ذلك يؤدى إلى اختفاء صورة الهدف من الذهن ، وبالتالى إخفاق الإرادة فى تحقيق هدفها .

إن الذى جعل هدفه من الحياة أن يكون مهندسا أو طبيبا أو عالما أو فنانا ، لا يمكن إلا أن يجعل لذلك صورة فى ذهنه ، تكون مصدرا لكل نشاطه ، وبالتالى محور حياته ، فإذا حدث لأى سبب من الأسباب أن وهنت هذه الصورة أو ضعفت ، فسيترتب على ذلك اضطراب نشاط الإنسان فى اتجاه الهدف ، فيتأخر عن تحقيقه ، أما اذا زالت الصورة من الذهن ، فمعنى ذلك ضياع كل أمل فى تحقيقها .

إن الذين يريدون تحقيق هدف من الأهداف الكبيرة يصبحون ويمسون يضحكون أو يبكون ، يأكلون ويشربون ، يتعاملون مع الناس أو لا يتعاملون ، على ضوء صورة الهدف المرسوم فى أذهانهم ، وهل يقربهم هذا العمل منه ، فيقدمون عليه أم يبعدهم عنه ، فيبتعدون عنه .

ويصف الناس أعمال عظماء الرجال ، والذين نجحوا فى تحقيق إرادتهم ، بالمثابرة أو شدة الإصرار ، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون الوصف الخارجى لأعمال هذا النفر[1] ، فليست المثابرة أو الإصرار إلا ثبات هذه الصورة

(١) جاء فى كتاب اصول علم النفس — للدكتور احمد عزت راجح — أن =

الذهنية فى رؤوس هذا النفر ، كما هو الشأن بالنسبة لأى إنسان يريد هدفاً من الأهداف . . . فبمقدار ثبات هذه الصورة ونصاعتها فى الذهن ، يكون النشاط والعمل والإصرار إلى أن يتم التحقيق .

وليس هناك ما يزيد الصورة الذهنية وضوحاً ونصاعة إلا زيادة التركيز عليها ، أى تعلق الإرادة بها مجدداً وثباتها عليها إلى أن تتحقق .

وهكذا نرى أن هذه الشروط الثلاثة التى ذكرناها لتحقق الإرادة ، يؤدى كل منها للآخر ، فضرورة الهدف تجعله واحداً ، وضرورته ووحدته تجعلانه ثابتاً فى الذهن لا يريم أو يتحول .

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة ، تحققت إرادة الإنسان ببلوغ الهدف المنشود ، أيا كان هذا الهدف . فما هى العلاقة بين إرادة الإنسان الداخلية ، وبين تحقيق الأهداف فى الخارج ، أو بالأحرى كيف يتحقق الهدف ؟ .

الإنسان والكون وحدة واحدة

لو أن الإنسان أراد أن يقف ، فما الذى يحدث ؟ إنه يتصور عملية الوقوف فى ذهنه ، فإذا اتجهت إرادته للوقوف نتيجة لتحقيق الشروط الثلاثة التى سبق ذكرها ، فإن صورة الوقوف الذهنية تتحول إلى صورة ديناميكية حركية ، فتنبعث منها الطاقة اللازمة لإتمام عملية الوقوف . وكذلك الشأن إذا أراد الإنسان أن يحرك يده أو ساقه أو يفرقع أصابعه . عند هذا القدر ، ويتصور الجمهرة العظمى من البشر فى الوقت الحاضر ، أن قوة الإنسان تقف ، فلا سيطرة للإنسان إلا على أعضائه الداخلية أما الكون الخارجى فهو معزول عنه ومستقل . ومن حسن الحظ أن العلم الطبيعى الحديث قد بدأ يدحض هذه الفكرة ، فحدود الإنسان لا تنتهى بنهاية جلده بل إنها ممتدة إلى ما بعد

= دراسة حياة العباقرة تشير إلى عوامل أخرى غير الذكاء والمواهب الخاصة كان لها أثر بليغ فى عبقريتهم منها :

١ — المثابرة ٢ — الطموح ٣ — الثقة بالنفس ٤ — الرغبة فى التفوق ٥ — القدرة على التركيز الشديد ٦ — الصمود .

ذلك . والإنسان أي إنسان هو مصدر مستمر لإشعاع شتى صنوف الطاقات التي تؤثر في كل ما يحيط به بصفة لا تنقطع . وإذا كان قد أصبح في مقدور الإنسان ، على ما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية[1] ، أن يرسل بعض الأقمار الصناعية التي تستطيع أن تسجل الأمواج المنطلقة من مجرد إشعال سيجارة على الأرض ، ثم تعيد إرسال هذه التسجيلات إلى الأرض ، لاكتشاف وتحليل أي مصدر للحرارة والاشتعال في أي جزء من أجزاء العالم ، هو الذي أحدث هذه الأمواج ، فكم بالأحرى ينبغي لنا أن نتصور الأمواج التي يرسلها الإنسان في هذا الكون بلا انقطاع . ومتى كان الإنسان أحد مصادر الإشعاع ، فهو لا يمكن إلا أن يؤثر في الكون بلا انقطاع ، ويتأثر به في نفس الوقت . إن أي ذرة في هذا الكون ، لا يمكن إلا أن تكون مؤثرة ومتأثرة بكل ما في الكون من قوى ، إنها في حركة دائبة لا يمكن أن تكون مفهومة بأي حال من الأحوال ، إلا على أساس تفاعلها المستمر مع ما يحيط بها ، فإذا كان هذا شأن الذرة أي ذرة فكم بالأحرى يكون الإنسان ؟ .

فمن الوهم أن يتصور متصور أن طاقة الإنسان المنبعثة من تصوراته الذهنية ، لا تعمل إلا في داخل جسده ، فالحقيقة أنها تعمل في الكون كله بنفس الطريقة . إن الإنسان مرتبط بهذا الكون ؛ بكل ما فيه من نجوم وشموس وأقمار ، بكل مافيه من جبال ووديان وأنهار ، إنه خلية في هذا الوجود المتناغم ، الذي لا يمكن إلا أن يكون وحدة واحدة ونسيجاً متصلاً .

حسب الإنسان أن يحس بضرورة أمر من الأمور لحياته المادية أو المعنوية ، لكي يكون الكون كله جهازاً واحداً ، تعمل فيه الإرادة لتحقيق الهدف المطلوب ، عن طريق انطلاق الطاقة اللازمة لتحقق هذا الهدف ، فتؤثر على الهواء والماء والبيئة والمجتمع والأشخاص والزمان

---

(١) الاهرام ١٩٦١/٧/١٧

والمكان ، فإذا بالأمور كلها تصدع بهذه الإرادة تحت تأثير الطاقة التى ولدتها . وعلى هذا النهج تندفع الحياة الإنسانية ، لينفذ كل إنسان إرادته باعتبار ذلك أحد قوانين الطبيعة الأساسية .

نفاذ الارادة الانسانية

انظر إلى الطريق العام ، إلى عشرات الألوف من البشر الذين يسرعون أو يهرولون أو يتلكأون ، ويصطدم بعضهم ببعض ، إنهم جميعاً يؤكدون لك هذا الذى أقول من تحقيق كل إنسان لهدفه وغايته ، إن الذى يقصد منهم إلى الصلاة يصل إلى المسجد ويحقق إرادته ، ومن يهرول لإدراك حفلة السينما أو المسرح ، يصل قبل الميعاد ليكون جالساً فى كرسيه قبل رفع الستار أو إطفاء الأنوار ، أو تجد أقواماً يعودون إلى بيوتهم ليحصلوا على قسطهم من الراحة ، أو يخرجون من بيوتهم إلى عملهم فيصلون ، وهناك من خرج ليسرق فهو يسرق ، ومن خرج لينشل فهو ينشل ، ومن يهدف لمعاكسة الفتيات يعاكسهن ... وهكذا يحقق كل إنسان غايته القريبة ، وهدفه الذى قصد إليه من نشاطه المباشر .

تحقيق الغايات الأبعد

فإذا انتقلنا إلى الأهداف الأبعد ، كالحصول على درجة عالية ، أو الحصول على صفقة ، أو وظيفة أو مكانة مرموقة فى المجتمع ، أو تكوين أسرة ، فإن هذه الأهداف لا يمكن إلا أن تتحقق متى توفرت الشروط الثلاثة ؛ ضرورة الهدف ووحدته وثباته . فالذين يريدون الزواج يتزوجون ، والذين يريدون حج بيت الله الحرام يحجون ، والذين يؤثرون السفر إلى أوربا وزيارة باريس أو نيويورك يسافرون ، والذين يضعون نصب أعينهم أن يحصلوا على الدكتوراه يحصلون عليها ، ومن يريدون تسلق جبل من الجبال يتسلقون ، أو الذهاب إلى القطب لاستكشافه يذهبون .

ومن الناس من يجعل هدفه فى الحياة شرب الخمر ، فيصبح بحيث لا يرى إلا مخموراً ، وتتحول حياته إلى خمر بالليل والنهار . والذين يجعلون هدفهم الإفراط فى الطعام يصلون فى ذلك إلى صور لا تكاد تصدق ، ففى تصورنا أن المعدة لها سعة معلومة ، ولكن هؤلاء يتجاوزون ذلك إلى ما يقف الإنسان أمامه مذهولا حائراً ، على أن أطرف ما فى الموضوع أن هؤلاء المنهومين أو (المفجوعين) تتحقق لهم إرادتهم فى الحصول دائماً على كميات لا حد لها من الطعام ، سواء كانوا أغنياء أم فقراء ، ذلك أن الأمر يتحول إلى قدرة تجتذب الناس لمشاهدتها وتهيئة الفرصة لذلك ، وهناك أشخاص يحترفون عشق النساء ، فترى النساء تتهافت عليهم ، كتهافت الذباب على قطعة من الحلوى ، مع أن هذا النفر قد لا يكون جميلا أو رشيقاً أو فى ربيع العمر ، ذلك أن الأمر لا يتعلق بشىء من ذلك كله قدر ما يتعلق بالإرادة ، فكم من شاب وسيم قوى لا يجد حظه من النساء ، وما ذلك إلا لانصراف إرادته إلى تحقيق أغراض أخرى ، يراها أكثر حيوية بالنسبة له فى فترة شبابه . وما يصدق على الرجال يصدق على النساء ، فكم من امرأة عاطلة عن الجمال ، ومع ذلك توقع الرجال فى حبائلها بقوة إرادتها . وهناك أقوام يكرسون حياتهم للعلم والوقوف على حقائق الحياة ، فتتم على يدهم الفتوح والكشوف العلمية ، وأشخاص يتخصصون فى الخدمة العامة وهداية الآخرين ، فيتم على يدهم ما اعتبر دائماً لوناً من ألوان الإعجاز البشرى .

وأخيراً يصادفنا أشخاص جعلوا شغل حياتهم أن يجمعوا طوابع بريد ، أو صوراً زيتية ، أو تحفاً من أى نوع كان ، فينفقون فى ذلك الأموال التى لا يتصور إنسان إمكان إنفاقها على مثل هذه الأمور التافهة ، بل قد يتحملون من المشاق ويخوضون مغامرات للحصول على تحفة من هذه التحف ، أو طابع من هذه الطوابع ، مما قد يصل إلى حد تعريضهم للمخاطر . . . وذلك كله تحقيقاً لقانون نفاذ الإرادة ، فلا مناص لهم من تحقيق إرادتهم .

وما من إنسان يحقق هدفاً من أهدافه فى أى ميدان من الميادين إلا ويخبرك عن التوفيق الذى صاحبه ، والحظ الذى واتاه لتحقيق هذا الغرض أو ذاك ، حتى فى ميدان الجريمة ، قتلا كانت أو سرقة أو اغتصاباً من أى نوع كان . وليس هذا الحظ والتوفيق فى حقيقته ، إلا بتأثير إرادته فى العناصر المحيطة به . وليس أدل على ذلك من أن هذا التوفيق أو الحظ لا يصادف الإنسان فيما لا يتجه نحوه بإرادته .

بطولات الرياضة والأرقام القياسية[1]

ولنجعل حديثنا بالأرقام والحقائق المجمع عليها ، حتى نرى مصداق هذا الذى نقول من نفاذ الإرادة الإنسانية فى كل ماتهدف إلى تحقيقه من أهداف . والألعاب الأولمبية تهيء لنا الميدان الذى نستطيع أن نقيس فيه إرادة الإنسان بالأرقام والأوزان . فقد تطلع فريق من البشر فى كل زمان ومكان ، أن يصلوا إلى التفوق على سائر العالمين فى إحدى الألعاب الرياضية ، مسجلين أرقاما قياسية لم يسبقهم إليها إنسان ، فأصبح لدينا أرقام قياسية لأقل مايستطيع إنسان أن يقطع فيه مائة متر أو عشرة أميال عدوا ، وأقل مايستطيع أن يقطع فيه مائة متر أو أربعمائة متر سباحة على الصدر أو على الظهر وهكذا . . . وما من مرة من المرات إلا واعتبر الرقم القياسى الجديد الذى توصل إليه أحد الأبطال أمراً معجزاً ، وفلتة من فلتات الطبيعة التى لايمكن تكرارها . ويتشدق من يصفون أنفسهم بالعلم والخبرة الحديثة ، فى إثبات استحالة عدم التفوق على هذا الرقم القياسى الجديد أو ذاك . . .

---

(١) لاتقف الأرقام القياسية العالمية على الألعاب الرياضية ، بل إن هناك أرقاما لكل شىء يطوف بالذهن ، فهناك أرقام قياسية لكمية الأكل ، ولعدم النوم ، وللوقوف ، وللمشى ، وهناك أرقام قياسية للرقص ، أى أطول مدة يستطيع فيها راقصان أن يواصلا الرقص ليلا أو نهاراً . . ومن الأرقام القياسية الرسمية العزف على البيانو ، حيث ظل عازف يعزف ٤٢٣ ساعة . The human machine

فيحدثوننا عن أنسجة الجسم البشرى وعضلاته ، ومدى مرونتها التى لايمكن أن تتعدى حداً معيناً ، ومدى قدرتها على احتمال قدر معين من التوتر لاتتخطاه ، وعن سرعة الرياح وجاذبية الأرض ومئات من العناصر ، التى من شأنها أن تحول بين الإنسان وبين فعل أكثر من هذا الذى فعل . ومع ذلك فما من رقم قياسى وصف بهذا الوصف ، إلا وتحطم خلال بضعة أسابيع من إعلانه إن لم يكن بضعة أيام . . . وأحيانا لايكاد يعلن ويطوحه البرق فى أربعة أرجاء المعمورة ، حتى يجيء النبأ بأنه قد كسر فى هذه البلدة أو تلك ، ذلك أنه يصبح هدفاً محققاً تتجه إليه الإرادة الانسانية ، باعتباره أمراً فى حيز الإمكان .

فحتى عام ١٩٣١ مثلا ، كان الرقم القياسى لقطع الميل عدوا هو أربع دقائق وعشر ثوان .

وفى عام ١٩٥٤ كان فى أمريكا وحدها خمسة عشر رجلا حطموا هذا الرقم . وفى عام ١٩٥٦ بلغ عدد محطمى الرقم ٢٣ شخصاً . واليوم يوجد فى العالم على الأقل سبعة رجال نجحوا فى قطع الميل فى أقل من أربع دقائق[١] .

وبالنسبة لسباق المائة متر ، سجل أحد زنوج أمريكا الرقم القياسى لعدو المائة متر وهو ٢ر١٠ ثانية ، وخلال الأربع سنوات التالية كان الرياضيون فى أمريكا واستراليا وألمانيا قد نجحوا فى تحطيم هذا الرقم ، وفى عام ١٩٥٦ سجل زنجيان أمريكيان آخران فى الألعاب الأولمبية ، الرقم القياسى الجديد ١ر١٠ ثانية ، فاعتبر ذلك حدثاً اهتز له عالم القوى ، ومع ذلك فقد فاجأ عداء ألمانى العالم من جديد فى دورة روما ، بقطعه المائة متر فى ١٠ ثوان فقط ، فاعتبر ذلك أعظم الأحداث الرياضية على الإطلاق[٢] .

---

(١) The human machine — ص ١٦٦

(٢) جريدة الأهرام ٢٧/٦/ ١٩٦

ومن هذا القبيل أيضاً ، موضوع الوثب العالى ، فقد كان الرقم القياسى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر هو ٥ أقدام و ٣ بوصات ، وكان ذلك يعتبر إعجازا بشريا ، ولم يكن أحد من خبراء الرياضة والمدربين الجهابذة ، يحلم بإمكان أن يقفز الإنسان إلى ٥ أقدام و ٨ بوصات ، ولذلك فعندما استطاع إنجليزى عام ١٨٧٦ أن يقفز ٦ أقدام لم يصدق المشاهدون من الخبراء أنفسهم وأعينهم[1] . واليوم يزيد الرقم القياسى على سبعة أقدام ببعض البوصة ، ولاشك فى أنه عند مطالعة هذه السطور ، قد يكون هذا الرقم قد حطم من جديد .

وعبثا نمضى فى تتبع الأرقام القياسية فى كل فروع الرياضة ؛ لكى نرى ما كان يعد فى وقت مضى إعجازاً ، أصبح اليوم لا يؤهل لنصف بطولة[2] .

ولا يجرؤ الخبراء والفنيون أن يدعوا أن رياضيي العصر الحاضر ، أصح أجساما أو أقوى بنية من أبطال العهد الماضى ، ولذلك فهم يحاولون إرجاع أسباب التفوق إلى اختراع أحذية أخف وزنا ، أو إنشاء ميادين للعدو أجود من الميادين القديمة ، ومعرفة أكثر لعضلات الجسم وكيفية عملها ، مما لم يكن معروفا من قبل . وكل هذه فى نظرنا سخافات وتراهات يتخبط فيها هؤلاء (الخبراء) ؛ لعدم رغبتهم فى الاعتراف بالحقيقة المؤكدة ، وهى انطواء الإنسان على سر عميق يتجلى فى إرادته لأن يحقق مايريد .

إن الأرقام القياسية تتحطم وستظل ، لأن إرادة الإنسان تتجه نحو

---

(١) The human machine

(٢) مازلت أذكر شخصيا ، كيف استطاع بطل مصرى فى حمل الأثقال عام ١٩٣٨ فى الألعاب الأولمبية ، وهو خضر التونى أن يهز العالم فى ذلك الوقت ويحظى بتهنئة شخصية من هتلر ، لاستطاعته حمل مجموعة من الأثقال ، لا تؤهل من يحملها اليوم للدخول فى اى مباراة محلية .

تحطيم الرقم الجديد ، وماتهدف إليه الإرادة الإنسانية ، فلا يمكن إلا أن يتحقق[1] .

وليس هناك مايظهرنا على اتجاه إرادة البعض لتحطيم الأرقام القياسية ، من هذه الجهود المضنية وصنوف الحرمان غير المعقولة ، التى يتحملها بصدر رحب هؤلاء الذين يتصدون لتحطيم الأرقام القياسية ، لكى تتأكد لنا قوة إرادة هذا النفر ، التى تجعلهم يحتملون ما يكاد العقل لا يتصوره ، من الضنى والعناء والجهد ؛ وليس ذلك إلا مظهر إرادتهم للفوز والانتصار[2] .

الموهبة

وإذا كان المران والتدريب كما رأينا وكما سنرى ، يستطيع أن يصل بالإنسان العادى إلى تحقيق أى هدف يريد ، فليس يعنى ذلك أن هذا المران شرط أساسى لتحقيق هذا الهدف ، والطبيعة حريصة أشد الحرص ، على أن تلفت أنظارنا إلى انطواء الإنسان على قدرات لاحد لها يستطيع ممارستها بمجرد الإرادة . وهذا هو دور الموهوبين فى الحياة ، أن يكشفوا لنا عن قدرة الإنسان التى لايحدها حد . فمن حين لآخر يظهر لنا أشخاص يحققون فى يسر وسهولة تثير العجب والدهشة ، ما كان يتصور خطأ أنه يستحيل الوصول إليه ، أو أن الوصول إليه يتطلب قدرا غير متصور من بذل الجهود المضنية . ففى عالم الرياضة مثل مافى عالم الفن أو عالم العلم والمعرفة ،

---

(١) انظر كتاب « الهدف المنشود » للبطلة الرياضية العالمية « جالينا زيبنيا » من مطبوعات الاتحاد السوفيتى — ترجمة حسين القبانى .

(٢) يجرى بطل العالم فى سباق الـ ٨٠٠ متر عشرة أميال فى كل يوم على سبيل التمرين . وبطل العشرة آلاف يجرى يوميا ١٥ ميلا على سبيل التمرين .
أما أبطال الماراتون فأحدهم يجرى يومياً ٢٤ ميلا والثانى أخذ على نفسه أن يقطع ٤٠٠٠ ميل فى كل عام على سبيل التدريب The human machine .

تقدم لنا الطبيعة نماذج من هؤلاء الذين نطلق عليهم اسم الموهوبين . ولقد رأينا كيف اجتمع أبطال العالم فى الألعاب الأولمبية الأخيرة التى عقدت فى روما عام ١٩٦٠ . وعلى رأس المسابقات يأتى الجرى للمسافة الكبيرة أو ما يسمى سباق (الماراتون)[1] وكان التنافس على أشده بين أبطال العالم ، الذين يشار إليهم بالبنان ، ممن أفنوا العمر فى التدريب والتمرين ، وحصلوا من قبل على عشرات الجوائز ولكن الذى فاز بالبطولة جندى جاءهم من الحبشة ، راح يجرى وسط سخرية الناس حافى القدمين ، لم يسبق له أن دخل فى سباق ، لم يحرز بطولة صغيرة أو كبيرة من قبل ، ومع ذلك فقد كان هو الذى فاز وتقدم على أبطال العالم بمسافة معجزة . ويحدث مثل ذلك فى شتى ميادين الحياة ، فى الشعر ، فى الأدب ، فى دنيا الاختراع . هؤلاء الموهوبون هم معالم الطريق ، الذين يقودون البشرية دائما نحو الأمام . ولا يسمحون لها بالوقوف عند حد . ذلك أن الناس يتلقفون دائما هذه المستويات الجديدة التى حققها الموهوبون ، فيعملون على الوصول إليها من خلال التدريب والتمرين والعمل الشاق ، فيصلون فى النهاية إلى تحقيق ما كان يتصور أنه إعجاز قد انفرد به شخص من الأشخاص .

وليس هناك هدف أو غاية مهما بدت معجزة أو مستحيلة على الإنسان ، لايستطيع إنسان أن يصل إليها عن طريق المران والتدريب ، ذلك أن المران فى حقيقته هو كما قلنا نوع من التركيز ، والتركيز على أى هدف يجعله الإنسان ضرورة حياته ، لايمكن إلا أن يتحقق . وهذه حقيقة قد أثبتتها بما لايدع مجالا للشك طائفتان من البشر .

أما الطائفة الأولى فتصل إلى تحقيق ألوان من الكفاءات والمهارات ،

---

(١) يبلغ طول مسافة سباق (الماراتون) ٢٦ ميلا أو ٤٠ كيلو مترا .

يذهل لها الإنسان عن طريق التدريب المادى العضلى ، وتلك هى طائفة البهلوانات ومدربى الحيوانات .

أما الطائفة الثانية فتدريباتها روحيـة بحت — وتلك هى طائفة اليوجا الهندية .

لاعبو السيرك أو البهلوانات

لا نعرف لونا من ألوان القدرة على الإتيان بأعمال شاذة غير مألوفة ، قد يتصور الجمهرة الساحقة من الناس استحالة وقوعها ، لم يقدم عليها ويزاولها لاعبو السيرك ممن نسميهم البهلوانات (الأكروبات) ، بحيث أصبح الوقوف أو السير على الحبل أو السلك داخل السيرك ، لا يثير كبير إعجاب أو دهشة ، فعمد بعض اللاعبين إلى أن يشدوا أسلاكهم بين قمم الجبال فوق الهاوية ، أو بين عمارتين من عمارات ناطحات السحاب فى نيويورك ، ثم يسيروا على السلك مهرولين أو مسرعين ، كما لو كانوا يسيرون على أعرض طريق وأثبته ، وقد لا يقنعون بالسير على الأقدام فيستعملون دراجة ، ومنهم من أبى إلا أن يجلس ويضع أمامه مائدة يكتب عليها أو يأكل ، وبلغ الأمر ببعض اللاعبين أن عقدوا المنافسات للبقاء على الحبل المشدود أطول مدة ممكنة ، فأصبح لذلك أرقام قياسية عالميـة منها هذا الرقم الذى سجله لاعبان سويديان فى استكهولم عام ١٩٥٥ ، حيث استطاعا أن يصمدا فوق الحبل المشدود ٣٣ ساعة متصلة و ٦ دقائق[1] . ولو طلب من إنسان عادى أن يظل واقفاً على قدميه هذه المدة لما استطاع إلى هذا سبيلا . أما هذان اللاعبان فقد قضيا هذه المدة فوق الحبل المشدود .

ورأيت بهلواناً جعل إبهامه هى منطقة ارتكازه فى هذا الكون ، فقد قلب نفسه رأساً على عقب جاعلا ارتكازه على يديه الاثنتين ، ثم على يد

(١) The human machine

واحدة ثم أصبع واحدة هى الإبهام ، وكان الارتكاز على فوهة زجاجة ، والزجاجة فوق قمة هرم من المكعبات الخشبية ، بحيث كادت قلوب الناس أن تنخلع ، والعيون تخرج من المحاجر لغرابة الذى يرون .

ومن اللاعبين من يقذف بنفسه من مائة قدم ، ليسقط فى حوض صغير من الماء تغشى سطحة نيران متقدة ، ومنهم من يوقف زوجته أو شريكته فى اللعب ، ملتصقة بلوحة خشبية ، ثم يروح يقذفها بعشرات من الخناجر التى تنغرس فى لوح من الخشب ، حول جسد المرأة وبمحاذاته ، ولو أن أحد الخناجر حاد عن طريقه مقدار شعرة واحدة ، لنفذ فى جسدها على الفور ، فاتكا بها لقوة الصدمة .

وبين هؤلاء البهلوانات من يجعل ظهور الخيول أو الدراجات البخارية المندفعة حقلا لألعابه ، بل منهم من اتخذ أجنحة الطائرات المندفعة فى السماء مسرحاً لهذه الألعاب .

وكم من الأشخاص الذين يشهدون هذه الألعاب قد يغمى عليهم ، لتصورهم أن اللاعب سيقع حتما ويقضى عليه ، بينما اللاعب فى الحقيقة يقوم بهذه الأعمال بالبساطة والسهولة التى نقوم نحن بها بأى عمل اعتدناه وألفناه ، كالمشى أو الكلام أو الكتابة . فنحن لا نحفظ توازننا إذ نسير بهذه الأرض التى نمشى فوقها لأنها عريضة أو ثابتة لا تهتز ، ولكن بالصورة المرتسمة فى أذهاننا ، بإرادتنا التى تبعث الطاقة لكى تبقينا فى هذا الوضع من الوقوف أو الارتكاز ، وحسب هذه الصورة المرتسمة فى أذهاننا أن تضطرب لأمر ما ؛ لكى نرى أنفسنا وقد وقعنا على الفور ، ولم تنفعنا الأرض التى نستند إليها ، أو اتساع الشارع الذى نسير فيه ، ولاعب السيرك الذى يزاول حركة معينة أيا كانت خطورتها ، قد تدرب عليها وتدرب باعتبار هذه الحركة هى ضرورة حياته ، لأنها مصدر رزقه ، ويجعل من إتقانها هدفه الوحيد فى الحياة ، ثم

يروح يركز على صورتها ويركز ، فإذا به يحسنها ، وإذا بالطاقة التى تنطلق من هذه الصورة الذهنية ، تبقيه فى الهواء على أصبع ، أو على سلك أو فوق ظهر حصان جامح ، أو تجعل الخناجر المتدفقة فى الهواء لا يمكن أن تؤذى شريكته .

مروضو الوحوش

ويتصل بطائفة لاعبى السيرك ، مروضو الوحوش الضارية ، سواء كانت أسوداً أو نموراً أو فيلة وفهوداً ، حيث يحملون هذه الحيوانات الكاسرة على الإتيان بأعجب الأعمال وأدهشها ، وما ذلك إلا بفضل التدريب المستمر المتواصل ، أو بالأحرى تركيز الإرادة لحمل الحيوان على فعل ما يريد له المروض أن يفعله ، مهما بدا هذا الذى يفعله الحيوان غريباً وغير قابل للتصديق ، بل ومستحيلا فى تصور الكثيرين[1] .

أتباع اليوجا

وإذا كان أبطال الرياضة لا يقفون عند رقم قياسى لأى لعبة من الألعاب لا يحطمونه كسبيل لإحراز الشهرة والمجد ، وإذا كان لاعبو السيرك لا يقفون عند صورة معينة من الشذوذ فى الأوضاع لا يرغبون فى حذقها كسبيل لأكل لقمة العيش .

فإن طرازاً آخر من الناس لا يقصدون شهرة أو مجداً ، ولا يهدفون إلى كسب مادى من أى نوع كان ، وإنما تصوروا — إن خطأ أو صواباً — أنه لا انتصار لروحهم إلا إذا أماتوا أجسادهم بأسلوب أو بآخر ، فإذا هم يقومون بأعمال تفوق منتهى ما يمكن أن يؤمل فيه رياضى أو بهلوان أو مشعوذ .

وليس هنا مجال الحديث عن مذهب اليوجا الهندى ، وكيف يعمل على

(١) اقرأ كتاب « أصدقائى الوحوش » للمروض السوفييتى — بوريس أدر .

إضعاف الجسد لحساب الروح ، وما هي أهدافه من ذلك[1] ، ولكننا نسجل ما يتصل بموضوعنا من استطاعة الإنسان عن طريق توجيه إرادته إلى صنع كل شيء ، وعمل كل شيء مما يتصور أغلبية البشر الساحقة استحالة إمكانه .

ولندع ول ديورانت يصفهم لنا في كتابه قصة الحضارة :

« فعلى ضفاف الطرق وخلال الغابات في الهند ، ترى هؤلاء اليوجيين لا يتحركون ، مستغرقين في التفكير ، منهم الكهول ومنهم الشبان ، منهم الذي يضع خرقة بالية من القماش على كتفه ومنهم من لا يستره إلا تراب الرماد قد طلى به جسده[2] ، منهم من يجلس القرفصاء وقد لفوا ساقاً على ساق لا يتحركون الساعات الطوال ، وقد ركزوا أبصارهم في أنوفهم أو سررهم (جمع سرة) ، يحدق بعضهم في الشمس ساعات متواليات وأياما متعاقبة ، حتى يفقدوا بصرهم رويداً رويداً ، وبعضهم يحيط نفسه بألسنة حامية من اللهب في قيظ النهار ، وبعضهم يمشي على جمرات النار أو يضع الجمرات على رأسه ، وبعضهم يرقد عاري الجسد لمدة خمسة وثلاثين عاماً فوق سرير من حراب الحديد ، والبعض يدحرج جسده آلاف الأميال حتى يصل إلى مكان يحج إليه ، وبعضهم يصفد نفسه بالأغلال في جذوع الشجر أو يزج بها في أقفاص مغلقة حتى يأتيه الموت ، وبعضهم يدفن نفسه في الأرض حتى الأعناق ويظل على هذا النحو أعواماً طوالا ، أو طول الحياة ، وبعضهم ينفذ سلكا خلال الأصداغ حتى يمر بين الصدغين فيستحيل عليه فتح الفكين حاكما بذلك على نفسه ألا يتناول طول حياته إلا سوائل ، وبعضهم يحتفظون بأيديهم منقبضة حتى تنفذ أظافرهم من ظهور أكفهم ، وبعضهم يرفع ذراعاً أو ساقاً حتى يذبل ويموت ، والكثيرون منهم يجلسون صامتين في وضع واحد لبضعة أعوام ، يأكلون أوراق الشجر الذي يأتيهم به الناس .

---

(١) أنظر كتاب فلسفة اليوجا — ترجمة عريان يوسف سعد .

(٢) أتيح لي أن أشهد بعيني رأسي في بنارس هؤلاء الاشخاص الذين طلوا أجسادهم بالرماد ولم يكن الرماد إلا بقايا أجساد الموتى المحترقة . (راجع كتاب أمة تبعث للمؤلف)

ويقول لنا اليوجيون الذين يفعلون هذه الفعال إنه بواسطة اليوجا ، يستطيع الإنسان أن يخدر أى جزء من أجزاء جسده بتركيز فكره فيه ، وبذلك يجعله تحت سلطانه ، فيمكن إذا أراد أن يختفى عن الأبصار ، أو أن يحول بين جسده وبين الحركة مهما كان الدافع إليها ، وأن يمر فى أى لحظة شاء من أى جزء شاء من أجزاء الأرض ، أو يحيا من العمر ما شاء أن يحيا أو أن يعرف الماضى والمستقبل كما يعرف أبعد النجوم[1] . »

وهذا الذى يفعله اليوجيون فى الهند ، قد وجد من يفعله فى كل بلاد الشرق بل والغرب ، ويفترق الناس بصدد الذين يقدمون على هذه الفعال ، فالبعض يعتبرهم من المتصوفين الواصلين ، والبعض يتصورهم مشعوذين دجالين[2] ، والذى يعنينا أن هذه الأعمال الشاذة التى يتصور الإنسان استحالة إقدام الإنسان عليها تتم بالفعل لمجرد اتجاه إرادته لإتيانها ، بحيث نستطيع أن نقرر على وجه القطع واليقين ، هذا الذى نقول به من أن إرادة الإنسان

---

(١) قصة الحضارة الجزء الثالث — ص ٢٦٦

ويجب أن يضاف إلى هذه الصور هؤلاء الذين يطلبون أن تؤجج لهم نيران متقدة ثم يسيرون إليها فى هدوء وانشراح فتحرق أجسادهم دون أن يسمع لهم صوت أو أنين . ولقد أذهلت هذه الظاهرة كل من شاهدها ، وسجلتها كتب التاريخ ابتداء من تاريخ الإسكندر المقدونى (٣٢٦ ق.م) حتى تاريخ ابن بطوطة الذى كاد يغمى عليه لرؤية ثلاث نساء يقذفن بأنفسهن فى النار وهن يضحكن . لولا أن أقبل عيه أصحابه فابتعدوا به عن المنظر ، ورشوا على وجهه الماء — (مهذب ابن بطوطة — الجزء الثانى ص ٢٢)

(٢) نشرت مجلة آخر ساعة فى عددها الصادر فى ١٠ مايو سنة ١٩٦١ تحقيقا صحفيا لمراسلها فى حلب عن بعض أعمال يقوم بها نفر من الدراويش ، وقد صحب المراسل مصورا صحفيا التقط عديدا من الصور التى نشرتها المجلة ، ويبين من الصور أن بعض الدراويش قد استطاع أن ينفذ أسياخا محماة من النار إلى داخل بطنه دون أن يسيل منها دم ، أو يحرق لهم جلد أو يحسوا بألم . وروى المراسل المذهول مما رأى ، قول شيخ هذه الطريقة فى تفسير هذا الذى يقع ، أن ليس فيه أمر معجز وإنما هو انعدام الذات ، بحيث تصل الروح إلى السماء ويبقى الجسم رغم حركته الدائبة لا روح فيه ، ومهما ضربت فى جسد لاروح فيه ، فإنه لا يتأثر أو يتألم أو يشعر بشىء .

فى فعل شيء لا بد أن تنفذ ، وأن ليس هناك حد لتقف عنده ، سواء فيما تفعله بالجسد أو بالعناصر الكونية كلها .

وقد بقى أن نسوق بعض صور من التاريخ والحاضر ؛ لنظهر كيف استطاعت الإرادة أن تتغلب على العاهات الموروثة ، والنقص الطبيعى فى الجسد ، بل كيف استطاعت أن تتغلب على مقاومة البيئة كلها أحيانا ، بحيث تفرض نفسها على الرغم من كل العوامل المعاكسة والمضادة .

تغلب إرادة الإنسان على النقص الطبيعى :

ديموستين[1]

إن أعظم خطيب خلده التاريخ قد ولد عييا ، ضعيف الجسد ، لا يقوى على الكلام ، ويقول فلوطرخس (بلوتارك) إنه كان يعمل للتغلب على ما فيه من نقص طبيعى ، فكان يخاطب البحر وفمه مملوء بالحصباء ، أو يخطب وهو يصعد فوق الجبل ، وكان يعيد خطبه مرارا ويتلوها على نفسه أمام المرآة ، واحتفر لنفسه كهفا يعيش فيه عدة شهور لا يكاد يعلم به أحد ، وكان فى هذه الفترات يحلق نصف وجهه ويبقى على النصف الآخر حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من مأواه[2] .

وهكذا لم يكن النقص الطبيعى فى لسان ديموستين عائقا فى سبيل إرادته ، بل كان هو نقطة الانطلاق التى بدأت منها الإرادة عملها ؛ لإثبات هذا الذى نقول إن الإرادة توصل الإنسان إلى كل ما يريد .

من هوميروس إلى بتهوفن

وليس هذا الذى فعله ديموستين ، حيث حول النقص الطبيعى إلى نقطة

---

(١) توجت أثينا ديموستين كأعظم خطيب أنجبته ، وشادت له التماثيل التى تعتبر أعظم ما أبدع الفن الأغريقى .

(٢) قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الثانى

انطلاق ، بالأمر الفذ ، ولا هو بالغريب لا فى القديم أو الحديث ، ففى القديم سجل لنا التاريخ اسم هوميروس ، كأعظم من أنجب العالم من الشعراء ، وقد كان كفيفا . وفى دنيا العرب نبغ شاعر ينسب إليه أروع بيت من الشعر فى وصف الحرب مع أنه كان كفيفا ، ذلك هو بشار بن برد . وثمة شاعر آخر وفيلسوف ، يعتبر من أعظم ما أنجب العرب فى حضارتهم وذلك هو أبو العلاء المعرى صاحب اللزوميات ورسالة الغفران (التى يعتبرها الكثيرون الأصل الذى استمد منه دانتى الكوميديا الإلهية)

ويعيش الآن بين ظهرانينا الدكتور طه حسين الكفيف البصر ، ومع هذا لم يحل ذلك بينه وبين أن يكون زعيم الأدب العربى فى النصف الأول من القرن العشرين ، لما أحدثه من ثورة فى دراسة الشعر وما كونه من مدرسة ، وما كان له من محبين ومعجبين ، ليس فقط فى طول العالم العربى وعرضه ، بل فى العالم الخارجى الذى قلده أعظم الشهادات العلمية وأرفعها . وإذا كان العىُّ لم يمنع إنسانا من أن يكون أعظم خطيب فى التاريخ القديم ، والعمى لم يحل بين هوميروس أو أبى العلاء والخلود ، فإن الصمم لم يحل بين بتهوفن وبين أن يبدع أروع سيمفونياته ؛ فقد أصيب بالصمم ، فلم يعد يسمع موسيقاه التى يؤلفها ، أو أصوات الفرقة التى يقودها ، حتى أصوات المصفقين له الذين كانوا يلهبون أكفهم بالتصفيق ، لم يكن يسمعهم إلا إذا أداروا وجهه للناس ليرى بعينى رأسه ، كيف يكادون يجنون من فرط الإعجاب بموسيقاه التى لايسمعها[1] ، وإلى أى حد قد أصاب من المجد والخلود .

هيلين كيللر

على أنه لا الذى فعله ديموستين فى القديم ، إذ تحول من عي اللسان

(١) الثقافة الموسيقية للصاغ صالح عبدون — ص ٢٣٤ .

إلى خطيب ، ولا مافعله هوميروس أو أبو العلاء أو بتهوفن ، بالذى يقاس بهذا الذى فعلته أمريكية معاصرة ، والتى لم يقف رزء الطبيعة لها عند حد إفقادها البصر ، بل وإفقادها السمع أيضاً ، وعاشت طفولتها الأولى صماء عمياء بكماء ، إذ لم يكن باستطاعتها أن تتكلم مادامت لاتتلقى شيئاً ، ومع ذلك ، فقد استطاعت هيللين كيللر فى نهاية الأمر ، أن تكون زعيمة روحية للملايين ، تنشر الإيمان واليقين بالله ، واستطاعت أن تكون معلمة ومدرسة ونورا يبعث الأمل إلى قلوب الذين حرموا نعمة البصر وحاسة السمع ، فتكون قدوة لهم وإماما يبرهن لهم على أن فقدان البصر بل والسمع قد يكون السبيل إلى المجد . . . ولا حد لما تستطيع طاقة الإنسان ، حتى لو كان أصم أو أبكم أو أعمى ، أن تحققه .

وإذا كان بتهوفن كما ذكرنا من قبل ، لم يستطع أن يسمع تصفيق مئات المعجبين به ، وكان مضطرا للالتفات لكى يرى بعينى رأسه ماعجزت أذناه عن حمله إليه ، فإن هيللين كيللر التى لابصر لها ولا سمع ، قد أجابت الذين سألوها كيف استطاعت أن تدرك تحية الألوف من المصفقين ، فأحنت رأسها رداً على تحيتهم ، قائلة إنها شعرت بذلك عن طريق اهتزاز الأرض تحت قدميها[١] .

(١) ولدت هللين كيللر عام ١٨٨٠ وقبل أن تتم عامها الثانى ، فقدت بصرها وسمعها من خلال مرض أصيبت به وتقول عن نفسها : « خلال سنوات ست ، لم يكن لدى أى فكرة من أى نوع كان عن الطبيعة أو العقل أو الموت أو الله ... لقد كان شأنى شأن قطعة من الأرض الباردة غير الواعية » .

وفى بطء شديد وجهد مضن وألم عميق ، راحت تتعلم أسماء الأشياء التى يمكن أن تلمسها ، فتعلمت كيف تتكلم ، وكيف تسمع عن طريق يدها ، ثم تعلمت كيف تقرأ وكيف تكتب على الورق ، أو على الآلة الكاتبة ثم دخلت جامعة رادكلف ، فدرست وحصلت على أجازاتها العلمية بحيث يمكن القول إنه لايوجد فى أى عصر من عصور التاريخ امرأة وصلت إلى ماوصلت إليه بحق .

وقد بلغ عمرها عند كتابة هذه السطور ٨١ سنة

My religion By Helen Keller

وإذا كانت كل صنوف النقص الطبيعي والخلقي ، لم تحل بين إنسان ما وبين الوصول إلى أقصى درجات الشهرة والمجد والزعامة الأدبية أو الروحية فى العالم ، فقد بقى أن نسجل لك أيضاً كيف أن العمى أو المرض بالشلل وقطع الأطراف ، لم يحل دون التفوق الرياضي والحصول على البطولات العالمية .

فعن طريق التدريب أصبح باستطاعة المكفوفين مزاولة رياضة التجديف والجولف وبعض ألعاب القوى ، واستطاع فى الولايات المتحدة الأمريكية عداء من أحد ملاجيء العميان ، أن يقهر بطل العالم الأولمبي فى سباق المائة متر بعد تغمية عيني البطل الأولمبي[1] .

وردل Redl بطل النمسا فى لعب التنس ، الذى مثلها فى مباريات كأس ديفز ، كان بذراع واحدة . وتعقد فى أوربا وأمريكا مسابقات للاعبي الجولف من ذوى اليد الواحدة ، ومسابقات فى كرة السلة لمبتورى الساقين الذين يجلسون على كراس متحركة .

ولعل الشيء الذى يثير الدهشة أكثر من ذلك كله ، أن نعلم أن شخصا مبتور الساق ، قد استطاع أن يسجل فى الوثب العالى قفزة مقدارها ٥ أقدام و ٧ بوصات (الرقم العالمى ٧ أقدام) وفى عام ١٩٢٨ استطاع رجل فقد ساقه فى الحرب العالمية الأولى ، أن يتسلق أعلى جبال أوربا Matterhorn[2].

وأخيراً ، فقد شهدت دورة روما للألعاب الأولمبية إحدى هذه المعجزات البشرية ، وهى بطلة العالم فى سباق الـ ٤٠٠ متر ، ونعنى بها الزنجية

---

(١) كان كل من المتبارين يجرى إلى جوار حبل مشدود تنزلق عليه بسهولة ، حلقة معدنية اتصل بها منديل يمسك به العداء . ص ١٤٩ The human mechine

(٢) The human machine ص ١٥٠

الصغيرة ويلما رودولف ، والتى أحرزت لأمريكا ميداليتين ذهبيتين ، وكان يمكن أن تحرز لها ميدالية ثالثة لولا تقصير باقى زميلاتها .

وقد حان الوقت لتعرف أن ويلما رودلف قد ولدت طفلة هزيلة لا يزيد وزنها عن كيلو جرامين . وكان ترتيبها السابعة عشرة بعد ستة عشر طفلا سبقوها إلى الحياة ، ولم يكن أبوها الذى ينوء بهذا الحمل ، سوى كاتب صغير يعمل فى أحد متاجر مدينة تنيس . ونظرا لضعف ويلما الشديد عند ولادتها ، فلم تبدأ حبوها إلا فى العام الرابع من حياتها ، مع أن الأطفال العاديين يبدأون المشى فى العام الأول — وأصيبت ويلما بالحمى القرمزية ، وبالتهاب رئوى مضاعف ، وظلت الطفلة بضعة أسابيع على وشك الموت ، ولكنها نجحت أخيراً ، واستطاعت أن تسترد صحتها . ولكن ساقها اليسرى أصيبت بالشلل ، وكان لها أم ذات قلب كبير ، وإرادة جبارة ، فقالت إن هذه البنت يجب أن تمشى ، وحملتها إلى أقرب مستشفى على بعد ٧٠ كيلو مترا ، فقالوا لها إنها تحتاج إلى تدليك ، قد يستمر بضع سنوات ، قبل أن يعرفوا إذا كان ثمة أمل فى أن تمشى ، وقررت الأم أن تقوم بعملية التدليك ، فى كل ليلة لمدة عامين ، كانت خلالهما تحملها كل أسبوع إلى المستشفى ، قاطعة ١٤٠ كيلو مترا فى الذهاب والأوبة .

وأخيرا لاح بعض الأمل ، إذ ظهر شىء من التحسن على الساق المشلولة ، فضوعف العلاج . وعلمت الأم أربعة من أبنائها ليساعدوها فى تدليك الساق المشلولة . وفى عام ١٩٤٦ استطاعت ويلما أن تحجل مسافات قصيرة بساق معوجة . وفى الثامنة من عمرها استطاعت أن تسير بطوق حديدى فى ساقها ، ثم استبدل الطوق بفردة حذاء عالية صنعت خصيصا لقدمها اليسرى ، وبدأت ويلما تسير إلى مدرستها فى سعادة وهى تعرج[1] . هذه هى الفتاة التى

---

(١) المختار عدد يوليو سنة ١٩٦١

استطاعت فى العشرين من عمرها أن تكون بطلة العالم فى العدو ، وأن تنتخب بالإجماع كرياضية عام ١٩٦٠ للعالم . جزاء وفاقاً لإرادة هذه الأم الزنجية التى رفضت أن تقهر أمام الشلل ، فقالت : هذه البنت يجب أن تمشى فمشت ، ثم جرت ، ثم تفوقت على العالمين فى الجرى[1] .

تغلب الإرادة على عقبات البيئة

وإذا كانت العقبات الطبيعية الخلقية ، لم تستطع أن تحول بين الإنسان وبين الوصول إلى ما يريد رغم أنف النقص أو العجز . .

فكذلك الشأن بالنسبة للبيئة ، فلم تستطع الظروف الاجتماعية ومقتضيات البيئة ، أن تحول بين إنسان وبين وصوله إلى الذروة التى أرادها لنفسه ، والتاريخ والحاضر من حولنا يغص بمئات من الأمثلة والقصص ، ولذلك لحسبنا أن نشير لبعض هذه الأمثلة .

جوستنيان وتيودوره

يغص التاريخ بأسماء الملوك الذين ولدوا فى العز والجاه والسلطان ، وانتهوا إلى التشريد والحرمان ، أو قطع رؤوسهم وسمل أعينهم ؛ كنتيجة طبيعية لضعف إرادتهم[2] .

ويقف فى مقابل هؤلاء أشخاص من غمار الشعب ، وصلوا إلى السلطان رافعين معهم نساءهم ، ليكن أباطرة وملكات ؛ ومن هؤلاء جوستنيان الذى

---

(١) كان لهذه الحوادث وأمثالها الفضل فى لفت النظر إلى إنشاء معاهد التدريب والتأهيل المهنى للعجزة ، حيث يهيأ كل من أصيب بعاهة لممارسة فنون أو صناعات ، واكتساب مهارات جديدة تتفق ووضع الإنسان الجديد .

ويظهر العجزة ألوانا من الخوارق والمعجزات فى هذه المعاهد ، حيث يزاولون أعمالا ما كانوا يتصورون أنهم قادرون عليها قبل أن يصابوا برزئهم .

(٢) يجمع المؤرخون على أن فقدان لويس السادس عشر لعرشه ورأسه معا إنما يرجع إلى تردده وضعف إرادته .

يعتبر ألمع اسم سجله تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وقد ذهب جوستنيان فى عداد الخالدين من جراء مدونته التشريعية ، تلك التى ضمنها تراث البشرية القديم من التشريع ، فظلت ينبوعا و نبراسا للقوانين فى كل زمان ومكان . ولم يكن جوستنيان هذا إلا ابن رجل فلاح فقير مغمور من بلدة ايلاريا (صوفيا) ، عاصمة بلغاريا فى الوقت الحاضر ، وأما زوجته الإمبراطورة تيودوره التى أجلسها معه على العرش تشاطره حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية المقدسة ، فقد بدأت حياتها فتاة سيرك ، ثم احترفت البغاء فترة من الزمن قبل أن تصبح إمبراطورة على أكبر كرسى مسيحى عرفه التاريخ(١) .

نابليون وجوزفين

وتصادفنا نفس القصة على نطاق أوسع فى القرن التاسع عشر فى شخص نابليون ، ذلك الشاب الكورسيكى (نسبة لجزيرة كورسيكا) أى أنه لم يكن فرنسيا ، ومع ذلك فقد أصبح إمبراطوراً للفرنسيين ، وأصبح كذلك غداة الثورة الفرنسية ، التى أغرق فيها الشعب الفرنسى أرض فرنسا بالدماء ، وأطاح برأس الملك والملكة ، وكل من كان يمت إلى الملكية بصلة ، وأعلن الجمهورية وحقوق الإنسان ، فإذا بإرادة نابليون تتغلب على ذلك كله ، وتحمل هذا الشعب الثائر على المناداة به امبراطورا على أوربا كلها . ووضع نابليون التاج على رأسه بيده ، إشارة إلى أنه هو الذى يهب نفسه التاج ، ثم وضعه على رأس زوجته جوزفين ، منادياً بها إمبراطورة على فرنسا ، ثم جعل من أشقائه ملوكا على شرق أوربا وغربها .

(٢) قصة الحضارة — ول ديورانت — الجزء الأول من المجلد الرابع — ص ٢١٤ .

وفى عصرنا الحديث شهدنا أروع مايمكن أن تصل إليه إرادة رجل وامرأة ، فأما الرجل فهتلر ، وأما المرأة فايفا براون زوجته ، أمام الله وأمام التاريخ .

بدأ هتلر حياته العامة جاويشا فى الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى ، وقد كان من بين الجنود المسرحين الذين سرحوا عقب انتهاء الحرب ، فراحوا يتجولون فى شوارع برلين عاطلين لايجدون عملا يعملونه . . .

ولم يكن هتلر قد تلقى أى تعليم أكثر من هذا الذى يتلقاه عامة الشعب ، ومع ذلك فإن هذا الجندى العاطل ، قرر وسط الفوضى التى غرقت فيها ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى ، أن يكون هو منقذها من الفوضى ، أن يكون هو الذى يمزق معاهدات الصلح التى جللتها بالعار . . أن يكون هو الرجل الذى ينتقم ويثأر لها ، وأخيراً أن يكون الرجل الذى يبوئها سيادة العالمين .

وشق هتلر طريقه وسط ألمانيا العسكرية ، ألمانيا التى كانت تغص بعشرات من القواد العسكرين العالميين ، من أمثال ماكنزن ولودندورف وهندنبرج . . . ومع ذلك فإن هذا الجاويش قد وصل إلى زعامتها .

وحقق هتلر كل الذى أراد أن يحققه ، فأصبح زعيما لألمانيا ورئيساً لها ، ومزق معاهدات الصلح ، وجعل ألمانيا أقوى دولة فى أوربا ، ولو لم يخالف هتلر القواعد التى رسمها لنفسه فى كتاب كفاحى ، لما هزم ، ومع ذلك فسيظل اسم هتلر رمزاً لأعظم قصة من قصص الإرادة الإنسانية ، وإيمان الإنسان بنفسه .

وإلى جوار هتلر قامت امرأة لم يعرف العالم من أمرها شيئاً إلا بعد موته ، وبينما كانت إرادة هتلر أن يكون سيد العالم ، كانت إرادتها هى

أن يكون هتلر زوجها ، وفشل هتلر فى أن يكون سيد العالم ، ولكن ايفا براون فازت بأمنيتها ، فلم تمت إلا بعد أن تزوجها هتلر ، واتحدت به فى موتها من دون العالمين .

كليمنت السابع

وأخيراً لا أريد أن أختتم هذه النماذج المختارة ، دون أن أشير لشخصية جاءت إلى هذه الحياة ، موصومة بأشنع ما اعتاد المجتمع فى القديم أن يصم به إنساناً ، وهو أن يكون ثمرة اتصال غير شرعى ، فيلقب بابن الزنا ، وتظل هذه اللعنة تصاحبه حيث ذهب وأنى سار . ومع ذلك فإن هذه الوصمة لم تحل بين جويلو دى مديتشى ، الذى لم يكن إلا ابناً غير شرعى رزق به الرجل الظريف جوليانو دى مديتشى من عشيقته فيورتا ، وبين أن يتوج بابا على المسيحية كلها باسم كليمنت السابع ، ويجلس على عرش بطرس الرسول ، ولعل أطرف مافى الموضوع أن تعرف أنه قد وصل إلى هذا المركز بانتخاب حر ، وإجماع كرادلة المجمع المقدس على انتخابه بابا خلفا لادريان عام ١٥٢٣[١] .

تحقق إرادة الإنسان

وهكذا يثبت الواقع أنه لا العقبات الطبيعية ، أو الاجتماعية ، بالتى تحول بين الإنسان ، أى إنسان ، وبين أن ينفذ إرادته متى أدرك من نفسه أن إرادته بالذات ، هى القوة الحاسمة فى هذا الوجود . وإذا كان هذا الذى نقوله هو أحد قوانين الطبيعة ، فإنه كأى قانون آخر فى الطبيعة ، لا يمكن إلا أن ترد عليه بعض الاستثناءات ، وقد حان الوقت لنبحث هذه الاستثناءات .

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الرابع — المجلد الخامس — ص ١٨٣

الاحوال الاستثنائية التي لا تنفذ فيها إرادة الانسان :

باستطاعتنا أن نلخص الاستثناءات التي لا تنفذ فيها إرادة الإنسان في ثلاثة أحوال :

١ — الاصطدام مع سنن الطبيعة .

٢ — حالة القضاء والقدر .

٣ — اصطدام إرادة الإنسان بالإنسان .

والحالتان الأوليان هما اللتان يمكن أن يعتبرا بحق من الحالات التي لا يعمل فيها القانون ، أما الحالة الأخيرة فعدم العمل فيها نسبي ، أي أن القانون يعمل فيها لحساب شخص دون الشخص الآخر .

أولا الاصطدام مع سنن الطبيعة :

لا يمكن بطبيعة الحال أن نتصور إمكان تحقيق إرادة الإنسان ، إذا اصطدمت مع سنن الطبيعة وقوانينها الأساسية . فالطبيعة مثلا تقوم على الحركة ، وكل ما في الكون متحرك ، وهي تقوم على التغير والتفاعل المستمرين ، فلو أراد الإنسان أن يوقف حركة الطبيعة ؛ كأن يتجه بإرادته إلى إيقاف سير الشمس أو القمر أو الأرض ، فلن يكون باستطاعته تحقيق ذلك ؛ لأنه مهما تصورنا قوة الإنسان مطلقة ، فهي في نهاية الأمر مستمدة من الطبيعة ، وهي جزء من كل ، وليس بقدرة الجزء أن يسيطر على قوانين الكل ، فالإرادة البشرية وهي تعمل بالذات من خلال نواميس الطبيعة ، لا يمكن أن تأخذ كل قوتها إلا حيث تعمل في دائرة هذه القوانين والنواميس .

على أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال ، أن يضع الإنسان أي قيد على فكره أو خياله ، بدعوى أن هذا الأمر أو ذاك مما لا يتفق مع نواميس الطبيعة ، فنحن لا نعرف هذه النواميس على سبيل القطع واليقين ، وما

يبدو لنا اليوم أحد نواميس الطبيعة ، يتضح لنا فيما بعد أنه لم يكن كذلك إلا فى تصورنا كما رأينا ، وعلى ذلك فيجب على الإنسان أن يرسل إرادته حيث تريد أن تنطلق ، حتى ولو كان يظن أن ما يريد أن تنطلق إليه مستحيل ، فقد لا يكون مستحيلا إلا فى توهم البعض .

وإذا كنا نقول إن أحد شروط نفاذ الإرادة الإنسانية هو ألا تتصادم مع القوانين الأساسية للطبيعة ، فليس ذلك إلا لنفسر بعض الأحوال التى لا تنفذ فيها الإرادة الإنسانية مع توفر شروط نفاذها الثلاثة .

ثانيا — قوة القضاء والقدر :

وإذا كان اصطدام الانسان بإرادته الخاصة مع نواميس الطبيعة ، من شأنه أن يحول دون تحقق هذه الإرادة ، فإن النواميس الطبيعية من ناحية أخرى ، قد تدهم الإنسان إبان نشاطها الهادف لتحقيق غاياتها الكلية ، فإذا هى تقعد الإنسان عن الحركة حيث يريد أن يتحرك ، أو تصيبه بالمرض وشتى الحوادث ، وهو أحوج ما يكون إلى الصحة والعافية ، وأخيرا قد تخترم حياته كلها حيث يريد لها أن تطول . هذه الحوادث وأمثالها مما قد يقع للإنسان ، قد تواضع البشر على تسميتها بقوة القضاء والقدر ، مظهر إرادة الله ومشيئته . وقال الماديون والطبيعيون : بل هى الصدفة التى تخبط خبط عشواء بلا هدف أو غاية مقصودة ، وسرعان ما أثبت العلم ، أن ما ظنه البعض صدفة تسير على غير هدى ، إنما يعمل بقوانين ثابتة ومطردة كأى قانون آخر يعمل فى هذا الكون ، وعلى هذا الأساس نشأت قوانين الاحتمالات ، التى أصبحت تحكم ما كنا نتصور أنه يحدث بالصدفة .

وهكذا عدنا إلى القول القديم الثابت من أن القضاء والقدر ، هما مظهر قانون يعمل كأى قانون آخر لغاية محددة وهدف مرسوم .

على أننا كما قلنا فى البند السابق ، إن الإنسان لا يجب أن يضع قيدا

على إرادته خوفا من أن يصطدم بالقوانين والنواميس الطبيعية ، فقد يتضح فى نهاية الأمر أن ما كان يتصور أنه قانون من قوانين الطبيعة ، ليس قانونا على الإطلاق ، فكذلك نقول هنا إنه يجب على كل إنسان أن يسقط قوة القضاء والقدر من حسابه ، فلا يقيم لها وزنا ، ولا يجعلها تحد من نشاطه أو تعرقل إرادته . ومن حسن الحظ أن هذا هو ما اتبعه الناس بالفعل .

فلم يوقف الموت الذى قد يفاجىء الإنسان فى أى لحظة ، إنسانا ما عن العمل والجهاد والكدح والبناء والتعمير ورسم الخطط القريبة بل والبعيدة لعشرات ومئات السنين .

ولم تحل مخاطر الطريق بين الانسان وأن يجوب القفار ، ولم تحل مخاطر البحار عن أن يخوض الإنسان البحار عندما كانت سفينته تعمل بالشراع . ولم تحل الآفات الزراعية بين الفلاح وبين أن يزرع أرضه فى أى عام من الأعوام . ولم تحل كوارث البراكين والزلازل من قيام دول من أعظم الدول على هذه الأرض ، التى تنكب بهذه الكوارث من حين لآخر كاليابان .

ولم تحل الحروب المدمرة أو الطواعين والأوبئة والمجاعات ، بين الإنسان وأن يكافح فى ثبات لإنشاء دول وإنشاء حضارات .

ذلك أن الإنسان أدرك أن ما فى الكون من قوة تدهمه وتدهم مشروعاته ، ليست هى القانون الأعم ، بل هى الاستثناء ، وهى تؤلف كسرا صغيرا بالنسبة للعدد الكبير الذى تطرد فيه الحوادث على نسق القوانين التى يعرفها ويألفها .

ولما كان الإنسان قد خلق ليحيا وينمو ويترعرع ويعمل ملكاته التى جهزته بها الطبيعة ، فقد راح ينظم حياته ومجتمعه ومستقبله ، على أساس القوانين المطردة لا الاحتمالية ، وعلى القاعدة العامة لا الاستثنائية ، مسقطا بذلك من حسابه هذه الأحوال الطارئة التى تتوقف فيها القوانين عن العمل ،

والتى تنحرف فيها الحوادث عن المألوف والمعتاد ، مما سماه القضاء والقدر .

وإسقاط القضاء والقدر من حساب الإنسان كعامل فعال فى حياته ، هو ضرورة واجبة على الإنسان ، وحق له فى ذات الوقت ، فالعقل البشرى لا يعرف إلا ما يسير على نهج محدد وبسنن واضحة ، ولقد أعد وجهز بحيث يربط الأسباب بالنتائج ، والمعلولات بالعلل ، مستخلصاً ذلك من اطراد الحوادث على وجه متشابه . ولا سبيل لحياة الإنسان فى هذا الكون إلا على أساس هذه القوانين المطردة الثابتة . أما هذه القوى الأخرى التى لا تزال مجهولة ، قوة القضاء والقدر التى قد توقف القوانين المألوفة عن العمل ، والتى لا يعرف الإنسان متى تقع ولا أين وكيف تقع ، فمن المحال على العقل البشرى أن يدخلها فى حسابه ، مادامت تشذ عن الحساب المألوف ، وقد لا يكون لها حساب من نوع يستطيع أن يحذقه الإنسان .

ويكون الشأن بالنسبة لهذا الاستثناء ، هو ما قلناه بالنسبة للاستثناء الأول ، وهو أننا إنما نذكره على سبيل التعليل والتفسير للأحوال التى قد لا تتحقق فيها إرادة الإنسان ، على الرغم من استكمال شرائطها . ولكن ذلك لا يعنى بحال ، أن يتوقف الإنسان عن إعمال إرادته فى أى لحظة من اللحظات ، أو أى شأن من الشئون ، خوفاً من الاصطدام بالقضاء والقدر ، فقد يكون إعمال الإرادة فى هذا الأمر ، هو عين ما يريده القضاء والقدر .

ثالثاً — اصطدام الإرادات الإنسانية

بقيت الحالة الثالثة ، هى التى يتوقف فيها قانون نفاذ الإرادة الإنسانية توقفاً نسبياً ، بمعنى نفاذه لشخص على حساب عدم نفاذه لشخص آخر . فما هو الرأى إذا تعلقت إرادة إنسان بهدف ، قد تعلقت به إرادة إنسان آخر ؟ لامناص هنا من اصطدام الإرادات ، ومن هنا كان الصراع الذى نراه بين البشر ، وكل ما جر إليه من متاعب وآلام وشرور وفساد فى الأرض .

فنعدما يتصارع اثنان أو أكثر للحصول على بطولة رياضية ، محلية كانت أو إقليمية أو دولية ، فلا مناص من فوز إنسان واحد بهذه البطولة أو الجائزة ، وانهزام إنسان آخر أو آخرين ، ولا يحدث ذلك فى ميدان الرياضة فحسب ، بل يتعداه إلى سائر ميادين الحياة ، حيث المنافسة والصراع على أشده فى دنيا المال والجمال والسلطان ، فينتصر أشخاص وينهزم عديدون يتجرعون غصص الفشل وخيبة الأمل ، التى قد يستتبعها الفقر أو العار أو فقدان الحرية والكرامة ، أو الحياة من أساسها ، كما هو الشأن فى المعارك الحربية .

وعندنا أن الهزيمة لا تعنى شيئاً سوى نقص شرط من شروط الإرادة عند المنهزمين وكمالها عند الفائزين ، وليس أدل على ذلك من أن بعض المنهزمين ، لا يكادون يهزمون حتى ينسحبوا من الميدان على الفور وإلى الأبد ، فيبرهنوا بذلك على نقصان شرط من شروط الإرادة وهو « ثبات الهدف » وهناك بعض المنهزمين يجعلون من هزيمتهم حافزاً جديداً لشحذ عزيمتهم ، لمعاودة الكرة ثانية وثالثة ورابعة ، فيتحقق شرط ثبات الهدف ، فلا يمكن إلا أن ينتصروا فى النهاية على من يكونون دونهم ، استكمالا لشرائط الإرادة .

وهكذا قد يخيل لنا أن قانون نفاذ الإرادة لا يتحقق عند اصطدام إرادتين بشريتين ، ولكن الذى يحدث أنه يتحقق دائماً بالنسبة لمن يستكمل شرائط الإرادة ضد الذى لم يستكمل شرائطها .

هل للجماعة إرادة أقوى من إرادة الفرد ؟

بقى علينا لكى نختم بحثنا عن الإرادة ، أن نتساءل هل هناك ما يسمى إرادة جماعية تتفوق على الإرادة الفردية ، أو بمعنى آخر هل إرادة العشر

أقوى من إرادة الفرد ، وهل إرادة الألف أقوى من إرادة المائة ، والجواب على ذلك بالنفى .

فالإرادة كما قلنا من قبل ، هى أحد مظاهر العقل الإنسانى الذى هو بعض هذا السر ، الذى يقوم به الوجود والعقل الإنسانى . الإرادة الإنسانية لا يمكن أن تكون شيئاً قابلا للتجزئة ، وبالتالى للزيادة أو النقص ، إن الأم عندما تنجب طفلها ، فهى لا تقتسم الحياة بكل مظاهرها بينها وبينه ، وإنما هى تنقل إليه الحياة بكل أسرارها وما تنطوى عليه من طاقات ، والإنسان الذى يولد له ألف طفل أو مليون طفل ، فإن سر الإيجاد الذى ينطوى عليه لا ينقص بمقدار ذرة نتيجة لما ولد . . . إن السر يظل هو السر بكل قوته وكماله .

إن جميع شجيرات القطن فى الدنيا ، لا تنطوى على سر النمو والتكاثر بأكثر مما تنطوى عليه بذرة واحدة ، وليس فى كل شجيرات القطن فى العالم إرادة فى النمو تزيد عما فى داخل بذرة واحدة من بذور القطن ، فالسر واحد لا يتجزأ ، وهو إما أن يكون أو لا يكون .

وكل إنسان ينطوى على هذا السر الذى يمثل حصيلة ما انتهت إليه الطبيعة من قوى وطاقات ، ولن تزيد هذه الحصيلة باجتماع مائة رجل أو ألف أو مليون ، فحصلة القوى واحدة فى الجميع .

والثابت أن الجماعة إذا لم يكن لها قائد ، فإنها لا يمكن أن تكون لها إرادة موحدة ، بالتالى لا يمكن أن تفعل شيئاً قليلا أو كثيراً ... إن ملايين الناس بغير قائد يوحد اتجاهها وينظم قواها نحو هدف واحد ، لا تساوى شيئاً ، وعلى هذه الوتيرة هزمت شعوب ودحرت جيوش ؛ لأن قلوبها لم تكن مجتمعة على قلب رجل واحد ، أو بالأحرى لأنه لم يكن لها قائد يوحد هدفها ، ويطلق طاقاتها فى اتجاه واحد .

وعلى العكس تحولت شعوب وجماعات تحت تأثير رجل واحد ، من لجة اليأس إلى ذروة القوة أو الشجاعة .

وما أكثر الرجال كما سترى فى الفصل القادم ، الذين تحدوا بإراداتهم وإيمانهم شعوبهم وجماعاتهم ، فهزمت الجماعة وانتصر الفرد ، وتحول الجميع من مقاومته وحربه ، إلى الوقوف وراءه وتحت لوائه .

فالإرادة فردية وهى شىء لا يجمع ، ولكنه شىء يستثار فى كل نفس على حدة ، وما يفعله القائد أو الزعيم هو أن يدل كل إنسان على ما فى نفسه من طاقة ليسخرها .

ومن الأمور المسلم بها ، أن الطاقات الإنسانية كالإيمان والشجاعة والإرادة ، تسرى كالعدوى من إنسان لآخر . والحقيقة أن هذا التشبيه إنما يقال على سبيل التجوز ، فالإرادة لا تنتقل ، والعقل لا ينتقل ، والشجاعة لا تنتقل ، فكل هذه صفات وقوى كامنة فى كل نفس على حدة واستقلال ، وإنما الذى يحدث أن الإنسان بمجرد أن يرى أمامه رجلا شجاعاً ، تتحرك فى نفسه صورة الشجاعة فيصبح شجاعاً ، أو يرى أمامه إنساناً جباناً فتتكون فى نفسه صورة الجبن فيصبح جباناً . . . ويرى الإيمان فيصبح مؤمناً بقوة من داخله ، ويرى الإنسان المريد فتتحرك إرادته .

وهذه هى رسالة القادة والزعماء والأنبياء والمرسلين ، أن يحملوا الناس على اكتشاف ما فى نفوسهم ، من طاقة واقتدار ، فيريدون ويحققون الذى يريدون .

ولذلك فهو وهم تردى فيه الكثيرون أخيراً ، من وضع الفرد فى مواجهة الجماعة والتحدث عن إرادة الفرد ، وإرادة الجماعة ، وعن قوة هذه الأخيرة وضعف الأولى ، وهو كله خلط وعدم فهم ، فما من جماعة تفوز على جماعة أخرى ، أو على فرد إلا بقوة فرد واحد تكون إرادته هى الأقوى ، فيجرى الحديث عن الجماعة وإرادة الجماعة ، والحقيقة أن الذى ينفذ هو إرادة إنسان فرد واحد فى نهاية الأمر .

وما من فرد إلا ويحكم أى جماعة رغم إرادتها ما لم يتصد فرد آخر ،

يكون أقوى إرادة منه لتخليصها منه . . . فعندما نتحدث عن الإرادة البشرية ، فهى كل لا يتجزأ ، وهذا الكل متوفر لدى كل إنسان ، والفارق بين إنسان وآخر ، ينحصر فى أن إنساناً يعرف مدى قدرته فيستعملها ، وآخر لا يعرف مداها فيقف عند الحد الذى يتصور أنه منتهى قوته ، وسنزيد الأمر شرحاً فى الفصل القادم . . . عندما نرى كيف يستطيع إنسان فرد أن يغير مصير أمة ، بل مصير البشرية كلها .

تلخيص :

وإذا كان حديثنا عن الإرادة قد طال واستفاض ، فقد يكون من الخير أن نلخص كل ما ذكرناه من حقائق فى هذا الفصل ، فى السطور القليلة التالية:

أولا — باستطاعة كل إنسان أن يحقق أى هدف يتصوره فى ذهنه ، إذا توفرت فى هذا الهدف الشروط الثلاثة الآتية :

١ — ضرورة الهدف .
٢ — وحدة الهدف .
٣ — التركيز على الهدف .

ثانياً — على أن هناك استثناءات ترد على هذه القاعدة ، وهى بدورها تتلخص فى ثلاثة :

١ — اصطدام إرادة الإنسان بالنواميس الطبيعية .
٢ — حالة القضاء والقدر .
٣ — اصطدام إرادة الإنسان بإرادة إنسان آخر .

ثالثاً — ليس يعنى عدم نفاذ الإرادة الإنسانية فى هذه الأحوال الثلاثة ، أن يتوقف الإنسان عن إعمال إرادته ، خوفاً من أن يصطدم بالنواميس الطبيعية أو بإرادة غيره من البشر ، فهو لا يعرف على وجه اليقين والقطع أن أمراً من الأمور هو من نواميس الطبيعة ، كما لا يعرف متى وأين يجىء القضاء والقدر ، ولا كيف يقع. وأخيراً من الخير للإنسان أن يعمل على تنسيق إرادته مع الآخرين والتوافق معهم ، ليضمن نفاذ إرادته .

مراجع خاصة بالفصل السادس

٧٧ — القضاء والقدر — لعبد الكريم الخطيب

٧٨ — مهذب رحلة ابن بطوطة — أشرف على تهذيبه أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى

٧٩ — من نافذة العقل — للدكتور نقولا فياض (سلسلة اقرأ)

٨٠ — رأس المال — كارل ماركس ترجمة الدكتور راشد البراوى

٨١ — فلسفة اليوجا — لعريان سعد

٨٢ — الثقافة الموسيقية — للصاغ صالح عبدون

٨٣ — الفصل فى الملل والنحل — لابن حزم

٨٤ — الواجب — لجول سيمون

٨٥ — قانون العقوبات المصرى

٨٦ — الهدف المنشود — لبطلة العالم الرياضية « جالينا زيبنيا » من مطبوعات الاتحاد السوفييتى

٨٧ — أصدقائى الوحوش — لبوريس أدر (من مطبوعات الاتحاد السوفييتى)

٨٨ — My Religion - By Helen Keller

٨٩ — The Human Machine - By Sir Adolphe Abrahams.

مراجع سبقت الإشارة إليها

— ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية — أشرف على تأليفه ج . ب جليفورد . وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد .

— مبادىء علم النفس — الدكتور يوسف مراد

الفصل السابع

الإيمان

الايمان صورة من صور الارادة – عصر الشك – يسوع الناصرى – محمد ابن عبد الله – جان دارك – مارتن لوثر – كولمبس – لينين – غاندى – مصطفى كامل – معجزات الشفاء فى موسم الحج بمكة – رأى الكسيس كاريل فى معجزات الشفاء – العلاج الحديث بالتأثير والايحاء – المسمرية – التنويم المغنطيسى – فرويد والتحليل النفسى – المرض كصورة ذهنية – كيف تتكون العقيدة – الضرورة – الوحدة – الثبات والتركيز – الاحوال التى لا ينفذ فيها الايمان .

لو كان فى قلب أحدكم ذرة من إيمان ، ثم قال للجبل تحرك ، لتحرك .

« يسوع الناصرى »

عبدى كن ربانيا ، تقل للشىء كن فيكون .

« حديث قدسى »

الايمان من صور الارادة

رأينا فى الفصل السابق أن الإنسان لا يكاد يريد حتى تتحقق إرادته ، متى استوفت هذه الإرادة شرائطها . وتتحقق الإرادة بواسطة الطاقة التى تبعثها الصور الإيجابية الحركية المرتسمة فى الذهن ، والتى ينعقد عليها عزم الإنسان وإصراره أو بالأحرى تركيزه . والإرادة فى الأصل تتجه نحو تحقيق أغراض وأهداف مادية ، يراها الإنسان ضرورية لتحقيق كيانه المادى ، من طعام وشراب ومسكن وزوجة وولد ومال وجاه وسلطان . ولكن الإرادة قد تتجه أحياناً نحو تحقيق بعض المعانى والأفكار التى ليس لها وجود مادى يلمس باليد أو يدرك بحاسة من الحواس ، ولكنها تجد طريقها

بوسيلة ما إلى الذهن ، فتصبح لها صورة واضحة المعالم يتعلق بها الإنسان ، وتصبح محور حياته. هذا المظهر من مظاهر الإرادة هو ما نطلق عليه فى الاصطلاح ، كلمة « الإيمان »

والإنسان المؤمن كالإنسان المريد ، تصبح له قوة وفاعلية لتحقيق هذا الذى يؤمن به ويعتقده من المعانى والأفكار ، فيخرجها من حيز التصور إلى دنيا التطبيق والواقع ، صورا محسوسة أو ملموسة أو مبادىء يعتنقها الكافة ، أو نظما تطبق ، أو أهدافا تحقق ، أو انتصارات تحرز.

ولما كانت الطاقة الإنسانية التى يمكن أن تنطلق من الإنسان ، كما رأينا فى موضوع الإرادة ، لا حد لها أو نهاية ، فإن تولد هذه القوى فى موضوع الإيمان أبين وأظهر كما سنرى.

الإيمان فى القديم

ولم يكن موضوع الإيمان فى القديم (على خلاف موضوع الإرادة) يثير أى جدل حول مفهومه وطبيعته ، أو حول مدى القوة التى يمكن أن يزود بها الإنسان. فما دام الإنسان — فى تصور القدامى كما قلنا أكثر من مرة — قادرا على أن يتصل بقوى الكون الظاهرة أو الباطنة ، فليس هناك ما يستحيل على الإنسان أن يحققه بفضل هذه القوى. ومن هنا كان المؤمنون إذ يرون المعجزات تقع من الأنبياء والرسل والقديسين وأولياء الله الصالحين ، أو من السحرة وحلفاء الجن والشياطين ، لا يدهشهم هذا الذى يرون ، فلا يكذبون أنفسهم ولا يتشككون بحال فى حقيقة ما رأوا أو سمعوا ، فالأمر عندهم طبيعى وسائغ ومألوف. ولم يكن الذين تنقل إليهم أخبار هذه الكرامات أو المعجزات بأقل تصديقا لها ممن رأوها ، فالله قادر على فعل كل شىء ، وما دام قد تم التسليم بأن شخصا ما هو رسول من رب العالمين ، فأى غرابة فى أن يشق البحر بعصاه ، أو أن يحول

ماء النيل إلى دم ، أو أن يغمر أرض مصر بالضفادع أو الجراد أو القمل[1] ، أو أى غرابة فى أن ينشق له القمر ، أو ينبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، أو يحن له الجذع ، أو تكلمه الحيوانات ؟ أى غرابة فى أن تكون بقدرة أى قديس أو ولى من أولياء الله الصالحين أن يمشى على الماء أو يخوض النار ؟

عصر الشك

ثم جاء عصر المادة والشك ، الشك فى كل ما يقال أو يروى ولو أجمعت عليه الناس كافة ، الشك فيما لا يمكن أن يراه أى إنسان بعينه إذا أراد رؤيته ، أو أن يلمسه بيده إذا أراد لمسه ، فهذا فقط هو السبيل إلى العلم . فإذا قالت الأناجيل مثلا : إن عيسى أحيا الموتى فذلك لا يعدو أن يكون خرافة ، فلم ير المتشكك شخصيا إنسانا يقوم من الموت . وإذن فقد أصبح من المتعين إسقاط هذه الأخبار التى لا تزيد عن أن تكون بعض حكايات العجائز التى تروى للأطفال[2] .

إن كل ما فى الكون يسير وفق قواعد وسنن لا تتحول أو تتبدل ، فطبيعة النار الإحراق ، فهى لا يمكن إلا أن تحرق وأن تحرق على الدوام ، فإذا قيل لنا إن إبراهيم قد ألقى فى النار فلم يمسسه سوء ، فإن العقل يجب أن ينكر ذلك لأنه مستحيل . هذا هو منطق العلم الحديث ، وليس عندنا

---

(١) الإشارة هنا لمعجزات موسى فى مصر مما يسمى « بالضربات العشر » .

(٢) ومع ذلك فقد نشرت الصحف فى صباح السبت ١٩٦١/١١/٩ نبأ حملته شركات الأنباء تحت عنوان « مؤتمر لإحياء الموتى فى الاتحاد السوفييتى » وقد جاء فى هذا النبأ المذكور : أن مؤتمراً قد انعقد فى موسكو يوم الخميس ١٩٦١/١١/٧ للبحث فى الوسائل الفنية الخاصة بإعادة الحياة إلى الموتى ، وقالت وكالة تاس السوفيتية ، إن هذا المؤتمر قد حضره حوالى ٥٠٠ عالم من مختلف أنحاء الاتحاد السوفييتى ودول الكتلة الشرقية الأخرى . وأضافت تاس أن عدداً يتراوح بين ٢٣٦ و ٤٥٦ من المرضى الكبار قد أعيدوا إلى الحياة خلال العامين الماضيين بعد أن أعلن الأطباء وفاتهم رسمياً .

ما يمنع أن نساير العلم الحديث على منطقه ، وسنرى كيف أننا من خلال هذا العلم الحديث ومنطقه ، سننتهى إلى إثبات ظاهرة الإيمان[1]

يسوع الناصرى

لنسقط من تاريخ المسيح وتلامذته كل ما ينسب إليه وإليهم من معجزات وعجائب ، لنقل إنه لم يحى الموتى ، ولم يبرىء الأكمه والأعمى ، ولم يمش على الماء ، ولم ينتهر البحر الهائج فسكن على الفور ، لنتصور يسوع الناصرى مجرد إنسان عادى كباقى الناس، جاء يدعو للحب والسلام والسكينة ، ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر . فلن يلبث العلم أن يجابه بمشكلة لا قبل له على حلها ، وإلا فليقل لنا العلم بأى قوى وبأى سلطان استحوذ هذا الشاب البسيط الساذج ، الذى جاء يقول كلاما يناقض طبيعة البشر ومفهوم الحياة من أنها كفاح ، على أفئدة الملايين من البشر فى حياته وبعد مماته ، وأصبح صاحب عقيدة ودعوة ، قدر لها أن تصبح الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية ، وكانت السبب الرئيسى فى انهيار حضارة وقيام نوع جديد من الحياة ؟

بأى قوة وبأى سلطان استطاع تلامذة المسيح ، وهم ما بين صياد ونجار وفلاح ، أن يتحدوا عصرهم ، أن يتحدوا الحكام والأمراء والقياصرة

---

(١) الرأى عند جمهرة علماء المسلمين المصريين أن معجزة سيدنا محمد الكبرى هى معجزة عقلية بحتة تتجلى فى إعجاز القرآن الذى تحدى العرب ببلاغته ، ويتحدى الزمن فى ثباته وأثره المتجدد فى نفوس معتنقيه ، وقد عزز هذا النظر ما رواه القرآن عما دار بين المشركين وبين رسول الله من أحاديث حول موضوع المعجزات فى الآيات الآتية : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا . (الإسراء ٩٠ — ٩٤) .

والأباطرة والحكماء والفلاسفة ، أن يتحدوا القوة الغاشمة والتقاليد والنظم السائدة ؟ بأى قوة أو بأى سلطان لم يفروا من الموت على الصليب ، أو حرقا ، أو تمزيقا بين أنياب السباع ، وكيف حدث أن تحول هذا المصير المحتوم لكل من يعتنق المسيحية إلى السر الأكبر فى انتشارها ؟ أين ذهبت غريزة البقاء ، أين ذهب الجبن والخوف اللذان هما من طبيعة العبيد وقد كانوا من معتنقى المسيحية ؟ لقد تلاشى كل ذلك وذاب أمام نيران الإيمان بالمسيح وتلامذته ، فأى دليل أعظم من ذلك على أن الإيمان يزود الإنسان بقوة تعلو على قوانين الحياة العادية ؟

واليوم يربو عدد المسيحيين فى العالم على ٦٠٠ مليون من البشر ، تدق بينهم الأجراس كل صباح ومساء ، وتوقد بأيديهم ملايين الشموع تمجيداً للسيد المسيح وتلامذته ، ويحدث ذلك فى أرقى المجتمعات ، وليس فى المجتمعات التى لا تزال متخلفة كما قد يظن ، يحدث فى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، بل وفى روسيا السوفيتية نفسها ، التى تدين رسمياً بوجوب القضاء على الأديان ، ومع ذلك فقد عادت بعد أربعين سنة من الدعاية الشيوعية ضد الأديان ، تسمح للكنائس والمساجد أن تغص بالمصلين[1] .

محمد بن عبد الله

وما يقال عن يسوع الناصرى ، يقال عن محمد بن عبد الله ، فبأى قوة وبأى سر جاء هذا العربى الأمى الذى نشأ يتيما من الأبوين ، والذى تولت

---

(١) أرسل الاتحاد السوفييتى وفداً من القساوسة لحضور المؤتمر الثالث للمجمع الدولى للكنائس المنعقد فى نيودلهى . وقد ذكر الأسقف « نيكوديم » رئيس الوفد السوفييتى فى المؤتمر أن عدد رعايا كنيسته يبلغ ٥٠ مليوناً وأنه يمثل عشرين ألف منطقة وأربعين ديراً و ٧٣ مطرانية .

(شركات الأنباء — ومجلة لايف الأمريكية عدد أول يناير سنة ١٩٦٢) .

إرضاعه وتنشئته بدوية من رعاة الغنم ، والذى كان مجتمعه يعيش على هامش المدنية والحضارة ، وبلغ من غلظ أكباد هؤلاء العرب ، أن كانوا يئدون بناتهم أى يدفنونهن أحياء ، بأى سر جاء محمد الذى عاش فى هذه البيئة بأروع رسالة تفيض بالرحمة ، وتدعو للتوحيد والتآخى بين البشر ، فالله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، منزه عن التشبيه والحلول والتجسيد . والبشر جميعاً قد ولدوا أحراراً متساوين ليتآخوا ويتعاونوا واقرأوا إن شئتم « إنما المؤمنون أخوة » ، أواستوعبوا قول الرسول « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وإذا كانت المسيحية قد احتاجت لأربعة قرون لتصبح الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، فإن الإسلام لم يحتج لغير نصف قرن ليؤلف دولة تمتد من المحيط إلى المحيط ، وفى خلال قرن واحد من الزمان بلغ عدد معتنقيه مائة مليون نسمة ، أصبحت لهم حضارة تلخصت فيها كل الحضارات السابقة عليها بكل علومها وصناعاتها وفنونها ، ثم سمت على هذه الحضارات كلها بالأساس الروحى والإنسانى الذى كان دعامتها الكبرى . وفى العالم اليوم ٤٠٠ مليون من البشر أو يزيد تنبض قلوبهم بهذا الدين القويم ، ويتخذون منه الأداة والسبيل لإعادة حياتهم إلى الطريق السوى ، ملايين من البشر يرون فى القرآن نور عيونهم وشفاء صدورهم وصخرة نجاتهم ومعقد رجائهم .

ويؤذن المؤذن فى طول الدنيا وعرضها خمس مرات فى كل يوم شاهداً بأن الله واحد وأن محمداً عبده ورسوله. ولقد شهد التاريخ أكثر من مرة كيف انتصر الإيمان بهذه الدعوة انتصاراً باهراً ، فبقوة هذا الإيمان انتصر صلاح الدين على أوروبا مجتمعة فى الحروب الصليبية ، وبقوة هذا الإيمان انتصر قطز وبيبرس على موجة التتار ، التى اكتسحت كل من فى طريقها من أواسط آسيا حتى حدود مصر ، وبقوة هذا الإيمان استطاع محمد الفاتح

أن يستولى على القسطنطينية ، بما يشبه المعجزة العسكرية التى لم يسبقه إليها إنسان .

ويمتلىء تاريخ البشرية بأمثال هذه النماذج ، التى استطاعت على مر العصور أن تغير مجرى التـاريخ ، وأن تطبع الأمم والشعوب بطابعها ، كبوذا وكنفشيوس ومارتن لوثر ، ذلك القس الألمانى الصغير الذى تحدى البابوية ، وهى فى ذروة قوتها وطغيانها ، فزلزل العالم المسيحى زلزالا ، وأصبح علما على طائفة البروتستنت الذين جددوا شباب المسيحية[1] .

ما هو التعليل والتفسير ؟

فبأى سر استطاع هؤلاء الأشخاص دون غيرهم ، أن يحدثوا كل هذا الذى أحدثوا ، وما زالوا يحدثون ؟ بأى قوة نجا مارتن لوثر من براثن البابا ووجد له حماة وأنصاراً ، حيث لم يستطع الملوك أن يجدوا لهم معينا أو نصيرا إذا ما غضبت عليهم البابوية ؟ كيف استطاع مارتن لوثر أن يظل فى مقاومة البابوية أعواماً ثم لا يكون فى العالم المسيحى كله ، من يغتال حياته على الأقل تقربا إلى الله ؟

لماذا شذ بوذا دون غيره من ملوك العالمين ، فآثر على العز والجاه والسلطان والزوجة والولد ، حياة التشرد والتسول ، وصنوف العذاب التى عرض لها نفسه مما لم يسمع به إنسان ، وبأى قوة وبأى سلطان يصبح بوذا إلها معبودا لدى مئات الملايين فى آسيا ، بل ويدين بدينه مئات من جهابذة العلماء والحكماء فى أوربا وأمريكا نفسهما ؟

---

(١) مارتن لوثر قس ألمانى كان أول من اجترأ في التاريخ على تحدى البابا وذلك فى عام ١٥٥٧ عندما أرسل البابا لجنة إلى ألمانيا لبيع صكوك الغفران التى تهب ملكوت السماء لمن يشتريها . وكان ذلك تقليدا متبعاً ومقدساً ككل ما يتصل بالكنيسة الكاثوليكية ، فقام مارتن لوثر وأعلن بطلان هذه الصكوك ، مدللا على بطلانها بخمس وتسعين حجة من الكتاب المقدس

(صورة حية للزعماء الدينيين ص ١٥٣ .Religious Leaders) .

لماذا اختص هذا النفر بهذه القوة غير العادية ، التى مكنتهم من فعل الذى فعلوا على خلاف كل مألوف ومعروف ؟ يجيب السلوكيون ردا على هذا التساؤل ، بأن بوذا وعيسى ومحمد كانوا يتمتعون بقوة الشخصية ، وكانت لديهم القدرة على الإيحاء فإذا أضفنا إلى ذلك استعداد الجماهير للاستهواء ، لم يعد فى الأمر سر ولا يستعصى على التفسير . وعندنا أن ذلك الذى قد يقول به أو يمثله السلوكيون ، ليس شيئا أكثر من تفسير الماء بعد الجهد بالماء ، اذ ما هى قوة الشخصية ، ولماذا يختص بها إنسان دون إنسان ، وما هى القدرة على الإيحاء ، ولماذا استهوى هذا النفر الجماهير فى حياتهم وبعد موتهم دون غيرهم من العالمين ، ولماذا لم تفلح قوة الاستهواء هذه فى نقص هذا الذى دعوا اليه بعد موتهم وانقضاء أجيال على دعواتهم ؟ إن علم السلوك لا يعنيه أن يعلل ، وبحسبه أن يصف ما يراه ويقرره ، ومادام الأمر لا يعدو أن يكون تقريرا لما يجرى ويقع ، فمن حقنا أن نقول للسلوكيين ، إن هذا الذى تسمونه قوة شخصية وقدرة على الإيحاء واستعداد الجماهير للاستهواء ، هو ما سمته البشرية بكل بساطة « إيمانا » ، وليس هناك أى مبرر للعدول عن استعمال كلمة صقلت على مر الأجيال ، وأصبح مفهومها واضحا لكل إنسان ، إلى كلمات جديدة باهتة لا تفسر الظاهرة فى كثير أو قليل بأكثر مما تفسرها به الكلمة الخالدة « الإيمان » .

المادية الجدلية والمادية التاريخية

وهناك تفسير آخر قد تسمعه من المؤمنين بالمادية الجدلية وزميلتها المادية التاريخية ، فهم يقولون لنا إن الزعيم أو البطل ثمرة بيئته ، هو حصيلة التفاعل البشرى فى مجتمعه الذى نشأ فيه ، وهم يقولون لنا من ناحية أخرى ، ابحثوا دائماً خلف العوامل الاقتصادية تجدوا تفسير كل ما ترغبون فى تفسيره ، إن العنصر الأساسى فى كل تطور تاريخى

اجتماعى إنما يرجع إلى تغير وسائل الإنتاج[1] ، فكل تغير فى وسائل الإنتاج يتبعه على الفور تغير فى النظم الاجتماعية ، ولست أعرف كيف يستطيع هذان العنصران — من أن البطل وليد بيئته ، ومن أن تغير عناصر الإنتاج خلف كل تطور اجتماعى — أن يفسرا ما أحدثه بوذا وعيسى أو محمد فى حياة الإنسان وإسقاط حضارات ، وبناء حضارات جديدة ؟ أى تغير فى وسائل الإنتاج قد حدث فى فلسطين فأدى إلى ظهور السيد المسيح ، أو أى تغير فى وسائل الإنتاج قد حدث فى مكة فأدى إلى ظهور سيدنا محمد ، وما هى تلك العوامل التى كانت تتفاعل فى فلسطين اليهودية ، لتخرج المسيح الذى قوض الإمبراطورية الرومانية ؟

وأى عوامل تلك التى كانت تتفاعل فى صحراء العرب ، لتخرج سيدنا محمدا الذى طبع الدنيا بطابعه ؟

الحق أنه لو كان المسيح أو محمد قد خرجا فى أثينا القديمة أو روما أو الإسكندرية ، لربما صح هذا الذى يقال من أن البطل هو ثمرة تفاعل معين فى البيئة ، أما وعيسى لم يكن ، كما رأينا ، إلا قرويا لم يدخل المدارس ولم يتعلم الفلسفة ، بل جاءت دعوته كلها حربا على الأديان المتبعة والفلسفة الشائعة ، والتقاليد المستقرة ، أما ومحمد بن عبد الله لم يكن بدوره إلا راعى غنم فى صباه ولاحظ له من تعليم ، بل لاحظ لبيئته كلها من العلم الذى كان شائعاً فى هاتيك الأيام ، فإن كل حديث عن أن عيسى ومحمداً وبوذا هم ثمرة بيئتهم ، وثمرة التفاعل الذى كان يجرى فى مجتمعهم ، وكل حديث بالأكثر ، عن تغير وسائل الإنتاج باعتبارها العنصر الأساسى والحاسم خلف كل تطور تاريخى ، لا يعدو أن يكون مجرد أقوال تساق بغير دليل أو برهان ،

---

(١) التاريخ الرسمى للحزب الشيوعى الروسى — ص ١٩٠

History of the C.P.S.U.(B)

إن صلحت لتفسير بعض ظواهر التاريخ الثانوية ، فهى لا يمكن أن تفسر بحال تطورات التاريخ الأساسية ، من قيام الدول والحضارات وسقوطها .

جان دارك

وإذا كان الحديث عن الرسل وغيرهم من أصحاب الرسالات العالمية ، يعتبر دائماً على سبيل الاستثناء الذى قد لا يقبل القياس ، فما هو الرأى فى الحالات الأخرى الأكثر عدداً ، والتى وان كانت أقل شأناً إلا أنها ليست أيسر على التفسير أو التعليل ، من حيث التحدث عن قوة الشخصية ، أو عوامل البيئة ووسائل الإنتاج . ما هو الرأى فى هذه الفتاة القروية الفرنسية « جان دارك » التى ولدت عام ١٤١١ ؟ أى شأن لجان دارك القروية الساذجة الجاهلة الضعيفة – بقيادة الجيوش وتحرير الوطن وتتويج الملك ؟ الحق أن أباها لم يعدو الصواب عندما أوسع ابنته ضربا وركلا ، عندما زعمت له أن ملاك الرب قد اتصل بها وخاطبها وطلب منها أن تذهب لولى عهد فرنسا الداعر ، وأن تطلب منه أن يعهد إليها بقيادة جيش فرنسا لتنتقم من الإنجليز ، وترفع الحصار عن مدينة أورليان ،وتتوجه ملكا على فرنسا ، ومع ذلك فقد كان هذا هو الذى حدث على ما يروى لنا التاريخ ، وتم على الصورة التى قالت بها الفتاة .

أى قوة شخصية كانت جان دارك القروية تتمتع بها ، أى قدرة على الإيحاء كانت تتمتع بها هذه العذراء ، وأى تغير فى وسائل الإنتاج ، هذا الذى أنتج هذه الثورة على كل مألوف ومعروف ؟ بأى قوة استطاعت هذه الفتاة الشابة أن تؤثر الموت بعد ذلك على المحرقة ، لكى لا تتنكر لإيمانها من أن ملاك الرب وليس الشيطان هو الذى خاطبها وأوحى بها ؟

بأى قوة استطاعت هذه الفتاة أن تقول لجلادها . أسرع بإشعال النيران فقد أديت رسالتى ، وأنا أريد أن أعود لأبى فى السماء ؟

خريستوف كولمبس

لماذا كان خريستوف كولمبس من دون العالمين ، هو الذى يتحدى أبناء عصره بهذه الفكرة الجنونية ، وهى أنه من الممكن الوصول إلى الشرق ، عن طريق السير نحو الغرب ؟ استناداً إلى أن الأرض كروية ، ألا يكذب الحس ، الحس المجرد هذه الدعوى ؟ ألا يستطيع كل ذى عينين أن يتأكد بنفسه من أن الأرض مسطحة ومنبسطة ، أو لا تشهد تجارب البشر منذ أقدم العصور ، على أنه لا يمكن الذهاب إلى الشرق إلا عن طريق السير فى اتجاه الشرق ؟ أما عن القول بأن بعض الإغريق قد قالوا بكروية الأرض وهو ما تشبث به كولمبس ، فكم للإغريق من أساطير وخرافات وخزعبلات ليست هذه إلا إحداها . وهكذا احتشدت فى وجه كولمبس الأدلة العقلية والنقلية على فساد تصوره ، ولكن كولمبس آمن بهذا الذى يقول ، فما كان لقوة على ظهر الأرض أن تصرفه عن هذا الإيمان . وهكذا راح عشرين سنة يتردد على أبواب الملوك والأمراء عارضاً عليهم مشروعه ، وهو الذهاب إلى الشرق عن طريق السير فى اتجاه الغرب . وعبثاً سخروا منه وصدوه عن أبوابهم ، عبثا أصبح يوصف بالجنون ، فقد ظل يدعو دعواه . ونحن نعرف اليوم كيف انتصر فى نهاية الأمر فأبحرت سفنه الثلاث التى وضعها ملك أسبانيا تحت تصرفه عام ١٤٩٢ ، وكيف راحت تضرب غربا فى المحيط قاصدة الهند ، وكيف أوشك بحارة هذه السفن أن يفتكوا به ، لولا أن تداركه الله فى اللحظة الأخيرة ، فإذا هم يرون اليابسة . وخر كولمبس ساجداً لله العلى القدير الذى أوصله الهند وجزرها الشرقية عن طريق السير غربا . ومات كولمبس وهو لا يدرى أنه قد جاء للعالم القديم بقارتين جديدتين ، ذلك أن الذى كان مستوليا على عقله وذهنه ، هو الوصول إلى الهند عن طريق السير غربا ، فلما أن رأى أرضا فقد كان يستحيل فى تصوره أن تكون هذه الأرض شيئاً غير جزر الهند الشرقية .

وإذا كانت هذه الأمثلة التى سقناها قد تحتاج منا الرجوع إلى الوراء بضعة قرون لنقلب فى صحائف التاريخ منقبين دارسين ، وأيا كان حكمنا على الأشخاص والحوادث فلا يمكن أن يكون دقيقاً ، أو يحظى بموافقة الكثيرين ، فهناك من شك فى وجود المسيح ، واعتبر موضوعه أسطورة قديمة ، وهناك من قال إن جان دارك شخصية خرافية لا وجود لها ، وهى لا تعدو أن تكون أسطورة من الأساطير ، ولذلك فندع التاريخ البعيد ولنسرع إلى التاريخ الحديث ، بل والمعاصر الذى عشناه وتابعناه يوما بعد يوم ولا يزال أثره ممتداً حتى هذه اللحظات .

ما هو الرأى فى لينين زعيم البلشفية فى روسيا ؟ ، إنه لايعدو أن يكون شاباً كملايين الشباب الروس ، ولكنه انفرد عنهم بإيمانه بهذه الدعوة التى نادى بها كارل ماركس ، من أن المجتمع الرأسمالى فى طريقه إلى الانهيار نتيجة حتمية التاريخ ، لكى يعقبه النظام الاشتراكى ، ولكى يتحقق المجتمع الاشتراكى فيجب أن يمهد له العمال بما يسمى ديكتاتورية العمال . لم يكن لينين وحده من آمن بالماركسية ، بل لقد سبقه إليها كثيرون ، ولكن منذ اللحظة الأولى سلم له الجميع بأنه أكثرهم استيعابا لهذه الماركسية . وكان إيمان لينين يمكن أن يلخص فى كلمة واحدة « الثورة » ثورة جارفة تسحق القيصرية والرجعية والرأسمالية فى غير شفقة أو رحمة. نجد هذه الدعوة عند لينين فى أول كتاب ألفه وهو بعد لا يزال شاباً « أصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين » وكان ذلك عام ١٨٩٤ وفى هذا الكتاب والقيصرية لاتزال فى عنفوانها ، نرى لينين يرسم الطريق أمام مواطنيه فى وجوب القيام بهذه الثورة الجارفة ، التى قام بها بعد هذا التاريخ بنيف وعشرين سنة [1] .

---

(١) التاريخ الرسمى للحزب الشيوعى الروسى — ص ٨٩
History of the C.P.S.U. (B)

وقامت فى روسيا ثورة بالفعل فى فبراير عام ١٩١٧ نتيجة الظروف الطبيعية والاجتماعية والسياسية التى كانت تحتم قيامها ، فقد كانت هزائم روسيا العسكرية فى الحرب العالمية الأولى ، من الفداحة بحيث تحمل أى شعب فى الدنيا على الثورة ، وكان الفساد قد وصل فى القيصرية إلى حد لا تستطيع فيه أن تدفع عن نفسها أى هزة تتعرض لها ، ولذلك فلم يحتج الأمر لأكثر من خمسة أيام ، لكى تتحول فيها روسيا من ملكية مطلقة إلى جمهورية ديمقراطية . وقد تم هذا دون أن يراق كثير دم ، أو يحتاج الأمر إلى ضروب بشعة من العنف . وكان لينين عندما قامت الثورة خارج روسيا ، فعاد إليها بعد شهر من قيامها (٣ أبريل ١٩١٧) عاد يدعو إلى ضرورة تحويل هذه الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية تقيم ديكتاتورية العمال . وعبثاً قال له أساتذة الماركسية من أمثال بلخانوف ، وقال له زملاؤه وإخوانه من أعضاء حزبه : إن روسيا ليست مهيأة بعد لمثل هذه الثورة ، أو لم يقل ماركس نبى الشيوعية ، إن الثورة الشيوعية لا يمكن أن تقوم إلا فى أكثر البلاد تطورا فى النظام الرأسمالى كانجلترا أو ألمانيا ، أما روسيا فقد كانت أكثر دول أوربا تخلفا ، كانت لا تزال بعد فى دور الإقطاع ؟ عبثاً قالوا للينين إن حتمية التاريخ تقول بأنه محال أن يتحول المجتمع الإقطاعى إلى اشتراكى بدون أن يمر على مرحلة الرأسمالية . عبثا قالوا للينين إن أغلبية الروس هم من الفلاحين الذين قال عنهم ماركس إنهم أعداء طبيعيون للاشتراكية لأنهم يتمسكون بالملكية فهم حلفاء للرجعية . عبثا قالوا للينين إن ماركس نبى الشيوعية قال إنه لا يمكن تحقيق الشيوعية فى بلد واحد ، ولابد من الانتظار حتى يمكن قيام الشيوعية فى العالم كله فى وقت واحد[1] .

---

(١) الفصل السابع من التاريخ الرسمى للحزب الشيوعى — ص ٢٨٠ وما بعدها ، والفصل الختامى ص ٧٣٥ .

عبثا قالوا للينين ذلك كله وأكثر منه ، لقد كان إيمان لينين بوجوب القيام بالثورة الاشتراكية لا يتزعزع ، فراح يدعو للعمل من أجل هذه الثورة وقيام ديكتاتورية العمال على الفور . وكان لينين فى هذه الدعوة يقف وحده « إن لينين يقف وحـــده خارج الثورة ، أما نحن فماضون فى طريقنا »[1] ونحن نعلم اليوم أنه لم تمض سوى ستة أشهر فقط بعد عودة لينين إلى روسيا حتى كان لينين يقود ثورة أكتوبر الاشتراكية ، وينشىء بالفعل ديكتاتورية العمال . وقامت الحرب الأهلية فى روسيا وزحفت الجيوش الأجنبية من الشمال والشرق والغرب والجنوب لتقضى على هذه الثورة الخطيرة ، وتخضبت أرض روسيا بالدماء كما لم يحدث فى كل تاريخها ، وأغلقت المصانع أبوابها ليستطيع العمال أن يحاربوا ، وانحل النظام الاقتصادى وهددت المجاعة الشعب الروسى ، وتصور كل إنسان أن حركة لينين لابد أن تنهار ولـكن لينين وقف وسط هذه الزوابع كالطود حتى كان النصر الذى نعرف . فبأى قوة استطاع لينين أن يحـكم روسيا فى هذه الفترة العصيبة ، كيف لم يقتلع وقد كانت الدنيا كلها والظروف السيئة داخل روسيا تقف ضده ؟ كيف صبر الشعب الروسى على هذه المحن التى انصبت عليه إثر أربع سنوات من العذاب والحرمان خلال الحرب العالمية الأولى ؟ تلك هى إحدى معجزات الإيمان المعاصر ، إيمان لينين بالثورة الجارفة الدامية ، الثورة التى لا تبقى ولا تذر .

واليوم إذا تقف روسيا كأكبر قوة فى العالم أو على الأقل إحدى القوتين الـكبيرتين فى العالم ، وهى تتهيأ للوصول إلى القمر ، قد اتخذ الروس من لينين نبيا أو قديسا ، فجعلوا له كما قلنا قبرا يحجون إليه ، وترى صوره فى كل مكان محاطة بالتبجيل والقداسة كما ترفع صورة المسيح ، ويلتمس

---

(١) من أقوال بلخانوف — المرجع السابق — ص ٢٨٨ .

كل متكلم فى الاشتراكية بعض كلمات مما قال لينين أو فعل ، ليبرهن على أنه ماض على الطريق المستقيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وأصبحت الماركسية لا يمكن إلا أن تقرن باسم لينين فيقال الماركسية اللينينية .

غاندى :

على أنه إذا كان لينين قد آمن بأن لا سبيل لتحرر الشعوب إلا من خلال الثورة والعنف ، فلا يتصورن متصور أن انتصاره يعنى سلامة إيمانه أو مذهبه . إنه يعنى شيئاً واحدا ، وهو صدق نظريتنا فى أن الإنسان يحقق دائما إيمانه متى استوفى هذا الإيمان شرائطه ، مما سنتحدث عنه فى ختام هذا الفصل . أما بالنسبة لصـــدق النظرية ووجوب العنف والثورة لتحقيق الحرية ، فقد أثبت مؤمن آخر من طراز أعلى وأسمى من الناحية الإنسانية ، أنها مجرد فلسفة مادية أوربية . لقد حرر غاندى أربعمائة مليون من البشر من ربقة الاستعباد دون أن يأمر أتباعه بإطلاق رصاصة واحدة ، بل ودون أن يخرج من فمه غير كلمات الحب والوفاء والرحمة والتسامح. ويجب أن نذكر أن الاستعباد الذى كان الهنود يعيشون فيه ، شىء يعلو على كل وصف ، والبطش الذى كانوا يتعرضون له كلما فكروا فى الثورة أو التمرد ، مما يحمر له وجه التاريخ خزيا وعاراً . وهو تعبير تشرشل نفسه فى مذكراته التى نشرها على العالمين . وحسبك أن تعلم أن الأمر قد وصل إلى حد ربط بعض زعماء ثورة عام ١٨٥٧ فى فوهات المدافع ثم إطلاقها بعد ذلك فتمزقت أجسادهم بدداً فى الهواء . هذا هو العدو وهذا مدى جبروته فى معاملة الشعب الهندى ، فضلا عن إذلاله إياه واحتقاره ، مما لا محل للإفاضة فيه . هذا هو العدو الذى تصدى غاندى لمحاربته وانتزاع حرية الشعب الهندى منه .

لقد نادى المسيح كما رأينا بالحب والتسامح مع الأعداء ، ومن قبله

دعا بوذا إلى مثل هذه الدعوة . وفى روسيا حمل لواءها تولستوى الذى وصف بأنه نبى القرن التاسع عشر[1] ، وقد اعتبرت هذه الدعوات مجرد كلمات شعرية لا تتصل بحقيقة الحيـاة والواقع ، وإذا جاز أن يترنم بها بوذا أو المسيح منذ عشرات القرون الماضية ، فإن العصر الحديث يعتبر كل حديث عن الحب والتسامح ضربا من ضروب الخبل . وقد كان هذا الضرب من الخبل هو الذى اختاره غاندى سلاحا له فى كفاحه . وجاء بتفسير جديد ربما لم يقل به إنسان من قبل ، وهو أن يكف عن مطالبة خصمه بما يحرجه ، إذا وقع هذا الخصم فى ورطة ، فعندما قامت الحرب العالمية الأولى وكان غاندى قد بدأ كفاحه ضـد الإنجليز ، أوقف حركته ودعا إلى معاونة الإنجليز ، وتطوع هو فى الصليب الأحمر ، وفعل مثل هـذا فى الحرب العالمية الثانية . فلا يكاد الإنجليز يخلصون من الضيق الذى يعانونه ، حتى يستأنف كفاحه . ولم يكن هذا الـكفاح يزيد عن مجرد عصيان مدنى رمزى ، بعدم الخضوع لقوانين المستعمر ، كاستخراج الملح من البحر وهو الأمر الممنوع . وينقض الإنجليز بكل بطشهم وقساوتهم على جموع الهنود المسالمة ، فيقول غاندى لأتباعه : إذا ضربوكم فاحتملوا الضرب ، وإذا آذوكم فاحتملوا الإيذاء فى صبر ، وإياكم أن ترفعوا على الإنجليز يداً ، بل إياكم أن يسبوهم أو تسمعوهم قوارص الـكلم ، وإنـكم لتخطئون أشـد الخطأ لو أنـكم جعلتم الـكراهية لعدوكم تملأ قلوبكم . بهذا الأسلوب كان غاندى يعلم تلامذته وأتباعه فسخر منه الساخرون ، وغضب عليه من الهنود أنفسهم الغاضبون . وكأن أحد الإنجليز أراد أن يلقن غاندى درسا فى سخافة مذهبه ، فانتهز فرصة تجمع بعض حشود من الشعب المسالم فى بلدة « أمرتسار » وكان ذلك يوم (١٥ أبريل عام ١٩١٩) فصب على المجتمعين

---

(١) قيل إن غاندى كان أحد الذين تأثروا بتولستوى بالذات (تولستوى ــ محمود الخفيف ص ٢٧٠) .

نيران المدافع الرشاشة ، ثم أراد إمعانا فى الإرهاب وليشفى غاندى وأتباعه على ما يظهر من إيمانهم بالحب ، فأمر الطائرات أن تقذف المجتمعين بقنابلها كذلك . وصعق العالم من هول الكارثة ، وتصور كل إنسان فى العالم أن غاندى لا يمكن إلا أن يشتد به الغضب ، فإذا الذى حدث يزيده إيمانا على إيمان بمبدئه ، فيقول لمواطنيه عن « الجنرال دير » الذى قام بهذه المذبحة ؛ كيف تكرهون رجلا مريضاً بعقله ؟ أما بالنسبة للخسائر فى الأرواح فإن أى معركة حربية لا يمكن إلا أن يسقط فيها مئات وألوف من الخسائر والضحايا ، وهؤلاء الذين ماتوا قد ماتوا فى سبيل دعوتنا ، فليس هناك سبب يدعو لكل هذا الحزن والشجن ، خصوصاً ونحن نموت فى معركة الحياة نفسها . إننا سوف نكسب معركتنا لا بمقدار مانقتل من خصومنا ، ولكن بمقدار ما نقتل فى نفوسهم الرغبة فى القتل »[1] وازداد غاندى إيمانا بدعوة الحب وعدم العنف ، فراح يقول « إن دعوتى لعدم العنف لا يمكن إلا أن تنتصر فى النهاية ، فليس هناك عدو مهما كانت قوته ، أو وحشيته يستطيع أن يقاوم نيران الحب » .

ومن خلال الحب انتصر غاندى حيث فشل هتلر ، الذى لم تغن عنه جيوشه وجحافله وطائراته ودباباته ، وفشلت اليابان بكل قوتها وجبروتها . لقد كان هدف اليابان وألمانيا الرئيسى ، أن يصفيا الإمبراطورية الإنجليزية ويقطعا أوصالها ، والتهام أكثر ما يستطيعان التهامه من هذه الإمبراطورية العجوز ، فأخفقت ألمانيا فى حربين متتاليتين وأخفقت اليابان ، ولكن غاندى صاحب المعزة والمغزل اليدوى ، الذى كان أعظم أسلحته ، أن يصوم عن الطعام ، هو الذى نجح فى تحقيق هذا الهدف ، فقد كان تحرير الهندى معناه تصفية الإمبراطوريه الإنجليزية بلاجدال أو شبهة .

---

(١) صور حية لقادة الأديان ـ ص ٢٩٠ وما بعدها Religious Leaders P.290
انظر أيضاً للمؤلف « أمة تبعث » .

وتقف الهند اليوم بعد أن حصلت على استقلالها عام ١٩٤٧ ، كدولة عظمى تعمل من أجل السلام العالمي ، فى الوقت الذى تبنى فيه نهضتها من خلال النظم الديمقراطية ، والحرية الشاملة ، بعيداً عن الثورات والفتن والانقلابات والدعوات إلى الحقد والكراهية ، ذلك أن روح المهاتما غاندى لا تزال ترفرف عليها ، روح هذا الإنسان الذى استطاع بفضل إيمانه بالإنسانية والحب والسلام ، أن يحرر الهند وآسيا ويغير بذلك مجرى التاريخ ، بل وأن يبعث من جديد للبشرية كلها تعاليم بوذا وعيسى ومحمد ، الداعية للحب والصفاء والسلام ، وكراهية العنف والقتل والحقد والكراهية ، وأن يعيد لمئات الملايين من البشر الإيمان بأن فى الإنسان من القوى الروحية ما يزرى بكل ماعرفه الإنسان أو يمكن أن يعرف من القوى المادية .

أمثلة أخرى من الإيمان

وعبثاً نمضى فى سرد الأمثلة والشواهد من تاريخنا الحديث ، ومع ذلك فمن الحق علينا وقد ذكرنا بعض الأمثلة من هنا وهناك ، أن نشير لبعض الأمثلة من واقعنا المحلى والتى تؤلف بدورها نماذج باهرة لما يمكن أن يفعله الإيمان ويحققه[1] .

---

(١) قد تكون التجربة التى مرت بى فى شبابى المبكر والتى اشتهرت باسم « مشروع القرش » نموذجاً متواضعاً لما يمكن أن يحدثه الإيمان من أثر . فقد آمنت في عام ١٩٣٠ . بأنه لا استقلال لمصر مالم يتحقق استقلالها الاقتصادى أولا . ففكرت في إنشاء مصانع شعبية تكون مملوكة للشعب ، وذلك عن طريق جمع قرش من كل مصرى فتتجمع من هذه القروش ألوف من الجنيهات تشاد بها بعض المصانع وشاركنى فى هذا الإيمان طليعة الجيل من الشباب. ولامجال هنا للحديث عن السخرية والمحاربة التى قوبلت بها هذه الفكرة التى لم يسمع بها إنسان من قبل وهى أن تنشأ المصانع عن طريق التبرعات ولا تكون مملوكة لشركة أو للدولة ، وكان السخط بالأكثر ينصب على كون الداعى لهذه الفكرة مجرد طالب لم يبلغ سن الرشد ، ومع ذلك فيوجد فى العباسية فى الوقت الحاضر مصنع القرش لغزل الصوف (الطرابيش سابقاً) ، آية على ما يمكن لطالب صغير أن يحدثه ونفر من زملائه الآخرين بقوة الإيمان . (راجع كتاب إيمانى – للمؤلف) .

فهذا شاب مصرى صغير من شباب مصر فى القرن الماضى ، ولد قبيل الاحتلال الإنجليزى بقليل ، وكان مقدراً له أن يزلزل الأرض تحت أقدام هذا الاحتلال ، فى الوقت الذى تصور فيه أنه قضى على كل مقاومة للمصريين لمدة قرن من الزمان على أقل تقدير . ولم يكن هذا الشاب إلا مصطفى كامل الذى فتح عينيه فى شبابه المبكر على جحافل الإنجليز تطأ أرض مصر وتدنسها ، فآلى على نفسه من دون المصريين جميعاً (الذين كانوا قد تردوا فى مهاوى اليأس) أن يكون هو النافخ فى الصور ، فقال كلمته المدوية « لا معنى لليأس مع الحياة ، ولا معنى للحياة مع اليأس . وأريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة » ولم يكد يتخرج نهائياً من الجامعة الفرنسية التى تعلم فيها عام ١٨٩٥ حتى راح يدعو فى كل مكان إلى وجوب جلاء الإنجليز عن مصر ، وينفخ الثقة فى قلوب المصريين بأنفسهم وقدرتهم على الكفاح السلمى من أجل تحرير بلادهم . وسخر به الساخرون كما هو العهد دائماً بكل صاحب رسالة وإيمان ، واستصغر الحكام الإنجليز شأنه تصوراً منهم أنه ينفخ فى الهواء ، وأن كلامه لا يعدو أن يكون صرخة فى واد ، فتركوه يروح ويجىء ويكتب ويخطب آمنين مطمئنين أنه لا يمكن أن يكون مصدر خطر على الأسد البريطانى فى مصر . ثم كانت سقطة ، سقطة واحدة ارتكبها كرومر كبير الإنجليز فى مصر هاتيك الأيام ، فقد انتهز فرصة موت جندى بريطانى فى بلدة دنشواى لكى يعطى للمصريين درساً لا ينسونه فى البطش الإنجليزى ، فكان أن شنق بضع نفر من الفلاحين بطريقة غير إنسانية أمام أولادهم وذويهم بعد أن جلدوا . وهو حادث يحدث أضعافه هذه الأيام فلا يثير فى الناس أى اندهاش أو استنكار ، فما قيمة خمسة أو ستة يقتلون لإقرار الأمن واستتباب النظام : ولكن مصطفى كامل وجد فى هذا الحادث فرصته الفريدة ، فراح يجوب أوربا منددا بانجلترا ،

معلناً للناس عن محجيتها بقلمه ولسانه ، وهنا حدثت المعجزة ، لأن ما حدث لا يمكن تفسيره إلا أنه معجزة ، فقد اهتز وجدان العالم الذى لم يكن يتأثر للمذابح التى كانت تجرى هنا وهناك ، حيث كان الاستعمار لا يزال فى أوج قوته وعنفوانه ، تأثر ضمير العالم ووجدانه لهذا الذى حدث فى دنشواى تحت تأثير إيمان مصطفى كامل ، الذى كان يغمس القلم إذا كتب فى مداد قلبه ، فأعلنت إنجلترا أسفها لهذا الذى حدث فى دنشواى ، واستنكرت فعل رجلها الكبير كرومر وعزلته من منصبه عقاباً له على هذه السقطة التى ارتكبها ، وجاءت الساعة التى خرج فيها كرومر من مصر مذموماً مدحوراً مشيعاً باللعنات ، سقط صريع شاب مؤمن ببلاده ومواطنيه وحقهم فى الحرية والعدل والكرامة . وقصة مصطفى كامل بعد ذلك معروفة ومشهورة ، كيف أنشأ الحزب الوطنى الذى حمل شعلة الوطنية ، وكان المفجر لقوى مصر الشعبية التى انفجرت أعظم انفجار وأروعه عام ١٩١٩ [١].

---

(١) كان لى شرف المساهمة ونفر من إخوانى فى عام ١٩٣٣ ، فى تأسيس حركة مصر الفتاة التى استلهمت إيمان مصطفى كامل فى بعث مصر الفتاة من مصر الهرمة ، وقد كان بياننا الأول الذى أذعناه فى ذلك التاريخ يبدأ بتسجيل إيماننا الذى صغناه في العبارات الآتية « مصر التى علمت الإنسانية وأضاءت على العالمين ، مصر التى رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلت كلمة الله والإسلام ، مصر مركز العالم وزعيمة الشرق ، بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن ، بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم ، لن تموت أبداً بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجاً للشرق وزعيمة للإسلام » ومرة أخرى لامجال لوصف السخرية التى قوبلت بها نداءات حركتنا ، ولا كيف قال بعض الرسميين عندما طالع برنامجنا إنها رواية تمثيلية فقد كان التحدث عن مجد مصر وعظمتها فى تلك الأوقات التى كان الإنجليز يسيطرون فيها على كل شىء ويخمدون الأنفاس ويتقاسمون مع الأجانب ثروات البلاد ، يعتبر لوناً من ألوان العبث ، وكذلك لا أحب أن أسهب فى وصف صنوف الاضطهادات التى تعرضنا لها من سجون واعتقالات ومحاكمات ، حتى أصبح من المقطوع به أننا لا بد وأن ننتهى على أعواد المشانق أو ضرباً بالرصاص ، أو تعذيباً فى غيابات السجون ، وبقاؤنا أحياء بعد كل هذا الذى مر بنا ، وما تمتلىء به مصر هذه الأيام من دعوة وعمل فى سبيل المجد والقيادة العالمية ، يؤلف بدوره صورة من صور الإيمان التى يكون من الظلم للتاريخ ألا يشار إليها وألا يشار لبعض نفر=

سيقول الكثيرون من الماديين والطبيعيين الذين يطالعون هذا الفصل إن أحداً لا يمارى فى أن العقيدة والإيمان يزودان الإنسان المؤمن بقوة غير عادية تمكنه من تحقيق بعض الأعمال الباهرة فى الحياة الاجتماعية . ولقد رأينا من قبل أن علم السلوك يعترف بما يسميه قوة الشخصية ، والقدرة على الإيحاء إلى آخر ما أشرنا له من قبل . وأصحاب المادية الجدلية والحتمية التاريخية يسلمون بدورهم بمهمة الزعيم والقائد باعتباره مزوداً بقوات غير عادية يستطيع أن يؤثر بها على البيئة والمجتمع معاً . وإذن فقد لا يكون فى هذا الذى سقناه فيما مضى ما يخالف القوانين المادية المقررة ، ولذلك فنحن نريد أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فندرس بعض الظواهر غير الاجتماعية ، حيث يكون بقدرة الإيمان أن يحدث ما يعد معجزات مادية ، وخوارق تستعصى على التفسير العلمى ، وتخرج على النسق المألوف . وسنختار لدراستنا مجالا لا يستطيع العلم إنكاره أو تجاهله ؛ لأنه فى صميم عمله وتخصصه وأعنى بذلك ، العلاج أو الشفاء الإعجازى ، حيث يجرى شفاء الناس من بعض الأمراض التى أعلن الأطباء يأسهم من شفائها ، بما يشبه المعجزات التى كانت تقع على يد المسيح ، والتى يحلو للعلم المادى أن يكذبها .

بلدة لورد

فثمة بلد تسمى لورد يهرع إليها الكاثوليك وغيرهم من المؤمنين بالمعجزات ليتلقوا الشفاء من العذراء[1] بالاستحمام فى نبع الشفاء الذى أشارت بحفره

= اضطلعوا بعبء هذا الإيمان منذ اللحظة الأولى لميلاده منهم من لاقى ربه كالشهيد مصطفى الوكيل ، ومنهم من أسأل الله أن يطيل فى عمرهم ، كإبراهيم شكرى ، وكمال سعد وإسماعيل عامر وفخرى أسعد وإبراهيم الزيادى وغيرهم ممن لا يتسع المجال لذكر أسمائهم .

(١) تقع بلدة لورد فى سفح جبال البرانس فى الأراضى الفرنسية ولا يتجاوز عدد سكانها ١٥ آلف نسمة . وقد بدأت شهرتها عام ١٨٥٨ حيث قالت فتاة فلاحه صغيرة =

على القروية الصغيرة برنادوت ، وليصلوا فى الكنيسة الكبرى التى أنشئت تخليداً لهذا الحدث العظيم . ويبلغ عدد من يحجون إلى لورد سنوياً ما بين المليون والمليونين ، التماساً للشفاء والبركة . ويشفى عدد كبير جداً من أمراضهم ، ولكن الأمر الذى بدأ يحير العلماء ، أن بعض حالات الشفاء تصل حدا يجعلها توصف بالمعجزة ؛ إذ يحار العلم فى تفسيرها أو تعليلها . وقد سجلت الكنيسة الكاثوليكية فى القرن التاسع عشر ٥٢ حالة شفاء معجز ، ويسجل مجلس لورد الطبى الآن خمسين حالة معجزة فى كل سنة ، وهى الحالات التى يعجز الأطباء والعلماء عن تفسيرها تفسيراً علمياً ، فالأعضاء الميته تعود إلى الحياة ، والأنسجة المتقيحة تصح فى ومضة عين ، وحالات من السرطان والسل تختفى غير تاركة أى أثر من الآثار(١).

وعلى جدران كنيسة لورد علقت عكاكيز الذين كانوا مشلولين وشفوا فى لورد ، كما علقت مخلفات كثيرين من المرضى الذين تركوها كذكرى لحدوث المعجزة ، وكقربان منهم للعذراء التى شفتهم من أمراضهم .

جماعة العلم المسيحى Christian Science

وقد ظن فى بعض الأوقات أن الإيمان بالمعجزات والخوارق وإمكان

= تدعى برنادوت إن العذراء تجلت لها فى مكان ما من الوادى وقالت لها «اشربى من هذا واستحمى فيه» وكان المكان الذى أشارت الفتاة على وجود النبع عنده ، يستحيل وجود الماء فيه على أى صورة من الصور . وما فتئت الفتاة تقول إن العذراء قد تجلت لها مرة ثانية وثالثة وهى لاتفتأ تدعوها للشرب من النبع . وقد جزع أهل الفتاة من دعوى صغيرتهم ، خوفاً من أن يكون قد أصابها مس من الشيطان ، ولم ترض الكنيسة من ناحيتها عما اعتبرته هذياناً وتجديفاً ، فطلبت من السلطة معاقبة الفتاة ، ولقد سجنت الفتاة وعذبت ولكن خبرها بدأ يتسرب للفلاحين الذين بدأوا يؤمنون بدعواها . وأخيراً بدأ فريق من المؤمنين بالفتاة يحفرون حيث قالت إن العذراء أشارت إلى وجود النبع ، فإذا هم بعد حين يعثرون على الماء فعلا ، فاعتبر ذلك آية ظهور العذراء لبرنادوت ، فأطلق على النبع اسم نبع الشفاء وأقيمت إلى جواره كنيسة من أعظم كنائس أوروبا .

(دائرة المعارف الإنجليزية ، ودائرة المعارف الأمريكية) .

(١) الإنسان ذلك المجهول — ألكسيس كاريل — ص ١٨٠ .

حدوثها فى العصر الحديث ، أمرخاص بالكنيسة الكاثوليكية والكاثوليك ، أما البروتستنت الذين قامت دعوتهم على أساس تطهير المسيحية من الخرافات ، فإنهم لن يسمحوا بانتشار الحديث عن الشفاء المعجز فى صفوفهم ، فجاءت جماعة العلم المسيحى ، لتثبت أن المعجزات حقيقة مؤكدة ، وأن سلطان العلم مهما تطاول وتعالى فلن يستطيع أن يقضى على حقيقة مقررة يشهد بها الألوف والملايين .

أنشأت دعوة العلم المسيحى سيدة أمريكية تدعى مارى بيكر ايدى . ولدت عام ١٨٢١ فى بلدة « باو » من مقاطعة نيوهامبشير فى الولايات المتحدة الأمريكية . وكانت مارى فى طفولتها والجزء الأكبر من حياتها ضعيفة ضامرة عصبية المزاج ، وتقول هى عن نفسها ، إنها عندما بلغت السادسة والأربعين كانت مجرد حطام بشرى يعيش لغير غاية أو هدف إلا أن تكون رمزا على الفشل التام فى الحياة . ثم حدث بعد ذلك أن سقطت على الأرض فأصيب عمودها الفقرى إصابة خطرة أعجزتها وألزمتها الفراش ، وقرر الأطباء أنه لا يوجد ثمة أمل فى شفائها وأنها ستقضى ما بقى من عمرها نائمة على ظهرها . تقول مارى : وفى ذات يوم طلبت نسخة من الكتاب المقدس وفتحت إحدى صفحاته اتفاقا فإذا بهذه الكلمات تطالعنى « قال المسيح للمشلول ابتهج يا بنى مغفورة لك خطاياك ، قم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك ، فقام ونهض إلى بيته » فأحسست كأن هذه الكلمات تقال لى ، وشعرت بقوة عجيبة تسرى فى جسدى جعلتنى أقوم من الفراش وأسير كأنى لم أكن عاجزة قط ، فآليت على نفسى أن أنشر هذا الإيمان . الذى ملأ قلبى وشفانى »[1] .

وبدأت مارى بيكر ايدى تدعو الناس إلى دعوتها فألفت كتابا يعتبر

(١) صور حية لقادة الأديان ص ٢٦٩ وما بعدها .

إنجيل هذه الدعوة أسمته « العلم والصحة » . والفكرة الرئيسية فى الكتاب تقوم على أن الإنسان مؤلف من عنصرين : الجسم والروح . والجسم لا يمكن إلا أن يكون خادما للروح وصادعا بأمرها ، فإذا مرض الجسم فمن الممكن أن يتم شفاؤه بقوة الروح بغير حاجة إلى علاج مادى ، أى بغير حاجة إلى أدوية أو عقاقير من أى نوع كان ، فضلا عن إجراء أى جراحة وبحسب الإنسان المؤمن ، أن يتلو بعض آيات من الإنجيل أو أن يتلوها عليه بعض المؤمنين بالإنجيل ، لكى يشفى على الفور ، فينهض المقعد ويذهب السل والسرطان ، وينتهى أى ألم[1] وأنا على يقين من أن كثيرين ممن يطالعون هذا الكلام سيبتسمون ويتخيلون أننى أتصيد الأدلة وأتحدث عن العوام الذين لا يخلو منهم مجتمع من المجتمعات ، وقد بقى أن يعرف من لم يكن يعرف ، أن هذه الجماعة التى أتحدث عنها والتى تدعو بهذه الدعوة ، من أقوى الجماعات المسيحية فى انجلترا والولايات المتحدة بصفة خاصة ، وأن أتباع هذا المذهب قد استطاعوا عام ١٩٠٢ أن يجمعوا مبلغ مليونى دولار ، أى ما قد يزيد فى الوقت الحاضر عن عشرين مليونا من الدولارات ، وذلك لإنشاء الكنيسة الأم فى مدينة بوسطن ، ثم توالى بعد ذلك إنشاء الكنائس الخاصة بهذه الطائفة والتى أتيح لى زيارة بعضها فى انجلترا[2] وتصدر فى كل عام مئات الكتب والمجلات والنشرات التى تعلن عن إيمان هذه الجماعة ، وتتضمن أنباء معجزات الشفاء التى حدثت والتى يرويها أصحابها ويقدمون الأدلة على صحتها . بل إنه تصدر فى أمريكا صحيفة يومية من أكثر الصحف فى الولايات المتحدة أهمية

---

(١) صور حية لقادة الأديان — ص ٢٦٩ .

(٢) حدث أن مرضت فى أثناء وجودى فى انجلترا عام ١٩٥٥ فسألت صاحب البيت الذى أقيم فيه عن طبيب لأذهب إليه ، فأجابنى بأنه هو شخصياً لا يتعامل مع الأطباء العاديين لأنه من جماعة « العلم المسيحى » وهكذا أتيح لى لأول مرة أن أعرف كل شىء عن هذه الجماعة وكتبها وكنائسها المنتشرة فى أنحاء لندن ، وتغص بمئات الألوف من أتباع هذه الطائفة .

هى صحيفة (الـكرستيان ساينس مو نيتور Christian Science Monitor) ويتوج ذلك كله جامعة من كبريات الجامعات الأمريكية .

معجزات الشفاء فى موسم الحج الاسلامى

وإذا كانت بعض حالات الشفاء الإعجازى التى تتم فى لورد والتى لا تتجاوز الخمسين حالة كل سنة ، وبعض حالات الشفاء الإعجازى التى يعلن عنها ويروج لها دعاة العلم المسيحى ، تحير العلماء والأطباء ، فإنى أؤكد أنه لو درس مايحدث فى مكة فى أثناء موسم الحج ، بنفس الأسلوب العلمى الذى تتم به دراسة هذه الأحوال فى بلدة لورد ، فسوف يجد العلم ما يحمله نهائيا على التسليم بأن كل مايقول به من قوانين وقواعد فى علم الصحة والعدوى ، يتلاشى ويذوب أمام حرارة العقيدة والإيمان[1] .

إن ما يحدث فى مكة فى أثناء موسم الحج ، شىء لا يستطيع العلم إلا أن يسلم بعجزه عن تفسيره ، فقد لا نجد مكانا آخر فى طول الدنيا وعرضها ، يختلط فيه الحابل بالنابل والمرضى بالأصحاء ، كما يحـدث فى مكة فى ذلك

---

(١) إن الحادث الذى سيظل ماثلا فى ذهنى كنموذج رائع لمعجزات الشفاء بقوة العقيدة فى مكة ، هو الخاص بوالدة صديقى وأخى الأستاذ إبراهيم شكرى ، فقد مرضت بقلبها عام ١٩٤٠ مرضاً ألزمها الفراش طويلا وحظر عليها الأطباء أن تقوم بأى حركة خوفاً على حياتها ، فلما طال عليها المرض وحالتها تزداد سوءاً ، قررت أن تحج إيماناً منها أنها لن تشفى إلا إذا حجت . وقد اعتبر كبير الأطباء الذى كان يعالجها أن سفرها يعنى الحكم عليها بالاعدام ، ولـكن السيدة الجليلة أصرت على تحقيق مشيئتها ، فسافرت إلى الحجاز محمولة ، وقد كنت أرافقها فى السفينة ، وكان المشهد مؤلماً وهى ينزل بها من السفينة فى عرض البحر محمولة . وإن هو إلا بعض الوقت بعد ذهابها إلى مكة حتى كانت تطوف حول الـكعبة فوق كرسى متحرك ، ثم استردت صحتها كاملة ، وأصبحت تطوف حول الـكعبة سيراً على أقدامها . وقد مضى الآن على هذا الحادث عشرون سنة ، لم يحدث أن شكت السيدة الفاضلة بقلبها أبداً ، وقد يكون من الطريف وإن كان خارجاً عن الموضوع ، أن الطبيب الذى قال ما قال قد توفاه الله منذ زمن بعيد ، رغم ما كان يتمتع به من صحة وقوة .

الوقت . هناك يحتشد مئات الألوف من آسيا وأفريقيا حاملين معهم كل ما فى هاتين القارتين من أمراض وأوبئة ، وضعف وعجز وشيخوخة . وتتحقق كل شروط العدوى والسبيل الميسر لانتقال الميكروبات بطريقة نموذجية ، فالأجساد عارية تقريبا ، والزحام على أشده ، فتمتزج الأنفاس وتحتك الجلود ، بل ويمتزج اللعاب باللعاب فى بعض المواطن كالحجر الأسود ، إذ تحتم السنة لثمه وتقبيله ، فيعمد الكثيرون إلى لعقه لعقا زيادة فى التبرك . وكان من شأن ذلك كله أن يجعل انتشار الأوبئة فى مكة خلال موسم الحج ضربة لازب ، ولكن الذى يحدث أنه يعلن فى كل عام عن نظافة الحج ، ولا يموت سوى عدد يعد على الأصابع أكثرهم من فرط الشيخوخة ، وتحقيقا لأمنية تمنوها هى أن يموتوا فى الأراضى المقدسة ليدفنوا بها . ويشفى الكثيرون بطريقة معجزة ، وما أكثر ما سمعت الحجاج يحدثون عن أمراضهم التى شفيت بمجرد شرابهم من ماء زمزم مصداقا لقول الرسول الكريم « ماء زمزم لما شرب له » أى بحسب النية والاعتقاد .

الشفاء المعجز فى كل مكان يقدسه الناس

وهذا الذى يحدث فى موسم الحج فى مكة بالنسبة للمسلمين ، ويحدث فى لورد بالنسبة للكاثوليك ، يحدث مثله للهنود المؤمنين فى مدينة بنارس . وتنفرد بنارس من دون الأماكن الأخرى فى العالمين ، بحرق أجساد الموتى وقذف بقاياهم فى ماء الكنج المقدس ، ولكن القديسين لا يحرقون بل تلقى جثثهم كما هى فى النهر المقدس ، كما يلقى بأجساد الأبقار النافقة فى ماء النهر كذلك ، وفى هذا الماء الذى وصفته لك ، يستحم المؤمنون ويغسل المؤمنون ملابسهم ويشرب المؤمنون ، دون أن يصابوا بأى أذى بل على العكس ، يحصل الكثيرون بفضل إيمانهم وعقيدتهم على الشفاء بمجرد ذهابهم إلى بنارس والاستحمام فى النهر المقدس الطاهر .

وليست عمليات الشفاء المعجز وقفا على هذه المزارات الكبرى ، بل إنها قد تحدث فى مولد أى قديس أو ولى من أولياء الصالحين . وغنى عن البيان أن ذلك كله فى طريق الزوال لانتشار روح العلم الذى يقول للناس إن ذلك ليس إلا من ضروب الجهل وأن ليس سوى العقاقير والتحليل النفسى الذى يشفى الناس من كل داء .

رأى الكسيس كاريل

وقد بقى الآن لكى لا يوصف ماذكرته لك من قبل أنه محض تخرصات ، كما يحلو دائما للمؤمنين بالمادة أن يصفوا كل الذى يقال لهم فى هذا السبيل ، أن أنقل إليك فى هذا الموضوع رأى رجل لا يمكن أن يجردوه من صفته العلمية البحتة ، وقد كان من أوائل الحاصلين على جائزة نوبل العلمية وأعنى به ألكسيس كاريل الذى يقول : « فى جميع البلاد والأزمان آمن الناس بوجود معجزات ، وبشفاء المرضى سريعا فى أماكن الحج وفى معابد معينة . بيد أن قوة العلم الدافعة إبان القرن التاسع عشر ، جعلت مثل هذا الإيمان يختفى تماما . ولقد كان المعترف به بصفة عامة أن هذه المعجزات لم تحدث فحسب ، بل إنها مستحيلة الحدوث ، فكما أن توافق علم الحرارة الديناميكى يجعل الحركة المستمرة مستحيلة ، فإن قوانين السيكولوجية تعارض المعجزات . ذلك هو موقف علم النفس والأطباء ، ومع ذلك فبالنظر إلى الحقائق التى لوحظت خلال الخمسين عاما الأخيرة ، فلن يكون بالإمكان الإصرار على هذا الموقف ، فإن أكثر حالات الشفاء الإعجازى أهمية ، هى تلك التى سجلها المركز الطبى لبلدة لورد .

أما فكرتنا الحالية عن تأثير الصلاة على الأمراض الباثولوجية ، فقائمة على ملاحظة المرضى الذين شفوا من الأمراض المتخلفة ، مثل سل البريتون والخراجات الباردة والتهاب العظام والجروح العفنة وسل الأنسجة

والسرطان . . . الخ وتختلف عملية الشفاء من إنسان لآخر . وغالبا ما يشعر المريض بألم حاد يعقبه على الفور إحساس مفاجىء بالشفاء ، ففى ثوان معدودة أو دقائق معدودة أو على الأكثر ساعات ، تلتئم الجروح وتختفى الأعراض الباثولوجية (المرضية) ويسترد المريض شهيته . وقد تختفى الاضطرابات الوظيفية أحيانا قبل أن تصلح الجروح التشريحية .

وقد تستمر التشوهات الهيكلية الناتجة عن مرض بوت أو الغدد السرطانية ، يومين أو ثلاثة أيام بعد شفاء الفروع الرئيسية . وتتصف المعجزة الرئيسية بسرعة متناهية فى أعمال الإصلاح العضوى . بيد أن الشرط الذى لا مفر منه لحصول الظاهرة هو الصلاة . إلا أنه لا توجد ضرورة تدعو المريض للصلاة بنفسه أو أن يكون على درجة من الإيمان الدينى ، وإنما يكفى أن يصلى أحد الموجودين حوله . إن لكل هذه الحقائق مغزى عظيما ، فإنها تدل على حقيقة علاقات معينة ، ذات طبيعة ما تزال غير معروفة بين العمليات السيكولوحية والعضوية ، وتبرهن على الأهمية الواضحة للنشاط الروحى ، الذى أهمل علماء الصحة والأطباء والمربون ورجال الاجتماع دراستها اهمالا يكاد يكون تاما ، إنها تفتح للإنسان عالما جديدا[1] »

المسمرية ترغم العلم على الاعتراف بالعلاج عن طريق الايحاء

وقد كان باستطاعة العلم المادى أن يواصل تجاهله لكل الذى ذكرناه لولا أن رجلا ، أو بالأحرى طبيبا نمسويا ، قد اقتحم معقل ذلك العلم ، وفرض عليه أن يدرس هذه الظواهر فرضا . ولقد وصف هذا الرجل فى أيامه بأنه نصاب ودجال ، ولكن العصر الحديث قد رد إليه اعتبار كمؤسس لعلم التنويم المغناطيسى الذى يقرب إلينا تأثير العقيدة والإيمان

(١) الانسان ذلك المجهول — ص ١٨٠ .

ويدخلها فى الإطار العلمى . ومسمر أو (فريدريك أنطون مسمر) طبيب نمسوى أصدر فى عام ١٧٦٦ كتابا سماه « تأثير الكواكب » وقد تحدث فى هذا الكتاب عما كان يعتبر فى ذلك الوقت حقيقة مقررة من تأثير النجوم والكواكب على بنى البشر ، فقال إن هذه الكواكب والنجوم تنطوى على مبدأ معين أو قوة ، وهذه القوة تسرى فى الكائنات كلها وتؤثر فيها كالمغناطيسية والكهرباء ، وراح يسرد فى كتابه تجاربه التى قام بها حيث استطاع أن يشفى الكثيرين من أمراضهم ، عن طريق استعمال هذه القوة المغناطيسية ، وذلك بإمرار قضيب ممغنط على أجسامهم ، أو بالربت بهذا القضيب عليهم . واستخلص من ذلك فكرة التنويم المغناطيسى كما نعرفها بشكلها الحالى . وضمن كتابه طرقا مختلفة لاستعمال المغناطيس فى علاج بعض الأمراض[1] .

ثم حدث أن توصل مسمر إلى شفاء بعض أعيان المجر من ألم قديم فى العنق ، وأعاد البصر إلى وصيفة الإمبراطورة مارى تريزة ، فاستطارت شهرته . ولما قرر السفر إلى باريس كانت شهرته قد سبقته إليها .

وفى باريس قبيل قيام الثورة الفرنسية ، وإبان حكم لويس السادس عشر ومارى انطوانيت ، سجل مسمر هذه الصفحة العجيبة ، والحوادث المذهلة التى جعلت باريس تلتهب إعجابا به . ولعل من سوء حظ مسمر أن كان الملك والملكة على رأس المعجبين به ، وأن قامت الثورة الفرنسية وصبت غضبها على كل من كان يلوذ بالملكية ، وهكذا اضطر مسمر أن يفر من فرنسا وأن يعود إلى فينا وطنه الأصلى ، ولكن الحكومة النمسوية خافت من هذا الرجل الذى جاء من فرنسا والذى أحدث بها ما أحدث ، أن

(١) التنويم والتحليل — مجلة علم النفس — أكتوبر عام ١٩٤٨ الأستاذ كمال الدسوقى .

يكون هو أحد عوامل الثورة فسجنته حينا من الزمان ، ولما أفرج عنه كان قد بلغ من العمر عتيا فمات فى زوايا النسيان . وكان طبيعيا أن يتهم مسمر بعد قيام الثورة الفرنسية أنه كان دجالا ومشعوذا ، ولكن المباحث الحديثة قد انتهت كما قدمنا إلى اعتباره مؤسس فن التنويم المغناطيسى أو علم التنويم المغناطيسى . كان مسمر يستعمل بادىء ذى بدء حجر المغناطيس لإحداث الشفاء ، وكان يودع أحد القضبان هذه القوة المغناطيسية ، ولم تلبث تجاربه أن انتهت به إلى اكتشاف أن السر فى الحقيقة لا يكمن فى القضيب المغناطيسى ، ولكنه يكمن فى اليد التى تحمل المغناطيس ، ولذلك فقد عدل فى نظريته وقال بالمغناطيسية الحيوانية ، أى أن بالإنسان كالمعادن قوة مغناطيسية يستطيع أن يستخدمها وأن ينقلها وأن يودعها ما يشاء من أجسام . وعلى هذا الأساس لما تكاثر عليه المرضى أودع أحد القضبان قوة مغناطيسية تكفى لعلاج من ٣٠ إلى ١٠٠ مريض فى آن واحد ، فكان المرضى يشعرون بالسائل الشافى ينتقل من القضيب إلى أجسادهم فيخفف من آلامهم . ثم رأى مسمر ألا ضرورة لاستعمال القضيب فإن مجرد لمسه لكتف المريض ، أو مجرد وضعه يده بلطف والمرور بها من الكتف إلى الذراع يكفى لشفاء المريض . ثم رأى مسمر أن اللمس نفسه ليس ضروريا لإحداث الشفاء ، وبحسبه أن يريد نقل السائل الشافى من نفسه إلى العليل لكى ينتقل ، فكان يقول : إلى الوراء أيها الألم فيزول الألم على الفور ، تماما كما كان السحرة يفعلون فى عصور الدجل والشعوذة . ثم خرج مسمر إلى الفضاء ، إلى الحدائق والمتنزهات العامة والغابات والبرك والبحيرات ، فكان يمغنطها بسياله العجيب ، وكانت الجماهير تغطس فى المياه أو تتمدد على العشب أو تتسلق الأشجار التى مغنطها ، فتتأرجح بين أغصانها فى انتظار ساعة الشفاء ، الذى كان من حظ بعضهم بطبيعة الحال .

وكان عامة الشعب الذين لا يقوون على دفع أتعابه ، يقفون على باب

بيته فى مونمارتر منذ الفجر المبكر فى انتظار خروجه ؛ ليسعدوا بلمسة من أطراف ثوبه فقد كانت كافية فى بعض الأحيان للشفاء . وقال مسمر بعد ذلك إن الآلات الموسيقية إذا تمغنطت فإنها تحقق الشفاء كذلك عن طريق النغمات المنبعثة منها ، فأصبحت الحفلات الموسيقية تقام أحيانا تحت إشرافه حيث يشهدها القاصى والدانى[1] .

وقد اعتبرت حكومة لويس السادس عشر أن مسمر ، أصبح ثروة وطنية قد يؤدى موته إلى فقدان البلاد هذا السر العظيم ، فعرضت عليه مبالغ طائلة لكى يفضى إليها بهذا السر حتى لا يضيع بوفاته ، ولكن مسمر لم يعد يأبه بالمال ، فقد حصل منه فوق ما يريد ، ولذلك فقد طلب أن يكون الثمن هو اعتراف المجمع العلمى الفرنسى بالمسمرية كحقيقة علمية ثابتة ، باعتبارها وسيلة من وسائل علاج الأمراض . ولكن المجمع العلمى الفرنسى رفض أن يعترف بالمسمرية كوسيلة للعلاج ، على الرغم من النتائج الإيجابية التى لا تنكر ، فما دام أن مسمر يعزو علة الشفاء إلى نفسه ، فإن ذلك من شأنه أن يجعل ما يقوم به ، أقرب إلى السحر والشعوذة منه إلى الوسائل العلمية التى يجب أن يكون بقدرة أى إنسان أن يحذقها متى توفر على دراستها . وهكذا لم يظفر مسمر بتحقيق بغيته من اعتراف المجمع العلمى بمسمريته ، ثم كان قيام الثورة الفرنسية العامل الأكبر فى إصابة المسمرية بنكسة كادت تعفى على كل آثارها .

المسمرية خارج فرنسا :

غير أن النتائج المحققة التى حققتها المسمرية لم يكن من المعقول ألا تلفت أنظار الباحثين خارج فرنسا وخاصة انجلترا . وقد قام فى انجلترا عدد من كبار

---

(١) من نافذة العقل — الدكتور نقولا فياض — ص ٢١ .

أطبائها يعلنون أنهم قد حصلوا على نتائج إيجابية من العلاج بالمسمرية ، ونقل بعض الأطباء الإنجليز المسمرية إلى الهند فنجحت فيها نجاحا منقطع النظير ، وصل إلى حد إنشاء مستشفى خاص فى مدينة كالكوتا ، أنشأته الحكومه الإنجليزية نفسها ليتولى العلاج فيه بالمسمرية أحد مشاهير الأطباء ، فكان المرضى يتزاحمون للدخول فى هذه المستشفى وكانت العمليات الجراحية التى تجرى فى هذه المستشفى لايحس المرضى فيها بأى ألم ، فقد كانوا يخدرون بالمسمرية أى مغناطيسيا قبل إجراء العملية . والحق أنه لو لم يتم اكتشاف الأثير والكلوروفورم فى منتصف القرن التاسع عشر ، لكان التخدير عن طريق التنويم المغناطيسى هو السبيل الوحيد فى الوقت الحاضر لإجراء عمليات بدون ألم [1] ، وهناك من يفضل حتى الآن التخدير بطريقة التنويم المغناطيسى على التخدير بالكلوروفورم ، لولا أنه قد يصعب تنويم الكثير من المرضى .

التنويم المغناطيسى :

لم تأخذ المسمرية هذا الاسم المشهور ، ونعنى به التنويم المغناطيسى إلا على يد « جيمس بريد » الطبيب الإنجليزى فى مدينة منشستر . لقد ظلت المسمرية رغم النتائج التى كان يحرزها كثير من الأطباء ، تعتبر أقرب إلى الدجل والشعوذة ، فقد كانت تستند فى الدرجة الأولى على قوة خاصة فى الطبيب المعالج ، فجاء جيمس بريد يجرد المسمرية من هذه الخاصية ، وينفى عنها فكرة السائل المغناطيسى الذى قيل إنه السر فيها ، وأرجع الظاهرة المسمرية إلى علل فسيولوجية وأخرى سيكلوجية ، فهى من الناحية الفسيولوجية إحدى حالات النوم أو الغيبوبة Trance ، وهى من الناحية السيكولوجية تقوم على تأثير

---

(١) التنويم والتحليل — مجلة علم النفس — الأستاذ كمال دسوقى .

الإيحاء فى النفس . ونشر بريد كتابه الرئيسى عام ١٨٤٣ تحت عنوان « علم التنويم العصبى » وهكذا بدأ استعمال هذه العبارة الشائعة «التنويم المغناطيسى — Hypnotism » ، وبالرغم من أن بريد كما قدمنا قد نفى وجود عنصر مغناطيسى فى الموضوع ، فقد ظلت كلمة « المغناطيسى » تلحق الظاهرة إشارة إلى مسمر الذى كان أول من قال بهذا السيال الإنسانى المغناطيسى . وقد اعتبر بريد أو بالأحرى اعتبر هو نفسه مؤسس هذا العلم . وسنرى بعد قليل كيف أن الظاهرة ستعود من جديد لتتحرر من فكرة النوم التى فرضها عليها جيمس بريد .

التنويم المغناطيسى فى الحياة العامة :

لم يقف استعمال التنويم المغناطيسى على العلاج الطبى ، بل لقد تعدى استخدامه هذه الدائرة إلى تحقيق أغراض أخرى بعضها مشروع وبعضها غير مشروع . فقد استعمله البعض كوسيلة للاعتداء على فتاة أو امرأة وقد دار التساؤل أمام القضاء وفى كتب الفقه عما إذا كانت مواقعة أنثى وهى واقعة تحت تأثير التنويم المغناطيسى، تعتبر مواقعة قد تمت بالرضا أو بالإكراه ، وكذلك إذا أقدم شخص على تنويم آخر ثم طلب منه أن يقتل شخصا ما ، فأيهما يكون القاتل ، هل الذى قتل تحت تأثير التنويم ، أم أن المنوِّم هو القاتل فى مثل هذه الحالة . ، فقضت الأحكام فى فرنسا وغيرها من الدول الأوربية التى انتشر فيها التنويم المغناطيسى ، أن من يقتل وهو نائم مغناطيسيا يكون منعدم الإرادة ، فهو مجرد أداة تتصرف بغير وعى أو إدراك[1] ، وأن القاتل الحقيقى فى هذه الحالة ، هو الشخص الذى قام بتنويمه . وأن الأنثى التى تواقع فى أثناء تنويمها يكون ذلك بمثابة الاعتداء بالإكراه. وقد انتقلت

---

(١) الأحكام العامة فى قانون العقوبات السعيد مصطفى السعيد ص ٤٥٧ . وانظر أحكام القضاء الفرنسى فى هذا الصدد فى كتاب التنويم المغناطيسى ــ للدكتور محمد رشدى .

هذه المباحث القضائية إلى مصر كما هى العادة ، فسجل قضاؤنا الجنائى اعترافه بالتنويم المغناطيسى كحقيقة علمية وذلك فى قضية الجناية رقم ٥٠٤ لسنة ١٩١٣ ، حيث قضت محكمة الجنايات التى كانت مشكلة من ثلاثة من المستشارين أحدهم إنجليزى ، بالسجن سبع سنوات على أحد الأطباء ، لأنه نوم فتاة تنويما مغناطيسيا ثم اعتدى على عفافها ، وطلب منها إذا استيقظت وسئلت عما حدث لها أن تجيب ، بأن الجن هم الذين أحدثوا بها ما حدث. ولقد اضطرت النيابة وهى تحقق هذه القضية أن تستعين بمنوم مغناطيسى ، لمعرفة الحقيقة وكذلك كان الحال أمام محكمة الجنايات ، التى استعانت بأحد الأطباء ليجرى أمامها عملية تنويم الفتاة ، وقد تم ذلك فى حضرة الطبيب الشرعى وتحققت المحكمة بالفعل من حقيقة التنويم ، حيث كانت الفتاة تشك بالإبرة حتى يسيل دمها دون أن تحس أو تختلج لها عضلة[1] .

كيفية عمل التنويم المغناطيسى

يقول الدكتور محمد رشدى فى كتابه « التنويم المغناطيسى » إن للتنويم المغناطيسى عدة طرق ذات أهمية من الناحية العلمية ، وقاعدتها الأساسية هى الاعتقاد بالنوم ممن يكون فيه استعداد له مع وجوب اجتهاد المنوم فى أن يجعل المستعد للنوم غير مفكر فى شىء غير اعتقاده بالنوم ، وأن يكون المنوم نفسه مصمما من قبل على فكرة مخصوصة ثابتة لا عدة أفكار . ثم راح يذكر فى كتابه الطرق المختلفة لعملية التنويم ، وكيف أن بعض المدارس

---

(١) طالع القضية بكل تفاصيلها ونص محضر جلسة محكمة الجنايات التى نظرت القضية فى كتاب التنويم المغناطيسى للدكتور محمد رشدى حكيمباشى محافظة مصر فى ذلك الوقت ، وهو الذي قام بعملية تنويم الفتاة فى تحقيق النيابة وأمام محكمة الجنايات ، وقد جاء فى حيثيات حكم محكمة الجنايات ما يلى : وحيث إنه لتحقيق عدم الرضا قررت المحكمة تنويم المجنى عليها المذكورة تنويماً مغناطيسياً لمعرفة درجة تعطل إرادتها وانعدام رضاها . وحيث إنه قد ثبت للمحكمة من اختبار المجنى عليها بعد تنويمها ، أنها كانت وقت الجريمة عليها معدومة الإرادة ، لذلك حكمت المحكمة . . . الخ .

تستخدم نوعا من المرايا لإحداث النوم ، والبعض يصل إلى التنويم من خلال التحديق إلى عين من يراد إنامته ، ولـكنى رأيت أن أنقل ما كتب فى هذا الصدد بدائرة المعارف الإنجليزية باعتبارها شديدة التحفظ فى كل مالا يتفق والعلم المقرر . وقد جاء فى الدائرة المذكورة تحت عنوان كلمة تنويم مغناطيسى Hypnotism ما يلى :

« يجلس الإنسان المراد تنويمـه على كرسى فى حالة استرخاء وسلبية فى العقل ، ثم يقف الطبيب ويرفع يده أو أصابعه الوسطى على بعد وارتفاع معينين من عين المريض الذى يطلب منه أن يركز نظرته على الأصابع ، ثم يقول له الطبيب كلمات إيحائية تعمل على إغلاق العينين وإثقال الأجفان واقتراب النوم . وإذا تكررت العملية فإنها تصبح سهلة بحيث يستجاب فيها بمجرد الأمر بكلمة واحدة . وتنتهى عملية النوم بإيحاء اليقظة للنائم . وللتنويم المغناطيسى حالات ثلاث :

الحالة الأولى التنويم الخفيف جداً — ولا يعدو أن يكون مجرد ارتخاء relaxation مصحوب بحالة سلبية كاملة ، فلايستطاع فتح العينين أو مقاومة بعض الأوامر البسيطة التى تتصل بالعضلات الاختيارية — وفى هذه المرحلة يكون النائم مدركا لـكل ما يحيط به .

الحالة الثانية — وهى مرحلة أبعد مما سبق فتصبح ظاهرة النوم أعمق ، وإن كان النائم يظل ذاكرا لما حدث فى أثناء النوم .

الحالة الثالثة — أما فى هذه الحالة الثالثة فإن النائم ينسى كل ما سمع أو قيل له أو حدث فى أثناء النوم وينصاع النائم فى هذه المرحلة لـكل أوامر المنوم أو أغلبها على الأقل .

وفترة ما بعد التنويم هى التى تظهر مدى أثره العميق وكيف يقوم الشخص الذى نوم بأعمال لا يدرى الدافع عليها ولـكنه يأتيها مع ذلك .

كما أنه من الممكن إحداث الشلل ، أو تشنجات أو تقلصات فى أى عضلة من العضلات أو فى الأمعاء كما يمكن إحداث الشلل ، أو جعل الحواس أكثر حدة ، كما يمكن إزالة الإحساس بالألم بل وإزالة الإحساس من أساسه ، كما يمكن حمل الشخص الذى نوم على أن يهلوس بعد استيقاظه بصنوف شتى من الهلوسات . » انتهى ما جاء بدائرة المعارف الإنجليزية .

ونريد قبل أن ننتقل إلى مرحلة جديدة من مراحل البحث ، أن نسجل كيف أن عملية التنويم تتلخص فى وجوب الاعتقاد فى نفس النائم والمنوم ، وكيف أنها عملية تركيز للانتباه من ناحية الشخص الذى سينام إلى أنه سينام بالفعل ، وذلك عن طريق الإيحاء ، وهى عملية تركيز وإصرار من ناحية الشخص المنوم أن يؤثر على الشخص الذى سينام[1] . ننتقل بعد ذلك لنرى كيف أن موضع النوم الذى أدخله بريد على الظاهرة لم يلبث أن اكتشف أنه ليس لازما ولا ضرورة له لإحداث الأثر المطلوب .

من التنويم إلى الايحاء فى اليقظة إلى التحليل النفسى :

أصبح التنويم المغناطيسى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، العلاج الطبي المعترف به للأمراض العصبية بصفة خاصة ، وأقيمت المستشفيات

---

(١) أتيح لى شخصياً خلال شبابى المبكر أن أقوم ببعض تجارب مباشرة فى موضوع التنويم المغناطيسى ، فقد طلبت من أحد المنومين المحترفين أن يأذن لى فى تنويم وسيطه فأذن ، فاستطعت أن أنومه بالفعل ، ثم رحت أسأله عن الساعة بعد أن أدير عقاربها فكان يجيب الإجابة الصحيحة دائماً ، كما رحت أختبره فى عدد أعواد الكبريت الموجود داخل العلبة بعد أن نغير فيها ونبدل ، فكان يجيب على الفور الإجابة الصحيحة . وفي كل المناسبات التى حضرت فيها عملية تنويم مغناطيسى ، فقد كان الذى يحدث دائماً هو قدرة الوسيط على معرفة ما يوجد فى محافظ النقود من أوراق مالية ، وكان باستطاعة الكثيرين من الوسطاء أن يقرأوا الارقام المثبتة على أوراق النقد ، وأن يميزوا الصور وهل هى لذكر أو أنثى ، ويطالعوا ما كتب على بطاقات الزيارة أو البطاقة الشخصية . كل ذلك والوسيط مغمض العينين بطبيعة الحال . وغنى عن البيان أن عمليات التنويم تذهب إلى أكثر من ذلك بكثير ، ولكنى أتحدث عما شاهدته أنا شخصياً .

التى تعالج بالتنويم المغناطيسى ، والتى لم تلبث أن تحولت إلى مدارس علمية تختلف فى مناهجها وأساليبها ، ولكنها تلتقى كلها عند الاعتراف بالتنويم المغناطيسى كسبيل لعلاج أمراض الهستريا وغيرها من الأمراض العصبية ، إلى أن جاء سيجموند فرويد وهو طبيب نمساوى استهوته طريقة العلاج الجديدة عن طريق التنويم المغناطيسى ، فاتصل بكبار المشتغلين به وخاصة بالعالم الفرنسى الكبير شاركو Charcot . وعندما بدأ فى ممارسة العلاج بالتنويم المغناطيسى فى فينا مع زميل له يسمى « جوزيف كاريير » سمع من هذا الأخير أنه قد لاحظ أن مرضاه يستفيدون جداً من العلاج بالتنويم المغناطيسى ، عندما يهيىء لهم فرصة التحدث عن ذكرياتهم الماضية فى أثناء النوم ، وقد سميت هذه الطريقة بالتفريغ[1] ، فراح فرويد يستعملها فازداد اقتناعا بها . ولكنه على مر الوقت اكتشف أن بعض مرضاه يستعصى عليه تنويمهم ، فبدأ يعدل عن التنويم ويجرب معهم الإيحاء بما يريد أن يوحى لهم به وهم فى حالة اليقظة ، ويطلب منهم تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية وبعد قليل اكتشف فرويد عيوب هذه الطريقة أيضاً ، فقد وجد أنه لايستطيع فى كل الأحوال أن يحمل مرضاه على تذكر الحوادث والتجارب الشخصية الماضية التى سببت مرضهم . فرأى فرويد أن يعدل عن هذه الطريقة أيضاً ، وبدأ فقط يطلب من مرضاه أن يطلقوا لأفكارهم العنان بدون قيد أو شرط ، دون أن يحاولوا إخفاء شىء عنه مهما كان تافها أو معيبا أو مخجلا . وهكذا نشأ فن التحليل النفسى الذى أنزل التنويم المغناطيسى عن عرشه كأسلوب شائع فى العلاج ، كما كان الشأن خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، والذى أثبت من ناحية أخرى أن إضافة النوم الذى قال به جيمس بريد لإمكان الإيحاء ، ليس ضروريا

(١) معالم التحليل النفسى لسيجموندفرويد — ترجمة عثمان نجاتى — ص ١٨ .

وتغص الآن أوربا والولايات المتحدة الأمريكية بعشرات الألوف من عيادات التحليل النفسى ، ويقصدها الملايين التماسا للعلاج مما يعانونه من شتى صنوف الأمراض المادية والمعنوية كالخجل والشعور بالتفاهة والضعف والإرهاق وبعض الأمراض العصبية الأخرى . ويشفى الكثيرون مما يعانون بعد بضع جلسات يقضونها مع الطبيب النفسى ، الذى يؤكد لهم أن مجرد معرفتهم لهذا الأمر أو ذاك سيكون سبب شفائهم المحقق . والسر فى الشفاء هنا هو بذاته السر فى شفاء الذين آمنوا بقدرة مسمر على شفائهم أو قدرة التنويم المغناطيسى على شفائهم ، أو قدرة أى إنسان أومكان معين على تحقيق هذا الشفاء ، فالأمر يرتد دائما إلى الاعتقاد ولا زيادة . وليس أدل على صحة ما نقول من أن مدارس التحليل النفسى التى بدأت واحدة على يد سيجموند فرويد ، سرعان ما انقسمت وتعددت فأصبحت مدارس مختلفة فيما بينها فمدرسة « أدلر » غير مدرسة « يونج » غير مدرسة « فرويد » ، من حيث السبب الذى يعتبر هو الأساس فيما يشعر به المريض من متاعب[1] . فدل ذلك على أن القول بأن هذا السبب أو ذاك هو سبب العلة الحقيقى ، وأنه لايكاد يعرف حتى يتحقق الشفاء ، ليس فى حقيقته إلا استخدام هذه الظاهرة المعروفة المقررة ، ظاهرة الإيمان والاعتقاد ، بحيث يوجد الاعتقاد بأن أسلوبا معينا أوطبيبا معينا ، يحقق الشفاء فإن عملية الشفاء تتم ، وحيث لااعتقاد فلا شفاء ، وهكذا لا نفتأ ندور فى نفس الدائرة القديمة دائرة الاعتقاد ، ويكون كل الذى يفعله العلم أن يتشدق بكلمات جديدة ، وأن يستغل إيمان الناس بكل ما يقال عنه إنه علم ؛ لكى يمارس أعمال من يحلو للعلم أن يسميهم دجالين ومشعوذين .

---

(١) يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هى محور ما يمكن أن يشكو منه أى إنسان ، ولكن أدلر يرى أن العلة هى فى الشعور بالنقص ، بينما يرى يونج أن العلة هى فى مشكلات الإنسان التى لم تحل .

ونصل أخيراً إلى ما اضطر العلم المادى أن يعترف به من أن المرض والشفاء ليسا فى حقيقتهما إلا تصوراً ذهنياً ، وأن الأسباب المادية التى كان يتصور أنها تحدث المرض ، قد ثبت بالتجربة المحسوسة أنها ليست كذلك .

فقد انتهى الباحثون فى مستشفى مونرو بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن الأمراض والعلل ليست فى الأعم والأغلب ، إلا أوهاماً نشأت فى عقول المرضى ، ثم عبثت بأجسامهم فأحسوها صداعاً فى الرأس أو آلاما فى الرقبة أو قرحاً فى المعدة . وقد توصل خبراء المستشفى المذكورة إلى هذه النتيجة بعد أبحاث دامت ١٥ سنة ، وضعوا على آثارها قائمة بنسبة المرض الذى ينشأ عن طريق الوهم والانفعالات العاطفية ، وإليك هذه النسبة المئوية فى مختلف الأمراض : —

المرض	النسبة المئوية
الشعور بالإرهاق	٩٠٪
الشكوى من الغازات	٩٠٪
الشكوى من الصداع	٨٠٪
الآلام فى الرقبة	٧٥٪
عسر الهضم	٧٠٪
آلام القرحة	٥٠٪
آلام المرارة	٥٠٪
التهابات جلدية	٣٠٪ (١)

تجارب خاصة بقرحة المعدة

ونقل الدكتور يوسف مراد فى كتابه مبادىء علم النفس ، كيف أن بعض علماء الطب الباحثين قد أجروا تجارب خاصة بقرحة المعدة ، فاختاروا

(١) صفحة جريدة الأهرام العلمية ــ ملحق العدد الصادر فى يوم ١٤/٤/١٩٦١ .

اثنين وخمسين مريضاً بالقرحة فيالمعدة ، ثم قسموهم إلى مجموعتين : « إحداهما مكونة من ٣٢ مريضاً عولجوا علاجاً نفسياً مدة سبعة أسابيع ، وكان العلاج يتم بطريقة جمعية ، بواسطة جلسات يومية يتحدث فيها الطبيب إلى المرضى عن طبيعة الصراع النفسى وأسباب التوتر والقلق ، كما كان يدربهم على ضبط النفس ، وزم الشهوات وكيفية الحد من شدة الانفعالات بوسائل الإيحاء الذاتى . أما المجموعة الثانية فقد عولج أفرادها علاجا جسميا فقط ، أى بالأدوية والعقاقير مدة ستة أسابيع . وفى نهاية الأسبوع الثالث شفى ٣١ مريضا من ٣٢ مريضا من المجموعة الأولى من مرضهم ، واستمرالشفاء مدة طويلة بعد انتهاء العلاج . وقد لوحظت عشر حالات ظلت مدة ثلاث سنوات بدون معاودة المرض . أما أفراد المجموعة الثانية فقد شفوا جميعا من أعراضهم المرضية بفعل الأدوية ونظام الأكل الخاص ، غير أن هذه الأعراض ظهرت من جديد فى ١٨ منهم بعد أسبوعين فقط من انتهاء العلاج ، والعودة إلى نظام الأكل العادى » .

ويقول الدكتور يوسف مراد تعليقا على هذه التجربة ، إنها تقيم الدليل القاطع على أثر العلاج النفسى لا فى الشفاء من قرحات المعدة فحسب ، بل وفى الوقاية منها ، ومنع عودة الأعراض العضوية من جديد . ومن أهم الأمراض التى ترجع إلى حالة نفسية : قرحة المعدة وقرحة الأمعاء وارتفاع ضغط الدم والربو وفقدان الشهية للطعام وبعض حالات الإسهال والإمساك ومرض العيون (الجلوكوما) أو الماء الأزرق ، ثم مجموعة من الأمراض الخاصة بالقلب والجهاز البولى والجهاز التناسلى[1] .

التعب ليس إلا حالة نفسية

ونصل الآن إلى ذروة ما وصلت إليه تجارب علم النفس التطبيقى ،

---

(١) مبادىء علم النفس العام — الدكتور يوسف مراد — ص ١٣٣ .

من أن التعب الذى كان يتصور إلى عهد قريب جدا أنه يحدث نتيجة عوامل فسيولوجية وكميائية بحتة ، كتغير فى نسب الأكسجين وثانى أوكسيد الكربون ، أو تجمع بعض المواد المتخلفة فى الدم بكثرة معينة ، مما يحدث نوعا من التسمم إلى آخر هذه الأبحاث ، فقد أثبتت التجارب التى أجريت على عشرات الألوف من العمال فى المصانع والمكاتب ، أن التعب فى حقيقته ليس إلا مسألة نفسية بحتة ، فإذا تصور الإنسان أنه سيتعب فسوف يتعب ، وإذا تصور أنه لن يتعب فلا يتعب بالفعل . فقد جيء بعمال قيل لهم إن زيادة الضجيج من شأنها أن تؤثر على أعصابهم فتقلل من إنتاجهم ، فبدأ إنتاجهم يتناقص بالفعل كلما زاد الضجيج من حولهم وأسرع إليهم التعب . وجيء بعمال أفهموا ألا تأثير من الضجيج وزيادته على إنتاجهم أو فى حلول التعب بهم ، بل على العكس قد تؤدى زيادة الضجيج إلى زيادة فى الإنتاج . فكانت النتيجة أن التعب لم يتطرق إلى هؤلاء العمال مهما اشتدت الضوضاء من حولهم ، ولم يكن لها أدنى تأثير على إنتاجهم . وجرت مباحث بنفس الأسلوب حول ساعات العمل ، فجيء بعمال أفهموا أن التعب لا بد أن يحل بهم بعد ساعات معينة من العمل ، فلم تكن هذه الساعات تقترب من نهايتها ، حتى كانت كل أعراض التعب الفسيولوجية تظهر على هؤلاء العمال . أما الذين أفهموا أن بقدرة الإنسان أن يعمل عملا متواصلا ، وشجعوا بأنواع مختلفة من المغريات ، فقد مضى هؤلاء العمال فى العمل دون أن يحسوا بأى تعب أو كلل لمدد لا تكاد تصدق . وقد انتهت تجارب علم النفس الصناعى إلى النتائج الآتية :

١ — يبدو أن أغلب العمل يمكن أداؤه دون توقف إلى أمد غير محدود .

٢ — الأمل فى تحديد رقم قياسى فسيولوجى للتعب لم يتحقق حتى الآن .

٣ — التعب فى جوهره عرض نفسى ومشكلة من مشكلات التوافق أو الروح المعنوية[1] .

الاعتقاد هو التفسير لكل هذه الظواهر

وهكذا يصادفنا الاعتقاد حيثما ذهبنا وأنى اتجهنا ، باعتباره الأساس لكل نشاط إنسانى . فإذا تصور الإنسان التعب تعب على الفور ، وإذا تصور المرض مرض ، وعلى العكس إذا تصور الشفاء شفى ، وإذا تصور القوة أصبح قويا .

ولكن مجرد التصور بمعنى مرور الصور فى الذهن أو التماعها فيه ، لا يكفى لإيجاد الإيمان الخلاق الذى يحدث المعجزات والأمور الجسام مما فصلناه فيما سبق ، بل لا بد من توافر بضعة شروط لكى يكون الإيمان إيمانا حقا . ولعل القارىء لا يزال يذكر ما قلناه فى موضوع الإرادة من أنه يرتسم فى الذهن نوعان من الصور ، صور سلبية حسية ، هى انعكاس لما يحدث فى داخل جسم الإنسان أو خارجه مما تنقله الحواس إلى الذهن ، وصور إيجابية حركية تتحول بفعل الإرادة إلى قوة ديناميكية ، تنطلق منها الطاقة المحركة فى داخل الجسم وخارجه . ولقد قلنا إنه لكى تتحول أى صورة ذهنية من صورة سلبية إلى أخرى إيجابية ، فلا بد من توفر ثلاثة شروط ؛ الضرورة والوحدة والتركيز ، وهى نفسها ما يلزم توفرها فى الإيمان والعقيدة .

الضرورة

ما من مؤمن أو معتقد بعقيدة أنتجت آثارها ، إلا ونرى هذا الإيمان أو موضوع العقيدة ، يصبح عنده ضرورة تعلو على الحياة نفسها ، فهو

---

(١) ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية — المجلد الثانى — ص ٦٩٦ وانظر أيضاً كتاب الدراسة المثلى لنوع الإنسان — ص ١٧١ — ١٨٤ .

مستعد للتضحية بالحياة فى سبيل ما يعتقد ، وبمقدار ما يتوفر هذا الشعور فى نفس أى إنسان ، بقدر ما يحقق موضوع إيمانه . وباستطاعتنا أن نستعرض كل صحائف التاريخ على ضوء هذا المقياس، سواء بالنسبة للأفراد أو الجماعات والأمم ، لنراه مفتاح كل نجاح وكل إعجاز ، فسادت شعوب وجماعات عندما استرخصت الموت فى سبيل عقيدتها ، وحاقت بها الهزيمة والدمار عندما تعلقت بأذيال الحياة ورخصت عليها عقيدتها . فإحساس المؤمن بضرورة ما يعتقده لكيانه الروحى قبل المادى ، هو أول شروط الإيمان الفعال .

وحدة موضوع الايمان

يأتى بعد هذا الشرط الأول الشرطان الباقيان ، بل هما كما قلنا فى موضوع الإرادة نتيجة لازمة وحتمية لهذ الشرط الأول ، فكون موضوع العقيدة هو ضرورة حياة المؤمن ، تجعله هو الموضوع الوحيد الذى يشغل ذهنه ، ويحتل كل نشاطه وتصوره ، إذا تحرك المؤمن فمن أجل عقيدته وعلى أساسها ، وإذا قام أو قعد أو نام أو استيقظ أو أحب أو كره أو حارب أو سالم فالهدف من وراء كل حركة وكل تصرف وكل كلمة بل كل نفس ، هو موضوع العقيدة وهذا ما نسميه وحدة موضوع العقيدة .

ويترتب على موضوع وحدة العقيدة ، الاعتقاد بكل النتائج والتفريعات التى تنشأ من موضوع العقيدة الرئيسى . فالإيمان بالمسيح مثلا على القاعدة المسيحية ، يستتبع الإيمان بكل ما فعله من معجزات ، والإيمان بتلامذته وما فعلوه من بعد ، والإيمان بما يفعله القديسون والقديسات وما يقع من معجزات فى بلدة لورد ، وما يقول به جماعة العلم المسيحى ، من إمكان الشفاء فى الوقت الحاضر بمجرد الإيمان بالمسيح . ذلك أن الإيمان جوهر واحد غير قابل للتجزئة ، فلو دب الشك إلى أحد أجزاء موضوعه ، زال الإيمان من أساسه . والإيمان بسيدنا محمد رسولا من رب العالمين ، يستلزم الإيمان بكل

ما جاء به من مبادىء وتعاليم ، كالإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والجنة والبعث والحساب . فلو قال إنسان إنه يؤمن بمحمد ولكنه لا يؤمن بعيسى أو موسى ، أو لا يؤمن ببعض تعاليم الإسلام ، أو أنه لن يكون هناك بعث أو جنة أو نار ، فإن هذا الشخص لا يكون مؤمنا إيمانا حقا بالإسلام ، ومن هنا لا يستطيع أن يفعل ما فعله المسلمون الأول ، الذين فتحوا الدنيا كلها وهم فئة قليلة العدد بقوة هذا الإيمان . ولعل هذا هو ما يفسر لنا السر فى تدهور المسلمين والمسيحيين معا فى العصور الحديثة ، حيث بدأت تطاردهم المذاهب المادية ، والتى أصبح معتنقوها هم الذين تتوفر فيهم صفات الإيمان من حيث الإحساس بضرورة موضوع الإيمان ووحدته فى نفوسهم ، فى الوقت الذى فقد فيه المؤمنون بالأديان هذه الوحدة ، فأصبحوا على ما يقولون يؤمنون ببعض الكتاب ولا يؤمنون ببعضه الآخر ، ويؤمنون ببعض مظاهر الدين ولا يؤمنون بالبعض الآخر . وما يقال عن المعتقدات الدينية من ضرورة وحدة الموضوع ، يقال عن أى موضوع يمكن أن يكون محلا للعقيدة والإيمان . فالذى يؤمن بالحرية مثلا ، يجب أن يؤمن بها فى كل تطبيقاتها ونتائجها ، أما إذا آمن بالحرية فى ناحية ، وكفر بها فى ناحية أخرى ، كأن تصور الحرية لفريق من البشر دون فريق ، أو تصورها لشعب دون شعب ، أو تصورها لازمة فى بعض الأوقات غير لازمة فى وقت آخر ، فقد انهار الإيمان بالحرية من أساسه ؛ لأنه لا يمكن إلا أن يكون جوهرا واحدا غير قابل للتجزئة . وكذلك الشأن بالنسبة لكل المعانى الأخرى كالإيمان بالكرامة البشرية أو الحق أو العدل أو الحب والتسامح ، فيجب أن يشمل الإيمان بهذه المعانى كل تطبيقاتها على العدو مثل الصديق ، وإلا انهار الإيمان بها من أساسها طبقا لقاعدة وحدة الإيمان وعدم قابليته للتجزئة .

أما الشرط الثالث الذى تتم به فاعلية الإيمان ولا تتم إلا به ، فهو التركيز الدائم على صورة موضوع الإيمان الذهنية ، بحيث تزداد فى كل وقت لمعانا ووضوحا وإشراقا فى الذهن ، وهذه هى النتيجة الطبيعية للتركيز . فلو أن صورة موضوع الإيمان اهتزت فلم تعد ثابتة واضحـة ، أو لو أن الضباب غشيها لسبب من الأسباب ، ولو أنه طرأ عليها ما أطفأ لمعانها ، لـكان ذلك هو دليل عدم التركيز عليها . وليس هناك ما يحول بين المؤمن وبين التركيز على موضوع إيمانه سوى الشك . فالشك هو السم وهو الميـكروب الذى يقتل الإيمان ، إنه ما يقابل التردد فى موضوع الإرادة ، فـكما تنعدم الإرادة حيث يقف الإنسان حائراً متردداً ، فـكذلك ينعدم الإيمان عندما تنفذ إلى النفس سموم الشك أو عقاربه .

وباستطاعتنا كما قلنا عند التحدث عن شروط الضرورة ، أن نتخذ أى شرط من الشروط ، باعتباره مفتاحاً لحل كل مشكلات التاريخ سواء كان تاريخ أى فرد أو جماعة ، وسنرى أن الشك لا يكاد يصل إلى أحد عناصر العقيدة حتى تفقد العقيدة كل فاعليتها ، ويكون الانتقال من حال إلى حال ، من النصر إلى الهزيمة أو العكس بالعكس .

الإيمان والطاقة الإنسانية

فإذا تحققت الشروط الثلاثة للعقيدة والإيمان ، فقد تحولت الصورة المرتسمة فى الذهن إلى طاقة إنسانية لا حد لها أو نهاية إلا أن تحقق صورة الإيمان فى الخارج ، ويتحول الـكون الخارجى كله ، كما قلنا فى موضوع الإرادة إلى جهاز واحد يحقق موضوع الإرادة ، ومعزف واحد ليعزف عليه المؤمن مايشاءمن ألحان .

استثناءات

غير أنه لا مناص لنا كذلك من أن نستدرك هنا ما استدركناه

فى موضوع الإرادة ، من أن هناك أحوالا ثلاثة لا يحقق فيها الإنسان موضوع عقيدته كما لا يحقق موضوع إرادته وهذه الاستثناءات هى :

١ — الاصطدام مع النواميس الطبيعية ، فلو تصورنا أن إنساناً راح يعتقد مايضاد النواميس الطبيعية ، فمحال أن يكون قادراً على تحقيق إيمانه ؛ لأن الطاقة الإنسانية هى جزء من هذه النواميس ، لا يمكن أن يكون لديها من القوة ما تتغلب به على النواميس التى هى الكل .

٢ — عندما تصطدم النواميس نفسها فى أثناء ممارستها لنشاطها بعقيدة الإنسان أو إرادته وهو ما أسميناه « القضاء والقدر » .

٣ — عندما تصطدم عقيدة إنسان بعقيدة إنسان آخر ، إذ لا بد أن ينتصر فى هذه الحالة أكثر الاثنين تحقيقاً لشرائط الإيمان ، فإذا تصورنا أن كليهما قد حقق شرائط الإيمان ، فيكون الأمر بينهما على التعادل .

ولقد أفضنا فى شرح هذه الاستثناءات فى باب الإرادة ، فليرجع إليها القارىء[1] .

لا يضعن إنسان قيداً على عقيدته أو إيمانه

على أننا لا نستطيع إلا أن نكرر ماسبق أن قلناه فى موضوع الإرادة ، وهو ألا يضع الإنسان أى قيد على موضوع إيمانه خوفاً من أن يصطدم مع النواميس الطبيعية ، أو خوفاً من أن يدهمه القضاء والقدر ، فنحن لا نعرف ما هى هذه النواميس الطبيعية ، وما الذى يتفق معها أو لايتفق . فقد رأينا أن ما تصوره أقوام أنه من النواميس الطبيعية ، قد اتضح أنه ليس كذلك ، وقد رأينا كيف أن النظريات وما يسمونه حقائق علمية ، يتغير بتغير العصور وعلى ذلك فلا حد لما يمكن أن يعتقده الإنسان بالنسبة للطبيعة ، فهى كلها بين يديه ورهن مشيئته ، وطوع أمره .

---

(١) انظر صفحة ٢٨٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

وربما كان القيد الوحيد الذى ينبغى على الإنسان أن يضعه على إرادته ومشيئته ، كما ينبغى عليه أن يبرىء منه إيمانه وعقيدته ، هو ألا يجعل التسلط على الناس أو التحكم فيهم أو استغلالهم ، موضوعاً لعقيدته وإيمانه أو محلا لإرادته ، فللناس جميعاً إرادة كإرادته ، وقدرة على الإيمان كقدرته ، فلو أنه غافلهم فى لحظة من اللحظات واستعلى عليهم أو أساء إليهم ، فلا مناص من أن يخرج من الناس من يقوى عليه ويحاسبه ، وحتى لو لم يحدث ذلك ، فلن يستمتع مثل هذا الشخص بلحظة واحدة من السعادة ، ويظل نهب المخاوف والهواجس دون أن يعرف للراحة معنى ، لأن عقائد الناس فيه وإرادتهم فى دفعه عنهم ، لن تفتأ تطارده وتسمم حياته ولا يمكن إلا أن تقضى عليه فى النهاية . هذا هو القيد الوحيد الذى يجب على كل إنسان يريد السعادة أن يضعه على نفسه ، لـكى ينعم بها وفيما عدا ذلك ، فليس على الإنسان من حرج أن يؤمن بما يعن له أن يؤمن به وهو على ثقة بأنه لا بد محقق إيمانه ، حتى لو كان هذا الإيمان يصور له أنه قادر على أن يخوض النار فلا يحترق ، أو يمشى على الماء فلا يغرق ، أو ينتقل فى طرفة عين من مشرق الدنيا لمغربها بدون صاروخ أوطائرة . وأنا أعرف أن جمهرة من يطالعون الآن هذه السطور ، سوف يبتسمون لما يتصورونه منى شططاً أو إغرقاً فى المبالغة ، وأنا أبادر فأقول لهم : أنا مثلـكم لا أتصور إلا أنه من يخوض النار فلا بد من أن يحرق ، ومن يمشى على الماء بغير الوسائل المادية المألوفة فلا بد أن يغرق ، ومن يحاول أن يطير فى الهواء بغير طائرة فلا بد أن يندق عنقه ، ولـكن لا لأن ذلك حق أو لأن قوانين الطبيعة تقضى به ، ولـكن لأننا جميعاً فقدنا الإيمان بإمكان ذلك ، بل وامتلأت رؤوسنا منذ الطفولة باستحالته . وما دام هذا تصورنا فلا عجب أن أصبحت أمثال هذه الأمور مستحيلة بالفعل ، فالاستحالة هى من عمل الإنسان . ويوم أن يوجد الإنسان الذى لا يستـكثر على نفسه أن يطير بغير طائرة ، الذى لا يستـكثر على نفسه

ألا تضره النار إذا خاضها ، أو أن يضره السم إذا تناوله ، فسيكون له كل ذلك ، ولقد حققه فى كل زمان ومكان الأنبياء والرسل والقديسون وأولياء الله الصالحون والمتصوفون . ويحققه أتباع اليوجا من الهنود كما رأينا فى الفصل السابق ، وقد دعانا إليه السيد المسيح دعوة صريحة عندما يقول لنا : « لو كان فى قلب أحدكم ذرة من إيمان وقال للجبل تحرك لتحرك » .

وأكده لنا رسول الله الكريم وهو يتلو علينا الحديث القدسى « عبدى كن ربانيا تقل للشىء كن فيكون » .

مراجع خاصة بالفصل السابع

٩٠ — مجلة علم النفس المجلد الرابع العدد الثانى مقال للأستاذ كمال دسوقى التنويم والتحليل .

٩١ — الأحكام العامة فى قانون العقوبات — الدكتور السعيد مصطفى السعيد .

٩٢ — التنويم المغناطيسى وغرائبه — تأليف الدكتور محمد رشدى حكيمباشى محافظة القاهرة .

٩٣ — الدراسة المثلى لنوع الإنسان — ستيوارت تشيز — ترجمة محمود إبراهيم الدسوقى .

٩٤ — إيمانى — أحمد حسين .

٩٥ — Living Biographies of Religious Leaders By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

٩٦ — The Great Religions of the Modern World. Edited by Edward J. Jurji.

٩٧ — History of the Communist party of The Soviet Union Bolsheviks.

٩٨ — The Discovery of India. By Jowaharlal Nehru.

مراجع سبقت الإشارة إليها

— القرآن الكريم .

— الكتاب المقدس .

— دائرة معارف القرن العشرين — لمحمد فريد وجدى .

— أمة تبعث — أحمد حسين .

— الإنسان ذلك المجهول — الكسيس كاريل — ترجمة شفيق أسعد فريد .

— من نافذة العقل — الدكتور نقولا فياض .

— ذكرياتى عن جزيرة العرب — أحمد حسين .

— معالم التحليل النفسى — سيجموند فرويد — ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى .

— مبادىء علم النفس العام — الدكتور يوسف مراد .

— ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية — ج . ب . جيلفورد أستاذ علم النفس فى جامعة كاليفورنيا وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد .

The Encyclopedia Britannica.

The Encyclopedia Americana.

الفصل الثامن

بعض تطبيقات لقوة الايمان

١ – ظاهرة الدعاء — ثبات الظاهرة فى كل العصور — الدعاء ثمرة التجربة — ليست كل الدعوات مقبولة — المتدينون وكيف يفسرون استجابة الدعاء — الطبيعيون والقول بعدم جدوى الدعاء — الصدفة والدعاء — الدعوات التى لا تستجاب — هل يناقض الدعاء قوانين الطبيعة ؟ — مفعول الكلمة — آداب الدعاء كما حددها الغزالى — شروط الدعاء كما يقول بها عالم مسيحى .

٢ – السحر — قدم الاعتقاد بالسحر — تلازمه والعقيدة الدينية — السحر فى الكتب السماوية — كيف سحر الرسول — تعلم فقهاء المسلمين السحر — ابن خلدون والسحر — السحر فى أوروبا فى العصور الوسطى — موضوعات السحر الرئيسية — الجمع بين المتحابين — التفريق بينهما — الاضرار والقتل بواسطة السحر — الايحاء كتفسير علمى للسحر — التركيز ضرورة نجاح أى عملية سحرية .

٣ – تحضير الارواح – أرواح الموتى وأشباحهم — الاديان العالمية والروح — العلم المادى وانكار الروح — علم الارواح الحديث — متى وكيف نشأ — عملية تحضير الارواح — حجرة التحضير الحديثة — الساحر هودينى يحارب تحضير الارواح — شطحات المشتغلين بعلم تحضير الارواح — الطاقة الانسانية كتفسير للظاهرة — عنصر التركيز وضرورته .

تطبيقات

انتهينا فى الفصلين السابقين إلى التقرير بأن تحول الصورة من حسية سلبية إلى صورة حركية إيجابية فى الذهن ، إنما يتم بقوة الإرادة أو العقيدة التى يخلقها الإحساس بضرورة الموضوع الواحد ودوام التركيز عليه ، فينبثق من ذلك قوة ديناميكية أو ما نسميه نحن طاقة إنسانية ، كفيلة بأن تحقق الصور الذهنية فى الخارج مادية كانت أو معنوية .

وإذا كنا قد تحدثنا عن العقيدة فى ذروتها العليا ، وأشرنا إلى بعض القمم الإنسانية التى أثرت على البشرية فى مجموعها بإيمانها بالله كالرسل والأنبياء وإلى بعض الزعماء والقادة ممن أثروا على حياة شعوبهم ومجتمعاتهم ، فقد تحدثنا كذلك عن هؤلاء المرضى الذين يشفون بطريقة معجزة لمحض اعتقادهم

وإيمانهم بأن هذا الشيء أو ذاك سيحقق لهم الشفاء . الأمر الذى دل على أن قوة الاعتقاد ظاهرة إنسانية عامة شاملة ، كائنة فى كل نفس ، وتفعل فعلها فى كل وقت وآن . ونتحدث فى هذا الفصل والفصل التالى ، عن بعض مظاهر العقيدة وقوتها ، كما يمارسها الناس فى حياتهم اليومية العادية ، كالحسد والحقد والحب والبغض ، والدعاء والصلاة ، أو بالتأثير على الناس عن بعد بواسطة السحر ، أو ما يسمى فى العصر الحديث بتحضير الأرواح .

وسنرى كيف أن هذا النشاط النفسى ، هو فى نهايته ليس إلا تطبيقا لظاهرة العقيدة والإيمان . وقد كان التسليم بحقيقة هذه الظواهر ، من الأمور التى لا تثير أى جدل أو شك ، فقد أجمعت عليها الشعوب بأنبيائها ورسلها وعلمائها ومفكريها . أما فى عصرنا الحديث فقد أصبح أبسط مظاهر الاتصاف بالعلم والتحضر ، هو أن يصف الإنسان كل هذه الظواهر بأنها محض أوهام وخرافات . فالتحدث عن إمكان الإصابة بالعين مثلا ، أو عن جدوى الدعاء ، أو تأثير السحر ، قول لا يليق بالإنسان المثقف ، ناهيك بالإنسان العالم . ومع ذلك فقد رأينا وسوف نرى كيف يرجع العلم متسللا إلى كل هذه الظواهر الإنسانية الثابتة تحت أسماء جديدة كالتنويم المغناطيسى ، أو القدرة على الإيحاء .

ولنبدأ الآن بدراسة ظاهرة الدعاء وهى أعم هذه المعتقدات وأشملها من قديم الزمان حتى اليوم .

الدعـــــاء

الدعاء والصلاة بمعنى واحد[1] ، وهو تعظيم محل الدعاء وإظهار الاحترام

(١) جاء فى المصباح المنير — دعوت الله أدعوه دعاء ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير — والصلاة فى اللغة الدعاء لقوله تعالى : وصل عليهم أى ادع لهم ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى أى دعاء ، ثم سمى بها هذه الأفعال المشهورة لاشتمالها على الدعاء .

والتسليم له ، تمهيدا للابتهال إليه بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير العميم . والدعاء هو مظهر الإيمان وآيته ، فحيثما آمن الإنسان بقوى خفية تسيطر على قدره ، فقد توجه لها بالسؤال والدعاء . وحيث ينتفى الإيمان فلا يكون دعاء ، ومن هنا فقد اعتبر الدعاء لب العبادة ومخهاوجوهرها ، فجاء فى الحديث الشريف « الدعاء مخ العبادة »[1] والحق أن العبادة لم تكن فى أى صورة من صورها ، إلا الطريقة التى يدعو بها الإنسان هذه القوة الخفية ، لتأتى إلى نجدته وتخلصه مما يعانيه من كرب ومشقة ، أو تحقق له ما يرجو من خير وسعادة .

ولقد تطور أسلوب الدعاء بتطور العقيدة وارتقاء النظرة التى ينظر بها الإنسان إلى القوة الخالقة . فعندما كان الإنسان ينظر لهذه القوة الخفية نظرة خوف ورعب مستمرين ، فقد كان جوهر الدعاء والصلاة هو دفع الأذى الذى يمكن أن تسببه هذه القوة ، وشراء رضاها عن طريق تقديم الهدايا التى كانت تسمى قرابين وضحايا . وكان الاعتقاد فى هذه المرحلة أن القوة الخفية فى حاجة لهذه الأطعمة والأشربة لسد غائلة جوعها ، كما أن تقديم العطور والزهور لإدخال السرور عليها . وكانت القرابين والضحايا تحرق فى بادىء الأمر ، فيكون تلاشيها الظاهر هو الدليل على أن القوة الخفية قد استهلكت القربان أو الضحية بالفعل[2] .

ثم بدأ الإنسان يدرك أن من بين هذهالقوى الخفية ، قوة رحيمة تعمل على خير الإنسان وإسعاده ، وأنها ليست فى حاجة مباشرة لهذه القرابين فهى

---

(١) رواه الترمذى ، وفى رواية أخرى « الدعاء هو العبادة » رواه الترمذى وأبو داوود (التاج الجامع للأصول الجزء الخامس) .

(٢) أشار القرآن الكريم لفكرة حرق الضحايا والقرابين فى قوله « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، (آل عمران ـ ١٨٣)

فى غنى عنها ، وإنما المقصود بهذه القرابين أن ينتفع بها المحتاجون من بنى البشر فيجب أن توزع عليهم[1] .

وتطورت العقيدة أيضاً ، فلم يعد شرطا لازما أن يقدم الإنسان قرابينه وضحاياه مقدما كشرط لازم لإمكان الاستجابة ، ذلك أن الله الرحيم يستجيب لعباده بغير ضرورة لشيء من ذلك وقت الدعاء ، فقد يكون الإنسان عاجزا أو معدما ، وإذن فما عليه إلا أن يدعو الله متعهدا أن يتصدق مما يفيء الله به عليه . ومن هنا قامت فكرة النذور ، وهي تعهد الانسان إذا حقق له الله هذا الشيء أو ذاك أن يتصدق بكذا وكيت للفقراء،أوأن يبنى مدرسة أو مستشفى إلى آخر ذلك .

وأخيرا انتهت العقيدة إلى الصورة الكاملة للألوهية ، فالله لا يمكن إلا أن يستجيب بدون قيد أو شرط من قرابين تقدم أولا أو مؤخرا ، فالله أكرم على عباده من أن يعلق استجابته على ثمن يؤدى ، إلا مجرد الإيمان به وبرحمته ، وفى ذلك يقول القرآن « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » .

بهذه الأساليب الثلاثة ، تقديم القرابين مقدما ، والوفاء بالنذر مؤخرا ، والدعاء المجرد لله بغير قرابين أو نذور ، رفع البشر أكفهم بالضراعة إلى القوى الخفية فى كل زمان ومكان متوسلين فى حرارة وقوة ، أن تدفع عنهم المخاطر التى تحدق بهم ، وتحقق لهم الآمال التى تعتلج فى صدورهم . وكلما ازدادت حرارة الإنسان فى الدعاء ، كلما زاد فى رفع يديه إلى السماء فى حركة لا شعورية فكأنهما هوائيا الراديو أو التلفزيون ، الذى يزيد الإنسان فى طولها كلما أراد إرسالا أو استقبالا أحسن .

---

(١) يرجع الفضل فى تهذيب العقائد البشرية إلى القرآن الكريم ، حيث كشف للناس عن حقيقة المقصود من القرابين والضحايا ، إذ جاء فى سوة الحج « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (الحج — ٣٦ ، ٣٧) .

ولا يزال الدعاء أسلوبا يستخدمه مئات الملايين من البشر ، لا فى آسيا أو إفريقيا أو أمريكا اللاتينية باعتبار أن هذه من المجتمعات المتخلفة ، ولكن فى أوربا وأمريكا الشمالية ، تشهد بذلك الشموع المضاءة بالليل والنهار فى هذه الكنائس ، والتى يقدمها المؤمنون على سبيل القرابين أو الوفاء بالنذر ، وتشهد بذلك أيضا صناديق النذور التى لم تشك فى أى يوم من الأيام إفلاسا أو ضيقا حتى فى أحلك الأزمات[1] ، وتشهد بذلك الصلوات الرسمية الجماعية التى كان الحلفاء يدعون لإقامتها إبان الحرب الماضية ليهىء لهم الله النصر ، وما يقام الآن فى أوربا وأمريكا من صلوات عامة ، من أجل تجنيب البشرية أهوال الحرب والمحافظة على السلام .

ويقرر علماء النفس والاجتماع فى العصر الحديث ، أن إقامة هذه الصلوات والابتهالات الجماعية ، تحدث أثرا طيبا فى نفوس المصلين إذ ترفع معنويتهم ، وتوحى إليهم بوجوب الاستمرار فى كفاحهم . والجيوش الحديثة كلها أصبحت مزودة برجال الدين من شتى المذاهب ، بعد أن ثبت بالتجربة الأثر الطيب الذى يحدثه وجودهم بين الجنود .

الدعاء ثمرة التجربة

وغنى عن البيان أن البشر ما كانوا ليجمعوا هذا الإجماع على الدعاء ، كأسلوب لقضاء الحاجات وتحقيق الأهداف والأغراض ، إلا بعد أن ثبت لهم بالتجربة على مر العصور جدوى الدعاء وفائدته ، فإن من خصائص الكائن الحى بصفة عامة ، أن يكف عن أى نشاط لا يعود عليه بأى فائدة ، وقد أثبت علماء السلوك المعاصرون ، أن الحيوانات نفسها تكف

(١) بلغ إيراد صندوق النذور الخاص بالسيد البدوى عام ١٩٦١ ثلاثين ألفا من الجنيهات (جريدة الاهرام بتاريخ ٢٩/١/١٩٦٢) .

عن أى نشاط لا تراه محققا لأهدافها ، مما أطلق عليه اسم التعلم من خلال « المحاولة والخطأ » . فمن المحال أن نتصور الإنسان دون الحيوان يظل على مر العصور يرفع أكفه بالضراعة إلى السماء ، مع أن ذلك لا يحقق له أى منفعة . ومن المحال أن نتصور الإنسان ينزل عن قوته وقوت عياله من أجل إجراء عديم الجدوى له ولأولاده .

والحق أن الدعاء كان دائما ذا جدوى وفائدة للإنسان فى حالتى الإجابة وعدم الاجابة على السواء ، وحالة الاستجابة لا تحتاج بطبيعة الحال إلى شرح فى جدواها ، أما الجدوى فى عدم الاستجابة فقد كانت تتجلى فى محاولة الإنسان بحث الأسباب التى حالت دون تحقيق الإجابة ، وأن ذلك قد يكون للذنوب والمعاصى التى يغرق فيها الإنسان ، فيعمل على إصلاح شأنه قبل معاودة الدعاء .

ليست كل الدعوات مقبولة

وإذا كان الماديون يقولون إنه لا جدوى من الدعاء ، كما سنشرح رأيهم بالتفصيل بعد قليل ، فإن المؤمنين أنفسهم قد سبقوهم لإدراك أن الدعاء لا يستجاب فى كل الأحوال ، وأنه لكى يقبل الدعاء فلا بد من توفر شروط معينة ، إذا لم تتوفر فلن يقبل الدعاء . وقد رأينا أن أول هذه الشروط فيما سبق ، هو تقديم القرابين من خلال طقوس معينة ، وكان اللوم يقع على الكاهن فى حالة عدم تحقق الدعاء ، لأنه لم يحسن القيام بهذه الطقوس. وبعد أن لم تعد القرابين والطقوس شرطا لازما لإمكان الدعاء ، فقد وضعت شروط جديده أجملها الإمام الغزالى فى الشروط الآتية ، والتى أطلق عليها اسم آداب الدعاء[1] .

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام ابى حامد الغزالى — الجزء الثالث .

آداب الدعاء :

أولا — أن يترصد المؤمن لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ثانياً — أن يغتنم الأحوال الشريفة كزحف الصفوف ، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات ، ووقت السحر ، ووقت صفاء القلب وخلاصه وفراغه من المشوشات .

ثالثا — استقبال القبلة — ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه . (روى أنس أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء) .

رابعاً — خفوت الصوت بين المخافتة والجهر (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها — ادعوا ربكم تضرعا وخفية) .

خامسا — ألا يتكلف السجع فى الدعاء ، فإن حال الداعى ينبغى أن يكون حال تضرع ، والتكلف لا يناسبه .

سادسا — التضرع والخشوع والرغبة والرهبة .

سابعا — أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه . (لا يقل أحدكم إذا دعا الله ، اللهم اغفر لى إن شئت . ليعزم المسألة فإنه لا مكره له . . . ادعوا وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل) .

ثامنا — أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا . (قال ابن مسعود كان عليه السلام إذا دعا ، دعا ثلاثا ، وإذا سأل ، سأل ثلاثا — يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ويقول دعوت فلم يستجب ، فإذا دعوت فاسأل الله كثيرا فإنك تدعو كريماً) .

تاسعا — أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل .

عاشرا — الأدب الباطنى وهو الأصل فى الإجابة ، أى التوبة ورد المظالم ، والإقبال على الله عز وجل بكل الهمة ، فذلك هو السبب القريب فى الإجابة .

شروط الدعاء كما يقول بها عالم مسيحى :

وإذا كان الإمام الغزالى قد لخص ما يراه لازما لتحقق الدعاء عند المسلمين . فقد جاء فى أحد الكتب الأوربية الحديثة ، ما يمكن اعتباره شروط استجابة الدعاء كما يراها العالم المسيحى [1] .

أولا — الوثوق والإيمان بأن المصلى يمكن أن ينشىء بالفكر ما يريد تحقيقه.

ثانيا — تحديد الرغبة تماما فى العقل فى أثناء الصلاة .

ثالثا — جعل الرغبة موجودة فى الفكر حتى تأتى الاستجابة للهدف .

رابعا — وجوب أن تكون الصلاة حازمة وموجبة أكثر منها سالبة أو استجداء ، كما يجب أن يترك لله الوقت للإجابة فى الوقت المناسب . انتهى .

وهذا التطابق العجيب فى جوهر الشروط اللازمة لتحقيق الدعاء من رجلين يمثل كل منهما دينا يختلف عن دين الآخر ، وتباعد بينهما القرون ، ويعيش أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب ، هو الدليل على أنهما يتحدثان عن قانون ثابت وناموس مقرر بالفعل .

وقبل أن نحلل هذه الشروط لاستجابة الدعاء ، لنستخلص منها قاعدة عامة ، نرى أن نناقش أولا ما يتصور المتدينون أنه الطريقة التى تتم بها الاستجابة ، وما يقول به الماديون من إنكار كل تأثير للدعاء .

كيف يفسر المتدينون الطريقة التى يتحقق بها الدعاء :

يعتقد جميع المتدينين على السواء أيا كان دينهم الذى يعتنقونه ، أن استجابة

(١) العالم غير المنظور للاستاذ عبد الجليل راضى — ص ٢٠٩ .

الدعاء تتم عن طريق إصدار الله أوامره فى كل حالة على حدة ، بإجابة هـذا الدعاء أو عدم إجابته . ومناط البحث بالنسبة للمتدينين يجب أن ينحصر فى الـكيفية التى يجرى بها الله مشيئته ، أهى تتم بطريقة عشوائية ، أم أن كل شىء يتم من خلال القوانين والنواميس (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ؟ إن تصور الله هو الذى يجيب الدعاء بطريقة مباشرة أى بقوة صادرة منه فى كل حالة ، كان يستقيم من غير شك ويصبح هو التفسير الوحيد لاستجابة الدعوات ، لو كان الله الحق كما نؤمن به هو الذى يدعى فى جميع الأحوال والأزمان . ولـكن المشاهد والملاحظ أن الدعاء قلما يتجه إلى الله مباشرة ، بل هو يتجه فى الأعم والأغلب نحو الأولياء الصالحين ، أو القديسين عند المسيحيين . وهؤلاء الأولياء والقديسون يختلفون من دين إلى دين ومن قطر إلى قطر بل من مدينة إلى أخرى وربما من حى إلى حى . فالذين يسكنون فى طنطا مثلا يتجهون بدعائهم إلى السيد البدوى، والذين فى قنا يتجهون بدعائهم لسيدى عبد الرحيم القناوى ، وسكان القاهرة للسيدة زينب « أم العواجز » أو لسيدنا الحسين ، أو الامام الشافعى وهكذا . وفى العراق يتجهون بالدعاء إلى سيدى عبد القادر الجيلانى . ولا يختلف المسيحيون عن المسلمين فى هذا الشأن ، فلـكل قوم فى بلد قديسهم ورسولهم الأثير عندهم ، الذى يتجه الدعاء إليه ، فمن العذرا (العذراء) إلى مارى جرجس إلى مار شمعون ، ومن سانت بول (بولس) إلى سانت مارك (مرقص) . رب قائل يقول (وهـو ما يقال بالفعل) إن هؤلاء جميعاً من أولياء الله وأحبائه والدعاء إليهم ليس فى حقيقته إلا توسيطا لهم عند الله ليستجيب . وليس من برنامجنا مناقشة هذه القضية للحكم بصوابها أو خطئها[1] ، ذلك لأنه يغنينا عن هذا البحث كله أن من يعتبرهم المؤمنون جميعاً وثنيين يعبدون آلهة زائفة ليس لها من

---

(١) انظر للمؤلف — شرح الدعوة الوهابية التى تعتبر الدعاء لغير الله شركا وكفراً فى كتاب « مشاهداتى فى جزيرة العرب » .

الأمر شيء ، كانوا بدورهم يتجهون بالدعاء إلى هذه الآلهة الزائفة : آمون وإيزيس وزيوس وجوبيتر ، وأحياناً العجل أو البقرة أو التمساح والقطة ، إلى آخر هذه المعبودات التى ماأنزل الله بها من سلطان . وقدكانت الدعوات تستجاب من غير شك بنفس النسبة ، فالبشر يدعون دائما من أقدم العصور. فالدعاء إذن ظاهرة إنسانية مارسها الإنسان دائما لتحقيق أغراضه ، التىكانت تتحقق بالفعل فى كثير من الأحيان ، أيا كانت الجهة التى يتجه إليها بالدعاء . فيجب صرف النظر عن هذا الأسلوب الذى يتصور المتدينون أن الدعاء يستجاب به .

دعوى الماديين بألا قيمة أو جدوى من الدعاء

ومن الناحية الأخرى يستدل الماديون من تعدد الجهات التى يتوجه إليها بالدعاء ، على زيف التصور أن الدعاء يمكن أن يكون له أى قيمة أو أثر فى مجريات الأمور ، إلا أن يكون مجرد أثر نفسانى بحت ، إذ يزود بعض الأشخاص براحة نفسية أو يعطيهم الأمل الضرورى لرفع الروح المعنوية . وكثير من المؤمنين أنفسهم فى هذا العصر الحديث لا يرون فى الدعاء شيئا أكثر من ذلك ، فأصبحوا يستنكفون الدعاء ، ويصفونه بأنه مظهر من مظاهر الضعف والعجز وقلة الحيلة .

ويسوق الماديون ومن لف لفهم من المتدينين الذين تأثروا بتعاليمهم ، ثلاث حجج لتدعيم وجهة نظرهم :

أولا — ألا شيء فى الوجود يجرى على غير القوانين والسنن المقررة ، ومن العبث أن يتصور متصور أنه يستطيع ببضع كلمات تخرج من فمه أن يغير من هذه القوانين ، أو أن يعدل آثارها المحتومة . ويتقابل المؤمنون بالقضاء والقدر مع هذا المعنى بقولهم إن كل شيء قد

خط فى اللوح المحفوظ ، فهو واقع لا محالة ولن يغيره دعاء من أى نوع كان[1] .

ثانيا — إن القول بأن الملاحظة والمشاهدة التى يجربها كل إنسان من نفسه ، تثبت استجابة كثير من الدعوات ، فإن الملاحظة والمشاهدة كذلك تثبت عدم تحقق الكثير من الدعوات ، وربما كانت الدعوات التى لا تستجاب أضعاف أضعاف ما يستجاب منها ، وإن كان الناس قد اعتادوا أن يتحدثوا عما أجيب دون مالم يجب .

ثالثا — إن الأمور التى يظن أنها تحققت بقوة الدعاء ، هى أمور عادية بحته مما يتحقق مثلها بغير دعاء .

رابعا — فى الحالات القليلة والنادرة التى يبدو فيها كما لو كان الدعاء قد استجيب لتحقيق أمر غير عادى أو مألوف ، فالأمر هنا لا يعدو أن يكون ضربا من ضروب الصدفة التى لا حد لما يمكن أن تفعله .

والحق أن مناقشة بسيطة لهذه الحجج تجعلها تتداعى على الفور ، أو على الأقل تفقد أهميتها التى يتصور البعض أنها تنطوى عليها . ولنبدأ فى مناقشتها بترتيبها العكسى .

ما هى الصدفة !

فأما القول بأن الأعمال التى تقع على خلاف المألوف نتيجة دعاء ، فهى لا تعدو أن تكون صدفة ، فهو مجرد قول يساق لتغطية العجز عن التعليل والتفسير ، وصدق ديمقريطس هذا العبقرى الأغريقى الذى سبق العصر الحديث باكتشاف عالم الذرة منذ خمسة وعشرين قرنا مضت إذ يقول « لا يوجد فى الطبيعة شيء اسمه صدفة ، بل الصدفة خرافة اخترعت لتبرير جهلنا . »[2] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مادة « دعاء » .
(٢) قصة الحضارة — الجزء الثانى ، المجلد الثانى — ص٢٠٢ .

إن الصدفة ، حتى لو سلمنا بوجودها ، يجب أن تنحصر فى الأمور التى تصادف الإنسان من حيث لا يحتسب ، كأن يحفر إنسان لبناء بيت مثلا فيكتشف بعض الآثار ، أو يتفجر فى أرضه البترول . قد يكون باستطاعتنا أن نسمى مثل ذلك صدفة ، أما أن يخرج إنسان من بيته وهو فى غاية الضيق لحاجته لعشرين جنيها يدفعها أجرا لعملية جراحية ، أو مصروفات لمدرسة أولاده ، ولما كان لا يعرف من أين يجىء بالمبلغ فيدعو الله أن يجعل له من هذا الهم مخرجا ، فإذا هو يصادف فى الطريق من يقول له ، إنه كان مدينا له أو لوالده من قبله ، بعشرين جنيها . فمن التعسف هنا التحدث عن الصدفة ، لأن العلاقة جد واضحة بين المشكلة المراد حلها والحل الذى تم بالفعل .

كما لا مجال للتحدث عن الصدفة بحال من الأحوال فى حالة إنسان تحدق النيران به من كل جانب ، أو يوشك أن يغرق فى الماء ولا منجد أو مغيث ، أو أن يقع فى مأزق لا مهرب منه بحال من الأحوال ، فيتوسل الإنسان لهذه الجهة أو تلك بالدعاء الحار، فإن هو إلا بعض الوقت حتى تقدر له النجاة من حيث لا يحتسب[1] . فى مثل هذه الظروف وأمثالها يكون من التعسف ومما لا يتفق والبحث العلمى ، إبعاد كل تصوير يقول بوجود علاقة بين الدعاء وبين النجاة .

---

(١) يعرف كل إنسان عاش فى مصر فى الفترة التى أعقبت حريق مدينة القاهرة عام ١٩٥٢ ، أن مصيرى كان معروفاً ومقرراً وهو حبل المشنقة . وكانت أجهزة الدولة الإدارية والقضائية تتعاون كلها لتحقيق هذا الهدف . ولم يكن لدى فى ذلك الوقت ما ألوذ به فى سجنى إلا الدعاء المستمر المتواصل لله العلى القدير أن ينقذنى من هذا المصير ، الذى لم يكن يرهبنى فيه الموت بقدر ما كان يؤلمنى منه مرارة الظلم . وقامت ثورة ٢٣ يوليو كما هو معروف ومشهور ، فكان فى قيامها استجابة لدعائى بالنجاة ، بل وتحقيقاً لما سجنت من أجله وهو الدعوة إلى الاشتراكية الإنسانية ، والعدالة والحق . « انظر للمؤلف فى ظلال المشنقة — و « قضية التحريض على حرق مدينة القاهرة » .

ننتقل الآن إلى الحجة التى تقول إن الأمور التى يدعى من أجلها وتتحقق، هى فى الأعم والأغلب من الأمور العادية التى كان محتوما أن تتم بغير حاجة إلى الدعاء، وليس أدل على ذلك، من أنها تتحقق فى كل وقت وآن لأناس لا يدعون، بل ويكفرون بالدعاء من أساسه. والحق أنه لم يكن هناك أى معنى للقول بوجود أى علاقة بين تحقق أمور مألوفة وبين الدعاء، لو أن الأمور المألوفة فى هذه الدنيا تسير على نسق مطرد، بحيث يمكن دائما الجزم والقطع بأنها لابد واقعة، أكل صغير لابد أن يكبر وكل مريض لابد أن يصح وكل غائب لابد أن يعود وكل طالب يذاكر لابد أن ينجح، وكل زارع يعمل ويجد لابد أن يحصد؟ لو أن الأمور كانت تسير بهذه الحتمية لصح القول ألا جدوى من الدعاء، بل لما وجدت ظاهرة الدعاء أصلا، ولكننا نعرف أن القضاء والقدر ذلك الذى نجهل متى يجىء ولا كيف يجىء، القضاء والقدر الذى يغير كل ما كنا نرجوه أو نتمناه أو نعمل على تحقيقه بالذات، يقف لنا بالمرصاد لإحباط أبسط أعمالنا. فالتحدث إذن عن حتمية حدوث ما يحدث بدعاء أو غير دعاء، مسألة لا يمكن إقامة الدليل عليها، وكون إنسان يحقق أمرا ما بغير دعاء، لا ينهض دليلا على أن شخصا آخر دعا، كان يستطيع أن يحقق ما حقق بغير دعاء، وهكذا لا يمكن قطع الصلة بين الدعاء واستجابة الدعاء، حتى فى الأمور العادية والمألوفة.

بالنسبة للدعوات غير المستجابة

ولننتقل الآن إلى الحجة التى قيلت لإهدار كل قيمة للدعاء، من أنه إلى جوار كل دعوة يتصور أنها قد استجيبت بفضل الدعاء، فهناك عشر دعوات لم تستجب إن لم تكن أكثر من ذلك بكثير. وعندنا أن ليس

فى هذا الرأى غناء من أى نوع كان ، فإن تحقق أى ظاهرة طبيعية ، لا يمكن أن يتم إلا إذا توفرت كل الشروط اللازمة لتحققها ، ويكفى ألا يتوفر ظرف واحد من الظروف الواجبة ، لكى لا تتحقق أى ظاهرة من ظواهر المادة . فالماء مثلا يغلى عند درجة مائة ، ويقضى القانون الطبيعى أن يغلى كل ماء عند هذه الدرجة ، ولكن ذلك مشروط بأن يكون الضغط الجوى عاديا ، فلو تغير الضغط الجوى بالزيادة أو النقص ، فإن الماء لا يغلى عند درجة المائة .

فلكى توصف أى ظاهرة بالإخفاق ، يجب التأكد أولا من أن كل الشروط اللازمة لتحققها قد استوفيت .

ولقد رأينا أن المؤمنين أنفسهم يدركون أن ليس كل دعاء مستجاب ، وأن شروطا للدعاء المستجاب قد وضعت وقننت ، وعلى رأس هذه الشروط كما رأينا هو الاعتقاد بمفعول الدعاء ، وعدم تطرق أى شك فى أنه سيتحقق بالفعل . وإحساس الإنسان بالذنب وأنه غارق فى المعاصى فلن يستجاب له ، قد يكون بذاته سببا فى عدم تحقيق الدعاء لهدفه . يقول ابن خلدون : « أجمعت الأمم على أن الدعاء مظنة الإجابة ، وأجمعوا على أن الدعاء اللسانى الخالى من الطلب النفسانى ، قليل العمل عديم الأثر[1] » فالذى يريد أن يتحدث عن الدعوات التى لم تستجب ، يجب أولا أن يكون قد غاص فى نفس الداعى ، ليرى أكانت دعوته من طرف اللسان أم كانت بالروح كلها ، وهل كان اليقين كاملا فى الاستجابة ، أم أن الشك كان يراود الداعى ؟ وما نحسب أن أى إنسان يستطيع أن يقوم بمثل هذا البحث ، فإن الأمر قد يختلط حتى على الإنسان نفسه ، فلا يعرف أهو مؤمن حقيقة أم غارق فى الشك دون أن يعلم . ولذلك فليس فى التلويح بالدعوات التى لم تستجب ، ما يصلح بصفة عامة للدلالة على شىء .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين — مادة « دعاء » .

ونصل الآن إلى الحجة الأولى التى تساق من الماديين وبعض المؤمنين بالذات على عدم جدوى الدعاء من أن الطبيعة تسير على سنن ونواميس ، أو أن الأمور كلها قد خطت فى اللوح المحفوظ ، فلا سبيل لتغييرها أو نقضها . فأما أن الطبيعة تعمل من خلال النواميس ، فتلك حقيقة نؤمن بها وندعو لها فى هذا الكتاب . ونحن نقول إن الدعاء عندما يستخدم لتحقيق غايات الإنسان وأغراضه ، فإن ذلك هو مظهر وجود قانون معين لحكم هذه العلاقة بين ما تجيش به نفس الإنسان ، وما يقع تنفيذا لذلك فى الخارج . وقد رأينا كيف أن علماء النفس يسلمون أنه قد يكون للدعاء قيمة إيجائية ، من حيث كونه قد يدفع الإنسان إلى مضاعفة الجهد لتحقيق ما يدعو من أجل تحقيقه . كما أن الدعاء يحدد للإنسان بطريقة صارمة ، الأهداف التى يسعى إليها ، وحسب الإنسان أن يطالع أحد أدعية الرسول المأثورة ، ليرى إلى أى حد يمكن اعتبار الأدعية برنامجا كاملا لتنظيم حياة الإنسان ، ومعرفة الإطار الذى يتحرك فيه إذ يقول « اللهم إنى أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والجبن ، والبخل ، والهرم ، ومن علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع[1] » ومن المحقق أن كل إنسان يدعو لتحقيق أمر من الأمور ، فإنه يضاعف جهده لتحقيق هذا الأمر ، إذ أنه يزداد ثقة بالنفس وبالنجاح . وليس هناك من يمارى فيما تمنحه الثقة بالنفس ، والثقة فى النجاح من شحذ لقوى الإنسان .

مفعول الكلمة

بقى التهوين من شأن الكلمة تخرج من فم الإنسان ، والجزم بأنها لا يمكن أن تكون شيئا ذا بال فى الوجود ، وعندنا أن أمثال هذا القول

---

(١) رواه الخمسة إلا البخارى — التاج الجامع للأصول .

من إهدار القول والكلام ، وما يمكن أن يؤثر به فى الكون بطريقة مادية ، قد حان الوقت لكى يعاد النظر فيه ، على ضوء الحقائق التى تتكشف لنا يوما بعد يوم فى ميدان العلم المادى البحت .

لقد أحس البشر فى القديم بما فى الكلمة من قدرة غير عادية ، فجعلوها تحوى سر الوجود كله ، مما نرى أثره واضحا فى إنجيل يوحنا حيث يبدأ بالعبارة الخالدة الآتية « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله[1] »

ولا خلاف بين علماء الاجتماع على القوة الكامنة فى بعض الكلمات ، وكيف فعلت فى النفوس فعل السحر ، وحملت البشر فى كل زمان ومكان على التضحية بالحياة كلها من أجل هذه الكلمات ، ككلمة الوطن أو الحرية أو الديمقراطية أو الشيوعية ، هذه الكلمات التى حلت محل كلمات سبقتها وكان لها نفس الأثر ، ككلمات الله أو العرض أو الشرف أو الكرامة . ويسجل التاريخ فيما سجل كيف أن كلمة تتلفظ بها امرأة فى ظرف من الظروف تكون سببا فى إشعال حرب ضروس[2] .

فالكلمة ليست فى حقيقتها إلا شحنة مكدسة من المعانى التى تتفاعل مع كل نفس ، وتترك فيها أثرا محددا واضحا ، فتدفع النفوس إلى الثورة أو إلى الاستسلام ، أو الإقدام أو الإحجام .

وهى من الناحية العلمية البحتة ، ناحية العلم المادى الذى لا يعترف إلا بالكم والمقدار ، ليست سوى شحنة من الطاقة ، أو عديد من الأمواج التى تسير عبر الفضاء فتقرع الآذان ، ولكنها لا تنتهى عند حد سماعها بهذا الشخص أو ذاك ، بل تظل منطلقة عبر الأثير إلى ما لا نهاية . فعند ما

---

(١) انظر كتاب « فى البدء كان الكلمة » للاستاذ خالد محمد خالد .

(٢) كحرب البسوس فى الجاهلية — أو كلمة « وا إسلاماه » فى العصر الاسلامى .

يتصور المتصورون ألا قيمة للكلام يخرج من فم الإنسان ، هو قول ليس من العلم فى شىء ، فالكلمة أى كلمة هى قوة فاعلة فى هذا الوجود الذى يتأثر بها بشتى صنوف المؤثرات ، وخاصة عندما تكون مستندة إلى إرادة حديدية ، أو عقيدة قوية .

وهكذا تنهار كل حجج المنكرين أن يكون للدعاء أى قيمة أو أثر فى الوجود .

الطاقة الإنسانية خير تفسير لظاهرة الدعاء :

وقد حان الوقت لنتساءل ما هو إذن تفسير الظاهرة فى رأينا ، وبأى قوة يتحقق الدعاء عندما يتحقق ؟

وأحسب أن القارىء قد أصبح يدرك تفسيرنا للموضوع على ضوء ماقلناه فى الفصل السابق ، فما دام الدعاء لونا من ألوان العقيدة ، فهو يتحقق بذات القوة التى تحقق أى عقيدة ، وهى الضرورة والوحدة والتركيز .

وقد أشار القرآن إشارة صريحة وواضحة إلى عنصر الضرورة فى الدعاء المستجاب فى أكثر من آية « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض[1] » .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » .

« قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون[2] » .

وفى الحديث الشريف « دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين[3] .

---

(١) سورة النمل — ٦٢ .

(٢) سورة الانعام — ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) رواه الترمذى — التاج الجامع للأصول .

وغنى عن البيان أن المظلوم يدعو من قلب مكلوم ، يفيض بالقهر والإعنات الذى حل به فيدعو بالروح كلها . وهكذا نجد الإشارة الصريحة إلى أن عنصر الضرورة من شأنه أن يعطى للدعاء كل قوته .

ثم تأتى باقى الشروط ، ولقد رأيناها واضحة بكل جلاء فيما أسماه الغزالى آداب الدعاء ، وما اعتبره العالم المسيحى الآخر شرط إجابة الدعاء ، وهـو التركيز الذى عبروا عنه بالتـكرار واليقين والحزم فى الطلب والصبر والتربص. فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة ، انفجرت الطاقة الإنسانية التى نقول بها ، وفعلت الذى تفعله فى كل أمر آمن به الإنسان ، أو عقد عليه عزمه وجعله محور حياته .

وعلى الضد من ذلك إذا انعدم أحد هذه الشروط ، كأن لم يكن ما يدعو به الإنسان ضروريا لحياته ، أو دعا بعديد من الأشياء والمطالب غير المحددة، أو لم يركز التركيز الـكافى على موضوع الدعاء ، فمن الطبيعى جدا ألا يستجاب الدعاء .

ويجب ألا ننسى ما أشرنا إليه فى الفصلين السابقين من الاستثناءات ، حيث تتعارض الدعوة مع أحد النواميس الطبيعية ، أو مع ما حكم به القضاء والقدر ، أو مع إرادة إنسان آخر أو عقيدته أو دعائه .

وهكذا ينحل لغز الدعاء الذى حار البشر فى تفسيره حتى الآن ، ومتى يجاب ومتى لا يجاب وبأى قوة يجاب . وأن مرد الأمر كله للإنسان وما أودعه الله فيه (أو الطبيعة إن شئت) من قوة خلاقة قادرة على أن تبعث منه الطاقة اللازمة لتحقيق كل ما يريده لنفسه ، أو يعتقد بوجوده ، أو يدعو لتحقيقه .

السحر

« ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد »

الاعتقاد فى السحر عند المؤمنين فرع من إيمانهم بالله ، والدين والسحر وجهان لحقيقة واحدة لا يمكن إلا أن يوجدا معا أو يزولا معا ، طبقا لما قلناه من قبل عن وحدة موضوع الإيمان وعدم قابليته للتجزئة . ذلك أنه مذ وجد الإنسان نفسه على ظهر هذا الكوكب الأرضى ، فقد استوقفه ما فى الكون من ثنائية ظاهرة وازدواج وتضاد بين القوى المادية والمعنوية ، فالنور يقابله الظلام ، والحياة يقف لها الموت بالمرصاد ، والحب يقابله البغض ، والمد يعقبه الجزر ، والحركة تنتهى إلى سكون وهكذا . لم يستطع الإنسان إزاء هذا التناقض إلا أن يتصور سيادة قوتين متعارضتين فى هذا الكون ، فتخيل آلهة للخير وأخرى للشر ، وكان الخير ممثلا فى إله النور ، والشر ممثلا فى إله الظلمة . وكان تصور الإنسان ألا مناص من استمرار الشر إلى جوار الخير أبدا ، ولكنه لم يلبث أن تصور أن الغلبة لا يمكن أن تكون فى النهاية إلا للخير ، فانتصرت ايزيس على ست إله الشر ، وأصبح من المقرر أن أهورا مزدا إله الخير والنور لن يلبث بعد قدر من السنين أن ينتصر على أهريمن إله الشر ، كما تقضى بذلك تعاليم زرادشت الفارسية[1] .

وجاءت الأديان السماوية ، فوحدت الإله ، ونزهته عن فعل الشر ، ولذلك فقد أصبح الشر ينسب إلى أحد مخلوقات الله التى عصته ، فمد لها فى الحبل

(١) الله — لعباس محمود العقاد .

وأبقاها لتكون امتحانا للبشر أيهم يكفر بالله ويتبع هذا العاصى ، وأيهم يكفر بالشيطان اللعين ويزداد إيمانا بالله[1] .

وهكذا ظلت القوى الفاعلة فى الكون حتى فى الأديان السماوية تقوم على ثنائية ولكنها مؤقتة ، أى حتى يوم القيامة . وحتى ذلك اليوم فالله وهو الخير المطلق ، يتبعه عباده المؤمنون من الملائكة والبشر ، حيث يقف الشيطان للآخرين بالمرصاد مستعينا بجنوده من الشياطين والجن والعفاريت غير المؤمنين . وحمل الكهنة لواء الدين والدعوة إلى صراط الله المستقيم ، بينما وقف السحرة من بنى الإنسان فى الجانب المقابل ، يعبدون الشيطان ويستعينون به فى قضاء أغراضهم الشريرة والمؤذية . هذه هى عقيدة أى مؤمن ، ومن هنا قلنا إنه حيث يوجد الدين فلا مناص من وجود السحر . بل إن الدين قد بدأ كله سحراً كاملا فى أولى مراحله ، عندما كانت العقيدة تتلخص فى استرضاء قوى الشر ، ولذلك فقد كانت نشأة الساحر القادر على الاتصال بقوى الشر ، سابقة على نشأة الكاهن رسول آلهة الخير .[2] وليس أدل على ذلك من أن الأديان القديمة كلها كانت سحرا محضا ، أى رقى وتعاويذ لإبعاد قوى الشر والسيطرة عليها . فهذا كتاب الموتى وهو

---

(١) « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ».
(الاعراف ١٢ — ١٨) .

(٢) يعتبر السحر بصفة عامة فن الفنون الذى نشأت منه الأديان وباقى العلوم والمعارف ، انظر كلمة magic فى دائرة المعارف البريطانية . وقصة الحضارة — الجزء الاول المجلد الاول ص ١١٧ .

الـكتاب المقدس عند قدماء المصريين ، عبارة عن مجموعة من الطـلاسم والتعاويذ ، وكذلك كتب الفيدا الهندية ، وسائر كتب الأديان القديمة فهى لا تتضمن شيئاً سوى الطلاسم والـكلمات والحركات السحرية . ثم بدأت الأديان تتخلص بالتدريج من هذا الطابع السحرى ، فاستقل الدين بميدانه فى عالم النور ، وظل للسحر سلطانه فى دنيا الظلام ، دنيا العفاريت والشياطين والأرواح الشريرة . وما من مجتمع من المجتمعات القديمة أيا كان الشوط الذى قطعه فى الحضارة والمدنية ، إلا وكان السحر ومزاولته إحدى الحقائق المقررة . ففى مصر القديمة وفينيقيا وبابل وآشور والفرس والرومان والهند والصين ، كان للسحر صولته وجولته ، وقد حاول بعض الـكتاب الأوربيين أن يبرىء الإغريق مما تصوره وصمة تلحق بهم ، فزعم أن الإغريق لم يؤمنوا بالسحر ، ولـكن أى قارىء لأدب الإغريق أو فلسفتهم ، يعلم أن كل صفحة من هذه الصفحات تنطق بإيمان الإغريق كغيرهم من الشعوب بالسحر ، وحسبنا أن نشير إلى الإلياذة أو إلى كتب هزيود أو هيرودتس أبى التاريخ وأكسينوفون ، حيث نراها كلها غاصة بالتـكهنات العجيبة والهواتف التى تخرج من باطن الأرض ، بل إن أفلاطون نفسه وأوربيدس قد أشارا إلى الرقى والتعاويذ والأشربة التى تولد العشق والهيام ، ويحاول أفلاطون أن يفسر السحر تفسيراً طبيعياً ، فيقول عن العرافة عن طريق الـكشف على الـكبد ، إن الـكبد هو بمثابة المرآة التى تنعكس عليها أفكار المرء وصورة النفس .

ولقد ذكرنا من قبل كيف أن سقراط قد بدأ حياته الفلسفية ، لما قالته الـكاهنة فى دلفى من أنه أحكم الناس . وذكر زيلر وهو من أعمق وأدق من كتب فى الفلسفة اليونانية ، أن امبيدوقليس كان يعتقد فى نفسه القدرة على السحر ، فقد ذكر فى كتاباته أن لديه القوة على إثارة العواصف ،

واستنزال المطر من السماء أو حبسه واستدعاء الميت من الحياة الثانية[1] .

السحر فى الكتب السماوية

حتى إذا وصلنا إلى الكتب السماوية وجدناها كلها تتحدث عن السحر بطريقة إيجابية ، كحقيقة واقعة مقررة ومتعارف عليها ؛ فالتوراة تحدثنا عن سحرة مصر وتصديهم لموسى ، وكيف راحوا يفعلون مثل فعله « فصنع كذلك سحرة مصر بسحرهم ، فتصلب قلب فرعون ولم يسمع لهما كما قال الرب »[2] .

واتهم عيسى بالسحر كتفسير لاستطاعته إخراج الشياطين من أجساد البشر[3] . واتهم العرب سيدنا محمداً بأنه ساحر أو كاهن ممن يزاولون السحر[4] . وقص القرآن فى قصص موسى كل ما روته التوراة من قبل عن سحرة مصر ونضالهم ضد موسى . ثم تحدث القرآن حديثاً صريحاً عن السحر وأحد المصادر لتعلمه ، وحذر الناس من الوقوع فى هذه الغواية ، « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله »[5] .

سحر رسول الله

بل إن السيرة النبوية لتحدثنا على طريق القطع واليقين ، أن سيدنا محمداً

(١) فنون السحر للاستاذ أحمد الشنتناوى — ص١٧ وانظر أيضاً قصة الحضارة — الجزء الأول المجلد الثانى ص ٣٥٤ .

(٢) سفر الخروج — آية ١٣ الكتاب المقدس .

(٣) إنجيل متى — الاصحاح التاسع — ٣٥ .

(٤) « ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » (سورة الزخرف — ٣٠)
« إن هذا إلا سحر يؤثر » سورة المدثر — ٢٤ .

(٥) سورة البقرة — ١٠٢ .

نفسه قد وقع تحت طائلة السحر فترة من الزمن ، إذ استطاع يهودى من بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم أن يسحر رسول الله فكان يخيل له أنه يفعل الشىء مع أنه لم يفعله ، إلى أن اكتشف الرسول عمل السحر الذى عمل له ، فأمر به أن يدفن وعافاه الله من هذا العارض الذى ألم به .[1]

علماء المسلمين والسحر

وعلى الرغم من أن الإسلام كبقية الأديان السماوية يعتبر السحر رجسا من عمل الشيطان، ويعاقب الساحر فى بعض الحالات بالإعدام،[2] على أساس أنه كافر إذ يتوجه بطقوسه وتعاويذه للكواكب أو للشيطان ، فإن روح العلم التى تملكت المسلمين إبان نهضتهم ، جعلت جماعة من علمائهم الأفذاذ من أمثال الكندى وثابت بن قرة وفخر الدين الرازى وأبى معشر جعفر ابن محمد البلخى ، يؤلفون كتبا فى السحر أو يفردون له فصولا فى كتبهم. وقد اتفق المحققون على أن تعلم السحر غير قبيح ولا محظور ؛ يقول ابن خلدون

---

(١) عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت « سحر رسول الله يهودى من بنى زريق يقال له لبيد بن الاعصم حتى كان رسول الله (صلعم) يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا رسول الله (صلعم) ثم دعا ثم دعا ثم قال يا عائشة إن الله استفتانى فيما استفتيته فيه (أى أجاب دعائى) جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى . فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلى ، أو الذى عند رجلى للذي عند رأسى : ما وجع الرجل قال مطبوب (أى مسحور) قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال فى أى شىء قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر (أى وعاء طلع النخل) قال فأين هو قال فى بئر ذى أروان . قالت فأتاها رسول الله (صلعم) فى أناس من صحبه ثم قال يا عائشة والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها طلع الشياطين فقلت يا رسول الله أفلا أحرقته قال لا أما أنا فقد عافانى الله وكرهت أن أثير على الناس شراً فأمرت فدفنت » . (رواه الشيخان — كتاب التاج الجامع للأصول) .

(٢) روى الترمذى والحاكم وصححه عن جندب عن النبى (صلعم) « حد الساحر ضربه بالسيف » وقال الشافعى لا يقتل إلا إذا عمل فى سحره ما يبلغ به الكفر وإلا فلا — وهذا كله مالم يقتل بسحره فيقتل بلا خلاف — التاج الجامع للأصول جزء ٣ ص ٣١ .

فى مقدمته « لأن العلم شريف فى ذاته لعموم قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ولأن السحر إذا لم يكن يعلم لما أمكن التفريق بينه وبين المعجز ، على أن اجتنابه أقرب إلى السلامة .

ومضى ابن خلدون يقول « وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفى أهل مصر من القبط وغيرهم . ثم ظهر فى المشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة ، فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها ووضع فيها التآليف . ثم جاء ابن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس فى التعاليم والسحريات ، فلخص جميع تلك الكتب وهذبها فى كتابه الذى سماه غاية الحكيم ، ولم يكتب أحد فى هذا العلم غيره[1] » .

وإذا كان ابن خلدون لم يكتب كتابا خاصا عن السحر ، ولا تعرض لطقوسه أو طلاسمه ، فإنى أشهد أنه كتب عنه فى مقدمته شرحاً وتعليلا له ، مما يكاد ينطبق كل المطابقة على نظرية الطاقة الإنسانية التى نقول بها وإليك بعض هذا الذى قال :

« والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتى شرحها ، فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين ، وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر . والثانى بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ، ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول . والثالث يعمل بتأثير القوى المتخيلة ، فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة صوراً مما يقصده من ذلك ، ثم ينزلها إلى الحس بين الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه ، فينظر الراءون كأنها فى الخارج وليس هناك شىء من

---

(١) يوجد كتاب غاية الحكيم فى دار الكتب مخطوطاً بحالة جيدة تحت نمرة ٢٣٦ فن حروف وأسماء .

ذلك ، كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور ، وليس هناك شيء من ذلك ، ويسمى هذا عند الفلاسفة بالشعوذة أو الشعبذة . هذا تفصيل مراتبه ، وهذه الخاصة تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها ، وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة » ثم يمضى ابن خلدون مفصلا هذه المراتب الثلاث مسجلا مشاهداته الشخصية[1] .

السحر فى أوروبا فى العصور الوسطى

قلنا فى بداية حديثنا إن الإيمان بالسحر هو الوجه الثانى للإيمان بالله ، ولذلك فلا عجب أن غرقت أوروبا فى العصور الوسطى فى الإيمان بالسحر ، فقد كانت غارقة حتى الأذقان فى تدينها المسيحى القائم على العجائب والمعجزات وتجارب الشيطان ، وعلى ذلك فقد راج السحر فى هذه الفترة ، مالم يرج مثله فى أى يوم من الأيام ، على الرغم مما كان ينتظر السحرة من عقاب أليم . وكان اعتقاد القوم السائد فى هذه الأيام ، أن سحرة أوروبا جميعاً يعقدون المؤتمرات الجامعة من حين لآخر ، فوق قمم الجبال العالية أو فى الغابات والأحراش الموحشة ، وكانوا يستحضرون فى هذه المؤتمرات الجن والشياطين لتشاركهم فى أعمالهم ، وتجد فى كتب السحر التى يعود تاريخ تأليفها إلى العصور الوسطى ، رسوماً تمثل السحرة وهم يستعدون لهذه الاجتماعات فإذا حان أو آن الذهاب إليها ، امتطى بعضهم عصى المكانس ، والبعض الآخر اتخذ صورة حيوانية أو شيطانية ، وكان الاجتماع يتم عادة فى جنح الظلام ، وكان الشيطان يتولى أحيانا رئاسة هذه الاجتماعات متخذا صورة غراب أو قطة أو قرد ، وهو يجلس على عرشه يتقبل فروض الولاء والطاعة

---

(١) يحدثنا ابن خلدون أيضاً فى مقدمته عن مشاهداته الشخصية فيقول « وشاهدنا أيضاً من المنتحلين للسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه فى سره ، فإذا هو مقطوع متخرق، أو يشير إلى بطن الغنم فى مراعيها بالبعج ، فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الارض » .

من عبيده المخلصين . وتقول هذه الكتب أيضاً إن الشيطان كثيراً ما يولم الولائم فى مثل هذه الاجتماعات ، فيجلس كل ساحر إلى المائدة وإلى جانبه شيطان من الشياطين . ولم تكن اللحوم التى تقدم سوى الجيف ، وأجساد الذين شنقوا ، وقلوب الأطفال الذين لم يعمدوا ، وغير ذلك من لحوم الحيوانات القذرة التى لم يتعود الإنسان على أكلها[1] . وأحسب أن ليس هناك ما يصور لنا الجو القاتم ، الذى كانت تعيش فيه أوروبا فى العصور الوسطى ، من هذه الأحاديث عن السحرة بهذه الصورة المرعبة التى كانت تجعلهم إذا أمسكوا بساحر أو ساحرة ، عذبوها عذابا لايتصوره العقل من حيث البشاعة .

وتطالعنا هذه الصور لحياة السحرة فى الأدب المنحدر من هذه العصور ، فكثير من روايات شكسبير تصور لنا هذه المجامع الشيطانية ، ولعل صورة السحرة فى مكبث خير تصوير لعقيدة القوم فى السحرة فى تلك الأيام . ولن نجد عالما فى أى فرع من فروع العلم فى العصور الوسطى ، وبعد ذلك فى عصر النهضة ، لا يؤمن بالسحر كعلاج لبعض الأمراض ، أو لتحقيق مختلف الغايات ، وفى كتاب شرنجتون « الإنسان على طبيعته » فصل كامل عن معتقدات علماء القرن السادس عشر فى السحر ، لا يستثنى من ذلك فرنل الذى يريد شرنجتون أن يعتبره بمثابة مؤسس الطب العصرى بمعناه الحديث ، فقد نقل عنه قوله « لقد رأيت بعينى رأسى أوراقا عليها بعض الكتابة تربط حول عنق المريض فيشفى الجسد كله فى ليلة واحدة ، ولقد رأيت حمى تختفى بعد النطق بكلمات ترتل[2] » .

ولما كان السحر كما قدمنا يستند فى تأثيره إلى قوة الشيطان ، فقد حورب

(١) فنون السحر للاستاذ أحمد الشنتناوى — ٨٥ .

(٢) الإنسان على طبيعته ص ٤٥ Man on his nature

السحرة بما لم يحاربوا به فى أى يوم من الأيام من حيث القسوة ، ونحن نعرف الآن أن كثيرات ممن عذبن على أنهن ساحرات ، لم يكن فى الواقع إلا مرضى ببعض الأمراض الهستيرية العصبية التى كشف عنها العلم الحديث[1] . وكان المتهم بالسحر يعذب فى أثناء التحقيق بواسطة كلابات مزودة بأشواك حديدية ، تطبق على جسد الساحر أو عنقه لتمزقه تمزيقا ، كما كانت أقدامه توضع فى النار المحرقة ، وكان تمزيق الجسد بالسياط من أخف أنواع التعذيب ، حتى إذا حان وقت التخلص من الساحرة شدت على سلم خشبى شدا محكما ثم قذف بها إلى النار . ولعله يبين من هذا العرض أن السحر كان إحدى الحقائق الثابتة والمقررة التى لا تحتمل أى شك أو جدل ، وكيف كان القوم يعتبرون السحرة قادرين على إيذاء المجتمع أشد الأذى ؛ لأن قوتهم الشيطانية لا يحدها حد .

السحر فى العصور الحديثة :

ولما كان العصر الحديث هو عصر تداعى الإيمان بالأنبياء والرسل والأديان كلها ، فقد كان من الطبيعى جداً أن يفقد السحر سلطانه . ولما كانت المسألة كلها كما نقول تدور حول العقيدة وما يعتقده الإنسان ، فقد حل الإيمان بالعلم الحديث محل السحر ، وحل الأطباء محل السحرة ، وأصبح العلماء وحدهم هم القادرون على الإتيان بالمعجزات داخل معاملهم ، العلماء اليوم هم القادرون على إحياء الموتى وإشفاء المرضى وإسماع الصم ، وإبصار العمى ، وتخريب العالم ، أو غمره بالأوبئة والجراثيم . وأصبح حتما علينا أن نصدق أى خبر يقال لنا باسم العلم وإلا كنا متأخرين رجعيين ، وأصبح الإيمان بالعلم هو الدين الذى يفرض على المؤمنين به التسليم والتصديق . ولكن العلم المادى البحت الذى ينكر وجود قوى خفية تغاير القوى المادية

(١) من نافذة العقل .

المألوفة ، لم يستطع بكل غزواته وانتصاراته ودعايته ، أن يشفى النفوس من إيمانها بهذه القوى المجهولة القادرة على فعل مالا يتصور رجل العلم إمكان حدوثه طبقاً لقوانين المادة المعروفة ، فلا يزال السحر والاعتقاد فيه ومشتقاته كالإصابة بالعين يحتل نفوس السواد الأعظم من البشر ، ولا نعنى بالبشر سكان آسيا وإفريقيا الذين قد يوصفون بالتخلف ، وإنما نعنى بالبشر من يعيشون فى مجتمعات أوروبا وأمريكا ، تشهد بذلك أنواع التماويذ التى يحملها الكثيرون من أبناء هذه الشعوب على صورة صليب يعلقونه لمنع العين ، أو حدوة حصان تثبت على باب البيت ، أو فردة حذاء تعلق فى السيارة ، أو رجل أرنب يحملها الطيار معه فى طائرته استجلاباً للحظ وهكذا . ولا تزال عملية صنع صورة من الورق أو الشمع لتخرق بالدبوس أو الإبرة ثم يقذف بها بعد ذلك فى النار ، رمزاً لحرق العدو أو الحاسد لدفع كيده وأذاه ، تمارس فى أرقى المجتمعات .

وغنى عن البيان أن ذلك يفسر على أنه من رواسب الماضى ، وقد أصبح يمارس خفية وعلى استحياء وسط العوام والجهال . وذلك حق من غير شك ؛ لأن هذه الأعمال السحرية لا تلبس لبوس العلم الذى لا يوجد اليوم إنسان لا يؤمن به . ولذلك فقد لبس السحر لباس العلم وطلع علينا من جديد ، كما سنرى بعد قليل باسم تحضير الأرواح ، فليس تحضير الأرواح الذى هو شغل بعض العلماء لا السوقة ، إلا السحر فى صورة جديدة ، فبدلا من التحدث عن الجن والشياطين لا بأس من التحدث عن الأرواح الخيرة والشريرة ، وما تستطيع أن تقوم به هذه الأرواح مما يخالف كل مألوف ومعهود . وهكذا تطل علينا الظاهرة من جديد كأقوى ما أطلت فى يوم من الأيام ، ظاهرة الاعتقاد بأن هناك قوى خفية يستطيع الإنسان عن طريقها أن يقوم بالعجائب والمعجزات ، فيرى ويسمع عن بعد ويؤثر على الآخرين ، بما يريد من شتى صنوف المؤثرات الخيرة أو الشريرة . وهذا

الإلحاح على هذه الفكرة ، والتمسك بها فى كل زمان ومكان ، يحتم علينا أن نكف عن استسخافنا لكل هذه التصورات واعتبارها مجرد أوهام ، وأن نحاول الكشف عن هذه القوة التى يحس بها الناس على صور مختلفة .

جوهر أعمال السحر

والحق أن ليس هناك ما يستعصى على التفسير فى جوهر النشاط الرئيسى لعملية السحر ، فقد كان هذا النشاط يتلخص فى الدرجة الأولى فى أعمال ثلاثة :

١ — ممارسة العلاج لتحقيق الشفاء .

٢ — إيقاع الأذى بالخصوم والأعداء .

٣ — محاولة الجمع بين بعض الأشخاص عن طريق الحب ، والتفريق بينهم عن طريق البغض .

وليس فى هذه الأعمال كلها ، ما لا يمارسه الكثيرون الآن باسم العلم ، دون أن يكون نجاحهم فيها أكثر من نجاح الساحر ، أو فشلهم فيها أقل من فشل الساحر . ولنبدأ بموضوع العلاج :

علاج السحر للأمراض

عندما كان الاعتقاد السائد بأن المرض هو نتيجة حلول أرواح شريرة فى جسد الإنسان ، فقد كان طبيعياً أن يكون الساحر هو القادر على علاج المرض باعتباره الرجل الذى يتسلط على عالم الخفاء ، وكان العلاج السحرى يمارس من خلال شتى صنوف الطقوس ، من الرقص وإطلاق البخور ودق الطبول ، والنطق بالرقى والتعاويذ . والمحقق أن السواد الأعظم أو على الأقل الأغلبية ، كانت تشفى وتصح وإلا لما لجأت إلى الساحر واعتقدت فى قدرته . وقد أصبح العلم الحديث يرى أن تفسير ذلك سهل وميسور ، فقد كان

الساحر يقوم بعملية إيحائية ، وكان الإيحاء يأتى بالثمرة المرجوة ، فقد كان الاعتقاء بالسحر قويا . لم يكن الاعتقاد مقصوراً على الساحر فى قوة سحره ، بل كان قويا كذلك فى نفس ملتمس السحر . وهكذا كانت تتجمع القوتان لإحداث الأثر فلا يمكن إلا أن يحدث . وفى ذلك يقول الدكتور يوسف مراد فى كتابه شفاء النفس « وعامل الشفاء فى معظم الحالات التى كان يعتقد أنها ناشئة عن تأثير الجن والشياطين ، هو بلا شك يعرف اليوم بالإيحاء ، وكان نجاح العلاج يتوقف غالباً على قابلية المريض للإيحاء . ومما هو جدير بالملاحظة أن كثيراً من حالات الشفاء العجيبة التى يرويها القدامى ، كانت خاصة بأعراض هستيرية . ومن المعلوم أن مثل هذه الأعراض لا تصيب إلا الأشخاص الذين يتأثرون بسرعة بكل ما يوحى إليهم ، كما أنهم يتأثرون بكل ما يوحون به إلى أنفسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فلا عجب أن يزيد الإيحاء ما سبق أن أحدثه إيحاء سابق . والواقع أن عامل الإيحاء موجود دائماً فى كل محاولة علاج ، سواء كانت جسمانية أو نفسية ، فقد اعتبر بعضهم الإيحاء الطريقة المثلى لمعالجة الأمراض النفسية . وطرق الإيحاء متعددة نذكر منها التنويم المغناطيسى وما يسمى بتحضير الأرواح ، وحفلات الزار وما إليها من الإجراءات التى تحرك المخيلة وتثير الدهشة[1] » .

إيقاع الأذى الذى يصل إلى حد القتل

وإذا كان القيام بعملية العلاج هو عمل الساحر الرئيسى ، فقد كان من الأعمال التى تلى ذلك فى الأهمية ، قدرة الساحر على إيصال الأذى حيث يطلب منه أن يوصله ، ويصل الأذى إلى ذروته عندما يطلب من الساحر أن يقتل . وقد كان لعملية القتل عن طريق السحر أسلوب عام اتبع فى كل

(١) مجلة علم النفس — المجلد السادس عدد ١ — السحر فى ضوء علم النفس .

زمان ومكان ، وذلك عن طريق عمل نموذج للشخص المراد قتله كتمثال من الشمع أو الطين ، ثم وخزه بالإبر والدبابيس وحرقه بعد ذلك بالنار . وهذا الأسلوب هو ما يسميه فريزر ، كبير الدارسين لظاهرة السحر فى الأمم والشعوب ، السحر عن طريق التقليد . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الأسلوب هو الذى يصادفنا أينما واجهنا السحر والسحارون ، ففى بابل القديمة كانت الدمى والتماثيل تصنع من الشمع أو الدهن أو الطين ، ثم تذبح أو تدفن أو تكبل بالسلاسل والأغلال ، ليقع مثل ذلك على الشخص المقصود . ونرى مثل هذا الأسلوب متبعا فى مصر القديمة ، إلى حد اتخاذه وسيلة للتآمر على رمسيس الثالث ، الأمر الذى جعل التاريخ يحفظ لنا تفصيلا كاملا عن هذا الموضوع ، فقد هرب بعض أفراد من الحاشية تماثيل سحرية إلى القصر ، بقصد قتل رمسيس الثالث ، وضبطت الجريمة وجرت المحاكمة للذين حاولوا قتل رمسيس بواسطة السحر[1] . وقد يكون من الطريف جداً أن تعلم أن مثل ذلك قد حدث فى فرنسا فى القرن السادس عشر ، إذ تقدمت كاترين دى مديتشى ملكة فرنسا فى ذلك الوقت ، بشكوى للنائب العام تتهم بعض الأشخاص بأنهم حاولوا قتل شارل التاسع عن طريق السحر ، حيث عثر على تمثال مصغر للملك وهو مطعون بدبوس .

وكذلك شكت الملكة الياصابات ملكة انجلترا ، التى يوصف عصرها بالعصر الذهبى ، مثل هذه الشكوى وفزعت أشد الفزع ، عندما علمت بنبأ العثور على صورة شمعية تمثلها فى حجرة نومها بأحد القصور الخاصة بها[2]، وقد بلغ الأمر فى العصور الوسطى ، من فرط فزع الناس من الموت عن هذا السبيل ، أن العثور على عروسة فى حوزة أى امرأة ، كان قد يكفى لإحراقها باعتبارها ساحرة .

---

(١) تاريخ مصر القديمة — بريستد ص ٣٣٦ .
(٢) فن السحر — أحمد الشنتناوى .

ونحن نعلم أن عادة عمل عروسة من الورق وخرقها بالدبابيس ثم إحراقها بعد ذلك ، لا تزال شائعة فى ريف مصر ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة لدفع أذى العين ، وما يمكن أن يجره الحسد على الإنسان[1] .

الجمع بين المتحابين ، والتفريق بينهم

أما المظهر الثالث للنشاط السحرى فى كل عصر وزمان ومكان ، فهو السعى لحمل إنسان أو إنسانة لحب طرف آخر يسعى وراء هذا الحب ولذلك يصادفنا فى كل المجتمعات قديمها وحاضرها « رحيق الحب » و « شراب الحب » و « أحجبة الحب » ويقول من درسوا هذه الظواهر بتفصيل من علماء الغرب ، إن رحيق الحب وشرابه يعتمد فى الدرجة الأولى على العطور الجذابة ، وبعض الأعشاب ذات الخاصية المعينة . ويقابل رحيق الحب وشرابه ، طلاسم الساحر وأعماله للتفرقة بين المتحابين وخاصة الأزواج ، وهو ما أشار له القرآن الكريم فى قوله «فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » وكثيراً ما تأخذ العملية صورة ما يطلق عليه فى الاصطلاح الشائع عمليه الربط ، حيث يصبح الرجل عاجزاً عن مباشرة زوجته . ولا سبيل لشفاء رجل يعتقد أنه ربط ، إلا بفك العمل الذى عمل له بواسطة

---

(١) سجل الأستاذ نجيب يوسف بدوى فى مقال قيم عن السحر فى ضوء الأنثروبولوچيا الحديثة وعلم النفس نص الرقية التى تقال عند حرق العروسة فى النار للخلاص من العين نرى أن نثبتها لطرافتها ودلالتها معاً :

امباس امباس ، لحطك ياعين فى قمقم نحاس . رقيتك واسترقيتك من عيون الناس . قابلها سيدنا سليمان فى وسع الجبال قال لها رايحة فين ياعين ؟ قالت رايحة للى حباً ودباً ، للى عرف الأم من الأب ، أديه بريشة بين كتافيه ، أخلى أمه وأبوه يبكوا عليه ، قال لها خزيتى لحطك ياعين فى قمقم نحاس ، « وأسبك عليكى بالزئبق والرصاص » وفى الصعيد تقال تعويذة أخرى « ياعين ياعتية ، ياخاينة ياردية ، لا تخونى في المال ولا فى الدرية . إن كانت عين راجل تطلع الحاجر وإن كانت عين مره ، تروح المقبره » (مجلة علم النفس المجلد السادس عدد ١) .

الشيخ الذى عمله أو بواسطة إنسان آخر ، يعتقد المريض أنه أقوى ممن قام بعملية الربط[1] .

الايحاء كتفسير للنشاط السحرى

لم يكن باستطاعة العلم الحديث أن يمضى متجاهلا ظاهرة لها كل هذا الثبات فى حياة البشر ، ولم تستطع حضارة العلم المادى الحديث أن تقتلعها من النفوس ، إذ لا تلبث أن تتسرب إلى المعتقدات بطريقة أو بأخرى . ولذلك فقد بدأت دراسة السحر والساحرين بطريقة موضوعية وفقا لمناهج الدراسات العلمية ، فذهب العلماء إلى المجتمعات البدائية التى لا يزال السحر فيها هو أهم الأسس التى يقوم عليها الاجتماع ، فالساحر هو الزعيم وهو القائد وهو أهم إنسان فى المجتمع ، لأنه المسئول عن إنزال المطر ، وهو المسئول عن رد كيد الأعداء المنظورين وغير المنظورين . ذهب العلماء إلى هـذه البيئات والمجتمعات يدرسون ويسجلون مشاهداتهم ، ويقارنون بين مايجرى وما كان يجرى فى القديم ، ولم يلبثوا أن خرجوا من ذلك بمجموعة هائلة من المعارف التى غيرت الكثير من تصورات علماء أوروبا وأمريكا فى أصل الإنسان وقوته ، ومدى مايستطيع أن يحققه ، ولمعت فى دنيا العلم أسماء علماء كتيلور وفريزر ومالينوفسكى وغيرهم[2] ممن أصبحوا رؤساء لمدارس تنحو مناحى

(١) حدثنى الدكتور صالح مهدى طبيب المسالك البولية الحاذق بمستشفى المواساة ، أنه صادف كثيراً من المرضى الأصحاء الذين جاءوه يشكون من أنهم ربطوا ، وعبثاً كان يحاول إفهام هؤلاء المرضى بفساد هذه العقيدة .

وكان بعض هؤلاء المرضى يعودون له ليخبروه أنهم قد شفوا مما ألم بهم ، بعد أن نجحوا فى الاهتداء إلى العمل الذى كان معمولا لهم .

ويفسر الدكتور صالح مهدى هذه الظاهرة بأنها تحدث نتيجة الايحاء ، فقد دلت دراساته على أن الشيخ أو الدجال الذى يقوم بهذا العمل ، يسمى جاهداً لإيصال خبر عملية الربط إلى الشخص المقصود بالإيذاء ، وذلك لإحداث الأثر النفسى المطلوب .

(٢) مجلة علم النفس — المرجع السابق .

مختلفة فى تفسير ظاهرة السحر وضرورتها للمجتمعات . ولا يتسع المجال لبسط هذه النظريات ، وإنما نكتفى بالإشارة إليها لفتا لنظر من يريد الاستزادة من أمثال هذه المباحث . وتنتهى هذه المدارس كلها إلى إثبات قيمة إيحائية للسحر وأنه قد أدى رسالته من هذه الناحية . يقول مالينوفسكى مثلا « فالسحر يوجد فى إحدى حالتين ، حالة الجهل بالنتائج وحالة الجهل بالأسباب ، فحيثما كانت نتائج العمل غير مضمونة ، وعواقبه غير مأمونة ، كما فى الحرب والصيد ، وأينما وجدت عناصر المصادفة والحظ ، وجد السحر ، وتكون مهمته الرئيسية هى استجلاب الحظ ، وبعث الثقة فى النفس وإشاعة التفاؤل فيها ، وهذه هى وظيفته السيكولوجية . ذلك أن أعمال الإنسان ينبغى أن يؤيدها الشعور بالثقة من النجاح ، وكلما قويت هذه الثقة ، كان احتمال النجاح كبيرا ، وكلما تطرق الشك إلى النفس وتزعزعت الثقة ، وتسربت تلك التيارات المضادة الهدامة من التردد والإحجام والشك إلى نفس صاحبها ، فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وأصبح أدنى إلى الفشل منه إلى النجاح »[1] .

وهكذا سلم العلم أخيراً ، أن القول بأن السحر مجرد سخافة عقل ضعيف لا يزال يحبو فى دنيا العقل والمعرفة ، هو قول ساذج فطير ، واحتقار للإنسان الذى امتاز عن الحيوان وسائر الكائنات بالعقل ، هذا الذى يرد الإنسان عن بذل أى نشاط لا يعود عليه بفائدة محققة .

ونحن نتفق مع العلماء الذين درسوا السحر فى أن للسحر أثراً إيحائياً ، ونختلف معهم فى أننا لا نقف عند حد الإيحاء . لاجدال فى أن فكرة التأثير عن طريق الإيحاء المباشر ، تستطيع أن تفسر كل العمليات الناجحة التى يقوم بها الساحر تحت سمع وبصر من يجرى السحر لصلاحه أو ضده ، متى كان هذا الشخص يعتقد بالسحر . ولكن الإيحاء المباشر لا يصلح لتفسير باقى

---

(١) مجلة علم النفس — المرجع السابق .

الظواهر الأخرى التي يحدث الساحر فيها أثراً في الطبيعة نفسها ، أو في إنسان بعيد عنه ولا يعرف من أمره شيئا[1] .

وهذا هو ما يجب على العلماء الذين شاهدوا معجزات السحر ، وكيف يستطيع الساحر أن يؤثر عن بعد ، أن يقولوا لنا ماهو تفسيرها . إن من العجيب وقد يكون آية على ما يمكن أن يصل إليه العلماء أنفسهم من التعصب ، أن الكثيرين منهم إذا رأوا أمثال هذه الظواهر تجاهلوها ورفضوا أن يثبتوها في تقاريرهم فضلا عن أن يناقشوها أو يحاولوا تعليلها ، حتى لا يجردهم زملاؤهم من سمة العلم[2] .

---

(١) في حياتي أنا شخصياً حادث صغير جداً حدث لي وأنا صبي صغير . حقاً إنه لا يمت إلى السحر بصلة ، ومع ذلك فقد عشت طول حياتي وصورة هذا الحادث لاتبرح ذاكرتي بحيث لا يمكنني إلا أن أذكرها الآن كمفتاح يمكن أن يفسر لنا عملية الإصابة بالعين والحسد وبالتالي السحر . فقد كانت تسكن معنا إحدى العائلات وحدث نزاع بيننا وبينهم ، فغادروا المنزل الذي كنا نسكن فيه كارهين . وفي أحد الأيام كنت أسير في حارة في حي البغالة فإذا بي أقع على الأرض فجأة لغير سبب ، وبينما كنت أنهض من سقطتي ، إذ لمحت في إحدى النوافذ المطلة السيدة التي كانت تسكن معنا وهي تنظر إلى بحقد دفين حتى لكأنها توشك أن تسحقني بعينيها . فأدركت على الفور أنني سقطت صريع هذه النظرة . وقد مضى على هذا الحادث الآن أربعون سنة ومع ذلك فلا زالت صورة هذه السيدة لا تبرح خيالي وكأنني أراها في هذه الساعة . لو أنني نظرتها قبل وقوعي لما كان في الأمر أي صعوبة في تفسيره ، فالعقل الباطن أو اللا شعور هو الذي أوقعني ، أما أن أكون سائراً في طريقي وليس هناك أي مبرر لوقوعي ومع ذلك أقع ، فهذا هو ما لا تستطيع نظرية الايحاء أن تفسره .

(٢) يقول الدكتور ج . ب راين في كتابه العقل وسطوته « وتروى أشياء غريبة عن الناس الذين يعيشون على البداوة . فحيثما يتحدث الانسان إلى أحد علماء الأجناس الذي عاد بعد دراسة الهندي الأمريكي أو سكان الشرق الأقصى أو جزر البحار الجنوبية أو إفريقيا فيسمع عن رؤية ظواهر غامضة تتحدى التفسير الطبيعي للأشياء ، ولقد قلت يتحدث ، لأن اثر هذه الظواهر التي لا يمكن تصديقها — تحذف من التقارير المنشورة مراعاة للكياسة ولا تذكر إلا مشافهة . وهذه الحوادث التي لا يمكن تفسيرها تحدث غالباً في الاحتفالات الدينية ، وهي تتطور من تحريك الأشياء إلى قذف الحجارة بأيد لا ترى إلى حالات إنزال المطر بطريقة سحرية قد ذكرت في بعض التقارير . (العقل — ص ١٠٠) .

وعندنا أن القول بالإيحاء الذى يتصور العلماء أنهم يستطيعون الوقوف عنده وهم آمنون أنهم لم يتهموا فى علمهم ، هو فى حد ذاته تسليم بكل قوى السحر ، وإلا فما هو المقصود بمعنى الإيحاء ؟ أليس الإيحاء على ما يقولون هو حالة نفسية ، فعلى أى أساس تتحول هذه القوة المعنوية إلى قوة مادية ، تنقل الإنسان من حال إلى حال ؟ إن مجرد التسليم بأن الإيحاء يمكن أن يؤدى إلى شفاء مرض ، هو تسليم بأن الإيحاء قوة ، وكل قوة هى طاقة ، والطاقة تعمل فى كل مكان داخل الجسم وخارجه . وإنكار ذلك هو إنكار للعلوم الطبيعية من أساسها .

الطاقة الإنسانية تفسر السحر

إن السحر ظاهرة حقة ، ونظريتنا فى الطاقة الإنسانية تفسرها أدق تفسير ، وحسبنا أن نستعرض الشرائط التى يقال بوجوب توفرها لإمكان نجاح السحر ، لكى نرى أنفسنا من جديد أمام ظاهرة العقيدة وما يمكن أن تولده فى النفس من طاقة فاعلة .

يقول لنا أبومسلم المجريطى فى كتابه « غاية الحكيم » الذى لخص فيه كل علوم السحر وتجاربه لدى الأمم السابقة عليه ما يلى : « يجب على المشتغل بهذا العلم أن يكون موقنا بصحة مايعمل لا يداخله شك فى عمله أو ارتياب ، لتقوى بذلك فعل النفس الناطقة ، وتتصل الإرادة بعالمها من نفس الكون المطلوب » . ويقول فى موضع آخر « ومن شروط هذا العمل أن يستتر المشتغل به عن البشر وعن رؤيتهم وعن شروق الشمس وضوئها ، وألا يطلع عليه إلا صحيح العزم مأمون الصحبة لا متهاونا ولا مزدريا بجميع ما يصدر عن روحانية الفلك من الأعمال المنسقة الباهرة القاهرة لهذا العالم » .

ومعنى ذلك أن العقيدة القوية الثابتة شرط لازم لنجاح السحر ، وهو

ما يقول به العلامة فريزر وتيلور وغيرها بعد دراستهم لأحوال السحرة ، وقد أشارت إلى ذلك دائرة المعارف البريطانية بقولها « يجب أن يمتنع الساحر عن أكل أطعمة معينة ، وأن يمتنع عن ممارسة الاتصـال الجنسى وكثيراً ما يعزى فشل الساحر إلى ارتكابه بعض هذه الممنوعات .

وتعتمد النتائج المرجوة من الساحر على حالته العاطفية ، ففى طقوس السحر الأسود مثلا الذى يتألف من إشارة بقطعة من العظم إلى صورة الضحية ، يقوم الساحر بإدارة قطعة العظم فى الهواء ، ويصير إلى حالة من التهيج والغضب كما لو كان يطعن العدو بالفعل . ويؤكد الدكتور مالينوفسكى الأهمية الكبرى لهـذا التمثيل لتحقيق العمل المطلوب فى نظرية السحر ، فهو يرى فى اهتياج الساحر العاطفى ، واعتقاده بأن هـذه الأعمال مؤدية إلى النتيجة المرجوة حتما ، الأساس الذى يقوم عليه السحر »[1] .

ولقد رأينا فى الفصل السابق كيف أن الاعتقاد يحول الصور الذهنية إلى صور إيجابية حركية ، فلا يبقى إلا التركيز عليها لـكى تتكامل كل قوتها وفاعليتها للتأثير فى الخارج .

التركيز كشرط أساسى فى عملية السحر :

وطقوس السحر كلها لا تعنى شيئاً أكثر من التركيز ، وليس هناك ما يفسر لنا السخف الذى نصف به عمليات السحر ، إلا أنها وسيلة لخلق نوع من التركيز . فهذا الجو الغامض الذى يزاول فيه الساحر عمله ويحيط به نفسه والألفاظ العجيبة التى ينطق بها ، والحركات وإطلاق البخور ، والامتناع عن الطعام أحياناً وملازمة الأماكن الخلوية ، كل هذه هى

(١) دائرة المعارف البريطانية — مادة Magic .

محاولة التركيز على الهدف المطلوب . وحسب الإنسان أن يستوعب تفاصيل المواد التى يصنع منها أى طلسم أو تعويذة ليرى أنها محاولة للتركيز بكل معنى الكلمة . فالمواد التى يصنع منها الطلسم يجب أن تكون نادرة ، وأن يتكبد الإنسان الكثير من العناء للحصول عليها ، ليكون الجهد المبذول فى التنقيب للحصول عليها هو آية التركيز والإيحاء بنجاح العمل المطلوب . وهو ما يفعله الأطباء بالذات فى مجتمعنا العصرى ، حيث تراهم لا يصفون إلا أغلى الأدوية وأكثرها ندرة . وترى المتصلين بالمريض يحدثونك عن المصاعب التى عانوها حتى حصلوا على هذا الدواء أو ذاك على سبيل التفاخر . يفعل الأطباء ذلك شعوراً منهم بأنه على قدر ما يتكبد المريض فى سبيل الحصول على الدواء بقدر ما يكون تحقق الشفاء مؤكدا . وهذا هو أسلوب الساحر الخالد ، وهو يطلب من صاحب الشأن مطالبه المعجزة[1] . لتكون هى السبيل لخلق جو من الإيحاء والتركيز . فإذا كان

---

(١) ليس هناك ما يقرب للذهن هذا الذى نقول به من أن عمل الطلسم هو عملية تركيز من أن أنقل إليك كيفية عمل طلسم على سبيل المثال مما جاء فى كتاب غاية الحكيم للمجريطى .

« وإليك عمل طلسم يستعمل للتفرقة وإشاعة العداوة يسمى نعنيوس . وطريقة عمله أن تأخذ شمعاً لم يستعمل فى شىء فتصنع منه تمثالين مجوفين بأسماء من تريد تفريقهم ، وتقول هذا تمثال فلان وهذا تمثال فلان . ثم تأخذ تمثال الرجل فتضعه على كفك . وتأخذ دانق من مرارة سنور أسود ووزن دانقين من مرارة خنزير ، ووزن دانق من شحم كلب أسود ، ووزن دانقين من دم سنور أسود وتضع ذلك كله فى سفط ثم تضعه على نار لينة حتى يذوب ويختلط ، فتصبه فى جوف التمثال حتى يصل إلى جوفه . ثم خذ نصف مثقال من شحم كلب أسود ووزن نصف مثقال من مرارة كلب أسود وتدقهم جميعاً حتى يختلطا ثم تصب المزيج في ترقوة التمثال . ثم خذ مسماراً دقيقاً من الحديد وأنفذه فى صورة التمثال وأنت تقول « ياهوديس عميالوس حلوانيس سهواراس » ثم اعزل هذا التمثال على حدة ريثما تفرغ من عمل الآخر . ويروح المجريطى يصف بدقة مايفعل بالتمثال الآخر ، حتى إذا تم إعداد التمثال الثانى ، « فضع التمثالين على كفك وخذ مسماراً فضع طرفه فى صدر التمثال الذي هو الرجل وطرفه الآخر فى صدر التمثال الذي هو المرأة، وأدر رأس كل=

المطلوب تحضير رحيق حب ، فيجب أن تكون المواد كلها توحى الرجاء والجمال والانتعاش ، أما إذا كان المطلوب إشاعة البغضاء والكراهية فالمطلوب « شحم كلب أسود ، ومرارة خنزير ، ودم سنور أسود » أى كل ما يملأ النفس بالقتام والاشمئزاز ، ويهيئها للإحساس الملائم للعملية المطلوبة . ثم يبدأ عمل الطلسم المطلوب ، ومرة أخرى نرى أنفسنا أمام عملية تمثيل لما يريد الساحر تحقيقه ، وهو إذ يمثل فهو فى الحقيقة يركز .

وما دامت لدينا صورة فى الذهن يحس الإنسان بضرورتها لكيانه ، ثم يروح يركز عليها ، فلا مناص من انطلاق الطاقة الإنسانية على الوجه الذى شرحناه فيما سبق لتحقيق هذه الصورة من الخارج .

ولعل هذا يفسر للناس لماذا لا يمكن تحويل المعتقدين بالسحر عن عقيدتهم ، ولا إقناع الكافرين بالسحر بحقيقته ، ذلك أن مرجع المسألة فى نهاية الأمر للعقيدة ، فالذين يؤمنون بالسحر يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم ما يتصورونه فى عقولهم ، والذين لا يؤمنون بالسحر ويستسخفون الحديث عنه لا يرون ولا يسمعون ولا يصدقون إلا ما يدور فى أذهانهم وهو تكذيب السحر ، فلو حدث ورأوا بالفعل ما يبهتهم وأدهشهم ،فسيقولون لك لابد أن فى الأمر خدعة لم نتوصل إلى معرفتها ، يقولون ذلك حتى

= واحد منهما إلى جانب . ثم خذ من السكور والجوشير من كل واحد دانقين ومن مرارة سنور أسود وشحم كلب أسود ، من كل واحد نصف مثقال واجمع بينهما بالخلط والذوبان ثم دخن بها وقل حين تدخن « ميموراس خنداوس مهوالوس ، قطعت وفرقت روحانية فلانة وفلان وهجت بينهما روحانية العداوة والبغضاء وباعدت بينهما كما أباعد بين هذين التمثالين الواحد عن الآخر ، وإعراض كل واحد منهما عن الآخر بقوة هذه الروح الروحانية». حتى إذا فرغت من عمل ذلك فارفعه وادفنه تحت شجرة غير مثمرة (؟ ؟) فإنهما يتباغضان ويفترقان ويتقاطعان وتهيج بينهما العداوة والبغضاء . (انتهى) وقد بقى أن نضيف على كل ماتقدم أنه لابد لنجاح عمل هذا الطلسم من ترقب أوقات معينة تتصل بمواضع النجوم فى أيام معينة .

لو كانوا هم الذين اتخذوا الاحتياطات التى تصوروها كافية لمنع أى تلاعب . وليس هناك ما يحل هذا الإشكال سوى نظرية الطاقة الإنسانية ، فحيثما استكملت العقيدة الإنسانية أو الإرادة شرائطها ، من حيث الشعور بضرورة أى هدف ووحدته فى الذهن والتركيز عليه ، فإن ذلك كاف لتوليد الطاقة اللازمة لتحقيق هذا الهدف فى الخارج .

مناجاة الأرواح

« قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

أرواح الموتى وأشباحهم :

لا أظن أن شيئاً قد هز الإنسان مذ عرف نفسه على هذا الكوكب الأرضى كما هزته رؤية الموت . وأقول رؤية الموت لا وقوع الموت نفسه على الإنسان ، لأنه عندما يحل الموت بالإنسان فليس هناك محل للتحدث عن هذه المشاعر ، إذ تنتهى هذه المشاعر ويذوب الإنسان فى بحر المجهول الذى لا يزال مجهولا لنا ، كما كان مجهولا بالنسبة لمن سبقونا بملايين السنين .

فأعنف ما يمكن أن نقاسيه فى هذه الحياة ، هو رؤية أعزائنا ومن نحب يموتون أمام أعيننا ، أن نرى أولادنا وفلذات أكبادنا أو زوجاتنا وأمهاتنا وأحبابنا من أى نوع كان ، يسقطون صرعى إثر حمى تصيبهم ، أو نوبة قلب تصرعهم ، أو حادث سيارة أو طائرة يدهمهم . ومحال أن يملك الإنسان نفسه من التساؤل إزاء أى حالة موت يشهدها لعزيز عليه ، كان حتى الأمس القريب يملأ الدنيا بهجة وحنانا ويشع نورا وبهجة ، بعد أن يصبح جسداً مسجى ، خير ما يعمل بالنسبة له هو أن يعجل بدفنه ، ويوارى التراب أو يتخلص منه على أى صورة من الصور ولو بإحراقه حرقا ، محال ألا يسأل الإنسان نفسه ، وهو يكاد يفقد صوابه ، وخاصة

فى اللحظات الأولى : أصحيح أن كل هذه الحيوية قد خبت ؟ أصحيح أن هذا الصوت الجميل الشجى قد سكت ؟ أضاعت إلى الأبد البسمات والضحكات العِذاب ؟ هل ذوى الجمال والجسد الغض النضير ؟ هل تلاشى الذكاء والعبقرية التى كانت تضىء الطريق للناس ؟ أصحيح أن ذلك كله قد ذهب ولن يعود ؟ وإذا كان قد ذهب فإلى أين ذهب وأين راح ؟ ويتمرد العقل والوجدان ، محال أن يكون ذلك كله قد ذهب إلى عدم ، فالعقل يرى من المستحيل أن يتحول الوجود إلى عدم ، فالشىء لا يمكن أن يتحول إلى ضده أبداً .

يقول الماديون إنه لا يتحول إلى عدم ، بل يتحول إلى ماء وتراب وغازات ومعادن ، إنه ينحل إلى عناصره الأولى التى جاء منها ويعود إلى الطبيعة ذرات وأمواجاً وذبذبات . ولكن حياة كل إنسان ليست مجرد أمواج متشابهة وذرات وذبذبات متماثلة ، إن لكل حياة إنسانية على حدة شخصيتها الخاصة بها والتى تختلف عن شخصية أى إنسان آخر ، فأين تذهب هذه الإضافة الشخصية المستقلة عن غيرها ؟ إلى أين تذهب هذه الصورة الخاصة بكل إنسان على حدة ؟ وما دام العلم الطبيعى يقول لنا إن المادة لا تفنى ، وإذا كان قد تطور فأصبح يقول إنها تتحول إلى طاقة ، والطاقة إلى إشعاع ، فالأمر المحقق أن العلم لا يزال يقول إنه لا شىء يضيع أو يتبدد، فما دام الأمر كذلك فيجب عليه أن يقول لنا أين تذهب شخصية الإنسان الخاصة به دون غيره من العالمين ، الشخصية التى هى شىء يختلف عن مجرد الدم والعضلات ؟ بل أين يذهب العقل ذلك الجوهر الفرد الذى سلمتم جميعاً يا معشر الماديين أنه لغز يقف أمامه العلم حائراً مشدوهاً ، ما الذى يحل بهذا العقل الذى يعى ويذكر ويتخيل ويخلق ؟ لقد رفض الإنسان وسيظل يرفض فكرة تلاشى الإنسان بعد الموت ، يشهد بذلك تشبثه اليائس بجسد من يحب ورغبته فى عدم الاعتراف بالموت . يشهد بذلك

مناجاة الإنسان للميت حتى بعد أن يواريه التراب. يشهد بذلك تذكر الإنسان للميت واستحضار كل ما كان يسره أو يحزنه أو كان يألفه من عادات. وعندما يكون الميت ممن اتصلت حياتهم بالإنسانية كلها على صورة من الصور، فإن البشر يظلون يترنمون باسمه أو يلعنونه كلما ذكر. فإذا كان ما خلفه علما نافعاً فيظل علمه يدرس ويناقش ويطالع ولو بعد مرور آلاف السنين. فهل معنى ذلك أن بقاء الإنسان بعد موته لا يعدو أن يكون مجرد ذكريات وآثار لما حدث وجرى؟

من هنا يأتي دور الأحلام في تقرير ما أحسه الإنسان بوجدانه، من أن شخصية الإنسان تبقى محتفظة بذاتها بعد الموت والوفاة. فقد شاهد الإنسان في نومه أعزاءه وأعداءه الذين واراهم التراب يروحون ويجيئون ويبتسمون له، أو يعبسون، يكلمونه مشجعين حينا منتقدين حينا آخر محذرين حينا ثالثا، وينهض الإنسان من نومه سعيدا بما رأى أو شقيا، فهو غير قادر على طي صحيفة هذا الذي مات والذي ما يفتأ يكلمه ويناديه أو يتهدده ويتوعده.

عبادة الموتى

وأيا كان الرأي في موضوع الأحلام وماهيتها وحقيقتها، فقد كانت وستبقى هي الأساس في اعتقاد كل الذين يعتقدون بعالم الأرواح. ولعله لا يوجد من بين الشعوب القديمة من جسد الحياة بعد الموت، كما فعل المصريون القدماء، حيث كانت كل أعمالهم وتصرفاتهم تتجه نحو تهيئة السبيل لهذه الحياة الجديدة التي سيحياها الإنسان بعد الموت. وكان الاعتقاد عندهم أن شبح الإنسان « الكا » تتردد على قبر الميت لتأكل وتشرب وتطرب بما اعتادت أن تطرب له في الحياة الأولى. وكان هذا هو الحال تقريباً عند بقية الشعوب القديمة، ومن هنا كانت عبادة الآباء والأجداد والموتى بصفة

عامة ، هى العبادة العامة الشاملة فى كل زمان ومكان ، وقد تظل هى الدين السائد الرسمى للجمهرة الغالبة من الناس حتى بعد انتشار الحضارة والمدنية فى عصرنا الحديث ، كما هو الشأن بالنسبة لليابان ، وجماهير الصينيين . وقد تطغى الأديان الرسمية الأخرى من إسلام ومسيحية ، ولكن تقديس الموتى من الآباء والأمهات يظل هو الشغل الشاغل للناس جميعاً ، وكم تسمع من الناس من حولك يحلفون لك بتربة آبائهم وأمهاتهم ، فليس ذلك إلا مظهر هذه العبادة والتقديس . وكم من المصريين حتى الآن بالرغم من إسلامهم ، ما يزالون يتبعون التقاليد الفرعونية القديمة فيذهبون إلى المقابر ويوزعون الرحمة على روح الميت ، ويتخيرون هذه الرحمة مما كان الميت يحب ويختار ، وليس ذلك إلا إحياء العادات القديمة فى تقديس الموتى ، والتقرب لهم بالقرابين .

ويذكر القارىء أننا لا نفتأ نشير لروسيا السوفيتية وتقديسها لجسد لينين ؛ ذلك أن هذه الظاهرة فى رأينا أقوى حجة يجب أن تفحم الذين ينكرون الروحانيات ، فهؤلاء أقوام ينددون بالأديان ويبشرون بالمادية ، ومع ذلك فلم يستطيعوا أن يتحرروا من عبادة الموتى وأرواح الأبطال ، فيعبدون جسد لينين المسجى داخل تابوته ، وقد يقال إن الأمر ليس عبادة ولكنه تكريم أو تعظيم ، فليست العبادة شيئاً غير التكريم والتعظيم .

الصلة بين العالمين المنظور وغير المنظور

يخلص من ذلك أن عقيدة البشر فى كل زمان ومكان فى القديم مثل ما فى الحديث ، تدورحول استمرار العلاقة والصلة بين الأموات والأحياء ، والتحدث عن عالم غير منظور إلى جوار هذا العالم المنظور الذى يعج بسكانه ، وهذا العالم غير المنظور يغص بدوره بأرواح الأجداد والآباء ، أرواح جميع من ماتوا وذهبوا ناعمى البال أو معذبى الضمير . وينعكس العالم غيرالمنظور

على العالم المنظور أحياناً من حيث لايدرك الأحياء أو يشعرون ، فكم منا من أحس بنفسه سعيداً فى أحد الأيام دون أن يدرك لذلك سبباً واضحاً ، وكم من مرة يحس الإنسان بنفسه كئيباً بغير سبب مفهوم كذلك ، وقد يصل الانعكاس إلى حد وقوع أمراض مستعصية يحار الطب فى معرفة كنهها ، وقد يصل إلى ما وراء ذلك أصواتاً يسمعها البعض أو أشباحاً يرونها ، وقد كان القدماء لا يمارون فى ذلك ويرونه طبيعياً جداً ، فالصلة دائمة ومستمرة بين العالمين المنظور وغير المنظور .

الأديان السماوية

ثم جاءت الأديان السماوية العالمية فى أعقاب الأديان الوثنية المحلية ، وراحت تفسر الكون تفسيراً عاما شاملا ، فأقرت العقيدة الثابتة من أن الإنسان مؤلف من روح وجسد ، فإذا كان الجسد ينحل ، فإن الروح باقية محتفظة بشخصيتها وطابعها . وهكذا ظل العالم فى ظل الأديان السماوية ، يغص بالعالم غير المنظور من ملائكة وجن وعفاريت وأرواح شريرة وأخرى خيرة .

إنكار الروح

وأنكر العلم هذه الثنائية ، فليس شيء سوى المادة ، وليس هناك عالم سوى هذا العالم المنظور ، وكان هذا الذى صادفنا فى كل خطوة من خطوات هذا الكتاب من إنكار لكل روحى أو ما هو معنوى على أى صورة من الصور . ولكن هذا الإنكار لم يلبث أن أحدث رد فعله ، كما هو الشأن فى الطبيعة دائماً ، فقام بعض المشتغلين بالعلم الحديث كما رأينا ، يعيدون للمظاهر الروحية قوتها تحت أسماء جديدة ، وبدأت المسمرية كما مر بنا ثم كان التنويم المغناطيسى الذى تلقفه العلم ليجعله أحد موضوعاته ، فراح يفسره

تفسيراً مادياً بحتاً فأوشك أن يلقى من جديد مصرعه ، ولذلك فقد اضطر بعض العلماء أن يعدلوا عن التنويم المغناطيسى كوسيلة لإثبات الحياة الروحية للإنسان ، ولجأوا إلى علم الأرواح الحديث .

علم الأرواح الحديث

علم الأرواح الحديث هو محاولة لتحدى العلم المادى فى ميدانه ، ميدان اللمس والحس والتجربة . إذا كان العلم يقول إنه لا يؤمن بشىء لا يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يكون قادراً على قياسه ، فلنجعله يسمع الروح إذ تتكلم ولنجعله يراها إذ تتحرك ، ولنجعل الأرواح تحرك الموائد وتدق بها على الأرض ، لنجعلها تشع إشعاعاً ، ولنرسمها بالآلات إذا لزم الأمر .

وإذا كان العلم قد أصبحت له كلمات خاصة ومعايير معينة ، فلنجعل علم أرواح يقوم على هذه المعايير . ولنجعله يتكلم بكلمات العلم ، فإذا كان علم الحياة يتحدث عن البروتوبلازم والسيتوبلازم ، فليتحدث علم الأرواح عن الأكتوبلازم ، وليتحلى علم الأرواح بآخر ماجاء به علم الطبيعة من نظريات. ليكن الأثير هذا المبدأ الذى قال به الطبيعيون ، ثم لم يستطيعوا بعد ذلك إلا أن يصفوه بالمتناقض من الأوصاف، فليكن هذا الأثير الغامض هو حجر الزاوية فى علم الأرواح . وأخيراً فليعتمد علم الأرواح الحديث على التجربة المعملية والتسجيل فى الدفاتر والسجلات ، ولتحط هذه التجارب بكل الضمانات التى أصبحت شرطاً أساسياً لاختبار صحة أى أمر من الأمور .

كبار علماء الطبيعة يؤيدونه

على هذه الدعائم قام علم الأرواح الحديث ، قام به المثقفون والمتعلمون أرقى صنوف التعليم ، بل حمل لواءه جهابذة العلماء الذين شهد لهم الناس بالأستاذية ، والقيادة العلمية . وعبثا نحاول أن نسرد مئات الأسماء من العلماء

الأعلام التى يراها الإنسان مذكورة ومسجلة فى كل كتاب يتحدث عن علم الأرواح . ومع ذلك فإن الإنسان لا يستطيع وقد تحدث عن موضوع تحضير الأرواح ، ألا يشير إلى بعض الأسماء التى آمنت بهذا العلم الجديد ، وليس من يجحد علمها أو فضلها . فهناك الفرد رسل والاس أعظم فسيولوجى إنجليزى وشريك داروين فى نظرية الانتخاب الطبيعى ، وسير وليم كروكس الذى وصل إلى مرتبة رئاسة الجمعية الملكية العلمية فى انجلترا ، وهو أعظم منصب يمكن أن يرنو إليه عالم من العلماء ، والسير أوليفر لودج أكبر علماء انجلترا فى الطبيعة فى القرن العشرين . وإذا كانت هذه أسماء أعلام فى دنيا العلم ، فقد بقى أن نشير بجوارهم إلى بعض أعلام دنيا السياسة والاجتماع والفنون ، كغلادستون زعيم حزب الأحرار الذى رأس الوزارة الإنجليزية أكثر من مرة ، وهناك ذلك المشهود له بالعبقرية السير أرثر كونان دويل مخترع شخصية شرلوك هولمز ، الذى يستخدم المنطق والفراسة لحل الألغاز والمعميات .

وفى فرنسا تطل علينا أسماء لامعة من أمثال فيكتور هوجو ، وكاميل فلاماريون أعظم فلكيي فرنسا ، حتى نصل إلى برجسون آخر فلاسفة فرنسا الكبار فى العصر الحديث . أما فى إيطاليا فيصادفنا أول ما يصادفنا أعظم رجال القانون بها ، وأعنى به لمبروزو ، فإذا أسرعنا إلى أمريكا لنختم هذا الاستعراض فنرى فيلسوفها الأكبر مؤسس الفلسفة البرجماتية ، وليم جيمس على رأس القائمة . ومن علماء النفس العظام تطالعنا أسماء يونج وماكدوجل ، وهناك من يضع على رأسهم فرويد نفسه .

حتى فى بلادنا ، فى مصر نرى القاعدة مطردة ، فلا يتحمس لتحضير الأرواح إلا الأعلام من رجالات مصر ، فهذا عالم من أكبر علماء الأزهر الذين تصدوا لتفسير القرآن وهو الشيخ طنطاوى جوهرى ، من دعاة تحضير الأرواح ، وعالم مصر الأكبر بلا منازع ، وهو محمد فريد وجدى صاحب

دائرة معارف القرن العشرين ، يحمل لواء الدعوة عالياً وينافح عنها حتى آخر نسمة من حياته .

ومما هو جدير بالذكر أنه ما من عالم من كبار علماء الطبيعة الذين ألفوا فى هذا العلم ، أو شهدوا له إلا وقد بدأوا جميعاً من بداية واحدة ، وهى الإنكار المطلق للقول بإمكان الاتصال بالأرواح . فيقول الفرد رسل والاس فى كتابه « عجائب الاسبرتزم » لقد كنت دهرياً صرفاً مقتنعاً بمذهبى كل الاقتناع ، ولم يكن فى ذهنى أدنى محل للتصديق بحياة روحية ، ولا يوجد عامل فى هذا الكون كله غير المادة وقوتها . ولكنى رأيت المشاهدات الحسية لا تغالب ، فإنها هزمتنى وأجبرتنى على اعتبارها أشياء مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها إلى الأرواح بمدة طويلة . ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً فى عقلى شيئاً فشيئاً ، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ، ولكن بتأثير المشاهدات التى كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة أخرى ، أى بغير نسبتها إلى الأرواح» . ويقول السيرو ليم كروكس فى كتابه « الأبحاث على الظواهر الروحية » : « وحيث إنى متحقق من صحة هذه الظواهر ، فمن الجبن الأدبى أن آبى الشهادة بحجة أن كتاباتى قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ، ممن لا يعلمون شيئاً فى هذا الشأن ، ولا يستطيعون لما علقوه من أوهام أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة ما شهدته ورأيته بعينى ، وحققته من خلال التجارب المتكررة الدقيقة » .
وكان الدكتور لمبروزو العالم الجنائى الإيطالى من أشد الناس حملة على المشتغلين بعلم الأرواح الحديث ، حتى لقد وصفهم فى بعض كتبه بالمجانين ، فإذا هو يؤلف كتاباً اعترف فيه بخطئه ونصح غيره لكى لا يقع فيما وقع فيه من خطأ بقوله « ولنحذر من ادعائنا دقة العقل ، واعتقاد أن كل الناس من

قبيل الواهمين ، والظن بأننا نحن فقط من العلماء ، فإن ذلك يوقعنا فى الضلال »[1].

كيف بدأ علم الروح الحديث ؟

والإيمان بالروح والعالم الخفى غير المنظور والأرواح الخيرة والشريرة ، هو إيمان قديم عند البشر ، كما أشرنا إلى ذلك ، ولكن علم الروح بشكله الحديث بدأ بصفة رسمية فى عام ١٨٤٦ فى أمريكا ، وذلك عندما سمع أمريكى وكان يسكن فى قرية (هيدسفيل) من مقاطعة نيويورك ، طرقات ذات ليلة على أرض بيته ، فذهب ليكتشف الفاعل فأعيته الحيل فصبر على مضض ، ولكنه قام ذات ليلة مذعوراً من صراخ ابنته الصغيرة ، فسألها عما أصابها فزعمت أنها أحست بيد مرت على جسدها وهى فى سريرها ، فلم ير الرجل بداً من ترك المنزل فتركه . وقد خلفه فى سكناه رجل آخر متنور يسمى « جون فوكس» فحصل لأهله ما حصل لسلفه من الأصوات التى لا تجعل للنوم سبيلاً إلى الجفون ، فكانت مدام فوكس تنادى جيرانها وتستعين بهم فى البحث عن الفاعل فلم يهتدوا إليه . فتجاسرت المرأة ذات ليلة وقالت لذلك الطارق « أحدث عشر طرقات » ، ففعل ، فقالت له « كم عمر ابنتى كاترين ؟ » فطرق طرقات على عدد سنى عمرها . قالت له : إن كنت روحاً فأحدث طرقتين ، ففعل . قالت : إن كنت أوذيت من شىء فأحدث طرقتين أيضاً ، ففعل.ولم تزل هذه المرأة به حتىعلمت بواسطة الطرق أنها روح رجل كان ساكناً فى هذا البيت ، فقتله جاره ليسرق ماله ودفنه فيه . فلم يسع مدام فوكس إلا أناستحضرت الجيران واستجوبت الروح أمامهم ، فأجابت بما جعلهم فى دهشة واقتناع فى آن واحد ، إذ كان الأمر كما أخبرت الروح .

---

(١) راجع كل ذلك بتفصيل أوفى فى دائرة معارف القرنالعشرين لمحمد فريد وجدى- مادة « روح » .

وضبطت الحكومة الواقعة وأجرتها مجراها القانونى . وقد شاع أمر هذا الحادث فى جميع الأصقاع فى أمريكا وغيرها ، فكثر ظهور مثلها من كل جهة لأن أمثالها كان يظهر كل حين فلا يلتفت إليه . فكلف الخاصة بالبحث فى هذه الظاهرة علمياً وعملياً . فكان ممن بحثوها القانونى الشهير (ادموندز) الذى كان رئيساً لمجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة ، فاعتقد بصحتها وألف فيها كتاباً ضخماً سنة ١٨٦٥[١].

وانتشرت تجارب تحضير الأرواح فى سائر أنحاء أوروبا ، فى انجلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا والروسيا ، وتألفت عشرات ومئات الجمعيات العلمية من كبار الأساتذة والعلماء لإجراء التجارب والبحوث ، وصدرت ألوف الكتب وعشرات الألوف من المقالات فى الصحف والمجلات تأييداً أو استنكاراً . وقد بلغ عدد المؤمنين بالأرواح ممن ينتمون إلى جمعيات ويترددون عليها فى أمريكا وحدها ، عشرة ملايين ، حيث تنقسم منظمات تحضير الأرواح إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول يدور حول بعض الوسطاء الذين يعملون لحسابهم ، وقسم يعتمد على الكنائس وقسم ثالث هو المهم يقوم على معسكرات منتشرة فى أنحاء الولايات المتحدة ، وخاصة حول مقاطعة نيويورك وبنسلفانيا ومعسكر شستر فيلد وانديانا وفلوريدا ، وفى هذه المعسكرات تلقى المحاضرات فى علم الروح ويعقد الوسطاء جلساتهم[١] .

وقد بلغ من الاهتمام بعلم الأرواح فى منتصف القرن التاسع عشر ، أن جاء وقت سيطر فيه الاقتناع على المؤمنين به أنه لن يلبث أن يصبح علم العلوم ، وأن البشر يوشكون أن يحلوا كل أسرار الوجود وألغازه التى أعيتهم منذ

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية Americana — مادة Spirit — ودائرة معارف القرن العشرين مادة روح .

بدء الخليقة حتى الآن . ولكن ريح الحماسة لهذا العلم وجلساته لم تلبث أن خفت وهدأت ، إذ بدا غش كثير من الوسطاء يفتضح[1] ، وانزلق عدد من المشتغلين بعلم الأرواح فى مباحث عن حقيقة عالم الروح ، لا يحتاج الأمر إلى كبير عناء أو ذكاء ليكتشف الإنسان أنهم إنما يتحدثون عما يخالج عقولهم هم . على أن السبب الحقيقى فى انكماش جلسات تحضير الأرواح فى الواقع ، هو اتجاه المباحث النفسية اتجاهاً جديداً كما سنرى ، وهو محاولة تفسير الظواهر الروحية تفسيراً مادياً بحتاً يقوم على التجارب المعملية القابلة للقياس عن طريق الرياضة والإحصاء .

كيفية تحضير الأرواح

ويقوم تحضير الأرواح بصفة عامة على قدرة الوسيط ، وهناك أساليب كثيرة مستعملة لتحقيق هذا الغرض ، ولكن الخطوط العريضة لهذه العملية تنحصر فى أن بعض الوسطاء يدخلون فى مرحلة تسمى مرحلة الغيبوبة Trance ، ولا يمكن تحديد طبيعة هذه الغيبوبة على وجه قاطع ، وهل هى حالة فسيولوجية أم حالة سيكولوجية أى نفسية ، وهى تختلف باختلاف الوسطاء . ويغلق الوسيط عينيه ، ثم يقوم ببعض تقلصات ويتصرف بعد ذلك كما لو كان قد تملكه روح . وتأتى الرسائل كما لو كانت من الروح

---

(١) كان ممن تصدوا لمحاربة علم الأرواح الحديث فى الولايات المتحدة الأمريكية مجلة « السيانتفيك أمريكان » إذ خصصت جائزة مالية كبيرة لأى وسيط أو وسيطة يقوم بظاهرة نفسية تثبت على الامتحان أمام لجنة مؤلفة من عالمين طبيعيين وعالم نفسى ومشعوذ (الساحر هوديني) وسكرنير وقد تقدم لهذه اللجنة لنيل هذه الجائزة عشر وسطاء ، أثبت البحث أن تسعة منهم خادعون وظهرت طرق خداعهم ، أما الوسيط العاشر وكان امرأة تدعى مارجرى فقد فسرت الأفعال التى بدرت منها ، تفسيراً فيه مط لبعض النظريات النفسية . (أساطين العلم ص ٢٩٠)

المتقمصة ، ويبدو أن جسد الوسيط يستخدم كمجرد واسطة . وفى بعض الأحيان قد تكتب يد الوسيط رسائل بالقلم الرصاص[1] .

ويصف لنا (أرثر فاندلاى) مؤلف كتاب على حافة الأثير جلسات تحضير الأرواح ، وكيف تعتمد فى الدرجة الأولى على وسيط يتمتع بهذه الخاصية وهى استحضار الأرواح ، شريطة أن يتعاون معه بعض نفر يواظبون على حضور جلساته ويساهمون فى إنجاحها ، ولا مانع من أن يحضر معهم واحد أو اثنان ممن لم يسبق لهم حضور هذه الجلسات . والشرط الأساسى لنجاح هذه الجلسات هو وجوب التوافق بين الحاضرين . ويستعان بالموسيقى لإيجاد التوافق بين الحاضرين وحمل الهواء على الاهتزاز ، وقد تستخدم التراتيل الدينية بدلا من الموسيقى . ثم يجلس الحاضرون على شكل دائرة ويوضع وسط الدائرة بوقان ، وبعد الصلاة والترنيمة الأولى ، يشاهد الوسيط وهو يذهب إلى النوم ، فيمسك الجالس على يمينه بيمناه والجالس على يساره بيسراه ، وتتماسك جميع الأيدى حتى يصبح الكل وكأنهم سلسلة ، ثم يطفأ النور ويستمرون فى الغناء إلى أن يقع الوسيط فى الغيبوبة العميقة ، وإن هو إلا بعض الوقت حتى تسمع همهمة تزداد وضوحا ، ثم ينطلق صوت الروح معلناً عن نفسه أنه قد حضر . ثم لا تلبث أن تحضر أرواح أخرى حسب الطلب فتخاطب الحاضرين بأخص أسرارهم وعما جاءوا يسألون عنه . وتحرك الأرواح البوقين الموضوعين فى وسط الدائرة وتتكلم من خلالها ، وتلامس أجساد الحاضرين وقد تتجسد الأرواح فيرى بعض الحاضرين أشباحها ، وتقوم الأرواح عند الطلب بتحريك الموائد أو الدق على الأرض أو السقف ، أو تكتب بالقلم الرصاص على الورق أو تكتب أشعاراً أو تحل معادلات رياضية ، وتتكلم بلغات حيث يكون الوسيط أجهل ما يكون بهذه

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية Americana — مادة Spiritism

اللغات ، وأبعد ما يكون عن قرض الشعر ، وأعجز ما يكون عن حل هذه المعادلات[1] .

حجرة تحضير الأرواح الحديثة

وقد تطورت حجرات تحضير الأرواح الحديثة ، لكى تساير التطور العلمى والدقة الواجب اتباعها فى إجراء التجارب ، فأنشأ المعهد الدولى للأبحاث الروحية فى لندن حجرة خاصة لتحضير الأرواح على آخر طراز علمى ، وقد بنيت جدرانها بالطوب وغطيت الجدران بطبقة من الجبس الملون بزرقة خفيفة ، والحجرة مربعة الشكل طول ضلعها ٢٤ قدما وارتفاعها ١٢ قدما ، والكراسى أشبه بكراسى الملاهى العادية . وتحت كل كرسى منها ميزان يسجل بطريقة تلقائية وزن الجالس إذ ما جلس طوال مدة التجربة ، لكى يكون من المستطاع معرفة وزنه دقيقة بدقيقة خلال التجربة كلها وهناك جهاز لتسجيل درجة الحرارة فى الحجرة باستمرار ، حيث لوحظ عليه أنه ينخفض فى أثناء إجراء التجارب بينما كان من الواجب أن يرتفع نتيجة الحرارة المنبعثة من أجساد الحاضرين . ويوجد فى سقف الغرفة جهاز ليهز هواء الحجرة باستمرار ، ويوجد إلى جوار هذا الجهاز فتحة ركب عليها آلة فوتغرافية للتصوير ، كما توجد أيضا آلتان للتصوير السينمائى تعملان طوال الجلسة بدون انقطاع ، وتستخدم حزمتان من الضوء تحت الأحمر وحزمة ثالثة للأشعة فوق البنفسجية وذلك لتصوير ما لا تراه العين ، وقيل إنه قد أمكن رسم الأكتوبلازم الذى يخرج من جسد الوسيط أو أحد الحاضرين. كما أن هناك جهازاً لتسجيل كل ما يقع من الأصوات فى أثناء الجلسة . هذا إلى عشرات أخرى من الأجهزة والإجراءات التى تتبع أو تستعمل لإحكام

---

(١) على حافة العالم الأثيرى — ص ٦٠ .

الضبط والرقابة ، واستبعاد كل محاولة للغش والخـــداع أو التزييف من ناحية ، وإمكان تسجيل الظواهر غير الطبيعية التى تتجلى فى الحجرة من ناحية أخرى[1].

العلاج عن طريق الأرواح

وقد أصبح العلاج عن طريق الأرواح من الأمور الشائعة فى المجتمعات الإنجليزية والأمريكية ، والمهم أن الذى يتولاه فى بعض الأحيان أطباء يحملون إجازات الطب ، فهذا طبيب يسمى الدكتور ويكلاند يقول عن نفسه فى كتابه إنه عضو الجمعية الطبية فى شيكاغو ، والجمعية الأمريكية لتقدم العلوم واسم هذا الـكتاب « ثلاثون سنة بين الموتى » حيث يحدثنا الدكتور المذكور عن شفائه مئات المرضى خلال ثلاثين سنة عن طريق الاتصال بالأرواح ، وإقناعها بالتى هى أحسن أن تغادر جسد المريض، ويقول لنا فيما يقول « لقد تناقشت مرة مع واحد وعشرين روحا مختلفة تـكلموا من خلال زوجتى ، وأعطانى معظمهم الدلائل الـكافية على أنهم أصدقاء وأقارب ، معروفون لى عند ما كانوا على الأرض ، وعلى وجه عام تـكلموا بست لغات مختلفة فى حين أن زوجتى تتـكلم فقط بالإنجليزية والسويدية . ولقد أمكننا أن نطرد من مسز (أ) المريضة التى جاءتنا من شيكاغو ثلاثة عشر روحاً سمح لهم أن يهيمنوا على مسز ويكلاند »[2] .

ويحدثنا المرحوم أحمد فهمى أبو الخير أنه باشر العلاج الروحى بنفسه ، ونشر لنا صور من عالجهم فى كتاب على حافة الأثير وفى أعداد مجلته التى أصدرها عدة سنوات تحت اسم « عالم الروح » ونشر شهادات هؤلاء الذين عالجهم مع صورهم ، ومن الطريف أن بعض هؤلاء كان من الأطباء الذين

---

(١) على حافة العالم الأثيرى — ص ١٦٤ .
(٢) ثلاثون سنة بين الموتى — ترجمة الدكتور عبد الجليل راضى — ص ٦٠ .

قرروا فى شهاداتهم أنهم كانوا مرضى بأمراض ميئوس من شفائها ، حتى عالجهم أحمد فهمى أبو الخير عن طريق الأرواح فشفوا[1].

وفى دنيا العلاج فى أنحاء العالم لمعت نجوم العلاج الروحى من أمثال جونز وبارش وادواردز ، حيث لم يعد العلاج مقصوراً على داخل العيادات بل خرج إلى الاجتماعات العامة ، تماماً كما كان مسمر يفعل منذ أكثر من قرن من الزمان . وفى كبرى قاعات الاجتماعات العامة فى لندن يحتشد بضع ألوف من الجمهور ، ثم يقوم هارى ادواردز بطل العلاج الروحى بمباشرة معجزاته التى يقول واصفوها إنها تذكرهم بمعجزات المسيح مع فارق واحد ، هو أنه لم يكن أيام المسيح سينما لتسجل ما يجرى ، أما اليوم فالسينما تسجل معجزات هارى ادواردز حيث يمكن عرضها ورؤيتها فى كل مكان ، وكى يستطيع المؤمنون بعلم الأرواح من أمثال الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير ، أن يعرضوا هذه الأفلام على جماهير المؤمنين والمتشككين على السواء[2].

الهجوم على تحضير الأرواح ؟

هاجم العلماء الطبيعيون والماديون وهم الكثرة الغالبة بين المشتغلين بالعلم هذه الأيام ، تحضير الأرواح كأشد ما يكون الهجوم ، بحيث يكفى أن يعرف عن إنسان أنه من المؤمنين بهذا العلم حتى تسقط على الفور صفته كعالم ، مهما كانت شهرته أو تاريخه وماضيه فى دنيا البحث العلمى . ولا يحسبن أحد أن ضخامة أسماء الذين اعترفوا بهذا العلم ، لها أى وزن أو اعتبار عند الجاحدين بهذا العلم . وليس أسهل على الناقدين إذا ذكر أمامهم

---

(١) على حافة العالم الأثيرى — ص ١٥٧ .

(٢) على حافة العالم الأثيرى — ص ١٦٢ .

اسم أحد الأعلام الذين شهدوا لهذا العلم ، أن يوصفوا بأنهم قد خرفوا فى أخريات حياتهم ، أو أنه لا صحة لما نسب إليهم [١] .

والعجيب أن رجال الدين من ناحية أخرى ، قد وقفوا فى بادىء الأمر موقف العداء من تحضير الأرواح باعتباره بعثا للسحر ، وربما لو كانت الكنيسة لا تزال تتمتع بسلطانها القديم لحرقت المشتغلين بتحضير الأرواح ، ولكن الكنيسة لم تفقد سلطانها فحسب ، بل أصبحت تحت تأثير التعاليم المادية مهددة فى صميم كيانها ، ولذلك فقد بدأت تجد فى تحضير الأرواح ما يذكر الناس بوجود القوى الروحية فى الكون ، فأصبحت الكنيسة الأمريكية كما رأينا تشترك فى تحضير الأرواح .

أما الكثير من علماء المسلمين الذين كان من المفروض أن يؤيدوا بدورهم موضوع تحضير الأرواح ، كنجدة لهم ضد التيار المادى الذى يوشك أن يقتلع الأديان من أساسها ، فهم يتمسكون بمعارضتهم لعلم الأرواح ، لأن كل حديث عن الروح فيه مساس بالأمور الغيبية التى اختص الله بها نفسه ، ومن هنا فالعداء لا يزال مستحكما بين رجال الدين المسلمين والمشتغلين بتحضير الأرواح ، يظهر لك ذلك فى مقدمة كتاب بعض المشتغلين بهذا العلم فى مصر [٢] .

---

(١) دار لى مع أستاذ جامعى كبير ، ترجم وألف فى الفلسفة عشرات الكتب ، حديث حول موضوع تحضير الأرواح والتلابثي ، فأجابنى أنه يعتبر هذه الأمور كلها كلاماً فارغاً ، فسألته وما رأيه فى أن عالماً طبيعياً من أعظم علماء الطبيعة وهو السير أوليفر لودج ، انتهى إلى أن يكون من دعاة هذا العلم فأجابنى : لا بد أن يكون قد فقد اتزانه العقلى بعد وفاة ابنه . قلت له وما الرأى فى مثل وليم جيمس الفيلسوف الأمريكى الحديث ؟ فأجابنى هذه هى النقطة الغامضة فى حياة الرجل . وهكذا كلما رحت أذكر له أحد الأعلام ، يعلق بكلمة من هذا الطراز ، وعاد ليؤكد رأيه الأول وهو أن الاشتغال بهذه الأمور مضيعة للوقت ، ومساس بالعلم . وليس ذلك إلا نموذجاً لحديث العلماء والفلاسفة المصريين ، عن فرع من العلوم لا يؤمنون به .

(٢) ثلاثون سنة بين الموتى — ترجمة الدكتور عبد الجليل راضى — انظر مقدمة الكتاب .

وهكذا يلقى علم تحضير الأرواح الحرب من اليمين واليسار معا ، من المؤمنين بالروح وخلودها بعد الموت ، ومن المنكرين لكل روح أوحديث عنها . على أن الرجل الذى حارب علم تحضير الأرواح أشد الحرب لم يكن من رجال الدين ولم يكن من الفلاسفة الماديين ، ولكنه كان مشعوذا ساحرا لا يمت إلى اليمين أو إلى اليسار بصلة ، وذلك هو هودينى الساحر الأمريكى .

الساحر هودينى

ذكرنا من قبل أن مجلة السيانتفيك أمريكانا قد ألفت لجنة من المحكمين ، لمنح جائزة كبيرة لمن يستطيع أن يقوم أمامها بظاهرة نفسية خارقة تثبت على الامتحان والبحث العلمى . وقد كان هودينى أحد المحكمين الذين انتدبتهم اللجنة المذكورة لفحص من يتقدمون لنيل الجائزة ، وقد اختير هودينى بالذات لأنه كان يجد لذته الكبرى فى كشف ألاعيب الوسطاء المخادعين . لقد كان هودينى نفسه وسيظل أعجوبة بشرية استعصت على الحل إبان حياته ، وقد أصبح بعد موته من الشخصيات التاريخية التى شقت طريقها إلى دوائر المعارف ، ووضعت عنه مئات الكتب والروايات والأفلام السينمائية . وقد أجملت دائرة معارف أمريكانا القول فيه فى العبارات الآتية « هارى هودينى ساحر أمريكى ولد عام ١٨٧٤ ومات عام ١٩٢٦ وهو ابن حاخام يهودى ، وقد أظهر قدرة خارقة على السحر . ولكن شهرته قامت فى الدرجة الأولى على قدرته على تخليص نفسه من أى قيود حديدية يربط بها ، حتى لقد أطلق عليه اسم « ملك الأغلال » . وقد طاف فى أنحاء العالم وعرض مشاهد مذهلة على استطاعته الخروج من أى سجن يوضع فيه فى كل المدن الكبرى تقريبا . وفى إحدى المرات أحكم وثاقه ووضع فى صندوق أحكم غلقه بأحزمة من الصلب ، ثم أسقط فى نهر الهدسون بنيويورك وبعد ٥٩ ثانية ظهر على سطح الماء . وكان يجد لذته الكبرى فى كشف حيل وسطاء

تحضير الأرواح وخداعهم، ولم يكن يكل أو يمل من العمل فى هذا السبيل »[1]

وهكذا نجد أنفسنا إزاء رجل حير الدنيا بقوته الخارقة وأعماله المعجزة ، فلو قال للناس إنه يفعل ذلك بقوة الجن لصدقوه ، ولو قال لهم إنه يفعل ما يفعل بقوة الأرواح ، لما استطاعوا أن يكذبوه ، ومع ذلك فقد كان هذا الرجل بالذات ، أشد الناس إنكاراً لفكرة تحضير الأرواح ، وأكثر الناس حربا على المشتغلين بهذا العلم . فلا عجب إذا كان هودينى بالذات من أكبر العوامل التى جعلت ريح تحضير الأرواح على صورته التى غمر بها الدنيا فى آخر القرن التاسع عشر ، تهدأ كما ذكرنا من قبل . ولذلك فقد اعتبر هودينى أعظم نكبة رزىء بها علم تحضير الأرواح[2] .

شطحات المشتغلين بعلم الأرواح

على أن الذى نال فى رأينا من علم الروح بصورته الحديثة ، هو انزلاق المشتغلين به من تسجيل ما يقع تحت أبصارهم ، من دق أو طرق أو تحريك لهذا الشىء أوذاك ، إلى الدخول فى مناقشات مع الأرواح المزعومة للوقوف منها على كيفية حدوث ما يحدث ، وبدأت الأرواح تقول كلاما أقرب إلى الهزل منه إلى الجد . فالأرواح تستعين للاتصال بالحاضرين بمجموعة من

---

(١) سجن هودينى فى واشنطون فى غرفة المحكوم عليهم بالإعدام الخطرين ، والتى لا يتصور إمكان الخروج منها بأى حال من الأحوال ، ومع ذلك فقد استطاع أن يفلت منها ولم يستطيع أحد أن يعلل كيف استطاع فعل ذلك . وفى اسكتلنديارد فى انجلترا شد وثاقه بأغلال وسلاسل حديدية بمعرفة المختصين الثقات ثم أسدلت عليه ستارة وسرعان ماتناثرت وخرج حراً طليقاً .

وفى موسكو سجن فى عربة المنفيين إلى سيبريا فأفلت منها كذلك . وفى كاليفورنيا دفن ستة أقدام تحت الأرض ، بعد أن قيد بالسلاسل فخرج دون أن يمسه أى سوء .

(٢) هودينى الوسيط الروحى المتساحر — أحمد فهمى أبو الخير — ومن رأى المرحوم أحمد فهمى أبو الخير كما يبين من عنوان الكتاب ، أن هودينى كان وسيطاً روحياً ، ولكنه فعل ما فعل طلباً للشهرة .

خبراء العالم الآخر المتخصصين فى كيمياء العالم الثانى ، فيحضرون إلى جلسة تحضير الأرواح ثم يشرعون فى سحب الأكتوبلازم من الوسيط والحاضرين بالقدر اللازم لعمل قناع تلبسه الأرواح ، ليكون بقدرتها أن تسمع صوتها للأحياء . وعندما تتجمع هذه الأكتوبلازم لدى الخبير فإنه يضعها فى قصعة (روحية طبعا) ثم يضيف إليها بعض مواد أثيرية من عنده ، ويخلط هذه المواد سويا ثم يصنع من الخليط رئتين وحلقوما وحنجرة وفما ولسانا ، وهذا هو القناع الذى يتعين على الروح الراغب فى الكلام أن يلبسه[1] .

ويحدثنا هؤلاء المؤمنون بعد ذلك عن عالم الروح بطريقة تجعله نسخة طبق الأصل من مجتمعاتهم التى يعيشون فيها ، ففى المجتمعات الفرنسية تتكلم الأرواح بالفرنسية ، وفى المجتمعات الأمريكية فالحياة الآخرة صورة طبق الأصل من الحياة الأمريكية وهكذا . ولا تزيد عقليات الأرواح المستحضرة عن عقلية الحاضرين فى الجلسة . فقد سأل « فندلاى » إحدى هذه الأرواح مثلا عما إذا كنا سنبعث بأجسادنا مرة أخرى فإذا الروح تجيب عن هذا السؤال بالآتى « إننى أجد صعوبة فى الإجابة عن هذا السؤال فلست أعرف أحدا بعث هذا البعث ، وهذا هو ما أستطيع أن أقوله فى هذا الصدد » . فأى أرواح هذه التى لا تعرف حرفا واحدا أكثر مما نعرف ، وكيف لايضيف الموت والصورة الجديدة التى تعيش فيها فهما غير فهمنا أو إدراكا غير إدراكنا ؟ وعندما يمضى الإنسان فى قراءة ما يكتب عن عالم الروح لا يتمالك نفسه من الاعتقاد ، أن كل هذا الذى يقال عن عالم الروح هو مايتمنى الحاضرون أن يكون عليه ، فهو عالم كاثوليكى إذا كان الحاضرون من الكاثوليك ، وهو عالم مادى إذا كان الحاضرون من الماديين . وأعتقد أن أمثال هذه الكتب وهذه الشروح والتفاصيل ، هى التى صرفت

---

(١) على حافة العالم الأثيرى — ص ٧٢ .

الكثيرين من المراقبين المحايدين عن النظر لموضوع تحضير الأرواح نظرة الجد .

مدى الحوم فى تحضير الأرواح

ومع ذلك فلا يمكن لأى منصف ، فضلا عن عالم محقق أن يتجاهل ظاهرة هذا مدى ثباتها فى كل عصور التاريخ ، وإلحاحها على البشر على صورة سحر فى القديم يعتمد على الجن والشياطين ، وعلى صورة أرواح شريرة وخيرة ، فى العصر الحديث . من التجنى الذى لا تجنى قبله أو بعده رمى الناس بالجنون والتخريف ، إذا قالوا بتحضير الأرواح حتى ولو كانوا من كبار العلماء المشهود لهم بالصدق والتمحيص والقدرة على إجراء التجارب بكل الضمانات التى يتطلبها العلم الحديث .

من العبث اتهام نفر من أكبر علماء الطبيعة ، أو غيرهم ممن اشتهروا بالعقل والحكمة ، بأنهم غشاشون مخادعون ، أو أنهم وقعوا فريسة سهلة للخداع والتغرير ، ولا مناص من التسليم بأن هذا النفر ومن لف لفهم من المشتغلين بتحضير الأرواح ، يرون بالفعل ويسمعون ما يجعلهم يقولون ما يقولون من وجود أرواح وإلا لما انقلب الكثيرون منهم ، من منكرين جاحدين إلى مؤيدين متحمسين[1] .

---

(١) أتيح لى شخصياً أن أحضر إحدى جلسات الأرواح التى يمكن اعتبارها من أنجح مايمكن أن يحدث فى جلسة تحضير أرواح . وقد حدث هذا فى دمشق عام ١٩٤٨ ، وقد كان حلمى الفندور التاجر هو الذى أخذنى لشهود هذه الجلسة بعد أن سبق له حضورها فكاد يفقد عقله كما نقول من فرط الدهشة لما رأى وشهد . فقد استدعيت روح والده التى راحت عن طريق الدق بأحد جانبي المائدة تشير إلى أمور كانت فى تصور صاحبي أنها أسرار . وراحت روح والده تخاطبه بالشعر وكان يعرف أن والده يقول الشعر وهكذا . وصحبت الزميل إلى جلسة تالية ، وبدأت الإجراءات العادية ونام الوسيط وهو أحد التجار السوريين . وعندما قيل إن الروح حلت بالوسيط بدأ توجيه الأسئلة إليها على أن يكون الجواب بالطرق مرة إذا كان الأمر على وجه معين ، وبالطرق مرتين إذا كان الأمر على =

والحق أن ليس هنا ما يحل مشكلة تحضير الأرواح كما حلت مشكلة السحر من قبل ، إلا الأخذ بنظرية الطاقة الإنسانية التى تتولد فى النفس نتيجة الإرادة أو الاعتقاد . وليس أدل على ذلك من أن الذين يؤمنون بتحضير الأرواح هم الذين يرون ويسمعون ، والذين لا يؤمنون لا يرون شيئاً ولا يسمعون ، وإذا رأوا شيئاً أو سمعوا فسروه طبقا لمفهومهم ومعتقداتهم .

= خلاف ذلك. ولم يكن هناك أدنى شك أو خفاء فى أن المائدة ترتفع بالفعل من أحد جانبيها ثم تسقط ثانية فيحدث سقوطها هذه الدقات . وعندما تكررت هذه الظاهرة بوضوح عن لى أنه يمكن تفسيرها على أساس أننا نحن الذين نرفعها ونخفضها بواسطة أيدينا الموضوعة فوقها وذلك بحركة لا شعورية بحتة . ذلك أنه عندما يوجه أى سؤال وتستلزم الاجابة عليه أن تدق المائدة ثلاث دقات ، فإن صاحب المصلحة فى الجواب على هذا الوجه يشرع ، من حيث لا يدرى، فى الضغط على المائدة من ناحيته، وذلك فى الوقت الذى يخف فيه ضغط أيدى الأشخاص الذين لا مصلحة لهم فى الموضوع ، وبهذا يزداد الضغط من ناحية ويخف من الناحية المقابلة، فترتفع المائدة من أحد جانبيها ، وهكذا تتكرر العملية طبقاً للعدد المطلوب .

ولم تكد الفكرة تطرأ لى حتى رأيت أن أضعها موضع التنفيذ دون أن أخبر أحداً من الحاضرين بما عزمت عليه ، فانتهزت فرصة توجيه سؤال يستدعى الرد عليه تحريك المائدة ثلاث مرات فبدأت أضغط وظلت أضغط دون أن أتوقف بعد الضغطات الثلاث فاستمرت المائدة تتحرك مابقيت أضغط من ناحيتى ، وعندما قررت أن أوقف عملية الضغط وقفت المائدة عن الحركة . وظلت بعد ذلك أكرر التجربة طوال الجلسة فسارت الأمور كما تصورت ، وطبقاً لنظريتى ، فهى تتحرك ما بقيت أنا دون الآخرين أعمل على تحريكها وتقف عندما أكف عن رغبتى فى تحريكها . وقد حدث بعد أن استطالت الجلسة وازدادت حماسة الحاضرين لما يرون ويشهدون ، أن بدأت المائدة تقف على أحد جانبيها ثم تتحرك على ساقيها الباقيتين فى أنحاء الحجرة ونحن نسير إلى جوارها إذ أن أيدينا كانت فوقها بطبيعة الحال ، وقد كنت مقتنعا فى هذه اللحظة أن المائدة تتحرك عن طريق أيدينا الموضوعة فوقها ، وأن أيدينا هى التى تحول بينها وبين الوقوع . وكان معنى ذلك أنه بدلا من تحريك المائدة بأن نضع أيدينا تحتها لنقاوم فعل الجاذبية كما تقضى الأوضاع الطبيعية ، فقد كنا نحرك المائدة بأيدينا الموضوعة فوقها كما لو كانت أيدينا تنطوى على مغناطيسية . وهكذا خرجت من هذه الجلسة غير مؤمن بتحضير الأرواح ، ولكنى أحمل فى أعماق نفسى بذور الطاقة الانسانية ، من أن كل إنسان فيه طاقة تمكنه إذا أراد أو اعتقد ، أن يحرك الأشياء بطريقة تبدو غير طبيعية .

والاعتقاد شرط أساسى لدى المشتغلين بتحضير الأرواح ، وفى ذلك يقول فندلاى فى كتابه على حافة الأثير « لا يعقل أن يجتمع أغراب ليست بينهم معرفة سابقة بحضرة وسيط مهما كان بارعا ، ثم يتوقعون الحصول على نتائج مرضية من أول جلسة ، ذلك مستحيل . ولذا كان من المستحسن أن يوجد فى كل جلسة أكبر عدد ممكن من الزائرين المواظبين ، لكى يساعدوا على توفر الشروط فيمهدوا من ثم الطريق للأغراب ، لكى يحضروا ويتمرنوا على هذه الجلسات ويتخذوا منها أداة تعزية وتسرية »[1] . ومعنى هذا أن الاعتقاد شرط أساسى ، ونحن نعرف ماهو الاعتقاد ، إنه خلق الصور فى الذهن والتشبث بها ، فيترتب على ذلك حصول الصور فى الخارج ، وليس هناك ما يفسر لنا لماذا كانت الأرواح فى أول عهدها تدق الأرض وتحرك الموائد ، عندما كان يقال إن هذه هى وسيلة تخاطب الأرواح مع البشر الأحياء . فلما أوغل المشتغلون فى العلم وقالوا بل إنها قادرة على التكلم من خلال الوسيط ، أصبحت جلسات الأرواح تقوم على ذلك . ثم لما قيل إن بقدرة الأرواح أن تتكلم استقلالا عن الوسيط من خلال الأبواق التى توضع لها ، أصبحت الأرواح تتكلم من خلال الأبواق . ولما قيل إنه من الممكن أن يرى البعض الأرواح أصبح هذا البعض يراها . وأصبح حظ المشتركين فى جلسة تحضير الأرواح يختلف تبعا لحظهم من الإيمان ، فالبعض يسمع الروح ، والبعض يحس بملامستها له ،والبعض يراها رأى العين،والبعض لا يراها ولا يسمعها أو يحس بها لأنه يشترك فى الجلسة منكرا للموضوع كله.

التركيز

وليس ما يجرى فى جلسات تحضير الأرواح من إطفاء للأنوار وترتيل للأناشيد الدينية أو قراءة السور القرآنية وعزف الموسيقى ، والجلوس على

---

(١) على حافة العالم الأثيرى — ص ٦٠ .

هيئة معينة ، وتلامس الأيدى وتشابكها ، ثم دخول الوسيط فى حالة الغيبوبة ، إلا وسائل لإحداث التركيز الذهنى المطلوب . وهكذا تتحقق الشروط الثلاثة لتوليد الطاقة الإنسانية من اعتقاد تولده الضرورة وتوحيد للهدف وهو ظهور الأرواح ، ثم التركيز عليه فيكون التحقيق للمطلوب .

ونحن ممن يعتقدون أن علماء الطبيعة الذين شهدوا جلسات تحضير الأرواح ، لم يغب عنهم أن يفسروا ما رأوا من الظواهر على أساس وجود طاقة إنسانية بالفعل ، قادرة على فعل الذى تفعل ، فلم يكن هذا التصور بعيدا فقد قال به مسمر كما رأينا ، والتنويم المغناطيسى كان قد أصبح من مسائل العلم المقررة ، فما الذى جعل هؤلاء العلماء الأفذاذ بدلا من تفسير ما يرون من ظواهر هذا التفسير البسيط ينزلقون إلى القول بالأرواح ، وأن ما يحدث لا يمكن أن يتم إلا بقوة الأرواح ؟ الرأى عندنا أن شدة إيمانهم بالمادة على صورة معينة ، وأن هذه المادة لا يمكن أن تتصرف إلا على الوجوه المألوفة فى العلم ، كان هو السبب الذى حمل هؤلاء العلماء الأعلام على قول ما قالوا من نسبة ما رأوا إلى أرواح الموتى . إن الانزلاق يكمن فى هذه القفزة — ما دامت قوانين المادة المعروفة لا تستطيع أن تفسر الظاهرة ، فلم يبق إلا أن تكون أرواح الموتى هى التفسير — مع أنه ليس هناك ما يمنع أن تكون للمادة أشكال وحالات لم نعرفها بعد ، وقد يكون من قوى المادة حالة تعمل بقوانين على خلاف القوانين التى نعرفها حتى الآن . يخطىء إذن هؤلاء الذين ينكرون الظواهر المحققة والمؤكدة ، التى كان السحر يحققها فى الماضى ولا يزال قادرا على تحقيقها عند من يؤمنون به ، كما يخطىء من ينسبون عمل السحر للعفاريت أو للجان . ويخطىء من ينكرون الحقائق المؤكدة التى شهد بها كل من حضر جلسات جدية لتحضير الأرواح ، بدعوى أنها لا تتفق وحقائق العلم الذى يعرفون ، كما يخطىء من يتصورون أن هذه الظواهر من عمل أرواح الموتى . والحقيقة أن الإنسان ، الإنسان

الحى وحده هو الذى يقوم بكل هذه الأعمال بمقتضى الطاقة المودعة فيه ، والقادرة دائماً على أن تحقق له موضوع عقيدته أو إرادته .

وسنرى فى الفصل التالى كيف أن موضوع هذه الطاقة الإنسانية وانطواء الإنسان عليها ، لم يعد مجرد استخلاص نظرى نقول به على ضوء الملاحظة والمشاهدة ، التى قد يختلف كل إنسان عن الآخر فيما يمكن أن يستخلصه منها ، ولكنه أصبح محل التجارب المادية المعملية التى لا تجرى فى الظلام ، ولكن فى وضح النهار بعيدا عن الأرواح والأشباح ودق الموائد ، والتى تعتمد فى الدرجة الأولى على وسائل الإحصاء .

الفصل التاسع

التوصل إلى إثبات وجود الطاقة الإنسانية

بطريقة تجريبية معملية

علم ما وراء النفس أو الباراسيكولوجى — احساسات لا تعليل لها — علم الفراسة — انتقال الأفكار — حادث نيويورك — فى بومباى — تجارب جامعتى هارفروديوك – الادراك خارج الحواس — التلابثى – الجلاء البصرى — ما أثبتته التجارب — المعهد الأمريكى للرياضيات يؤيد — الاتحاد الامريكى لعلماء النفس يؤيد – الطاقة النفسية المحركة – اكتشاف الطاقة بطريقة سلبية – ما هى طبيعة (ط.ن.م.) – الطاقة الانسانية كحقيقة علمية مقررة .

علم ما وراء النفس ، الباراسيكولجى

والآن وقد أوشك كتابنا على نهايته ، لم يبق أمامنا بعد هذه الدراسة المستفيضة ، إلا أن نسوق آخر ما انتهت إليه تجارب علم النفس فى بعض جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ، وكيف انتهت إلى إثبات انطواء الإنسان على طاقة نفسية باستطاعتها أن تدرك الأشياء عن بعد وأن تحركها كذلك . وقد كان الإثبات هذه المرة بطرق معملية تجريبية إحصائية تخضع لمنطق الإحصاء والمعادلات الرياضية ، كأى علم طبيعى آخر . ومن الطريف أن هذه الأبحاث الأخيرة قد بدأت من نفس النقطة التى بدأ تفكيرى منها ، وهى هذه الظواهر الإنسانية البسيطة التى تعرض لكل إنسان ، فيمر عليها مرا كريما ، أو أن يفسرها تفسيرا عابرا سطحيا كأن ينسبها إلى الصدفة ، أو فعل الله المباشر إذا كان من المؤمنين الذين ينسبون إلى الله مباشرة فعل أى شىء يقع للإنسان أو منه .

لقد كانت الظواهر التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق كالدعاء والسحر

وتحضير الأرواح ، ظواهر تجمع بينها العقيدة ، بأن الله هو فاعل كل شيء فى موضوع الدعاء ، والجن هى فاعلة كل شيء فى موضوع السحر ، وأرواح الموتى هى فاعلة هذه الظواهر فى موضع تحضير الأرواح . أى أن الاعتقاد السائد عن هذه الأمور كلها ، أنها تتم بفعل قوة خارجة عن الإنسان . وإلى جوار هذه الظواهر التى افترقت حولها الآراء ، وجدت مجموعة أخرى من الظواهر ، نظرا لشيوعها ، لم تثر اهتمام الناس كثيرا ، مع أن هذه الظواهر هى مفتاح الظواهر الأكبر والتى حيرت الإنسان ، كالإيمان والسحر وتحضير الأرواح والدعاء . وقد كانت هى التى دفعتنى بالذات للقول بالطاقة الإنسانية وأنها تعمل طبقا للقانون السابق الحديث عنه فى كل ما مضى .

ظواهر شائعة

أو لم يحدث لك أيها القارىء الكريم أن فكرت فى إنسان لم تره منذ أمد طويل وفكرت لو تلقاه ، فإذا أنت تراه أمامك بعد زمن يسير فى أحد منحنيات الطريق[1] ؟ أو لم تتمن فى يوم من الأيام حضور والد أو أم أو حبيب أو صديق ، فإذا أنت تراه داخلا عليك[2] ؟

---

(١) من الحوادث المحفورة فى ذهنى بهذا الصدد ما حدث لى إبان زيارتى لمدينة بور سعيد بعد حدوث العدوان الثلاثى عليها . كنت شديد الرغبة أن أحيي إخوانى الذين جاهدوا خلال الاحتلال البريطانى فى بسالة ، ممثلين فى شخص الأخ شاكر مخلوف الذى كان يصدر جريدة سرية مع نفر من زملائه فى هذه الفترة . ولما كان ذهابى إلى بور سعيد بخصوص الحضور فى بعض القضايا ، فقد كنت مرتبطاً بأصحاب القضية الذين كانوا شديدى اللهفة على العودة إلى القاهرة بمجرد الانتهاء من نظر القضية . وبينما كنا عائدين من بور فؤاد إلى بور سعيد كان ما يشغلنى ويهمنى ، أن أرجع من بور سعيد دون أن أحقق أمنيتى فى تحية زملائى وخاصة الأخ شاكر ، ورحت أتجول على ظهر المعدية التى تنقلنا ، فإذا بى أرى شاكر مخلوف وجهاً لوجه ، ولقد كانت هذه لحظة من أسعد لحظات حياتى ، إذ أكدت لى ما ظل طول حياتى يراودنى من انطواء الإنسان على طاقة من نوع ما .

(٢) لعل من أقوى الوقائع فى هذا الصدد ما حدثنى به أخى الصادق الأمين الأستاذ كمال سعد . فقد هاجمه البوليس ذات يوم لاعتقاله خلال أيام الجهاد القديم ، وكان =

إن أمثال هذه الحوادث تعرض لكل إنسان وقد عرضت له قديما وتعرض له فى هذه الأيام ، فأما فى القديم فلم تكن تثير فى نفسه كبير غرابه كما قدمنا ، فالإيمان بالله وانطواء الإنسان على قوة روحية كان كفيلا بتفسير كل شيء .

علم الفراسة

وقد وجد منذ أقدم العصور من تصدوا لتعليل هذه الظواهر بطريقة تتصل بقوة الإنسان الذاتية . فكان أن نشأ علم الفراسة حيث يستطيع الإنسان من مجرد نظرة يلقيها على بعض أعضاء الإنسان أو أثر من آثاره ، أن يدرك الكثير عنه سواء عن أخلاقه أو عمله أو تاريخه . وقد عرف قدماء المصريين هذا العلم ، وأشار إليه بقراط قبل الميلاد بنحو أربعة قرون وكتب عنه الطبيب اليونانى جالينوس الفصول الطوال فى القرن الثانى للميلاد . وألف فيه أمير الفلاسفة أرسطو وجعله علما مستقلا . وقد نقل العرب هذا العلم عن أرسطو فيما نقلوه عنه من علوم ، وألف فيه بعضهم كتبا مستقلة كالرازى وابن رشد . ومن العرب نقل إلى أوربا فى العصور الوسطى [1] .

وتكاد الفراسة عند الشعوب الفطرية كالبدو تشبه المعجزات ، حيث يستطيع الشخص أن ينبئك بالكثير لمجرد رؤيته أثر قدم من الأقدام ، حتى

= فى ذلك الوقت يدير عزبة كبيرة قد استأجرها ولم يعرف كيف يتركها هكذا ، وليس معه مساعد أو معين، فراح يردد فى نفسه فى حسرة ولوعة لو أن أبى كان هنا الآن؟! فلم تكد هذه الأمنية تستقر فى خاطره حتى وجد أباه الذى كان يقيم فى بلد بعيد يدخل عليه ، وقد جاء من السفر على غير انتظار وعلى خلاف العادة . فلما سأله كمال عن سبب مقدمه أجاب أنه عقب صلاة الفجر قرر أن يحضر لزيارته دون أن يدرك لذلك أى سبب خاص . وهكذا تسلم الأب العزبة من ولده وذهب كمال سعد إلى معتقله أكثر ما يكون سعادة بهذا التوفيق .

(١) دائرة معارف القرن العشرين — مادة « فراسة » .

ليحدثك بأن صاحب الأثر مثلا له عين واحدة وأنه يحمل حملا معينا ، وأنه كان مضطربا وأنه مصاب فى يده وهكذا[1] . وإلى جوار هذه القدرة التى سميت بالفراسة ، كانت هناك قدرة أخرى معروفة كذلك وشائعة ومسلم بها كحقيقة مقررة ، وتلك هى القدرة على قراءة الأفكار وانتقالها من إنسان إلى إنسان . وعلى هذين النوعين من القدرة والكفاءة ، قامت فى كل زمان ومكان حرفة العرافة أو التنبؤ بالمستقبل فى صورها المختلفة ، من تنجيم ، أو مطالعة للكف ، أو فتح الرمل والودع وقراءة الفنجان ... الخ . وقد وجد المشتغلون بهذه الحرفة دائما سوقا رائجة ليس فقط بين السذج والعوام كما قد يظن البعض ، بل بين علية القوم المتعلمين والمثقفين ، ذلك أن المنجم وقارىء الطالع على أى صورة من الصور يتمتع بهذه الفراسة التى أشرنا إليها ، وعند ما يضيف إليها قدرته على قراءة الأفكار كما قدمنا ، فإنه يصبح فى حالة تجعله يدهش رواده بما يكشف لهم به عما يجرى فى عقولهم ، وما يصوره لهم بفراسته ، حول ما يتمنونه ويصبون إليه . وتفسير عمل العرافين من قديم الزمان على هذا الوجه قال به كثيرون فى كل وقت وآن ، باعتبار أن انتقال الأفكار مسألة مقررة .

انتقال الأفكار

والحق أنه لا يوجد إنسان لا يمارس من حين وآخر هذه الملكة على قدر من التفاوت بين مختلف الأشخاص . ومن الأمور المألوفة أن يهم إنسان بقول كلمة أو رأى معين فيسبقه به مخاطبه أو أحد السامعين . وقد جرى العرف الشائع على أن يقول الإنسان فى هذه الحالة لمن سبقه بالفكرة (عمرك أطول من عمرى) . وقد فسر العلم الحديث هذه الظاهرة لا على أنها انتقال فكر ولكن على أنها مجرد توارد الأفكار ، أى أن كلا من الشخصين قد

(١) مشاهداتى فى جزيرة العرب — للمؤلف — ص ٢٦٢ .

فكر بطريقة واحدة . ولكن ذلك إذا صح تفسيرا لبعض الحالات ، فهو لا يمكن أن يفسر حالات أخرى يستطيع فيها شخصان متحابان أو متفاهمان بطريقة قوية ، أن يتبادلا على البعد نظرات يفهم منها كل منهما ما يدور فى عقل الآخر على وجه القطع واليقين . فالمسألة ليست تفكيرا مشتركا ، ولكنها مطالعة ما يدور فى ذهن الآخر حيال مسألة معينة . وتزداد الظاهرة عمقاً ودلالة عندما يكون هذان الشخصان بعيدين عن بعضهما ، كما لو كانا فى بلدتين مختلفتين ومع ذلك فإن كلا منهما يتصرف كما يحب له الآخر أن يتصرف .

وقد كانت هذه الظاهرة الأخيرة هى ما استلفت الأنظار منذ القديم ، وكانت تفسر على أنها من ظواهر الروح الخفية ، حتى إذا جاء التنويم المغناطيسى عللها البعض بانتقال الأفكار بواسطة السيال المغناطيسى ، وقد رأينا كيف أنه استبعد من التنويم المغناطيسى فكرة تداخل سيال مغناطيسى ، ولذلك عمد بعض العلماء إلى دراسة ظاهرة انتقال الأفكار مستقلة عن التنويم المغناطيسى . وعلى ذلك فقد نشأ ما يسمى علمياً بالتلابثى Telepathy وهو ظاهرة انتقال الأفكار عن بعد . وفى هذا الموضوع تقول دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة « تلابثى » : إن انتقال المؤثرات من أى نوع كان من عقل إلى آخر بعيداً عن طريق الوسائل الحسية العادية هو مسألة مقررة . ويرجع الفضل فى تحديد الظاهرة الخاصة بانتقال الأفكار وإطلاق هذا الاسم عليها إلى العلامة شارل مايرس Myers ، فقد كان هو الذى أطلق عليها هذا الاسم بعد تجاربه المشهورة التى قام بها عام ١٨٨٢ ، فقد ثبت من هذه التجارب وجود أشخاص يملكون هذه الموهبة فى تفوق كبير ملحوظ ، ولكن من ناحية أخرى فقد أسقط الرأى الذى كان يقول بأن انتقال الأفكار يتم بواسطة أمواج يبعثها المخ ، سواء كانت هذه الأمواج

كهربائية أو مغناطيسية أو ما سمى فى بعض الأوقات بالأمواج المخية »[1] .

وسنرى بعد قليل كيف أن هذه المباحث هى التى تطورت فيما بعد للوصول منها إلى القول بانطواء الإنسان على الطاقة النفسية المحركة، والقوى الإنسانية الروحية بصفة عامة .

وقد كانت هذه الظواهر البسيطة هى كما قلت من قبل الحافز لى على التوفر لدراسة هذا الموضوع ، وقد حان الوقت لأذكر الحادثين المباشرين ، اللذين كانا سبباً فى لفت نظرى لهذا الموضوع بكل قوة ، فرحت أضاعف فى اهتمامى وقوة ملاحظتى ، حتى تجمعت لدى هذه المادة التى انتهت إلى هذا الكتاب .

فى مدينة نيو يورك

أما الحادث الأول فقد وقع لى فى مدينة نيويورك عام ١٩٤٧ ، وكنت قد ذهبت إليها موفداً من قبل إخوانى أعضاء مصر الفتاة لأقوم بالدعاية للقضية المصريه فى أروقة هيئة الأمم وفى الدوائر الأمريكية ، وكان من بين متطلبات هذه المهمة أن أضع كتيباً باللغة الإنجليزية بمساعدة بعض الإخوان عن تاريخ مصر بصفة عامة وتاريخ العلاقات المصرية الإنجليزية بصفة خاصة . وأحسست خلال الطبع بأن الكتاب ينقص فقرة تلخص دور مدينة الإسكندرية فى حضارة العالم وما قامت به جامعتها المشهورة من دور قيادى فى حياة العالم الروحية والثقافية . فرجوت الطابع أن يمهلنى فترة قصيرة لكى آتيه بالفقرة المطلوبة ، وأسرعت إلى دار الكتب الأهلية بنيويورك أبحث عن كتاب أمريكى مشهور لأقتبس منه هذه الفقرة . فسألت الأمين أن يدلنى على كتاب من هذا القبيل فأشار إلى الفهرس العام لما كتب عن

---

(١) دائرة المعارف البريطانية — مادة Telpathy .
Encyclopedia Britannica.

مصر ، فإذا أدراج تتضمن الألوف من الكتب ، فحرت وسط هذا الطوفان أى الكتب أختار ؟ وقد كان مجرد محاولة مطالعة أسماء هذه الكتب يحتاج إلى ساعات وساعات . وأخيراً خرجت من حيرتى بأن اخترت أربعة كتب حيثما اتفق . ورحت أنتظر مجىء هذه الكتب وأنا على أحر من الجمر ، فإذا الموظف المختص يحمل مايزيد عن عشرة مجلدات تؤلف هذه الكتب الأربعة التى طلبتها . ومرة أخرى وجدت نفسى ضائعاً وسط هذا الخضم من الكتب ، حيث يحتاج تصفح كتاب واحد منها إلى أيام ، ولما كان وقتى محدوداً جداً إذ أمهلنى الطابع فترة الغداء فقط ، فقد كدت أيأس من إمكان تحقيق هذه الرغبة ، ولكنى قبل أن أنصرف نهائياً ، رأيت أن أفتح أحد هذه الكتب حيثما اتفق ، فإذا بى أعثر على الفقرة التى أريدها لأول وهلة[1] . وطوال الطريق فى أثناء عودتى إلى المطبعة كنت مذهولا من هذا الذى حدث ، ورحت أقول بينى وبين نفسى : محال أن يكون ذلك صدفة ، لا بد أن تكون هناك علاقة بين شدة لهفتى على الحصول على هذه الفقرة وحصولى عليها بالفعل بهذه السهولة والسرعة ، وما فتئت أردد هذا القول منذ ذلك التاريخ حتى الآن ، وخاصة بعد أن تعزز بالحادث الثانى الذى وقع لى فى بومباى وهو أمعن فى الدلالة من حادث نيويورك .

فى بومباى

وقد وقع حادث بومباى عام ١٩٥٣ ، وكان الحزب الاشتراكى قد دعى للاشتراك فى مؤتمر للأحزاب الاشتراكية الإفريقية والأسيوية يعقد فى مدينة رانجون . وقد صرح لى بالسفر فى آخر لحظة ، فلم تكن هناك أى

---

(١) اسم الكتيب الذى أشير إليه

The Story of Egypt and Anglo- Egyptian Relation. By Ahmed Hussein.

والفقرة المشار إليها — ص ٣ .

فرصة للحصول من الحكومة على النقد الأجنبى الذى يصرح به فى أمثال هذه الحالات ، ولما كنت شديد الحرص على اتباع القوانين ، فقد رفضت ما عرض على من أن آخذ معى بعض الأموال بطريقة غير قانونية . وعلى ذلك فقد أوشكت أن أغادر مصر بالفعل وليس معى أى مبلغ من المال اللازم للقيام بهذه الرحلة الطويلة حتى جنوب آسيا ، وقد كان ذلك يملأنى قلقاً بطبيعة الحال . وإذا بنا نفاجأ فى اللحظة الأخيرة قبيل قيام الطائرة مباشرة بصديق هندى يسلم على ، حيث كان فى وداع بعض أصدقائه من الهنود المسافرين ، ويسألنى على غير انتظار ، هل أنت فى حاجة إلى نقود هندية ؟ فقلت له نعم ، فأسرع بكتابة خطاب لصديق له فى بومباى ، يطلب منه فيه أن يعطينى ما يساوى مائة جنيه مصرى . ووصلت الطائرة إلى بومباى فى طريقها إلى كالكوتا فرانجون ، ولم تكد الطائرة تحط رحالها حتى أسرعت أبحث عن صاحبى الذى سيقدم لى النقود الهندية ، فإذا العنوان المعطى لى هو عنوان مكتب الرجل وقد كان مغلقاً بسبب عطلة الأحد ولم يكن هناك من يعرف منزله ، وهكذا وجدت نفسى من جديد وقد سد فى وجهى هذا الأمل الذى كان قد انفتح لى ، وقلت فى نفسى يجب أن أعثر على هذا الرجل ، يجب أن أعثر عليه ، فكيف أذهب إلى رانجون خالى الوفاض؟وكان العثور على الرجل الذى لا نعرف عنوان بيته وسط ملايين مدينة بومباى ، أشبه الأشياء بالبحث عن إبرة فى جوف المحيط . ولقد رويت القصة بتفصيل لا أستطيع أن أعود إليه الآن [1] وذلك فى كتابى (يقظة العملاق) الذى فصلت فيه أنباء هذه الرحلة ، وكيف أننى وقفت فى أكبر ميادين بومباى والألوف من البشر يتدفقون من حولى ، فإذا عابر سبيل يلمح حيرتى فيسألنى عما أبحث عنه فأقول له : إننى أبحث عن شخص يدعى

---

(١) انظر كتاب يقظة العملاق — للمؤلف .

(م . س مهتا) فسألنى بكل بساطة عن عنوانه ، فلما قلت له لا أعرف عنوانه ، نظر إلى نظرة أدركت على الفور معناها وأننى جدير بها ، فها هو ذا إنسان قد جاء من مصر ليبحث عن رجل فى بومباى لا يعرف إلا اسمه ، بل بالأحرى الحروف الأولى من اسمه . ولـكن فى الوقت الذى كان الرجل فيه يقاوم سخريته بى ، كانت هذه الحروف التى نطقت بها قد قرعت سمع واحد من عابرى السبيل فاستوقفته ، وسأل محدثى عما أريده من هذا الاسم الذى لفظته ، فقال له إننى أبحث عنه ، فقال إنه يعرف الرجل ويستطيع أن يقودنى إليه ، ولم أتصور إلا أن هذا الرجل قد اكتشف أننى أجنبى ، فقرر أن يستدرجنى إلى مكان ما ، ظناً منه أننى أحمل فى جيبى نقوداً طائلة ، فقد كان يستحيل على تصورى أنه من بين هذه الملايين التى تعج بها المدينة من حولى قد ساق لى القدر ، ربما ، الشخص الوحيد الذى يعرف بيته . ومع ذلك فلم يكن بوسعى أن أغفل هذه الفرصة التى سنحت لى ، فتوكلت على الله وسرت خلف الرجل ، وأنا أرتجف من الخوف وأحدث نفسى فى كل لحظة أن أبادر بالهرب ، ثم أراجع نفسى وأمضى فى السير ، وعبثاً أقص التفاصيل لهذا الحادث المثير ، فقد راحت الموافقات العجيبة واحدة بعد أخرى تعمل بطريقة لا تـكاد تصدق ، والمهم أننى لم أبرح مدينة بومباى فى منتصف الليل بالطائرة إلى كالـكوتا ، حتى كنت قد قابلت (م . س مهتا) والذى حدثنى أنه كان غائباً عن بومباى ، ولم يكن مقدراً له أن يعود فى ذلك الوقت ، وعند ما عرف ما أريد أظهر استعداده لتقديم المبلغ المطلوب صباح اليوم التالى عند فتح البنك . وعند ما أعلمته أننى سأغادر البلد قبل الصباح ، أظهر شديد أسفه ألا يكون بقدرته أن يقدم لى هذه الخدمة فى هذه اللحظة ، ووعد بإرسال المبلغ إلى رانجون ، فقلت له ، ولـكن لا بد لى من الحصول عليه قبل سفرى إلى رانجون ، فأبدى تعذر تحقيق ذلك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، والفرصة القليلة التى لا تزال باقية قبل قيام

الطائرة . وبينما نحن فى الحديث إذ جاءه صديق يسلم عليه ، فحدثه عن موضوعى فإذا بهذا الصديق يحمل المبلغ معه ، فقدمه له على أن يأخذه منه فى الصباح . وهكذا غادرت بومباى إلى رانجون وأنا أكاد أطير من الفرح بلا طائرة لهذا الذى جرى وتم . ومنذ ذلك التاريخ وأنا دائم السؤال بأى قوة عثرت على الرجل فى بومباى ، كما عثرت على الفقرة المطلوبة فى نيويورك ؟

أما أصدقائى ومعارفى الذين طالعوا كتابى عام ١٩٥٣ وفيه تفاصيل هذه القصة ، فقد انقسموا فريقين فى تفسيره ، فالمؤمنون قد رأوا فى ذلك توفيق الله وأثره المباشر فى عثورى على الرجل ، لإخراجى من المأزق الحرج الذى كنت فيه ، أما الفريق الآخر فقد راح يردد الكلمة المألوفة أو المشجب التى نعلق عليها كل ما نعجز عن تفسيره وتأويله ، وأعنى بها كلمة الصدفة ، الصدفة المدهشة الرائعة . ولقد قلت من قبل إننى لست ممن يقولون بأن الله يتصرف بالقطاعى وحسب الحاجة ، وإنما هو يتصرف من خلال القوانين الثابتة فى كل زمان ومكان ، والتى يستطيع أن يستعملها أى إنسان أيا كانت درجة إيمانه بالله أو عطف الله عليه . كما أن كلمة الصدفة أصبحت غير سائغة ولا مقبولة ، وخصوصاً بعد أن ثبت أن ما كان يتصور أنه يتم بمحض الصدفة أو خبط عشواء ، قد ظهر أنه ليس كذلك وأصبح للاحتمالات قانون ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل . قد يكون من الصدفة أن أقابل صديقى الهندى فى مطار القاهرة ، ولكن أمن الصدفة أيضاً أن يبادر فى أن يعرض علىّ نقوداً ليقرضنى إياها ؟ وهل من الصدفة أن أعثر على رجل من خلال بضعة ملايين فى بضع ساعات ؟ وهل من الصدفة أن يعود الرجل على غير مألوف عادته إلى بومباى ؟ وهل من الصدفة أن يقابل فى اللحظة الأخيرة من يقدم له المال الذى أريد ؟ إن قانون الاحتمالات يقول إنه إذا جاز تصور أحد هذه الحوادث على أنها مصادفة ، فإن التقاءها على هذه الصورة ، يجعل فرصة

الاحتمال فيها واحداً على رقم قد لا يكفى هذا الكتاب كله لتسجيله .

لا ، ليست هذه صدفة ، وإنما مسائل تجرى وفق قوانين ثابتة ومعينة . وهكذا بدأت دراستى ورحت أسترجع هذه الحوادث التى مرت فى حياتى ، والتى أشرت إلى بعضها ولم أشأ أن أشير إلى الكثير منها لاعتبارات مختلفة ، ثم مددت دراساتى إلى معارفى ومن يحيطون بى ، ورحت أطالع كل ما قيل فى هذا السبيل . فكانت هذه المباحث التى عرضتها فيما سبق . ولم أكن أدرى بعد أن وصلت إلى هذه الدرجة من الدراسة ، أن أساتذة جامعيين فى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد سبقونى إلى إثبات هذه الظواهر الإنسانية بطريقة تجريبية معملية ، أى تخضع للقياس والإحصاء والحقائق الرياضية . بل إن بعض هذه التجارب قد أجريت تحت إشراف عالم النفس الكبير مكدوجل ، والذى أشرف على المباحث التى أجرتها جامعة هارفورد ، وأن هذه المباحث قد حفزت جامعة أخرى للتخصص فى هذا النوع من الأبحاث وهى جامعة ديوك الأمريكية ، والتى تشتغل فى هذه التجارب منذ عشرين سنة . حقاً لقد صادفتنى إشارات عابرة عن هذه الجهود فى بعض الكتب التى طالعتها[1] ، ولكننى لم أفهم من هذه الإشارات ضخامة الجهد الذى بذل ، ولا عمق الاكتشافات التى أمكن التوصل إلى إثباتها ، حتى كان كتاب العقل وسطوته ، وهو الكتاب الذى ألفه الدكتور راين الذى قام بهذه المباحث ، ولخص فى هذا الكتاب النتائج التى أمكن التوصل إليها ، والذى تفضل الدكتور الحلوجى مشكوراً فترجمه .

---

(١) أشار إلى هذه المباحث وخطورة نتائجها الكسيس كاريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » كما أشار إليها « جوليان هكسلى » فى كتابه « الإنسان فى العالم الحديث » وتحدثت عنها دائرة معارف أمريكا .

وقد قامت تجارب جامعة ديوك المضنية ، حول إثبات ما أطلقوا عليه تعبير « الإدراك خارج الحواس » وهو التعبير الشامل لظاهرات الجلاء البصرى والتلابثى والتنبؤ بالمستقبل ، ثم امتدت التجارب بعد ذلك لإثبات (٠ ط ٠ ن ٠ م) والفكرة الأساسية التى قامت عليها هذه التجارب ،كانت هى التوصل من خلال اختبارات بسيطة وظروف لا تعقيد فيها ، لإثبات بعض الظواهر التى توصف بأنها روحية ، وذلك بغير حاجة إلى هذا الإظلام التام الذى يسود جلسات تحضير الأرواح . إن أى نتيجة تحدث فى الظلام ، تبقى دائماً مشكوكا فيها ، وكثيراً ما يتكشف غش الوسطاء ، فيدعو ذلك للتساؤل عما إذا كانت التجارب السابقة التى لم يكتشف فيها غش الوسطاء ، كانت الرقابة فيها غير محكمة ، وبذلك يسقط الدليل المستفاد منها .[1] ولذلك فقد بحثوا عن تجربة يمكن إجراؤها فى وضح النهار ، وتطبق على جميع الأشخاص لا على طائفة خاصة أو محدودة ممن يطلق عليهم اسم الوسطاء ، وأن تكون بحيث يمكن قياس نتائجها بالطرق الإحصائية . وقد اعتبرت هذه الشروط كلها متوفرة فى طريقة التعرف على أوراق الكوتشينة عن بعد ، كوسيلة لاختبار الجلاء البصرى أولا ، والتلابثى ثانيا . وقد بسطت الكوتشينة سواء من حيث العدد أو الصور المستعملة، وذلك لضبط العملية وقيدها ومراجعتها وحساب الاحتمالات الرياضية . فقصر عدد أوراق الكوتشينة على ٢٥ قسمت إلى خمس مجموعات تحمل كل منها صورة (نجمة – مستطيل – صليب – دائرة – خطوط متموجة) وأطلق على هذه الكوتشينة اسم « كارتات خارج الحواس » . وبدأت التجارب فى بادىء الأمر بداية بسيطة ، فكانت الكروت تعرض على الوسطاء ويشرح لهم

---

(١) العقل وسطوته — ١٠١ .

الغرض من التجارب ، ثم توضع وجوه الكارتات إلى أسفل على المائدة أمام الوسيط ، وكان على الوسيط أن يتعرف على الكارت الأعلى ، وحينما يذكر الشكل الذى يراه يكتب المجرب الذى كان يجلس أمام الوسيط الإجابة على ورقة ، ثم يسحب الكارت الثانى ويتعرف عليه وهكذا ، حتى تنتهى جميع الكروت . ثم تراجع الكروت فى المجموعة على الأجوبة المسجلة ، لمعرفة مقدار النتائج الناجحة ، وكان التشجيع يقدم للوسيط ما أمكن ثم تفنط الكوتشينة وتعاد التجربة . وطبقا لقوانين الحظ ، فإن الأجوبة الصحيحة تبلغ فى المتوسط خمسة فى كل خمسة وعشرين. فإذا أصاب الوسيط نجاحا أكبر من ذلك ، فإن الأجوبة الناجحة تسجل بواسطة مسطرة خاصة اسمها « الانحراف المعيارى » وهذه المسطرة التى كانت كثيرة الاستعمال قبل ذلك فى كثير من العلوم ، كانت تدل على النتائج الزائدة عن الحظ وحده .

وعلى هذه الوتيرة مضت التجارب عشرات ومئات بل وألوف المرات ، والاحتياطات تزداد شدة يوما بعد آخر ، فبعد أن كان الوسيط يجلس بحيث يرى المجرب ، أصبح يجلس بحيث لا يراه ، إذ كان المجرب يجلس خلف ستار . وفى بعض التجارب جلس كل من الوسيط والمجرب فى حجرتين مختلفتين . وأخيراً وصل الأمر فى التجارب إلى حد جلوس كل من المجرب والوسيط فى بنائين مختلفين ، ظلا يتباعدان حتى وصل البعد بينهما فى بعض التجارب مئات الكيلو مترات .

وفى عام ١٩٣٤ نشر أول تقرير علمى عن هذه التجارب ، وكان أبرز ما تحتويه هذه التجارب هو استطاعة رجل أن يحصل على متوسط ٨ إجابات صحيحة فى كل ٢٥ كارتا ، أى بزيادة ٣ كروت عن المتوسط المتوقع فى كل كوتشينة وذلك خلال ٧٠٠ دورة . وقانون الحظ والاحتمالات ينص على احتمال أن يصل الإنسان فى حالة من مائة حالة ، إلى أن يصيب ٨ إصابات

صحيحة من ٢٥ لمدة ثلاث مرات متوالية . أما حصول إنسان على هذا القدر من الإصابات ٧٠٠ مرة ، فيقتضى عدداً من الأرقام يستغرق هذه الصفحة كلها . ولذلك اعتبرت الإصابات التى حققها هذا الشخص وحده لها من المغزى ، ما من شأنه إخراج الحظ من الموضوع إطلاقا . وقد كان المتوسط العام لكل ما أجرى من التجارب وعددها ٨٥ ألف كوتشينة ، هو ٧ نقط فى كل كوتشينة أى من ٢٥ كارتا . وقد اعتبر الحصول على هذا المتوسط فى مجموعة كبيرة من التجارب حدثا معجزاً فى الدلالة على الإدراك خارج الحواس . وقد حدث خلال هذه التجارب أن تمكن بعض الأشخاص من الحصول على ٩ إجابات صحيحة متتالية ، ثم استطاع فى تجربة أخرى أن يحرز ١٥ إصابة صحيحة متتالية ، واستطاع شخص أن يحرز ٢٥ إصابة صحيحة أى كتشينة كاملة .

يقول الدكتور راين تعليقا على هذه النتائج « ولقد كانت هذه النتائج الرائعة (٢٥ من ٢٥) نادرة ، ولكنها حين وقعت أزالت كل شك من إمكان انطباق أى نظرية للحظ عليها . وكانت نسبة أكبر نجاح اشتمل عليها تقرير فى كل تاريخ الباراسيكولوجى ، هى تلك التى أجريت بمعرفة الأستاذ ت . ن . رايس أستاذ علم النفس بجامعة هنتر بنيويورك ، وكان الوسيط الممتاز بنتا اشتهر عنها أنها روحية وغير محترفة . وقد أجريت التجارب فى ظروف مواتية ، وكان المرسل والمستقبل فى بناءين مستقلين ، وقد اعتمد على ساعات متوافقة فى الضبط ، وقام الدكتور رايس نفسه كمحطة إرسال مستعيناً بكوتشينة (١٠ خ١٠) ومؤديا محاولة واحدة فى كل دقيقة . وتحت هذه الظروف أمكن للوسيطة أن تحصل على ١٨ نقطة من ٢٥ خلال سلسلة ٧٤ تجربة . وفى إحدى الحلقات وصلت نسبة الإصابة إلى ٢٥ من ٢٥ ، كما أن عدداً آخر منها كان مستواه أعلى من ٢٠ فى كل ٢٥ [١]

---

(١) العقل وسطوته — ٥٠ .

وقد حدث عند ما نشرت تقارير هذه التجارب فى المجلات العلمية ، أن ثارت فى وجهها الاعتراضات والانتقادات ، على أساس الناحية الإحصائية الرياضية ، فما قيل بأنه متوسط الحظ فليس كذلك ، وعلى ذلك تنهار النظرية من أساسها ، ويكون ما حدث هو نتيجة الصدفة البحتة . فقام فريق من أعلام الرياضة فى أمريكا يؤيدون صحة الأسس الرياضية والإحصائية التى استندت عليها تجارب جامعة ديوك ، وظل الأمر محل أخذ ورد حتى كان ديسمبر عام ١٩٣٧ ، وهو تاريخ انعقاد المؤتمر السنوى للمعهد الأمريكى للرياضيات الإحصائية فى مدينة اندياناپوليس ، وقد أصدر هذا المؤتمر تصريحاً للصحافة عززه المعهد بصفة رسمية ، وهذا هو نص هذا التصريح « إن أبحاث الدكتور راين لها مظهران ، مظهر تجريبى ومظهر إحصائى ، فمن الناحية التجريبية فليس لدى علماء الرياضة ما يقولونه بالطبع ، أما من الناحية الإحصائية فإن الأبحاث الرياضية الحديثة قد أثبتت الحقيقة أنه مع افتراض صحة الطريقة التى أجريت بها التجارب ، فإن التحليل الإحصائى لها صحيح وثابت ، وإذا كان هناك عدالة فى نقد أبحاث الدكتور راين ، فيجب أن توجه إلى النواحى الأخرى غير النواحى الرياضية [1] .

تأييد الاتحاد الامريكى لعلماء النفس

وكان من أثر هذا التصريح أن تلاشى الهجوم على التجارب من الناحية الرياضية الإحصائية ، وظل يلوذ بالنواحى الأخرى من التجارب . وعلى ذلك فقد رؤى أن يدعى الاتحاد الأمريكى لعلماء النفس إلى مؤتمر مائدة مستديرة ، لمناقشة طريقة التجارب التى سارت فيها (ا . خ . ا) فعقد لذلك اجتماع فى كولمبس بأوهيو فى سبتمبر عام ١٩٣٨ ، ونظم الاجتماع بحيث يقوم ثلاثة ممن يمثلون أبحاث (ا . خ . ا) بعرض أبحاث قصيرة على طريقة

(١) المصدر السابق — ص ١٨٥ .

المناظرة ، ثم يعقب ذلك مناقشة مفتوحة للجميع . ولم تكد المناقشات تنتهى وينفض الاجتماع ، حتى كانت أصوات النقد كلها قد خفتت وأصبح للمعترف به فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أن هذا الاجتماع كان هو نقطة تحول كبرى فى اعتراف العلم الحديث بأبحاث الإدراك خارج الحواس .

الطاقة النفسية المحركة (ط . ن . م)

وكما كان حادث عثورى على الرجل الهندى فى بومباى ، هو الحافز لى على بدء هذه الدراسة التى خرجت منها بالاعتقاد بأن الإنسان هو مولد الطاقة التى تحقق إرادته وموضوع عقيدته ، فكذلك كان شأن هذه المباحث الأولية فى جامعة ديوك ، إذ تطوروا منها إلى محاولة إثبات الطاقة الإنسانية القادرة على التحريك والتأثير على البيئة . فانتهت التجارب التى استخدمت لتحقيق هذا الغرض ، إلى إثبات وجود هذه الطاقة بالفعل؛ وفى ذلك يقول الدكتور راين « الطاقة النفسية المحركة أو البارا كنزيس ، هى كلمة جديدة لتعبر عن فكرة قديمة ، وإنا لنجدها فى معاجم اللغة بمعنى « فعل العقل فى الجهاز المادى » والاعتقاد بوجود هذه القدرة للعقل وخصوصا فيما يتعلق بصلتها بالجسد ، ربما كان قديما قدم التفرقة بين العقل والجسد . وهى من تلك الأفكار المعروفة من بين المدركات التى نسلم بها ولا نلحظها فى حياتنا الفكرية . فمن الواضح إذن أن يكون هناك نوع من الطاقة الروحية المحركة فى كل مرة يثير فيها تفكيرنا النشاط العصبى العضلى إذا افترضنا أن تفكيرنا يفعل ذلك ، فهذا الأثر النفسى المادى يحدث بوضوح تغييرات كهربائية وأخرى مادية فى المخ ، فتبدأ سلسلة من التفاعلات المادية فى أعصاب الجسم وعضلاته .» [1]

وقامت تجارب (ط . ن . م) على النرد (الزهر الخاص بالطاولة) باعتباره الوسيلة التى تتوفر فيها كل الشروط المطلوبة ، من حيث البساطة

(١) المرجع السابق — ص ٩٥ .

وإمكان استخدامها على نطاق واسع بطريقة معملية ، وتكرارها ألوف المرات بعد إحاطتها بالضمانات المطلوبة ، ثم استخلاص النتائج الإحصائية الرياضية .

وقد كان اختيار النرد كوسيلة لاكتشاف (ط ٠ ن ٠ م) اختيارا موفقا ، فكثير من الأشخاص يعتقدون أن لديهم القدرة على التأثير فى الزهر والحصول على الرقم الذى يريدونه فى أثناء اللعب . وجعلت دورة رمى الزهر هى ٢٤ للزهر الواحد ، فإذا كانا زوجين تكون الدورة ١٢ فقط ، فإذا كانوا ثلاثة تكون الدورة ٨ مرات ، ومعدل الحظ أو الصدفة هو ٥ مرات فى كل دورة . ومع استمرار التجارب كانت الاحتياطات والضمانات تزداد باستمرار لإخراج أى عنصر مؤثر خلاف الطاقة النفسية . فصنعت أحجار الزهر من مواد مختلفة وأحجام متفرقة ، وعهد بقذفها إلى إحدى الآلات حتى لا تتدخل اليد أو الأصابع . وعلى هذه الوتيرة مضت مئات من الدورات التى تولاها وسطاء مختلفون . ولقد استمرت هذه التجارب أربعة عشر عاما . وقد كان متوسط النجاح فى البداية أعلى من متوسط الحظ زيادة طفيفة ، ولم تكن هناك متوسطات مرتفعة بشكل ملحوظ ، ولم يحدث فى كل تجاربنا ما يعادل الارتفاع فى (١ ٠ خ ١ ٠) ولم يحدث خلال تجارب الأربعة عشر عاما حالة حدث فيها نجاح كلى كما كان يحدث فى (ا . خ . ا) واستعملت نفس الأساليب الإحصائية المعتمدة بموافقة السلطات الرياضية المختصة فى رياضيات الصدفة والاحتمالات .

اكتشاف الطاقة بطريقة سلبية

وقد كشفت تجارب (ط ٠ ن ٠ م) عن وجودها بطريقة سلبية ، بمعنى أن الدورات الأولى فى التجارب ، كانت تبدأ دائماً فوق معدل الصدفة ثم تظل هذه المعادلات تتناقص وتتناقص . وقد لوحظ أن هذا الانخفاض يتم بطريقة منتظمة فى جميع التجارب التى أجريت ، سواء فى جامعة ديوك أو فى غيرها من الجامعات التى أجريت فيها هذه التجارب . فكان هذا

التطابق غير العادى والانتظام المستمر فى هبوط النتائج، هو الدليل الذى اتخذ على وجود هذه الطاقة النفسية، وأنها تكون أعظم ماتكون ارتفاعا عند بدء أى تجربة، ثم تروح تتناقص بالتدريج مع استمرار التجربة[1]، فقد أكد علماء الرياضة أنه من المحال أن يكون هذا الانخفاض المستمر المنظم من عمل الصدفة.

وفى عام ١٩٤٣ نشر تقرير جامعة ديوك عن (ط . ن . م .) وعرض هذه التجارب التى استغرقت بضع سنوات وختم التقرير بالنتيجة الآتية : « وإذن فإن العقل قوة يستطيع بها أن يؤثر فى المادة، ومهما كانت (ط . ن . م) وأيا كان نشاطها، فإنها تعمل للمادة شيئا يستطاع قياسه إحصائيا — وهى تحدث نتائج فى البيئة المادية لا يمكن تعليلها بأى عامل، أو نوع من الطاقة معروف لعلم الطبيعة . وعلى أى حال فلا بد من وجود طاقة يمكن تحويلها إلى نشاط مادى، هذه الطاقة هى الطاقة العقلية »[2]

وهكذا لم يعد موضوع الطاقة الإنسانية مسألة نظريات أو فروض، بل أصبحت حقيقة واقعة تنشر عنها الأبحاث العلمية الدقيقة، وتؤيد بقوانين الرياضة والإحصاء[3] .

---

(١) ليس هناك ما يفسر هذا الهبوط المستمر فى تجارب (ط . ن . م) إلا نظريتنا فى الطاقة الإنسانية وما تقوم عليه من عنصر الاعتقاد والتصور . فإن التجارب تبدأ دائماً من نقطة إلى الاعتقاد أقرب سواء فى نفس المجرب أو الوسيط، ومع استمرار هذه التجارب بدون نجاح يذكر يجعل الشك يتسرب إلى العقيدة فيكون الهبوط، والهبوط يؤدى إلى هبوط جديد وهكذا حتى يحل الاقتناع بالفشل محل الاعتقاد بالنجاح، فإذا النتائج تتحول إلى سلبية بحتة حتى لتهبط إلى دون معدل الحظ . (راجع تفاصيل هذه التجارب فى كتاب العقل وسطوته) .

(٢) المرجع السابق — ص ١٢١ .

(٣) أهدى المؤلف عقب صدور كتاب الطاقة الإنسانية نسخة منه إلى الدكتور راين بجامعة ديوك بالولايات المتحدة الأمريكية فتفضل الدكتور راين فأهدى المؤلف بدوره الكتاب الرسمى الخاص بأبحاث الإدراك خارج الحواس، والطاقة النفسية المحركة، وهو يتضمن جميع النتائج التى توصلوا إلى إثباتها والطرق والوسائل والضوابط اللازمة لإجراء التجارب المماثلة واسم الكتاب .

Parapsychology
Frontier Science of the Mind

ما هي طبيعة . ط . ن . م ؟

والسؤال الآن ماهى طبيعة هذه الطاقة الإنسانية المحركة ، وهذا الإدراك خارج الحواس ؟

يجيب الدكتور راين كما رأينا أنها من طبيعة تخالف طبيعة المادة ، وأن القوانين التى تحكمها قوانين تغاير قوانين المادة . وليس هنـاك ما يمنع أن يكون الأمر كذلك ، ولكن الحجج التى ساقها الدكتور راين لذلك لا تؤدى فى رأينا لهذه النتيجة .

فهو يقول إن (ا . خ . ا) أى الإدراك خارج الحواس لابد أن تكون طاقة غير مادية ، لأنها لا تخضع لقوانين المادة المقررة كتناسب الطاقة تناسباً عكسياً مع مربع المسافة . فقد ثبت عنده أن نسبة الإصابة فى الجلاء البصرى والتلابثى ، قد تزيد بازدياد المسافة وقد تهبط مع تقصير المسافة . وكذلك الحال بالنسبة لـ (ط . ن . م) فهى لا يمكن أن تكون طاقة مادية ، لأنها تخرج على قوانين المادة خروجاً يمس فى الصميم العلاقات المادية والأسس التى يقوم عليها علم الميكانيكا ، فلا الكتلة ولا العدد ولا الشكل ، بالذى يؤثر على اختبارات (ط . ن . م) .

والحق أن الانسان ليلحظ فى حالة الدكتور راين ، ما يلحظه بالنسبة لكل من يعتقد أمراً من الأمور ، إذ يرى المسائل من وجهة نظر عقيدته (وما أبرئ نفسى من ذلك) وواضح أن الدكتور راين من المؤمنين بالروح ، وأنها شيء يختلف عن المادة ، ولذلك فهو يفسر الظواهر بما يؤكد هذه الفكرة .

وفى رأينا أنه لا محل للتحدث إطلاقاً عن تغير المسافات فى هذه التجارب أو تغير الأحجام والأوزان ، وهل كان لها تأثير فى نتائج الطاقة أم لا ، فإن أبسط قواعد التجريب العملى هو المحافظة على وحدة العناصر فى كل تجربة ،

باستثناء عنصر واحد هو الذى نغيره ، ومن هنا نستطيع أن نوجد العلاقة بين هذا العنصر الواحد الذى تغير وبين النتائج . ولا شك فى أن ذلك كان متعذر التحقيق فى كل التجارب التى قام بها الدكتور راين ، فقد قرر هو نفسه فى صفحة (١٢٤) أن الوسطاء كانوا ينفرون من الزهر المفرد بينما يقبلون بحماسة على الزهر المزدوج . ومعنى هذا أن الكتلة هنا إذا كانت تغيرت ، فقد تغير فى نفس الوقت العامل النفسى ، ومن ثم فلم يعد باستطاعتنا أن نقرر أن التغير فى الكتلة لم يكن له أى تأثير فى النتائج ، لأننا لا نعرف أى العاملين أقوى من الآخر عامل ازدواج الكتلة ، أم عامل ازدياد النشاط النفسى . وقد اعترف الدكتور راين نفسه بأن « قوانين الاهتمام والحماسة وليست قوانين الحركة. هي التى كانت تقرر مستوى الإصابات »[1] فالاستنتاج إذن بأن (ط . ن. م) ليست مادة لأنها لا تخضع للقوانين الخاصة بالتربيع العكسى والحجم والعدد ، هو استنتاج غير سائغ لأنه قد بنى على أن قوانين الاهتمام والحماسة ليست من نوع القوانين المادية ، وهى بذاتها المسألة المطلوب إثباتها ، فلماذا لا يكون الاهتمام والحماسة هما مظهر طاقة مادية من نوع ما ؟

ونحن وإن كنا لا نستبعد أن تكون الطاقة الإنسانية من نوع يغاير الطاقة المادية ، فنحن مع ذلك ممن أصبحوا يرون أن شقة الخلاف بين ما هو مادى وغير مادى قد أصبحت غير ذات موضوع ، بعد أن أكد لنا العلم الحديث أن المادة لم تعد هذا الشىء المحسوس أو الملموس لنا ولآلاتنا ، بل إن من المادة ما عجزنا حتى الآن أن ندركه بأدق آلة من آلاتنا ، وبعد أن أصبح يقال إن الطاقة مادة ، والإشعاع مادة ، بل والنور مادة تتألف من فوتونات ، تنجذب ويمكن أن توزن ، فلست أرى أى أهمية أو ضرورة للقول بثنائية الكون لإمكان تفسير ما فيه من ظواهر ، ولعله من الأدق أن

---

(١) المرجع السابق — ص ١٢٥ .

يقال إن هذه الطاقة أو تلك تخالف الطاقات المعروفة حتى الآن ، وتعمل بقوانين تخالف القوانين التي نعرفها حتى الآن ، ولكن ذلك لا يعني بحال ، أنها طاقة من طبيعة تضاد طبيعة المادة أو تقف منها على طرفي نقيض[1].

الطاقة الانسانية حقيقة مقررة

على أنه مهما يكن القول في طبيعة الطاقة الإنسانية ، فهذا ما يترك للأيام والأجيال أن تكشف عنه ، أما الآن فحسبنا أن نقرر أن انطواء الإنسان على هذه الطاقة مسألة لا ينبغي أن تثير أي جدل ، ونقصد بالطاقة الإنسانية هذه القوة التي نقول عنها إنها لا يحدها حد ، والتي تحقق للإنسان موضوع إرادته وعقيدته .

ومن الواضح أن هذه التجارب التي قامت بها جامعات أمريكا ليست سوى البداية ، وإني لأرجو أن يكون كتابي هذا حافزا لمزيد من التجارب بالأسلوب الذي اتبعته جامعة ديوك ، أو بغيره من الأساليب التي قد تكون أصح[2]، وإني لأرجو أن تذهب التجارب إلى ما وراء إثبات وجود هذه الطاقة ، فإن البشر يزاولون هذه الطاقة بالفعل وسيظلون يزاولونها ، والمهم الآن هو أن تقاس هذه الطاقة بطريقة ما ، تمهيداً لإثبات هذا القانون الذي يحكم هذه الطاقة وهو ما نقول به وما سنحاول أن نضعه في صيغته النهائية في الفصل القادم .

---

(١) حياة الروح في ضوء العلم — ادموند.و.سينوت — ترجمة إسماعيل مظهر .

(٢) علم المؤلف من اتصاله بالدكتور راين أنه أرسل لقسم الفلسفة وعلم النفس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، كل الأدوات والجداول والبيانات التي تمكن القسم من اجراء تجارب الأدراك خارج الحواس والطاقة النفسية المحركة وأظهر استعداده لتقديم كل التسهيلات والمعونات ، ولكن قسم الفلسفة وعلم النفس بكلية آداب جامعة القاهرة ، لم يشرع في هذه التجارب حتى الآن .

مراجع خاصة

بالفصلين الثامن والتاسع

٩٩ — فنون السحر — الأستاذ أحمد الشنتناوى — (من سلسلة اقرأ) .

١٠٠ — غاية الحكيم — لمسلمة بن أحمد المجريطى الأندلسى .
(مخطوط بدار الكتب المصرية) .

١٠١ — قضية التحريض على حرق مدينة القاهرة — للمؤلف .

١٠٢ — فى ظلال المشنقة — للمؤلف .

١٠٣ — فى البدء كان الكلمة — الأستاذ خالد محمد خالد .

١٠٤ — مجلة علم النفس — المجلد السادس العدد الأول — السحر فى ضوء علم النفس — للأستاذ نجيب يوسف بلدى .

١٠٥ — العالم غير المنظور — على عبد الجليل راضى .

١٠٦ — مشاهداتى فى جمعيات لندن الروحية — على عبد الجليل راضى .

١٠٧ — ثلاثون سنة بين الموتى — كارل . ا . ويكلاند — ترجمة على عبد الجليل راضى .

١٠٨ — على حافة العالم الأثيرى — ج . أرثر فندلاى — ترجمة أحمد فهمى أبو الخير .

١٠٩ — هو دينى الوسيط الروحى المتساحر — أحمد فهمى أبو الخير .

١١٠ — السيكولوجيا والروح — أحمد فهمى أبو الخير .

١١١ — عالم الروح — مجلة العلم الروحى الحديث — لصاحبها أحمد فهمى أبو الخير — مجموعة السنة الأولى ١٩٤٨ .

١١٢ — جبروت العقل — جلبرت هايت — ترجمة فؤاد صروف .

١١٣ — العقل وسطوته — الدكتور ج . ب . راين — ترجمة محمد الحلوجى.

١١٤ — حياة الروح فى ضوء العلم — ادموند . سينوت — ترجمة وتقديم إسماعيل مظهر .

١١٥ — فى عالم الفلسفة — الدكتور أحمد الأهوانى .

مراجع سبقت الإشارة إليها

— القرآن الـكريم .

— التاج الجامع للأصول .

— إحياء علوم الدين .

— مقدمة ابن خلدون .

— تاريخ مصر القديمة — بريستد .

— قصة الحضارة .

— من نافذة العقل .

— أساطين العلم .

— دائرة معارف القرن العشرين .

— دائر المعارف البريطانية .

— دائرة المعارف الأمريكية .

الفصل العاشر

قانون الطاقة الإنسانية (ق . ط . ا)

القوانين العلمية للاستقراء الناقص — قوائم الحضور والغيبة — التلازم فى الوقوع والتخلف — الصورة الذهنية — الأسباب المؤدية الى وضوح الصورة وشدة التركيز عليها — كيف تتحقق الأهداف والغايات — ما هية الطاقة الانسانية — قانون الطاقة واستثناءاته — القانون يعمل طرداً وعكساً — الانسان مستودع الطاقات كلها — الطاقة النووية — كيف يطلق الانسان الطاقات ؟ هل الآلات ضرورية لاستخدام الانسان الطاقة — ضخامة الآلة مظهر عجز الانسان — التناسب العكسى بين تطور الآلة وقوى الانسان الذاتية — تناقص قوى الانسان الذهنية — انطواء الجسم البشرى على كل الآلات — الانسان بذرة الكون .

أى هدف إنسانى × درجة ضرورته = وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز = طاقة تحقق الهدف فى الخارج — عند غياب الظروف المعاكسة

تلخيص وتحليل

كان سبيلنا فى الفصول الأربعة السابقة ونحن ندرس الإرادة وعملها ، والعقيدة وتأثيرها ، وصور العقيدة المختلفة ، كالتنويم المغناطيسى والدعاء والسحر وتحضير الأروح والتلابثى والجلاء البصرى ، أن نفحص هذه الظواهر كلها ، ونكشف عن الظروف والملابسات التى تحيط بها ، والشروط التى أجمع كل المشتغلين بها على وجوب توفيرها ، وذلك تمهيدا لاستخلاص نظرية عامة ، تصلح لتفسير هذه الظواهر كلها وتربط بينها برباط واحد ، من شأنه أن يحول النظرية إلى قانون علمى بعد مزيد من التجارب والاختبارات . وأحسب أنه صار فى مقدورنا أن نصوغ هذه النظرية أو ذلك

القانون ، الذى لا شك فى أن القارىء نفسه قد أدركه لكثرة ما كررناه ، ومن حسن الحظ أن القوانين العلمية لا تزعم لنفسها ثباتا مطلقا من نوع ثبات القوانين الرياضية أو المنطقية[١] .

ذلك أن الرأى مستقر على أن القوانين العلمية لا يمكن أن تقوم على الاستقراء الكامل ، وإنما يكتفى فيها بالاستقراء الناقص ، وهو ما تتم فيه ملاحظة بعض النماذج وتعميم الحكم بعد ذلك على بقية الأفراد فى كل زمان ومكان ، وذلك لاستحالة ملاحظة كل فرد من أفراد الظاهرة .

فالقوانين الطبيعية لا يمكن أن تكون يقينية بطبيعتها ، بل هى إلى حد كبير احتمالية ترجيحية ، بمعنى أنها تظل صادقة مالم يثبت بطلانها . وليس أمام العلم من سبيل غير ذلك[٢] .

وقد رأينا مصداق ذلك فى تغير القوانين العلمية ، تبعا لما يظن أنه ازدياد المعارف البشرية . فإذا قلنا إننا بصدد استخلاص نظرية أو قانون علمى خاص بالطاقة الإنسانية ، فنحن نعمل داخل هذا النطاق من القوانين والمبادىء . وقد كان فرنسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزى الذى عاش فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، أول من وضع من الأوروبيين منهاجا للبحث والكشف عن أى ظاهرة علمية ، وذلك عن طريق إعداد ثلاث قوائم عقب دراسة أى ظاهرة يراد تفسيرها أو تعليلها . فيدرج فى القائمة الأولى من هذه القوائم الحالات التى تتحقق فيها الظاهرة ، وتسمى هذه القائمة قائمة الحضور أو الإثبات . وقائمة ثانية يثبت بها الأحوال التى تتخلف فيها الظاهرة وتسمى قائمة الغياب . أما القائمة الثالثة فقد خصصت للمقارنة والتفاوت فى الدرجة

(١) مثال القوانين المنطقية الثابتة ثبوتاً مطلقاً ، قانون الذاتية ، وهو قولنا إن الشيء هو ذاته ، أى أن « ١ هو ١ » . ومثال القوانين الرياضية ، قولنا إن مجموع زوايا المثلث تساوى قائمتين .

(٢) مسائل فلسفية للدكاترة الطويل وزكى نجيب محمود وعبده فراج — ص ٩٠ .

من حيث الشدة والضعف بالنسبة للظاهرة . على أن طرق الاستقراء العلمى ، قد وجدت صورتها المتكاملة على يد جون ستيوارت مل ، فجعل السبيل لتمحيص الفروق واختيار أصوبها يتم من خلال ثلاث طرق تكاد تكون تعبيرا بأسلوب جديد عن قوائم بيكون الثلاث .

الطريقة الأولى

طريقة التلازم فى الوقوع ، ويراد بها أن وجود العلة يستلزم دائما وجود معلولها فى كل الأحوال ، حتى يمكن استخلاص أن ذلك الشىء هو علة هذا الشىء الآخر .

الطريقة الثانية

طريقة الاختلاف أو التلازم فى التخلف ، وتقوم على قاعدة أن غياب العلة يستتبع غياب معلولها فى جميع الأحوال .

الطريقة الثالثة

الجمع بين الاتفاق والاختلاف ، بمعنى أن وجود العلة يستتبع وجود معلولها ، وتغيب العلة يستتبع غياب معلولها ، وهو ما سبقهم علماء المسلمين إلى تقريره فى هذه القاعدة الأصولية من أن « العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما » .

وعلى هدى هذا المنهاج ، باستطاعتنا أن نمضى إلى استخلاص قانون الطاقة الإنسانية على ضوء التحليل الذى قمنا به لشتى ظواهر النشاط الإنسانى .

الصور الذهنية

ولقد رأينا أن أول ما يصادفنا عند تحليل أى نشاط إنسانى ، ابتداء من القيام بأبسط حركة كتحريك إصبعه أو هز رأسه ، حتى قيادة الشعوب وإشعال نيران الحروب واختراع وسائل المواصلات و الصعود إلى القمر ، فلابد أن يكون ذلك كله مسبوقاً ومستنداً إلى صور ذهنية ، تتجلى

فى الذهن أولا ثم تتحقق فى الخارج ثانياً . وحيث لا توجد صورة ذهنية فلن توجد أى حركة إنسانية من أى نوع من الأنواع ، وهكذا نجد التلازم فى الوقوع والتخلف بين الصور الذهنية وتحولها إلى عمل وحركة ، سواء فى داخل جسم الإنسان أو خارجه . فلا نكون قد عدونا الصواب إذا قررنا أن الصور الذهنية هى علة كل ما يقع من الإنسان من نشاط ، مهما كان نوعه أو كانت درجته .

قوة التركيز

ثم نلاحظ بعد ذلك أن وجود الصور وحده فى الذهن لا يكفى لتحققها ، فما أكثر الصور التى تغمر أذهاننا سواء فى حالة النوم أو اليقظة ، دون أن تتحول إلى حركة أو عمل من أى نوع كان ، فأنا فى هذه اللحظة بالذات أتصور نفسى وقد توقفت عن الكتابة ، ونهضت واقفاً وخرجت من الحجرة ، ومع ذلك فإن شيئاً من ذلك لم يقع ، وهأنذا ما زلت مستمراً فى الكتابة ، ذلك لأن كل اهتمامى فى هذه اللحظة وكل تركيزى هو على الاستمرار فى الكتابة ، ولا سبيل لتوقفى عن الكتابة ، وخروجى من الحجرة إلا أن أنقل التركيز من الكتابة إلى الخروج .

ومعنى ذلك أن التركيز عنصر لازم لتحقيق أى صورة تنشأ فى الذهن ، فلا سبيل لنا إلى مطالعة كتاب أو حفظ قصيدة أو متابعة محاضرة ، أو تحقيق أى عمل إلا بتركيز الاهتمام أو الانتباه إلى هذا الأمر . أيمكنك أن تسمع إلا إذا أرهفت سمعك ، أو تنظر إلا إذا صوبت بصرك بانتباه ؟ إن العين قد تكون مفتوحة ومع ذلك فهى لا ترى ، والأذن موجهة نحو الصوت ثم لا تسمع ، لأن الذهن يكون مشغولا بأمر آخر ، وما من رسول أو نبى ، أو زعيم أو قائد أو بطل من الأبطال فى أى ميدان صغر أو كبر ، إلا وكان التركيز على موضوع رسالته أو عمله هو شغله الشاغل كما رأينا .

وقد سميت هذه الظاهرة بالعزم والتصميم وقوة الإرادة أو قوة العقيدة ، وليس ذلك كله إلا تعبيراً عما نسميه التركيز .

ولقد صادفنا التركيز فى كل مظاهر النشاط التى بسطناها فى الفصول السابقة ، ورأينا كيف أنه لا حركة ولا عمل فضلا عن نجاح أى أمر من الأمور مالم يكن هناك تركيز . وهكذا نرى التلازم فى حالتى الحضور والغياب ، أو فى حالتى الاتفاق فى الوقوع وفى التخلف ، وبين التركيز وتحقق إرادة الإنسان . فيجب أن نعتبر التركيز بدوره شرطاً أساسياً لتحقق أى نشاط إنسانى صغر أو كبر .

وضوح الصور ومدى قوة التركيز عليها

وليس هناك ما يؤكد أن الصور الذهنية والتركيز عليها ، هما الشرطان الأساسيان لتحقيق هذه الصور فى الخارج ، من أننا نستطيع أن نلاحظ العلاقة بين مدى وضوح الصورة فى الذهن وقوة التركيز عليها ، ومقدار تحقق هذه الصورة بالفعل فى الخارج . فكلما كانت الصورة واضحة ناصعة فى الذهن ومحددة المعالم ، وكلما كانت قوة التركيز عليها شديدة ، كلما كان تحققها فى الخارج أكثر نجاحاً وتوفيقاً . وعلى العكس من ذلك كلما كانت الصورة فى الذهن غامضة أو معتمة ، كلما كان تنفيذها فى الخارج غامضاً ومهزوزاً ومضطربا . وبالمثل إذا كان التركيز على الصورة ضعيفاً ، فإن تنفيذها فى الخارج يكون ضعيفاً كذلك ، بل قد لا ينفذ على الإطلاق إذا تلاشى التركيز . وهكذا يتحقق الأسلوب الثالث من أساليب الاستقراء التى أشرنا إليها ، وهو الخاص بالمقارنة وتفاوت الدرجة ، وما أسماه (مل) الجمع بين الاتفاق والاختلاف . وأسماه علماء المسلمين دوران العلة مع المعلول وجوداً وعدماً .

ما الذى يوضح الصورة ويقوى التركيز عليها ؟

ولقد ذكرنا من قبل العوامل التى تؤدى إلى شدة وضوح الصورة فى الذهن ، وتساعد على قوة التركيز عليها ، وأن هذه العوامل تتلخص فى إحساس الإنسان بضرورة أى عمل أو هدف من الأهداف أو فكرة من الأفكار للإبقاء على كيانه المادى أو المعنوى . فكلما اشتد الإحساس بضرورة أمر من الأمور ، كلما وضحت صورته فى الذهن وازداد التركيز على هذه الصورة . فيجب اعتبار الضرورة هى المولد الأكبر لصور الأهداف وتوضيحها فى الذهن والتركيز عليها .

الكيفية التى تتحقق بها الغايات والأهداف

قلنا فيما سبق إن الإحساس بالضرورة عندما يولد فى الذهن صور الأهداف والغايات ، ويدفع الإنسان إلى التركيز عليها ، فإن ذلك يؤدى إلى تحقق هذه الأغراض والأهداف كما ارتسمت فى الذهن فى الخارج . ولقد تساءلنا من قبل أكثر من مرة عن القوة أو الطاقة التى تحقق بها هذه الأشياء ، والجواب عن هذا السؤال لا يخرج عن أحد احتمالين لا ثالث لهما .

فإما أن غايات الإنسان وأهدافه تتحقق فى الخارج بقوة خارجة عن الإنسان ، أو أنها تتحقق بقوة خارجة من الإنسان نفسه . فالذين يقولون بأن كل شىء يتم فى هذا الكون بحتمية طبيعية مقررة سلفا ، سواء كانت هذه الحتمية من صنع الله أو الطبيعة ـ عند من لا يؤمنون بالله ـ يتصورون أن كل شىء فى هذا الكون ، كل ذرة فيه ، كل خاطر يمر بذهن إنسان ، كل ورقة تسقط من شجرة ، كل نقطة ماء تنحدر على الأرض ، كل حركة أو نأمة تصدر عن الإنسان فضلا عن الكلمة يتفوه بها ، كل ذلك يجرى وفقاً لخطة موضوعة ومقررة سلفاً . ومعنى ذلك أننا جميعاً مساقون بطاقة واحدة تحركنا لفعل الذى نفعل وقول الذى نقول ، والاندفاع حيث اندفعنا

والانقباض حيث انقبضنا ، شأننا فى ذلك شأن أى ذرة أخرى فى الكون ، أو أى موجة أو ذبذبة .

وقد رأينا أن العقل يجيز هذا التصور ولا ينكره ، وليس أدل على ذلك من أن المؤمنين بالله والماديين الذين لا يؤمنون بالله ، قد التقى الكثيرون منهم حول هذه الفكرة . فالله هو خالق كل شىء وهو الذى لا ينفك يخلق كل ما يجرى فى الكون أو يقع من أى إنسان ، فهو المحرك وهو المدبر وهو المهيمن الفعال لكل شىء .

وأياكان مدى صحة هذا الرأى سواء كان من الناحية الدينية أو الطبيعية المادية ، فقد رفض الإنسان من الناحية العملية هذا التصور حتى ولو ارتضاه من الناحية العقلية أو الوجدانية ، ورفضه وهو يعمل فكره محاولا أن يختار بين أمرين ، رفضه وهو يتخيل وهو يتمنى وهو يؤمل ، وهو يسعى لتحقيق أمر من الأمور ، فلا يقعده الفشل أو يصرفه عن معاودة الكرة تلو الكرة ليحقق ما يريد ، على الرغم من وضوح مشيئة القدر أنه لا يريد له التحقيق ، رفضه الإنسان وهو يستمع إلى هذه الأصوات الداخلية فى نفسه ، والتى تزكى بعض أعماله وتستنكر بعضها الآخر ، رفضه الإنسان وهو يقدم على أعمال تعود عليه بالضرر المادى المحض ، وينصرف عن أعمال تدفعه إليها سليقته ، ويستحثه على إتيان كل ماهو محبب للنفس والذات ، ولا يمكن أن يكون ذلك كله إلا مظهر إحساس الإنسان بأنه صاحب الحق فى تقرير مصيره ، نحو هذا الاتجاه أو ذاك . ولو كان كل إنسان لا يعدو أن يكون آلة مسيرة كأى آلة يصنعها الإنسان أو تصنعها الطبيعة نفسها ، لما كان هناك أى معنى أو تفسير للإحساس بالسخط أو الرضا ، بالجمال أو القبح ، بالخير أو بالشر ، ولما كان هناك أى معنى لقيام الرسل والمصلحين والمعلمين والمدرسين ، لما كان هناك أى ضرورة أو مفهوم

لقيام الجماعات والاجتهاد فى صوغ القوانين والشرائع ، واستبدال هذه القوانين من حين لآخر بقوانين ونظم تغايرها وقد تناقضها ، فيم كان ذلك كله ويكون ، ما دام كل شىء يسير بحتمية مقررة سلفا ولا فكاك منها ؟

وهكذا نرى أن الأخذ بهذا الرأى مهما كان صوابه من الناحية النظرية البحتة ، وإجازة العقل له ورضاء الوجدان عنه ، فهو لا يفيد البشر فى قليل أو كثير ، فضلا عن أنهم قد رفضوا السير فى حياتهم على مقتضاه ، يستوى فى ذلك أعظم الناس إيمانا بقدرة الله وأقلهم حظا من هذا الإيمان ، فهذا هو رسول الله (صلعم) يقول « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » وليس وراء ذلك استحثاث للعمل على أساس إرادة الإنسان العاملة الخلاقة . وإذ يسقط التفسير الأول للطريقة التى تتم بها أعمال الإنسان ، والقوة التى تحققها ، أو على الأقل إذ ينحى من الناحية العملية ، فلم يبق أمامنا إلا التفسير الثانى وهو أن تكون أعمال الإنسان تتحقق بقوة من داخله قد أودعت فيه ، وأن كل إنسان عبارة عن مركز مقفل مستقل بقوته ، قادر على استخدام القوة الكلية المبثوثة فى الطبيعة ، لتحقيق ما يدور فى ذهنه من صور تخلقها الضرورات الخاصة به دون أى إنسان آخر فى العالمين . وبهذه القوة الكامنة فى كل إنسان يستطيع أن يفعل بنفسه من الداخل أو فى الخارج ما يحلو له عمله ، وبنفس هذه القوة يؤثر فى البيئة المحيطة به ، الجامد منها والحى على السواء . وليس تصور هذه القوة الإنسانية فاعلة ومؤثرة إلى ما لا نهاية بأعصى على التصور ، من نسبة هذه الفاعلية والقدرة على التأثير إلى أى قوة أخرى غير قوة الإنسان ، ما دام من المسلم به أن هذا الإنسان هو ذروة ما وصلت إليه الطبيعة فى تطورها على ما يقول علماء المادة ، أو هو قبس من روح الله على ما يقول المؤمنون .

بقى أن نزيد على ذلك أن هذا القول أو التفسير لمجريات الأمور ، هو

ما نظم البشر حياتهم على أساسه بالفعل أفرادا وجماعات ، فكل إنسان على حدة ، وكل جماعة من الجماعات ، تحس أو يحس من نفسه القدرة على الحركة والاندفاع نحو تحقيق غاياته ، لا البسيط منها أو العادى بل البعيد والمركب وما يوصف أحيانا بأنه مستحيل .

ما كنه هذه القوة ؟

فإذا كان لا مناص من التسليم بالقوة الإنسانية عقلا وعملا ، فقد جرى التساؤل كما رأينا عن كنه هذه القوة . أهى قوة من نوع المادة أم قوة روحية أى من طبيعة تخالف المادة ؟ فحيث توصف المادة بالكثافة والغلاظة والوزن النوعى ، وتتأثر بالجاذبية والتفاعل الكيمائى أو الكهربى ، فلا تتأثر الروح بالجاذبية ولا يمكن وصفها بالكثافة أو الغلاظة أو قياسها بالكم والعدد ، فهى شىء شفاف لا قوام له إلا من حيث هى شىء معنوى بحت . ذلك هو بعض ما يقال للتفرقة بين ما هو مادى وما هو غير مادى ، ولقد رأينا كيف أن العلم الحديث بعد أن توصل إلى ما توصل إليه من النفوذ إلى حقيقة الذرة ، أصبح ينظر إلى المادة كمظهر من مظاهر الطاقة أى القوة الفعالة المتحركة المحركة ، فلم يعد هناك ساكن ومتحرك وإنما الوجود كله حركة متصلة ، وما الإشعاع نفسه إلا مادة ، والضوء فى النهاية هو منشأ المادة ، وما دام الأمر كذلك فلم تعد هناك ضرورة ، كما قلنا من قبل ، لهذا الازدواج وهذه الثنائية التى ما فتىء الإنسان يقسم الوجود إليها .

وعندنا أن هذا الإشكال لا يعود له وجود ، أو بالأحرى لا تعود له أى أهمية من الناحية العملية متى وصفنا هذه القوة بأنها إنسانية ، فسواء كانت مادية أو روحية فالإنسان مصدرها ، فهو الذى يفعل وهو الذى يريد ويعتقد ، وهو الذى يؤثر فيما يحيط به ، فإذا سمينا هذه القوة بأنها إنسانية فهذا كاف لتعريفها وتحديدها ، وفرزها عن سائر القوى .

ولما كان العلم قد اعتاد أن يطلق على القوة إذا أصبحت فاعلة مؤثرة على المادة ومتفاعلة معها كلمة « الطاقة » ، فإننا يجب أن نسمى القوة الإنسانية عندما تخرج من حالة الكمون إلى الفعل أنها طاقة . وعلى ذلك نكون قد عرفنا الطاقة الإنسانية ومصدرها وفاعليتها ، ويكون باستطاعتنا أن نلخص كل الذى قلناه فى هذا الموضوع على صورة معادلة رياضية تحكم الأمر كله ، وذلك على الوجه التالى : أى هدف إنسانى × درجة ضرورته = وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز = طاقة تحقق الهدف فى الخارج .

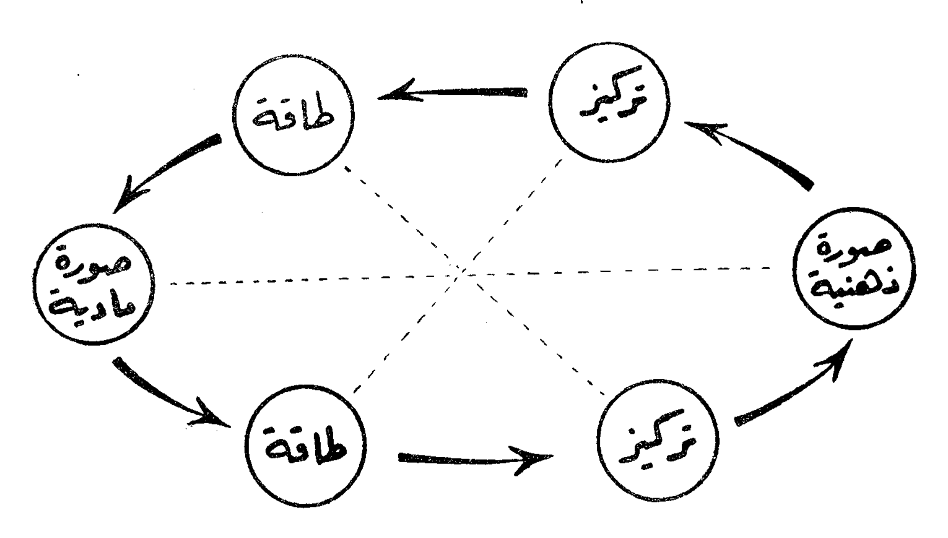
استثناءات من القانون

ولكن القانون على هذه الصورة ما يزال ينقص الإشارة إلى الاستثناءات ، أو بالأحرى التحفظات التى تحدثنا عنها فى كل ما مر بنا ، من وجوب ألا تتعارض الصور الذهنية مع القوانين الأساسية للطبيعة ، وفتح اعتماد لنشاط الطبيعة العام الذى يقتضيه وحدة هدفها الذى تسعى لتحقيقه ، ومع الأخذ فى الاعتبار أن لكل إنسان إرادة كأى إنسان آخر ، وقدرة كامنة كأى إنسان آخر ، وأن هذه الإرادات إذا تعارضت نشأ عن ذلك القلق والمتاعب والاضطرابات . . . إلى آخر ما يشكو منه البشر .

وعلى ذلك فيتعين أن نضمن القانون إشارة إلى هذا التحفظ الذى هو من لزوميات كل قانون فى الواقع ، ويكون النص الأخير للقانون هو « أى هدف إنسانى × درجة ضرورته = وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز عليها = الطاقة اللازمة لتحقيق الهدف فى الخارج ، عند عدم وجود الظروف المعاكسة » .

القانون يعمل طرداً وعكساً

ويعمل هذا القانون كأى قانون آخر فى الطبيعة طرداً وعكساً ، بمعنى أنه إذا كانت الصورة الذهنية والتركيز عليها يحدثان طاقة تؤدى إلى تحقيق هذه الصورة فى الخارج ، فإن الصور فى الخارج تبعث إلى الإنسان بطاقة يؤدى تركيزها على مختلف حواس الإنسان إلى صورة فى الذهن . وهكذا يؤلف الإنسان ، كل إنسان على حدة ، مع الكون الخارجى دائرة مغلقة . فالصور الذهنية تتحول من خلال التركيز إلى طاقة تحدث الصور فى الخارج ، حيث تتحول الصور الخارجية إلى طاقة تتركز على حواس الإنسان فتعود صوراً ذهنية ، وهكذا بحيث يمكن كتابة هذه الدائرة على الوجه التالى : صورة ذهنية — تركيز — طاقة — صورة مادية فى الخارج — طاقة — تركيز — صورة ذهنية وهلم جرا .



ويبين من ذلك أن التركيز قرين التصور الذهنى ، والطاقة قرينة الصور المادية ، والتبادل بين التركيز والطاقة دائم مما يدل على أن كليهما أصل للآخر ، وذلك يعود بنا إلى آخر مكتشفات العلم الحديث من أن الطاقة

إذا تركزت فهى المادة ، والمادة إذا أمعنت فى التركز انقلبت إلى طاقة من جديد فهى ما بين تركيز وانتشار أو صورة وطاقة .

قيام الكون كله على التركيز والانتشار أو الصورة والطاقة

وقد بقى أن نعرف أن الكون كله من حولنا ، أو بالأحرى الوجود كله يقوم على هاتين الحالتين ، حالة التركيز فالانتشار ، أو الانتشار فالتركيز ، ومن الصعب أن نقضى برأى أيهما سبق الآخر .

فالانتشار يولد التركيز ، والتركيز يولد الانتشار . ولكى أقرب لك كيف يتم ذلك فلنبدأ بمثل قد يوضح لنا الأمر بصفة مبدئية . إن آلة التصوير السينمائى أو التلفزيونى تركز صورة المنظر المادى المجسم إلى أصغر حيز متصور فى شريط السينما ، وعندما يعرض هذا الشريط فى السينما فإنه يعود إلى الانتشار على لوحة السينما فى هذه المساحة الضخمة التى نعرفها ، ولا تلبث الصورة أن ترتد من جديد من هذه اللوحة لكى تتركز فى نقطة على شبكية العين كأى منظور آخر ، ثم تعود من جديد إلى الانتشار فى الذهن بنفس الأبعاد التى كانت بها على لوحة السينما . ومعنى هذا أن الصورة قد انتشرت وتركزت ثم عادت من جديد للانتشار فالتركيز وهكذا . وقد يتصور البعض أن هذا المثل لا يعدو أن يكون حديثاً عن الظلال والصور، وقد بقى أن ندلل كيف أن هذا هو ما يحدث فى الطبيعة كلها. انظر إلى الشجرة بعد أن تأخذ زخرفها وتصل إلى كمال نضجها النهائى بعد أن يغلظ ساقها ، وتنتشر فروعها ، وتورق أغصانها ، وتتفتح أزهارها ، وتنضج ثمارها ، وكيف ينتهى ذلك كله إلى بذرة. وما البذرة إلا الشجرة مركزة بكل خصائصها ومقوماتها، وأيا كانت ضآلة البذرة حتى لتكون كالدقيق السافى ،ومع ذلك فإن حبة واحدة من هذا الدقيق السافى هى الشجرة فى كمالها ، حسبها أن تقع على الأرض بقوة الطبيعة أو بقوة الإنسان لكى تعود للانتشار من جديد ، فترسل جذورها ، عبر الأرض

الطيبة ، بينما تشرئب فروعها نحو السماء فتشق هذا الغلاف الأرضى ، متطلعة نحو الشمس نحو الأصل الذى منه جاءت ، حتى إذا أخذت زخرفها من جديد وازينت ، انتهت مرة أخرى إلى البذرة ، البذرة التى لا تعنى شيئاً إلا التركيز للشجرة .

ولن نعيد هنا ما قلناه عن حياة الإنسان وكيف أن الإنسان بعد أن يبلغ مرحلة نضجه وكماله الجسدى ، لا يلبث أن يركز حياته المتكاملة فى بذرة على صورة الحيوان المنوى عند الرجل ، والبويضة عند الأنثى . وفى هذه البذرة تكمن كما قلنا لا خصائص الأم أو الأب وحدهما ، بل كل خصائص الجنس البشرى والحياة كلها .

فإذا خرجنا من نطاق الحياة إلى المادة ، فقد رأينا كيف تلخصت المادة فى أنها محض حركة ما بين تخلخل وتكاثف ، وانتشار وتضاعف . وإذا كان الكون قد وصف حينا بأنه مجموعة من الموجات فليست الموجة ، ولتكن الطولية مثلا ، إلا انتشاراً للطاقة يبلغ ذروته عند نقطة يطلقون عليها اسم (البطن) ، ثم تنحدر الحركة بالتدريج إلى أن تصل إلى حد تسمى عنده بالعقدة ، حيث تبدو الحركة كما لو كانت قد توقفت ، والانتشار كما لو كان قد تلاشى ، مع أنه محال أن نتصور الحركة قد توقفت أو الانتشار قد تلاشى ، لأنه من هذه العقدة نفسها تبدأ الموجة التالية وهى تنتشر فى طريقها نحو الذروة ، أى نحو بطن جديدة . وإذن فالعقدة التى هى منتهى التركيز هى نقطة ميلاد الموجة الجديدة ، وبطن كل موجة التى هى ذروة الانتشار ، هى نقطة البدء لميلاد عقدة جديدة . وعلى هذه الوتيرة يجرى كل شىء فى هذا الوجود ، وتتنوع صوره وأشكاله ، فإذا قلنا إن الطاقة الإنسانية تتولد من الصور التى هى طاقات مركزة لتعيد تأليف هذه الصور فى الخارج ،

فليس ذلك إلا تطبيقاً لناموس الطبيعة السائد [1] .

الانسان مستودع لما نعرف من الطاقات وما لانعرف

وعند ما نقول إن الإنسان كل إنسان ، فيه من الطاقة ما يقدره بذاته على عمل أى شيء ، ولو كان هذا الذى يريد هو زحزحة الجبال عن مواضعها أو شق البحر أو الصعود إلى السماء ، فنحن لا نقول ذلك بمحض الاستنتاج العقلى كما قد يخيل للبعض ، وإنما توصلنا إلى التقرير بانطواء الإنسان على هذه القدرة اللانهائية ، من خلال البحث العلمى والاستناد إلى نتائجه المقررة والتى لا يمارى فيها أى مشتغل بالعلوم الطبيعية . فالإنسان ينطوى بإجماع الآراء والتجربة والبرهان على جميع الطاقات المعروفة فى الطبيعة . وهذه الطاقات تتلخص فى :

— الطاقة الميكانيكية — الطاقة الكيمائية — الطاقة الإشعاعية — الطاقة الكهربية — الطاقه الشمسية — الطاقة النووية . وما من طاقة من هذه الطاقات الكونية إلا ويتلقاها الإنسان كأى شيء آخر فى الوجود ، ثم يعيد عكسها إلى الخارج كأى جسم مادى آخر ، ثم يزيد الإنسان على ذلك أنه قادر بنفسه على توليد الطاقة . فإذا كانت الطاقة الميكانيكية تتولد على ما يقولون ، من تحرك المادة بعد سكونها أو سكونها بعد حركة ، فإن

---

(١) تقوم المادية الجدلية على أن الكون يتألف من اشياء ونقائضها ، فيدور الصراع بين المتناقضات . ومن هذا الصراع ينبثق موجود جديد يكمن فى طياته نقيضة وهكذا . وقد حان الوقت لزوال هذا النظرة الثنائية للطبيعة بعد أن أثبت العلم المادى ما أثبت ، وأن الوجود يتألف لا من الشيء ونقيضه بل من الشيء وتركيزه . وبانتهاء النظرة الثنائية للكون تنتهى معها فكرة التناقض وما يترتب عليها من صراع أبدى ، والحق أن الوجود لا يمكن أن يكون صراعاً ، فمحال أن يتصارع الشيء مع نفسه ، وإنما الوجود تناغم وتوافق ، والصراع فكرة من خلق الإنسان كبقية الأفكار الأخرى التى خلقها طبقاً لمقاييسه الخاصة .

كل إنسان يستطيع أن يدرك من أمر نفسه أنه مولد مستمر للطاقة الميكانيكية ، وهو لا يكف عن الحركة ليلا أو نهارا مستيقظاً أو نائماً ، ولقد رأينا كيف أن القلب لا يكف لحظة واحدة من الدق ما بقى الإنسان حيا ، ومعنى ذلك أن توليد الإنسان للطاقة الميكانيكية هو شىء قرين الحياة نفسها. ومثل ذلك يقال عن كون الإنسان مولداً دائماً للطاقة الكيميائية . فالطاقة الكيميائية تتولد نتيجة تفاعل جزئيات المادة عند ما تخلط أو تحرق ، أو عن طريق التغذية التى هى نوع من الاحتراق الداخلى بغير لهب كما هو معروف . وما أكثرما يصفون الكبد بأنه معمل كيميائى ، وكذلك الشأن بالنسبة للصفراء أو المرارة وبقية الغدد ، ولكن الحقيقة أنه ما من خلية من خلايا الانسان إلا وهى تغص بالتفاعلات الكيميائية ، ولعلنا لازلنا نذكر كيف أن أقواما قد لخصوا الحياة فى أنها مجرد تفاعل كيميائى . فالقول بانطواء الإنسان على الطاقة الكيميائية ، هو قول ثابت بالعلم والتجربة .

هناك بعد ذلك الطاقة الإشعاعية التى تولدها الحرارة ، ومسألة الحرارة التى تنبعث من أجسامنا لا تحتاج إلى دليل ، فالإنسان مولد لا ينضب من الحرارة إلا بعد أن يكف عن الحياة .

أما الطاقة الكهربية فتجىء نتيجة ترتيب جزئيات المادة ترتيبا خاصا ، ومن الحقائق التى باتت مقررة انطواء الانسان على الطاقة الكهربية ، والأعصاب تؤدى وظيفتها عن طريق إرسال التيارات الكهربائية التى أصبحت تقاس بآلات القياس الكهربية [1] . وقد جاء وقت فى القرن

---

(١) باستطاعة كل إنسان أن يكشف عن الكهرباء فى جسده إذا دلك يده فى يوم بارد صفا جوه ثم لمس بعد ذلك جسماً معدنياً ، إذ لا تلبث أن تقفز من أصابعه شرارة إلى الجسم المعدنى فيحس الإنسان برجفة تسرى فى بدنه ويسمع قرقعة ، وقد لا ترى الشرارة فى الضوء ، ولكن التجربة لو تمت ليلاً لرؤيت الشرارة أيضاً . وكثيراً ماتحدث الشرارة عندما نلمس سيارة بعد وقوفها مباشرة ، أو عقب تمريرنا يدنا على ظهر قطة =

التاسع عشر تصور العلماء أن مشكلة الحياة قد حلت باعتبارها كهرباء ، فنقشت إحدى جامعات أوروبا على واجهة بنائها « الحياة كهرباء »[1] ومن المسلم به أن الشمس هى مصدر كل ما فى الكرة الأرضية والحياة من طاقة ، فالنبات الذى هو أعظم مصادر الطاقة على الأرض ، قد استمد هذه الطاقة من الشمس ، واليوم بدأ العلم ينحو نحو استمداد الطاقة من الشمس بطريقة مباشرة لتحريك الآلات وتحقيق شتى الأغراض ، وذلك عن طريق جمع هذه الأشعة على سطوح معدنية ثم تركيزها فى بؤرة معينة . وهذه العملية يقوم بها الإنسان مذ كان إنسانا ، فجسمه مغمور بالضوء وأشعة الشمس ، وهو يختزن أشعة الشمس فى خلاياه الحية ، وليس فينا من لا يحس الفارق الضخم فى قوته وحيويته فى أثناء النهار ، بالقياس إلى حيويته فى الليل ، والفارق بين لون الجلد المعرض للشمس وغير المعرض لها .

الطاقة النووية

وآخر ما اكتشف الإنسان من طاقات هو ما أصبح يطلق عليه اسم الطاقة النووية ، حيث تتحول الطاقة عن طريق الانشطار النووى إلى طاقة جبارة . وإذا كانت الطاقة النووية تقترن فى الأذهان بالقنابل الذرية التى تهدد العالم بالسحق والإبادة ، فإن استخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية بدأ يشق طريقه فى الوجود ، فأصبحت الطاقة الكهربائية تولد عن طريق الطاقة النووية ، والسفن والغواصات تسير بالطاقة النووية ، وكلما

= فى بعض الأحيان ، فنحس بها على شكل رعشة . (الكهرباء تأليف موريس باركر).

وقد كان القدامى ، قبل المحدثين أول من فطنوا لانطواء الإنسان على هذه الطاقة الكهربية إذ كانوا يصفون الإنسان ساعة الغضب بأن عينيه تقدحان الشرر ، وقد تصورنا أن ذلك إنما يقال على سبيل الاستعارة ، وهاهو علم الكهرباء الحديث يثبت أن هذا القول حقيقة مادية .

(١) الإنسان على طبيعتة — ص ٢٠٩ .

Man on his Nature

ازدادت معارف الإنسان ، فستزيد قدرته على استخدام هذه الطاقة فى شتى صنوف الأغراض . وفى رأينا أنه ما دام الإنسان ينطوى على كل ما فى الطبيعة من طاقات ، وما دامت الطاقة النووية هى إحدى طاقات الطبيعة ، فإن القياس العقلى يحتم أن يكون الإنسان مشتملا على الطاقة النووية كاشتماله على بقية الطاقات . وإذا كان أحد لم يقل بذلك حتى الآن ، فإن المستقبل كفيل بإثبات هذا الذى نقول .

الانسان طاقة فى حالة تركيز

يخلص مما تقدم أن الإنسان ليس فى حقيقته سوى مجموعة من الطاقات ، ونحن فى ذلك لم نأت بجديد ، فان التعريف العلمى للحياة هى أنها « نظام من الطاقة » .

بقى أن يقال : إنه ليس هناك من ينازع ، فى أن الإنسان منطو على شتى صنوف الطاقات بالفعل ، ولكن بكمية ضئيلة جداً لا يمكن أن تكون ذات فاعلية تقاس إلى فاعلية أى آلة من الآلات .

وليس هناك ما هو أمعن فى الخطأ من هذا التصور ، فمقدار الطاقة لا يقاس بحجم معين أو حركة مقننة ، إذ يكفى أن ترتب أجزاء المادة بكيفية معينة لكى يتولد من هذا الكيف الجديد طاقة ، فالكيف لا الكم هو مصدر الطاقة . ونحن نعلم الآن أن أى موجة كهربائية مهما صغرت تنشأ عنها موجة مغناطيسية ، لا تلبث بدورها أن تولد موجة كهربائية وهكذا إلى ما لا نهاية ، حيث تنطلق هذه الأمواج عبر الفضاء بسرعة الضوء أى ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة ، وليس وراء ذلك دليل على انبعاث الطاقة إلى ما لا نهاية من أصغر كمياتها .

كيف يطلق الانسان طاقاته

عند ما كانت معلومات الإنسان الحديث عن الكهرباء لا تزال فى

بدايتها ، فقد تصور أن نقل الكهرباء من مكان إلى مكان ومن جسم إلى آخر — يحتاج إلى واسطة معدنية كالسلك لتوصيل الطاقة الكهربائية ، ولم يلبث أن اكتشف ألا حاجة به إلى هذه الأسلاك لنقل الطاقة ، فحل التليفون والتلغراف اللاسلكي محل التليفون والتلغراف السلكيين ، اللذين بينا لنا أن أي جسم في الكون يتلقى كل ما في الكون من طاقات ، ويبعث إلى الكون من حوله ما فيه من طاقة بغير حاجة إلى واسطة سوى هذا الفضاء والفراغ .

ترى هل فكرت يوما ما الذي يعنيه رؤيتك لقرص الشمس وإحساسك بالدفء ؟ أو ما الذي يعنيه رؤيتك للقمر وباقي النجوم التي تملأ السماء ؟ إن ذلك يعني من الناحية العلمية البحتة ، أن كل جزء من الشمس قد شع ضوءاً ، فانطلقت هذه الأشعة المنبعثة من كل جزء من أجزاء الشمس عبر الفضاء ، لتصل إليك وتتركز على شبكية العين أو بالأحرى على نقطة لا تكاد ترى من هذه الشبكية . ويحدث مثل هذا التركيز على كل قطرة ماء في هذا الكون ، على كل حبة رمل على كل هباءة هائمة في الهواء ، فهي كلها ، كلها بدون استثناء تعكس الكون المحيط بها كله ، فالكل ينعكس دائماً على كل جزء من الأجزاء ، وليست هذه فلسفة ولا هي ميتافيزيك ، وإنما هو ما أصبح بقدرة أي إنسان عنده راديو أن يتحقق منه بالتجربة والدليل الحسي والبرهان .

أرأيت نفسك بالليل وقد آويت إلى حجرتك ، إن السكون يغمر هذه الحجرة والصمت يسودها ، ومع ذلك فإن كل أصوات إذاعات الدنيا كلها كامنة فيها ، وما عليك إلا أن تدير مفتاح الراديو لكي يتحقق لك مصداق ذلك ، فالأصوات تنبعث من كل مكان ، من موسكوومن برلين ونيويورك وصوت العرب وبكين والسعودية ، من أمريكا الجنوبية مثل إذاعات

استراليا وأندونيسيا ، قرآن يتلى أو موسيقى صاخبة ، أو دقات نواقيس أو آذان مساجد تدعو للصلاة ، أو تمثيليات مبكية وأخرى مضحكة ، ولو أنك لم تراع اللياقة ورفعت صوت مذياعك لأقلقت الجيران من نومهم ، ولأسرعوا يحتجون عليك . وإن هي إلا حركة بسيطة من مفتاح الراديو حتى يهيمن السكون من جديد ، وكأن هذه الإذاعات المتعارضة المتباغضة التي يهاجم بعضها بعضاً ، كأن هذه الموسيقى التي كانت تدوى وهذه الخطب والمحاضرات ؛ قد تلاشت ولكنها لم تتلاش فهي لا تزال هناك فوق وسادتك التي ستضع رأسك عليها لتنعم بالراحة والهدوء . وفي القريب العاجل سيكون بقدرة جهاز التلفزيون أن ينقل كل إذاعات العالم المرئية كما ينقل الراديو كل إذاعات العالم الصوتية ؛ ومعنى ذلك أنه سيكون في داخل حجرتك وفي كل حجرة في العالمين ؛ سيكون فيها كل المرئيات وصور الحوادث التي وقعت وتقع في الدنيا . فهل فهمت الآن ولمست باليد كيف أن كل إذاعات الكون الصوتية والمرئية توجد في كل جزء من الكون ، في الهواء وفوق الجبال وتحت الماء ؛ في الصحارى مثل ما في المدن ؛ في القصور مثل ما في القبور . وعلى هذه الوتيرة يمكنك أن تدرك الآن أنني عند ما أقول لك إن سكون كله   في كل جزء من أجزائه فلست أقول لك كلاما لا يثبته الدليل والبرهان . وما دام الأمر كذلك فأحسب أنك لن تجد كبير صعوبة لتدرك أن الإنسان أي إنسان ؛ ينطوي على كل ما في الكون من طاقات ، إذ أنه يتلقاها ويعكسها من جديد لتعود إليه بالتالي .

هل الآلات ضرورية لاستخدام الطاقة ؟

فإذا أصبح مفهوما أن الإنسان بؤرة لهذا الكون يتلقى كل ما فيه من طاقة ، ويبعث إليه الطاقة ، فقد بقي علينا أن نتساءل أليس بوسعه

أن يستخدم هذه الطاقات اللانهائية لتحقيق كل مايريد ويختار ؟ إن الكثيرين قد يردون على هذا التساؤل بالإيجاب شريطة أن نعترف بضرورة الآلة لاستخدام هذه الطاقة . كثيرون سيقولون لنا نحن لا ننازع فى قدرة الإنسان اللانهائية ، ولكن لا سبيل له لاستخدام هذه القدرة إلا من خلال الآلات الجبارة . أيستطيع الإنسان أن يسمع إذاعات العالم بغير راديو ، أيستطيع أن يطير بغير طائرة ، أيستطيع أن يصل إلى القمر بدون صاروخ ؟ وفى الجملة أيستطيع الإنسان أن يقوم بعمل صغر أو كبر إلا من خلال آلة من نوع ما ؟ فالإنسان قادر نعم ، ولكنه قادر بواسطة هذه الآلة التى صنعها أو سوف يصنعها . ولو أن قانون الطاقة الانسانية الذى قلنا به قد صيغ على الوجه التالى ، لما وجد أى معارضة من أى إنسان ما : أى هدف إنسانى × درجة ضرورته = وضوح الصورة فى الذهن × شدة التركيز = آلة تحقق للإنسان ما يريد ، أو بالأحرى تحقق له ما دار فى ذهنه . لو أننا قبلنا هذه الصيغة لوفرنا الكثير من النقد الذى سيوجه إلى هذا الكتاب ، ولو تأملنا قليلا لما وجدنا هذه الصيغة المقترحة تغير طبيعة القانون ، فليست الآلة فى حقيقتها إلا طاقة إنسانية قد أودعها الإنسان فى الآلة فهى جزء منه ، وهى تعبير عن قدرته ، فلا حرج علينا لو قلنا ذلك ، ولكننا لو قلنا به لنكون قد خرجنا عن عقيدتنا ، ولا يكون فى كل ما جئنا به فى هذا الكتاب شيء جديد يضاف إلى تراث البشر ، أو لم يحقق الانسان بالفعل عن طريق الآلة كل ما دار فى خيال البشر باعتباره أحلاما وخيالات ؟ أو لم يطف تيتوف حول الأرض فى الفضاء الخارجى تمهيدا للرحلة بعد ذلك إلى القمر ؟ فأى أمر لا يستطيع الإنسان تحقيقه عن طريق الآلات التى سيخترعها ؟ ولكن دعوانا تختلف عن ذلك تماما . إن قانوننا الذى قلنا به يقوم على أنه بحسب الإنسان أن يتصور ثم يركز ذهنه على ما يتصوره ضروريا له ، لكى تتحقق الصورة فى الخارج بغير واسطة منظورة من هذه

الوسائط المألوفة ، بغير حاجة إلى آلة مصنوعة من حديد أو سلك أو خشب أو بلاستيك فضلا عن صلب وفولاذ . وقد تأكد لنا ذلك الأمر عندما استعرضنا تاريخ علاقة الإنسان بالآلة ،وكيف أن ضخامة الآلة لا تعنى شيئاً سوى عجز الإنسان وجهله ، وكيف أن هناك تناسباً عكسيا بين رقى الآلة وقوى الإنسان الذاتية ، فكلما ارتقت الآلة كان ذلك على حساب قدرة الإنسان ، وأخيرا كيف أن جسم الإنسان إنما يحتوى على جميع النواميس التى تقوم عليها الآلات . وأحسب أننا عندما نزيد هذا الأمر تفصيلا — — فإن هذه القضية التى نقول بها وتبدو لك عسيرة الهضم — ستتحول إلى حقيقة علمية أخرى يمكن أن توجد فى هذا الوجود .

ضخامة الآلة مظهر عجز الإنسان

أول ما يقابلنا من القوانين التى تحكم العلاقة بين الإنسان والآلة ، أنه كلما كانت الآلة ضخمة فى الحجم ، ثقيلة فى الوزن ، تحتاج إلى طاقة ضخمة لتشغيلها ، كلما كان ذلك معناه أن الإنسان لا يزال جاهلا بأسرار الطبيعة وقوانينها ؛ لأنه كلما ازداد معرفة بهذه القوانين كلما أصبح أكثر قدرة على صنع آلات أصغر بفاعلية أكبر ولا تحتاج منه إلى كبير طاقة لتشغيلها .

ولو أنك زرت أى متحف من متاحف العلوم فى أوروبا أو أمريكا أو روسيا ، حيث يستعرضون تاريخ صنع الآلات وتطورها ، لراعك أن ترى ضخامة النماذج الأولى للآلات البخارية وغيرها من أدوات الإنسان ، فالساعات الأولى مثلا توزن بمئات الكيلو جرامات تصورا منهم أن الساعة لا يمكن أن تؤدى وظيفتها إلا إذا كانت بهذا الحجم ، ونحن نعرف اليوم كيف تلبس بعض السيدات ، ساعات يخيل للإنسان أنها مجرد فص فى الخاتم . ومع ذلك فهى تعمل بأدق ما عملت ساعة فى أى يوم من الأيام . والحق أنك لست فى حاجة للذهاب إلى المتاحف فى أوروبا أو أمريكا لمشاهدة

هذه الظاهرة . وما عليك إلا أن تجرى بحثاً صغيراً فى محيطك الخاص وبعض الآلات التى أصبحت تستعملها ، فلو أنك بحثت قليلا لعلمت أن آلة التصوير ما زالت تسمى « كاميرا » وقد لا تعرف أن كلمة كاميرا معناها الحجرة . ذلك أن عملية التصوير عندما بدأت كانت تحتاج إلى استعمال حجرة لإمكان عمل صورة فوتغرافية . ثم رؤى أن باستطاعة صندوق متوسط الحجم أن يقوم بهذه المأمورية . ومضت آلة التصوير الرحلة المألوفة ، حتى انتهت إلى ما نعرف حيث توجد فى السوق التجارية للاستعمالات العادية . آلة تصوير لا يزيد حجمها عن علبة كبريت صغيرة ، ومع ذلك فباستطاعتها أن تحصل على مئات وألوف الصور الرائعة . وتحتوى الأقمار الصناعية التى تدور الآن حول الأرض ، على آلات تصوير سينمائى ، بل وتلفزيونى لإرسال كل ما يجرى فى الفضاء ، دون أن يزيد حجم هذه الأجهزة عن قطعة السكر على ما نشرت الصحف .

وعلى ذكر أجهزة التصوير والتلفزيون الصغيرة ، فإن أى قارىء قد شهد بنفسه من غير شك ، كيف أن جهاز الراديو لبضع سنوات خلت كان كبير الحجم ، ثم كيف راح يتناقص ويتناقص فى الوقت الذى تزيد فيه فاعليته ، حتى انتهينا إلى راديو الترانزستور ، والذى يعتبر بدوره عملاقا إلى أجهزة الراديو الموضوعة فى الأقمار الصناعية ، وقد يكون من المفيد أن تعلم أن الإنسان تمكن من تصغير الراديو إلى هذا الحد العجيب عندما اكتشف أن بلورات عنصر (الجرمانيوم) يمكنها أن تؤدى دور الصمامات الضخمة ، التى كان الإنسان يصنعها ويتصور بطبيعة الحال ألا سبيل لكى يقوم الراديو بعمله إلا من خلالها .

وليس فينا من لم ير أجهزة التسجيل عندما صنعت للسوق التجارية لأول مرة ، وكيف كانت تتألف من صندوق ضخم ، وكيف وصل الأمر بعد ذلك بأجهزة التسجيل إلى حد أن توضع سماعاتها فى عروة (الجاكتة) أو فى ساعة

اليد أو كدبوس فى رباط العنق . وعبثا نستطيع أن نمضى فى سرد الأمثلة والشواهد القريبة أو البعيدة فالقاعدة ثابتة ومطردة : إنه كلما ازداد علم الإنسان وأحاط بأسرار الطبيعة ، كلما أصبح أكثر قدرة على بذل طاقة أقل بآلات أبسط لتحقيق أهدافه . ولست أشك لحظة فى أن أبناء القرن الحادى والعشرين سينظرون إلى آلاتنا الضخمة فى سخرية وإشفاق ، وسوف يتحدثون عن عجزنا وقصورنا كما نتحدث نحن عن إنسان العصر الحجرى ، وسوف يدهشون كيف لم ندرك هذا السر أو ذاك من أسرار الطبيعة ، والذى يغنى عن هذه الآلات الفظة الغليظة .

وتكون القاعدة الأولى التى يجب أن نضعها نصب أعيننا ، هى أنه كلما كبر حجم الآلة كلما كان ذلك آية جهلنا وعجزنا ، وأننا كلما ازددنا علما وقدرة كلما صغرت آلاتنا ، وباستطاعتنا أن نمضى بالمنطق حتى نهايته فنقول إن باستطاعة الإنسان أن يصل إلى درجة من العلم تغنيه عن الآلة كلية إلا آلة الطبيعة نفسها ، ولكن لننتظر قليلا حتى نسوق باقى ملاحظاتنا ونتائج دراساتنا[1] .

التناسب العكسى بين انتفاء الآلة وقوة الإنسان الذاتية :

وثمة قاعدة أخرى تحكم العلاقة بين الإنسان والآلة ، وسنرى كيف تنتهى بنا إلى نفس النتيجة السابقة . فلو أننا درسنا تاريخ الإنسان الحضارى،

---

(١) كان القرآن الكريم هو أول من لفت نظر البشرية إلى قوة العلم المطلقة والتى تغنى الإنسان عن استعمال أى آلة أو واسطة سوى معرفة نواميس الطبيعة وذلك فى قصة سليمان عندما سأل أتباعه من الانس والجن أيهم يستطيع أن ينقل له عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس قبل قدومها على سليمان « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين — قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » (النمل — ٣٩، ٤٠) وهكذا تفوق الإنسان (الذى يعلم) على الجن الذى يمثل القوة المادية ففعل فى ومضة عين ما احتاج عفريت الجن لبضع ساعات لإتمامه .

لتأكد لنا أن قوى الإنسان الذاتية فى تناقص مستمر بنسبة عكسية مع رقى الآلة . تقول نظرية التطور إن الإنسان الحديث هو ثمرة التطور ، فهو لم يولد على هذه الصورة الكاملة الإنسانية التى هو عليها اليوم ، ومعنى ذلك أن الإنسان قد وجد حيث لم يكن قد صنع أى آلة من الآلات لأنه لم يكن قادرا على صنعها ، وكان الإنسان قبل أن تكون لديه أى مهارة من هـــذه المهارات التى يقال إنه اكتسبها على سبيل التطور والتدرج ، فلم يكن يعرف بعد كيف يستخدم يديه بمهارة ، أو كيف يلتقط بأصابعه شيئاً ليقذف به عدوه ، فضلا عن أن يصنع سكينا ، أو ماهو أبسط من ذلك من الآلات. فكيف استطاع الإنسان بالرغم من ذلك أن يعيش وسط هذه الطبيعة الخشنة فى هذه الأيام ، كيف نجا من ضراوة العواصف واللهب والحمم التى كانت تقذف بها البراكين الثائرة فى كل مكان ، كيف قاوم السيول الجارفة، والرياح الهوجاء ، وأخيرا كيف استطاع أن يصمد لكل حيوانات ذلك الزمان وقد كانت أشد ضراوة مما هى عليه اليوم ، وأكثر عددا وأعز نفرا ؟ كيف حدث أن هذا الإنسان الذى لم يكن قد زود بالعقل بعد ، قد استطاع أن يحتفظ بحياته ، بل وينتصر على هذه الحيوانات كلها فيصبح سيدا لها ؟ لا مناص من التقرير بأن هذا الإنسان البدائى لم يكن يملك سوى عضلاته وقواه الذاتية البحتة ليقاوم كل حيوانات الغابة ، بل ليقاوم الطبيعة نفسها، وإذن فلا شك فى أن هذه العضلات كانت أقوى من عضلات أى حيوان آخر مفترس ، لابد أن سرعته كانت أقوى من سرعة أى حيوان متصورة ، لابد أنه كان يتسلق الأشجار بأسرع وأيسر من أى حيوان آخر ، لابد أنه كان يشم كأقوى مايستطيع حيوان أن يشم ، وكان يسمع بأحد ما يمكن لأى حيوان أن يسمع ، ويعوم بخير ما تستطيع سمكة فى الماء أن تعوم ، وبالجملة لابد أن هذا الإنسان كان قادرا على كل ما يمكن أن يقدر عليه أى حيوان آخر ، وإلا لما استطاع أن يعيش . فقانون التطور يقول إن الحياة تقوم

على تنازع البقاء ، وأن البقاء هو من نصيب الأصلح ، أى الأقوى فى سائر الاتجاهات . ومن ناحية أخرى فإن علم التطور يقول لنا إن الإنسان هو ذروة ما وصلت إليه الطبيعة من رقى وتطور .

هذا هو مكان الإنسان الأول فى الوجود لو أخذنا بقانون التطور ، كان أقوى الكائنات كلها وسيدا عليها حتى قبل أن يكون له عقل . وقد عاش هذا الإنسان بغير آلة على الإطلاق من أى نوع كان ، عاش الحياة الإنسانية الكاملة بكل ماتحمل من معانى الخلق والإبداع ، لأن هـذا الإنسان البدائى قد اخترع أعظم ما يمكن للبشر أن يخترعوه من آلات ، لقد اخترع الكلام كما نفهمه . وبدأت مأساة هذا الإنسان عندما بدأ يودع مافى نفسه من طاقة فى آلات يصنعها خارج جسمه ، فمع أول سكين صنعها ونجح فى استعمالها ، كانت قوته العضلية تنقص بمقدار الفاعلية التى أصبح يجدها فى السكين . وعندما استأنس بالكلب ليساعده فى الصيد ، فقد نقصت حواسه بمقدار ما أصبح الكلب يضيف إلى قدرته ، وعندما استأنس الحصان ليستخدمه فى العدو ، فقد نقصت سرعته بمقدار ما أضاف استعماله الحصان إليه من سرعة . ذلك هو منطق ناموس الحياة ، أن تنقص طاقة أى شىء عندما لا يكون الإنسان محتاجا إليها . وكل عضلة من عضلات الإنسان بل كل حاسة وكل عضو يقوى بالاستعمال ويضعف ويذبل بعدم الاستعمال . وهكذا بدأت قدرة الإنسان التى لاحد لها على الشم تتناقص إذ لم يعد فى حاجة إليها ، أو بالأحرى وجد من يتولاها عنه ، وضعفت حاسة الإبصار وبقية الحواس الأخرى ، وكلما أوغل الإنسان فى الحضارة ، كلما كان ذلك على حساب قوته وكيانه وصحته وما يستطيع عمله بقواه الخاصة المجردة .

ولسنا فى حاجة إلى الرجوع إلى الوراء لنرى كيف أن كل آلة جديدة يبتدعها الإنسان يكون أثرها المباشر هو على حساب الإنسان . فعندما أصبح بقدرة الإنسان أن يصنع لنفسه أسنانا صناعية رأينا كيف تدهورت

أسنان البشر ، فبينما كان أجدادنا يبلغون جميعاً أرذل العمر بأسنان كاملة لم تعرف السوس وآلام الأسنان (وبلاوى الأسنان) ، أصبح يتطلب من الإنسان المتحضر أن يجعل أحد مهامه فى الحياة التردد على طبيب الأسنان بصفة دورية ، ولم يعد هناك ما هو أسهل من أن يشير طبيب الأسنان على أى إنسان أن يخلع أسنانه كلها ، وأن يستبدل بها أسنانا صناعية .

تناقص قدرة الإنسان على السير :

وقد عاصرنا الجيوش وأقوى أسلحتها هو سلاح المشاة ، الذى لا يعرف وسيلة للمواصلات سوى قدميه ، فمن طريق هذين القدمين يذهب إلى أى مكان فى العالم ، ويخوض المعركة فور رؤية العدو ولو كان قريب العهد بالسير مئات الكيلو مترات ، ولم يكن على الجندى أن يحمل نفسه فحسب بل كان عليه أن يحمل كل معداته معه . وبهذا الأسلوب جابت جنود الإسكندر الآفاق ، واخترقت الجيوش العربية الدنيا من الشرق إلى الغرب ، وقطع نابليون طريقه من باريس إلى موسكو ، وأعنى بنابليون جنود مشاته . واليوم لا تزال بعض الفرق فى الجيوش تحمل هذا الاسم تكريما لهؤلاء الجنود القدامى ، لأنه لم يعد هناك جندى واحد يقدر على السير بضعة كيلو مترات ثم يكون صالحا لخوض أى معركة . أجل قد لا يزال هناك جنود بواسل ، ولكن هؤلاء البواسل لا يستطيعون أن يحتفظوا ببسالتهم لو اضطرتهم الظروف أن يذهبوا إلى المعركة سيرا على الأقدام ألف كيلومتر كما فعل إخوان لهم من قبل . وكيف يقدرون على فعل ذلك بعد أن أصبحت هناك سيارات تنقلهم إلى ميدان المعركة فى بضع ساعات ؟

تناقص قوة البصر :

وعندما لم يكن للبشر سوى عيونهم المجـــردة ، فقد رأوا بها كل ما احتاجوا أن يروه على البعد السحيق ، فقد كانوا هم راصدى النجوم

والكواكب ومبدعي الفلك ، وقد استطاعوا أن يحدثونا عن النجوم الصفراء والزرقاء والخضراء والحمراء والبنفسجية ، وهو أمر لا نستطيع اليوم أن نتحدث عنه إلا من خلال المطياف الذى يفرق بين ألوان النجوم . ويحدثنا التاريخ وكتب الأدب عن مدى قوة الإبصار لدى القدامى مما نكتفى بالإشارة إليه خوفا من أن ندخل فى جدل عن صحة هذه الأنباء أو كذبها . وحسبنا أن النظارات اليوم تؤلف جزءا من وجه الإنسان ، لا الإنسان العجوز أو الكهل ، وإنما الصبيان والأطفال فى كثير من الأحوال ، صيانة للبقية الباقية من بصرهم من الضياع .

تناقص قوة الصوت والسمع

وفى صبانا حضرنا اجتماعات سياسية ، احتشد فيها الألوف لسماع خطاب سياسى من زعيم البلاد فى ذلك الوقت ، ولم يكن لدى الخطيب ما يسمع الناس به إلا صوته ، ولم يكن لدى الناس ما يسمعون به إلا آذانهم المجردة ، ومع ذلك فقد أسمع الخطيب واستمع الناس ولم يشك أحد أنه لم يسمع [1].

ومن قبل ذلك وأعجب من ذلك ، احتشاد عشرات الألوف فى العصور القديمة لدى الإغريق والرومان فى المسارح العامة ، ليشهدوا إحدى روائع سوفوكليس أو ارستوفان فى الهواء الطلق ، ولم يكن لدى الممثلين سوى صوتهم لإسماع الناس ، ولم يكن لدى هذه الألوف المؤلفة سوى آذانهم للسماع ، ومع ذلك فقد كان الجميع يسمعون ولم تك هناك ميكرفونات أو مكبرات للصوت . أما اليوم وبعد اختراع المكبرات فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة أنه حتى فى داخل الحجرة المغلقة لم يعد الناس يسمعون إلا

---

(١) ألقيت أنا شخصياً عديداً من الخطب فى حشود من الطلاب والجماهير عام ١٩٣٠ وبعد ذلك ، حيث لم تكن الميكروفونات قد استعملت فى مصر فى ذلك الوقت على نطاق واسع .

بمكروفون (١) . وكان هناك أطباء ممتازون هم صانعو الطب بمعناه الحديث ، هم الذين تولوا تشخيص الأمراض وأعراضها وهم الذين وصفوا العلاجات التى لا تزال محترمة حتى الآن ، بعد كل ما وصلنا إليه من تفوق فى عالم العلاج ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأطباء لم يكن لديهم مسماع ليسمعوا دقات قلب المريض ، ولم تكن لديهم أجهزة لقياس ضغط الدم ولا معامل لتحليل البول أو الدم ، فضلا عن الأشعة التى ترسم الجسد من الداخل ، أو التى ترسم حركات القلب ... الخ ومع ذلك فقد استطاعوا بحسهم المرهف ، بمجرد النظر أو بمجرد اللمس ، أن يشخصوا هذه الأمراض كلها ، حيث لا يجرؤ اليوم أعظم الأطباء فى أمريكا أو روسيا أن يشخص أبسط الأمراض ، إلا بعد سلسلة من التحاليل المعملية وصور الأشعة وعديد من البيانات التى تقدمها له الأجهزة المختلفة .

تناقص القوى الذهنية

وقد تجد من يسلم لك بتناقص قوى الإنسان بالفعل من الناحية الحسية والعضلية ، ولا يرى فى ذلك أى بأس ما دامت الآلات تقوم بالغرض المطلوب أكثر دقة ، فضلا عن أن تناقص قوى الإنسان العضلية قد عوضها تزايد قواه الذهنية ، فإن الآلات وقد قامت عن الإنسان بالجهد العضلى ، فقد هيأت له الفرصة لنمو ملكاته الذهنية . وليست هذه القضية المدعاة إلا مجرد قول وادعاء ينقضه الواقع ، فقد تناقصت قوى الإنسان الذهنية كسائر قواه الأخرى نتيجة تطور الآلة وقيامها عنه بما اعتاد أن يقوم به بذهنه . ولن نحاول فى مناقشتنا لهذه القضية أن نتكلم بصيغة التعميم ،

---

(١) من أطرف ما مر بى من حوادث فى هذا الشأن ، أنه قد أتيح لى رؤية أحد كبار المقرئين يتحرج من تلاوة القرآن خلال الميكروفون فى أحد المآتم فأصر على وجوب رفعه لكى يشرع فى تلاوته ، ثم رأيت هذا المقرئ نفسه وهو يرفض ان يقرأ إلا بعد أن يؤتى له بميكروفون ، وذلك بعد انتشار الميكروفون .

لن نقول مثلا إنك لن تجد اليوم عقلا بشرياً كعقل أفلاطون أو أرسطو أو ابن سينا أو ابن خلدون ، أو حتى عقل كانت أو ديكارت ، لا لن نقول شيئاً من ذلك لأنه يجرنا إلى جدل لا نستطيع الوصول فيه إلى مقارنة مثمرة تؤدى إلى نتيجة حاسمة . لا ولن نقول إن أى مخترع فى القديم ، وحتى الوقت القريب أى حتى القرن التاسع عشر ،كان هو وحده الذى يقوم بصنع أى اختراع ، ويتعين عليه أن يحل كل مشكلاته العقلية والمادية ، كان عليه دون غيره أن يحل المعادلات الرياضية اللازمة لاختراعه ، وأن يقوم بالتجارب المعملية الكيمائية أو الميكانيكية .. الخ بل كان عليه أن يصنع بيده إذا لزم الأمر المتطلبات الآلية التى لا بد منها لصنع جهازه . أما اليوم فقد أصبح أى اختراع شركة بين مجموعة من العلماء الذين لا يستطيع أى واحد منهم أن ينسب الاختراع إلى نفسه فهو من صنع الجهود المشتركة ، أجل لن نقول ذلك لأننا لن نعدم من يقول لنا إن اختراعات اليوم قد أصبحت من الضخامة والتعقيد بحيث لا يمكن مقارنتها باختراعات الأمس . والحق أننا لسنا فى حاجة لإثبات تناقص قوى الإنسان الذهنية فى العصر الحديث نتيجة لرقى الآلات ، بهذا الأسلوب من التعميم ، فباستطاعتنا أن نعالج الموضوع بطريقة حسابية تحليلية فنصل إلى نتيجة لا يمكن أن ينتطح فيها عنزان . ما هى القوى الذهنية ؟ أليست هى ملكات العقل ؟ فما هى ملكات العقل ؟ أو لسنا متفقين على أنها تتألف من المخيلة والذاكرة والمفكرة ؟ فلنبدأ بمعرفة حظ الإنسان الحديث فى عصر الآلات من هذه الملكات ، وهل زادت أم نقصت عما كانت عليه .

الانسان القديم أقوى خيالا

أو ليس من الحقائق المسلم بها أن الإنسان القديم كان أكثر خيالا من الإنسان الحديث ؟ أو لسنا نعتز بأننا برئنا من هذا الإغراق فى الخيال الذى

كان الإنسان فى القديم يعيش فيه ؟ أو لسنا متفقين على أن الطفل يمثل الإنسان فى مراحله الأولى، ولذلك فقوة الخيال عنده متفوقة، ودنيا الطفل كلها خيال فى خيال، بحيث حرصنا فى تربيتنا له وتعليمه، على أن نخرجه من هذا الخيال ليعيش فى دنيا الواقع ؟ وإذن فلا مناص من التسليم بأن الإنسان الحديث يحلو له أن يصف نفسه بأنه واقعى لا يعيش فى الخيال، ومعنى ذلك أن قوى المخيلة عند الإنسان المتحضر الغارق فى الآلات والواقع حتى الأذقان، هى دون مخيلة الإنسان الذى لم يعرف هذه الآلات إلا فى خياله.

وأقوى ذاكرة وحافظة

فإذا انتقلنا إلى الذاكرة وجدنا الأمر بدوره محل اتفاق، فليس هناك من ينازع فى أن القدامى لا يمكن إلا أن يكونوا أقوى ذاكرة منا وأقوى حافظة، وتلك بدورها مسألة حسابية بحتة، فحيث لا ورق ولا أقلام فضلا عن كتب، فما هو السبيل لتعلم العلم إلا أن يكون تلقينا من إنسان لآخر بغير عدة سوى الذاكرة والحافظة. ما هو سبيل الإنسان لحفظ القرآن فى القديم إلا أن يسمعه فيحفظه ؟. إن كتب الأدب العربية تحدثنا عن أشخاص من العرب كانوا يحفظون القصيدة الطويلة لمجرد سماعها مرة واحدة بينما كان يحتاج البعض الآخر لسماعها مرتين لكى يحفظها. وقد اعتدنا، كما هو شأننا أن نكذب كل ما هو قديم وأن نعتبر ذلك محض خرافة، ولم نسائل أنفسنا إذن بأى طريق كان الشاعر العربى نفسه الذى لا يعرف الكتابة يقول الشعر، وعند ما كان أى شاعر يقف فى سوق عكاظ ليلقى قصيدته فتنتشر فى البادية، ما هو سبيل العرب لنقل القصيدة إلا أن يسمعوها مرة أو مرتين على الأكثر، ما داموا بلا أوراق أو أقلام ليدونوا ما يسمعون. إن رجالا كأمثال ابن سينا يحدثوننا عن أنفسهم أنهم لم

يكادوا يبلغون بضعة عشر عاما حتى كانوا قد حفظوا عن ظهر قلب كل كتب العلوم التى كانت معروفة فى أيامهم ، ولا يجب أن نمارى فى ذلك لحيث لا كتب أو مطابع ، فلا سبيل لكسب المعلومات إلا عن طريق الحفظ . ومن حسن الحظ أننا دائما لسنا فى حاجة للرجوع إلى القديم لإثبات أى قول من الأقوال ، فالحاضر يحمل دائما من النماذج ما يشير إلى الماضى ؛ فمن الأمور المسلم بها أن الطفل أكثر قدرة على الحفظ من الشاب فالرجل ، وهو أحد ذاكرة فى طفولته منه بعد أن يكبر . والطفل على ما يقولون لنا يمثل الأدوار الأولى للإنسان . ومن الأمور المسلم بها كذلك أن ساكن الريف أقوى ذاكرة من ساكن المدينة ، وساكن البادية أقوى ذاكرة من الاثنين معا ، والشعوب التى توصف بالبدائية لا يمكن أن تنسى واقعة حدثت أمامها ، أو كلمة نطقت فى حضرتها .

ومرة أخرى هذه مسألة مسلم بها ، من أن الإنسان القديم لا يمكن إلا أن يكون أقوى حافظة وذاكرة ، ما دامت الكتابة والكتاب لم يكونا قد اخترعا ، وبعد أن اخترعا ظلا محصورين فى عدد محدود جداً ، فقوة الذاكرة كانت ضرورة حتمية لإمكان المعاملات ومعرفة الأنساب وإبرام المعاهدات . . . الخ .

الانسان القديم أقوى مفكرة

فما الذى بقى بعد ذلك من قوى الذهن ، بقيت المفكرة . فهل حظ الإنسان فى عصر الآلة منها أكثر؟ ويجب أن نأخذ للتفكير معياراً لا نختلف عليه ، بحيث نستطيع أن نقيس به إذا كانت قوى الإنسان الذهنية فى الوقت الحاضر أقوى أو أضعف . ومن حسن الحظ أن هذا المقياس أو المعيار معروف ومتفق عليه ، فليس هناك من ينازع فى أن حل المعادلات الرياضية هو أقوى معيار يمكن أن تقاس به القدرة على التفكير . فقديما عندما لم

تـكن هناك آلات حاسبة ، فضلا عن عقول الـكترونية ، قد استطاع علماء الفلك والطبيعة من أمثال كبلر وتيخو براخيا و نيوتن ، أن يحسبوا بكل دقة رياضية مدارات الـكواكب حول الشمس ، بحيث تبينوا أن هذه المدارات ليست دائرة كاملة بل هى قطاع ناقص (اهليلجية) . ولقد وصلوا بحساباتهم المعقدة كما رأينا إلى حد القطع بوجوب وجود كوكب غير هذه الـكواكب المعروفة ، يسبب انحرافات بعض الـكواكب فى أفلاكها لـكى تـكون حساباتهم صحيحة ، ثم ظهرت صحة حساباتهم بالفعل فاكتشفت الـكواكب الجديدة حيث قالوا . ولم يكن لهؤلاء الفلـكيين العظام، لم يكن لنيوتن الذى وزن الشمس والذى وضع حساب التفاضل والتكامل ، لم يكن لهم ما يحسبون به إلا عقولهم المجردة ، غير مستعينين إلا بالورقة والقلم ، وأحياناً استغنوا حتى عن هذه الورقة والقـلم ، فقد كانوا يديرون الحسابات والمعادلات فى رؤوسهم ، ولا يسجلونها على الورق إلا بعد أن ينتهوا منها . واليوم فى عصر الآلة الحاسبة والعقول الالـكترونية ، لن تجد عالمـا واحداً من المتبحرين فى الرياضة يمكن أن يحل معادلة فلـكية ، غير مستعين بالآلة الحاسبة التى أصبحت تقوم بهذه العمليات ، ففيم يزعج الإنسان نفسه بهذه الأمور . ولو تركنا دنيا الرياضة العالية إلى دنيا الأعمال ، دنيا الشركات والبنوك ، دنيا المحاسبين والمراقبين ، فلن تجد واحدا من هؤلاء يقوم اليوم على عملية ضرب مطولة ، أو يقدر على استخراج جذر تربيعى غير مستعين بآلة حاسبة، ومرة أخرى لسنا فى حاجة للرجوع إلى الوراء لإثبات قدرة العقل البشرى وتفوقه على آلاتنا الحديثة فى إجراء العمليات الرياضية ، فمن شأن الطبيعة أن تحتفظ لنا دائما بنماذج من القدرة الإنسانية ، وأنماط البشر المختلفين حتى لا نضل الطريق ، ويظل حاضرنا متصلا بماضينا على الدوام .

فقد شهدت القاهرة السيدة « شاكونتالا » الهندية والتى عمت شهرتها العالمين إذ تتحدى المحاسبين وآلاتهم . وتخطىء الآلة ولـكن شاكونتالا

لا تخطىء . وقد عقدت لها مسابقة فى نادى التجارة حيث احتشد مائة محاسب مزودين بالآلات الحاسبة ، وبدأت الأسئلة ، واشتغلت الآلات الحاسبة التى أعدها نادى التجارة ، فى نفس الوقت الذى أمسكت فيه شا كونتالا بالطباشير لتحل المسائل الحسابية . وقد بدأت هذه المسائل بالتساؤل عن الجذر التكعيبى للرقم ٩١١٢٥ ، وقبل أن تجيب الآلات الحاسبة ، كانت شا كونتالا تقول إنه (٤٥)[١] .

وشبيه ذلك ما نشرته شركات الأنباء العالمية من أن خبيرا فرنسياً فى الحساب (موريس راجبير) تحدى إحدى الآلات الكهربائية الحاسبة ، فى سرعة حل المسائل الحسابية المعقدة ، حيث أجرى ١٢ عملية حسابية معقدة أمام الجمهور فى ٣ دقائق و ٤٣ ثانية ، بينما لم تتمكن الآلة الحاسبة من حل هذه المسائل إلا بعد ٥ دقائق و ١٨ ثانية[٢] .

وقد بقى أن نعرف أن هذا الذى أصبح يعد أعجوبة يتجمع الفنيون لمشاهدتها ، كان هو الأمر العادى الشائع والمتبع ، حيث لم تكن هناك آلات حاسبة ، فكان يتعين على كل مشتغل بالرياضيات أن يجيد حل أضخم المعادلات بعقله .

وهكذا يثبت لدينا أن القدرة على التفكير ممثلة فى أعلى مظاهر التفكير ، وهو حل المسائل الرياضية ، قد تناقصت بدورها مع اختراع الآلات . وتطرد القاعدة فى كل تطبيقاتها من أن عدم استعمال أى ملكة من الملكات يؤدى إلى ضعفها ، ولما كان اختراع الآلات يؤدى على وجه القطع واليقين إلى عدم

---

(١) تبلغ هذه المعجزة الهندية ٣٠ سنة من العمر وقامت بجولات حول العالم عشر سنوات زارت خلالها ٦٧ عاصمة ، فبهرت العالمين ، وفى كثير من المرات ، كانت الآلات تخطىء ولا تخطىء شا كونتالا . (راجع جريد الأهرام عدد الخميس ٢/١١/١٩٦١ حيث نشرت تفاصيل هذه المسابقة العجيبة التى انتصر فيها الانسان على الآلة) .

(٢) جريدة الأهرام عدد يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر عام ١٩٦١ .

استعمال الإنسان لكثير من أعضائه وعضلاته وملكاته وذهنه ، فإن النتيجة المحققة لذلك هي تدهور هذه العضلات والقوى والملكات . ويكون المفهوم العكسي لذلك ، أنه كلما استغنى الإنسان عن الآلات ، كلما زاد ذلك في قدرته على حل مشكلاته بقواه الذاتية . وسوف يحمل المستقبل في طياته ميادين يرى الإنسان نفسه فيها بعيداً عن عالم الآلات التي عرفها وألفها ، غداً عندما يصعد إلى الكواكب الأخرى ، وسيكون من المحقق أن الإنسان بقواه الذاتية وبغير آلات ، سوف يحقق مشيئته ، وينفذ إرادته في كثير مما يبدو لنا اليوم مستحيلا .

انطواء الجسم البشرى على أصول الآلات كلها

وثمة قانون ثالث يحكم العلاقة بين الإنسان والآلة ، وذلك القانون هو أنه ما من آلة ابتكرها الإنسان ، إلا وهى امتداد لأعضائه ، تعمل على ذات الأسس التي تعمل بها هذه الأعضاء ، وقد بدأت إما تقليدا لهذه الأعضاء ، أو تعمل على نفس النظرية التي تعمل بها الأعضاء . فعندما صنع الإنسان أول وعاء ليحفظ فيه الطعام أو يشرب به الماء ، فلم يكن في ذلك إلا محاكيا لكفيه عندما يغترف بهما الماء ، ولا يزال الإنسان الذي لا يملك وعاء ليشرب فيه يستخدم هذا الوعاء الطبيعي قبل أن يخترع الإنسان أي وعاء ، والآلات الحادة القاطعة من سكاكين وخناجر وسيوف وحراب ، ليست إلا تقليداً لقواطع الإنسان من أظفار وأنياب وأسنان .

وإذا كان أبسط استعمال للآلة قد أخذ أول ما أخذ صورة صنع العتلات واستخدامها ، فليست أطراف الإنسان ابتداء من أذرعه وأرجله حتى أصابعه ، إلا عتلات بالمعنى الفنى لكلمة عتلة من الناحية الصناعية . وليست كل الآلات البصرية ابتداء من آلة التصوير وانتهاء بالتلفزيون ، إلا استخداما لبعض النظريات التي تقوم عليها عمليات الإبصار بواسطة العين

ومثل ذلك يقال عن جميع الآلات السمعية . فهى كلها عالة على الأذن . وهذه الشبكات الضخمة من الأنابيب التى أصبحت تسرى خلال المدن حاملة المياه الصالحة من جانب ، وحاملة الفضلات من الجانب الآخر ، هى أشبه الأشياء بالدورة الدموية ، بل إن الإنسان لم يستطع أن يجد لها اسما جديداً فأطلق عليها اسم « دورة المياه » .

والكتل الضخمة من الأسلاك الكهربائية التى تسرى فى أنحاء المدن ، حاملة القوى المحركة إلى كل مكان ، لايمكن أن تخرج عند المقارنة ، من شبهها بمجموعة الخلايا العصبية والأعصاب والمراكز العصبية ، التى تنقل الطاقة المحركة والحاسة إلى كل خلية من خلايا الجسد كما رأينا .

وعضلات الإنسان تقوم بالدور الذى يقوم به أى محرك من المحركات . وقبل أن يخترع الإنسان نظام الاحتراق الداخلى المستعمل فى السيارات وأمثالها . كان الجسم يطبق هذا الأسلوب مذ كان الإنسان إنسانا . ولا تزال عملية الاحتراق الداخلى فى الآلات تحتاج إلى شرارة كهربائية لإتمام عملية الاحتراق ، حيث تتم العملية داخل جسد الإنسان بدون لهب من أى نوع كان .

ويتطلع الإنسان اليوم إلى صنع عقول الكترونية تتولى إدارة الآلات، ولن يكون أعظم عقل الكترونى يبدعه الإنسان إلا عالة على العقل البشرى .

فالآلات كلها مستقرة فى جسد الإنسان وطبيعته ، تعمل بأساليب أدق فى حيز أصغر ، وبوسائل أخفى وأعقد .

ملخص القواعد التى تحكم الانسان والآلة والطاقة

وأحسب أنه باستطاعتنا الآن أن نلخص ما سقناه من القواعد ، تمهيداً لتأكيد قانون الطاقة الإنسانية .

١ — كل إنسان ينطوى على مجموع نواميس الطبيعة وقوانينها التى لا يقوم الوجود إلا بها .

٢ — كل إنسان ينطوى على كل ما فى الكون من طاقة .

٣ — يستقبل كل إنسان الطاقة ويرسلها بغير حاجة إلى أى واسطة .

٤ — جسم كل إنسان وعقله ينطويان على الأسس التى تقوم عليها أى آلة .

٥ — لا تقاس فاعلية أى آلة بضخامتها أو وزنها أو المادة المصنوعة منها .

٦ — تضعف قوى الإنسان كلما اعتمد على الآلات ، وتقوى كلما استغنى عنها .

وهذا من شأنه أن ينتهى بنا من ناحية عملية تجريبية ، أى باستخدام قواعد العلم الطبيعى المعترف بها ، إلى تأكيد قانون الطاقة الإنسانية ، والذى يقضى بقدرة الإنسان على تحقيق كل ما يدور فى ذهنه متى استخدم القانون وطبقه تطبيقاً صحيحاً حسب النص التالى :

أى **هدف** إنسانى × درجة ضرورته = وضوح صورته فى الذهن × شدة التركيز = طاقة تحقق الهدف فى الخارج عند غياب الظروف المعاكسة .

و بعد

وبعد فإذا كان لا بد لهذا البحث أن يختم ، ولهذا الكتاب أن ينتهى ، فليس هناك ما نختمه به إلا أن نتساءل ، ما الذى يستكثره أى معترض على ما قلناه عن الإنسان ، سواء كان هذا المعترض يقيم اعتراضه على أساس من التحكك بالمادية والطبيعة ، أو أقام اعتراضه على أساس من التمسك ببعض الأفكار الدينية ؟ ولنتكلم أولا بلغة المادة والطبيعة ، أو ليس من المتفق

عليه أن الطبيعة تعمل كل شيء في هذا الوجود بدون الآلات ، على الصورة التي ابتدعها الإنسان حتى الآن ؟ فبأى أسلوب تصنع الطبيعة ما تصنع ، وبأى واسطة وبأى وسيلة ؟ لا جواب على ذلك إلا أن الطبيعة تعمل الذى تعمل بقوة ما فيها من نواميس أو قوانين . فهل لهذه النواميس حجم معين؟ هل لهذه النواميس مكان مخصوص تأوى إليه ؟ أم أن هذه النواميس هى الطبيعة نفسها ؟ فلو فرضنا أن الإنسان مجرد جزء من الطبيعة ، لكان ذلك وحده كافياً لكى تكون كل نواميس الطبيعة مستكنة فيه . فمن غير المتصور أن يخلو مكان أو جزء من الطبيعة من نواميسها كلها [1] ، فكيف والإنسان فى حقيقته لا يمكن أن يكون جزءاً من الطبيعة فحسب بل هو الطبيعة كلها فى صورة مركزة . فقد قلنا إن كل شيء فى الوجود لا بد أن يتركز فى بذرة له ، تلخص كل كيانه وتحوى صورته التى يعود منها للانتشار ، ولا يمكن أن تشذ الطبيعة فى مجموعها عن هذه القاعدة ، فلا بد أن للطبيعة بذرة تتكدس فيها بكل خصائصها وإمكانياتها وأسرارها ، ومن حقنا بل من واجبنا أن نتساءل عن هذه البذرة التى تلخص الطبيعة كلها أين توجد . أفيمكن أن تكون هذه البذرة هى الذرة ؟ لقد قيل لنا بالفعل إن الذرة فى تركيبها تشبه أن تكون كوناً كاملا بشموسه وكواكبه . أفتكون هذه الذرة هى بذرة الكون ؟ كان يمكن أن تكون كذلك لو أن الذرة تحتوى على سر الحياة أيضاً ، لأن الكون يحتوى على الحياة فيما يحتوى ، وبذرة الكون لا بد أن تحتوى على كل عناصره . أفتكون الخلية الحية هى بذرة هذه الطبيعة ؟ كان يمكن أن تكون كذلك ، فإنها تحتوى على الذرة وتحتوى بالأكثر على سر الحياة . ولكن الطبيعة تحتوى فوق الحياة على العقل ، والخلية الحية المجردة من العقل لا يمكن بناء على

(1) إن هذا النظر الذى انتهى بنا إليه العلم المجرد ، ليس إلا عوداً لإيمان المؤمنين من أن الله فى كل مكان .

ذلك أن تكون هى بذرة الطبيعة . فلم يبق أمامنا إلا بويضة الإنسان الملقحة ، هى الوجود المتكامل الذى يحتوى على كل قوانين الذرة ، وقوانين الحياة ، وقوانين العقل ، فهى إذن بذرة الطبيعة فى مجموعها . وليس هناك من دليل مادى يؤكد ذلك أكثر من هذا الذى قلناه فى الفصل الخامس ، من أن هذه البويضة الملقحة لو ظلت تنمو بنفس النسبة التى تنمو بها خلال الأشهر الأولى لمدة عشر سنوات فقط ، لأنتجت كائنا يفوق المجموعة الشمسية حجما ووزناً ، فكيف بها إذا واصلت النمو على هذا المعدل أجيالا وقروناً ؟ [1] ولكن بويضة الإنسان الحى لا تواصل نموها لأن الإنسان هو بذرة الطبيعة وتركيزها ، ولكى يؤدى دوره يجب أن يظل على هذه الدرجة من التركيز .

ذلك هو ما يقول به العلم المادى ويثبته ، لم نجىء بحرف واحد من عندنا أو بنات أفكارنا ، فلا محل للمادى أن يعترض على قانون الطاقة الإنسانية بحال .

ولا حق لأى متدين من باب أولى أن يتشكك فى صحة قانون الطاقة الإنسانية ، فلو أن دينه كان وثنياً ، فقد اعتبرت هذه الأديان الإنسان دائما من نسل الآلهة . ولو أنه كان ممن يؤمنون بالكتاب المقدس فهذا الكتاب يقول « إن الله خلق الإنسان على صورته »

ولو كان ممن يؤمنون بالمسيحية ، فالإنجيل يصف الإنسان بأنه (ابن الله) ، ويخاطب الله قائلا أبانا الذى فى السماء .

ولو كان ممن يدينون بدين الإسلام ، فهو يعلم أن الله طلب من

---

(١) انظر ص ١٩٧ .

الملائكة أن تسجد للإنسان ، وهو يعلم أنه أودع الإنسان قبساً من روحه، وهو يعلم أن الله قد علم آدم الأسماء كلها حيث عجزت الملائكة عن ذلك ، وهو يعلم أنه حمل الإنسان الأمانة التى عجزت السموات والأرض كلها عن حملها .

وهكذا تلتقى المعانى والتصورات كلها فى كل زمان ومكان لتشير إلى حقيقة الإنسان ، أنه مستودع سر الطبيعة وخلاصة نواميسها وقدرتها ، وأن الساعة قد حانت ليعرف من أسرار نفسه ، بعض ما أصبح يعرفه عن أسرار الطبيعة من حوله ، ليدرك أنه هو الكون الأكبر فى مقابل الكون الخارجى الأصغر ، وأنه قادر على أن يقول للشىء كن فيكون .

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

انتهى

تذييل

أى طريق نسلك ؟

— صراع أو تعاون — حرب أم سلام
— ما هو مستقبل البشرية ، وما هو هدفها النهائى ؟
— أثمة جنة فى السماء أم على الأرض ؟
— ما الذى يجب علينا أن نفعله ؟
— مقياس الخير والشر .

فلنحيا مثلنا العليا

انتهى هذا الكتاب بنهاية الفصل السابق بعد أن توصلنا إلى القاعدة التى تربط بين ما يدور فى الذهن وما يتحقق خارجه ، وصغنا هذه القاعدة فى صورة قانون للطاقة الإنسانية ، ودللنا على صحة هذا القانون ، وليس لنا من هدف فى هذا الكتاب وراء ذلك .

ومع ذلك فلم أستطع أن أرد رغبة جاشت فى نفسى ، للإجابة عن سؤالين لا يمكن إلا أن يراودا كل من سيقدر له مطالعة هذا الكتاب ، سواء اقتنع بما جاء فيه أو لم يقتنع .

أما السؤال الأول فيدور حول طبيعة العلاقات بين الأفراد فى عالم يبلغ فيه كل إنسان منتهى القوة التى لا يحدها حد إلا من إرادته . أتؤدى هذه الحالة فى التساوى بين قوى الأفراد المطلقة إلى الخلاف والصراع ، فالحرب التى لا تنتهى ، أم إلى التفاهم والتعاون والتوافق فالسلام الدائم ؟ أيتحاب الفرقاء المتساوون أم يتباغضون ؟ هذا سؤال .

أما السؤال الثانى فيدور حول صورة المجتمع الذى يحقق فيه كل إنسان غاياته وأهدافه لا عن طريق العمل والجهد والعرق المسفوح ، لا عن طريق الآلات الدوارة المصنوعة من الصلب والفولاذ ، ولكن لمجرد التصور الذهنى والتركيز عليه ، أيمكن أن يكون لعالم من هذا الطراز وجود .

وللرد على هذين السؤالين جئنا بهذا التذييل الإضافى ، أو التزيد الإلحاقى ، ونحن نصفه بذلك لأننا لانستطيع أن نعتبره جزءا من الكتاب ، لأنه لا يستند إلى أى نوع من التجارب سواء تجاربنا الشخصية أو تجارب الآخرين ، والتجربة هى الأساس الذى بنينا عليه كتابنا ، وأقمنا عليه دعائم قانون الطاقة الإنسانية ، أما فى هـــذا التذييل فحديثنا كله يدور على مجرد الاستنتاج والقياس على ماجاء فى الكتاب .

صراع أو تفاهم ، حرب أم سلام :

أيقوم الصراع فى مجتمع كل من فيه قوى ؟ أتثير المساواة فى قوة الإرادة المطلقة الحقد والبغض والكره ، وبالتالى تشعل نيران الحروب ؟ أم أنها تؤدى إلى التفاهم والسلام .

لايحتاج الرد على هذا السؤال إلى كبير مشقة ، فمجرد إلقاء نظرة عابرة على كل ما يحيط بالإنسان تقدم لنا الجواب على الفور . يتنافس الأحياء جميعا حول الغذاء باعتباره سبيلهم إلى الحياة ، ولا يمكن إلا أن يكون فى الطبيعة ما يكفى لتغذية كل ماهو حى ، ولكن الصراع يدور أكثر ما يدور حول الحصول على قدر أكبر من الغذاء ، وفى هذا الصراع ينتصر القوى فيحصل من الغذاء على أكثر من حاجته ، وينهزم الضعيف فلا يحصل إلا على بعض حاجته ، ويستمر الصراع ويعمل الحقد ويدور دورته . أما لو كان الناس متساوين فى القوة ، لما كان أمامهم سبيل إلا أن يقتسموا الغذاء بينهم بالسوية ، إدراكا منهم ألا سبيل لحلها إلا على هذا الوجه .

فالتفاوت إذن فى الأقدار ، لا التساوى هو منشأ المنازعات والخصام والفتن والأحقاد التى لا تنتهى . فما بقى هناك ضعيف وقوى ، فسيبقى التسخير وسيكون الاستغلال لحساب الأقوياء وسحق الضعفاء .

ولنبدأ القصة من البداية ، لنبدأها مع الحيوانات المفترسة فى الغابة . إن الحيوانات المفترسة لم تأخذ هذا الاسم لأنها تفترس أفراد جنسها ، فالأسد لا يفترس أسدا والنمر لايفترس نمرا وإنما سميت مفترسة لأنها تفترس الحيوانات الأضعف منها ، هى تفترسها لا لأن الطبيعة تقضى بذلك كناموس من النواميس التى لا تنقض ، فقد كان باستطاعة هذه الحيوانات أن تعيش على أكل الحشائش كما يفعل غيرها ومن هو أكبر حجما منها كالفيل مثلا ، ولكن المسألة بدأت عن طريق الاستضعاف ، فأكل الأسد غزالا أوأرنب فلم يكلفه افتراسه أى جهد ولم يعرضه لأى خطر ، فتحول الافتراس لهذه الحيوانات الضعيفة إلى عادة متوارثة . وليس أدل على ذلك من أنه حيث يكلف الافتراس أى جهد أو مشقة ، فضلا عن التعرض لبعض الجروح والكدمات والضربات القاسية ، فإن الحيوانات المفترسة تتردد عشر مرات قبل أن تعتدى على الحيوان الخطر .

وتقوم الصلة بين الإنسان والحيوان على نفس القاعدة ، فليس أكل اللحم ضرورة لحياة الإنسان ، وباستطاعته أن يحيا على أكل النباتات فقط ، وقد عاش غاندى ، أعظم من أنجبته الإنسانية فى العصر الحديث ، وهو لا يأكل اللحم . فليس أكل اللحم ضروريا ولا هو من طبيعة الإنسان ، ولكنها مجرد عادة نشأت من إحساسه بقوته وضعف بعض الحيوانات ، فراح يعمل على استئناسها ليذبحها وقت الطلب ، دون أن يكلفه ذلك أى جهد أو مشقة . وتسرح الحيوانات غير المستأنسة وتمرح دون أن يفكر الإنسان فى ذبحها لأنه لم يتعود على أكل لحمها ، أما لماذا تركها

الإنسان منذ البداية ، فليس ذلك إلا لقوتها وللمخاطر التى يتعرض لها كلما فكر فى اصطيادها .

ولا تختلف علاقات الناس فيما بينهم عن هذا المبدأ وهذه القاعدة . ففى أى مجتمع تتفاوت فيه حظوظ الناس قوة وضعفا ، غنى وفقرا ، صحة ومرضا علما وجهلا ، حيث لا يكون ثمة تساو بين الناس إما بحكم القانون أو بحكم الواقع ، فإن هذا المجتمع لا يمكن إلا أن يغص بكل أنواع الشرور والمساوىء والمفاسد والمظالم ، فى مثل هذا المجتمع لن تجد إلا قويا ينهب أو يغتصب ، ونفوساً تجيش بالحقد وتغلى بالتذمر والثورة ، أو تعيش محطمة فى مهاوى اليأس لاتكاد ترقى إلى مرتبة الحيوان . وفى هذه المجتمعات التى يسودها التفاوت تنتشر الجريمة ، ويزدهر العنف ، ولا يكاد الناس يتعاملون إلا سبا وقذفا ، ولا يتحادثون إلا صياحا .

وعلى الضدمن ذلك يكون الحال فى المجتمعات التى يسودها أكبر قدر ممكن من التقارب فى كل شىء ، فى التعليم والثروة والصحة والاعتداد بالشخصية والنفوذ والسلطان . فى مثل هذه المجتمعات يسود السلام ويستتب الأمن ويتبادل كل من فيه الثقة بالآخر ويعامله بالاحترام . فى مثل هذه المجتمعات لن تجد إنسانا يرفع الصوت على إنسان آخر فضلا عن أن يهينه بالقول أو الإشارة لأى سبب من الأسباب ، ما من مشكلة أو خلاف فى الرأى لا يحل عن طريق التفاهم أو الاحتكام إلى القانون ، فالعقل والمنطق هو الحكم النهائى بين الأفراد[1] .

وليس ذلك إلا نتيجة التسوية القانونية والفعلية بقدر الإمكان بين الناس ، لأنه مادام أن كل فرد يعرف أن لكل فرد آخر مثل حقوقه وقوته

---

(١) لعل أقرب مثال لهذه المجتمعات فى الوقت الحاضر هو الدول السكندنافية ، والمجتمع الانجليزى ، حيث بلغ الأمر إلى حد ان رجل البوليس غير مسلح بأى سلاح حتى ولا مجرد عصا صغيرة .

وأن كل فعل يقع منه لا يمكن إلا أن ينتج رد فعل مساويا ، فأى عدوان سيرد عليه بعدوان مماثل ، فإن مصلحة الإنسان نفسه هى فى أن يحافظ على السلام والأمن ، لأن فى ذلك سلامته وأمنه وكرامته وحريته . فالتساوى فى القدرة وليس التفاوت هو مصدر كل خير ونعيم فى الدنيا .

الموقف الدولى :

وهذا الذى يصدق على الأفراد داخل المجتمع الواحد ، يصدق على علاقات المجتمعات فى مجموعها . ما من دولة من الدول تخاصم دولة تعرف أنها قادرة على أن تكيل لها الصاع صاعين ، وترد اللطمة لطمتين . وإنما تتخاصم الدول مع من تتصورها أضعف حالا منها، فلم يحدث عبر التاريخ ، أن هاجمت دولة دولة أخرى إلا عندما يغلب عليها الظن أنها الأقوى والأقدر ، وأنها ستخرج من الحرب فائزة منتصرة . ومن المحال أن نتصور أن دولة من الدول تخوض حربا وهى موقنة أنها ستخرج منهزمة ، ومن الصعب أن تخوض أى دولة حربا لو أنها وثقت بأنها لن تكسب أو تخسر، فالاعتقاد بامكان النصر هو الدافع الوحيد الذى يدفع أى دولة لشن حرب هجومية .

والحديث يجرى وقت كتابتى هذه السطور (سبتمبر عام ١٩٦١) حول خطر الحرب التى قد تندلع فى أى لحظة بين الشرق والغرب ، أو بين أمريكا وكتلتها وروسيا وكتلتها ، ويجرى تفجير القنابل الذرية على ساق وقدم ، وتحشد كلتا الكتلتين جيوشهما وعتادها وأسلحتهما فى الجو والبر والبحر ومع ذلك فلن تقوم حـــرب كما لم تقم فى كل الأزمات المماثلة خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، ما ذلك إلا لأن كلا من الطرفين يدرك أن لدى الآخر من القوة مايكفى لتحطيمه وإبادته[1] ، ومن هنا راح الطرفان كلاهما

---

(١) تم توقيع معاهدة لتحريم التجارب الذرية جزئياً ، قبيل صدور هذه الطبعة الثانية (أكتوبر عام ١٩٦٣) وقد عد ذلك خطوة فى سبيل السلام .

يعلن أنه إنما يتخذ هذه الاستعدادات محافظة على السلام العالمى الذى يتلاشى فى اللحظة التى يتصور فيها أحد الطرفين أن الثانى غير مستعد .

ولن تقوم الحرب ما بقى توازن القوى حقيقة واقعة ، وفى اللحظة التى يختل فيها هذا التوازن بالفعل لأى سبب من الأسباب ، كأن يسبق أحد الطرفين الآخر باختراع سلاح يتصور أنه يلغى أسلحة خصمه ، أو لمجرد أن يتوهم أنه قادر على الفوز على خصمه فستقوم الحرب فوراً .

وإذن فيجب أن نطمئن إلى ثبوت القاعدة ، أنه حيث يوجد التساوى والتكافؤ ، ينعدم النزاع والخصام .

ويسود التعاون

بل إن المساواة المطلقة لا تقف عند حد إحلال السلام محل الخصام ، بل تذهب إلى ما وراء ذلك ، تذهب إلى التعاون والتوافق بين المتساوين والأكفاء فى القدرة ، لأن ناموس الطبيعة هو التعاون والتكامل ، وإذا كانت الطبيعة قد بدأت بالواحد ، فلا يمكن إلا أن تعود إلى الواحد ، إذا كانت الطبيعة قد بدأت من البسيط إلى المركب ، فلا مناص من أن تعود من جديد إلى البسيط ، فهذه هى سنتها دورة دائمة . والتكامل والتوافق بين المتساوين يتحقق بصورة نموذجية فى الإنسان الواحد ، ليس هذا الإنسان كما رأينا فى الفصل الخامس ، إلا تكاملا من بلايين البلايين من الخلايا ، ولقد رأينا كيف أن لكل خلية من هذه الخلايا شخصيتها وفرديتها الذاتية وقدرتها المساوية لقدرة أى خلية أخرى ، ومع ذلك فإن هذه الخلايا تعمل فيما بينها فى تعاون باهر وتكافل وتعاضد لتأليف هذا الكل وهو الإنسان الذى يعمل على المحافظة عليها ، من خلال محافظتها عليه .

هذه الصورة للحياة داخل الكون الإنسانى ، هى الصورة التى سيكون عليها البشر مجتمعين إذا سادت بينهم المساواة المطلقة .

وإذا كنا قد انتهينا من الإجابة عن السؤال الأول ، فباستطاعتنا أن ننتقل إلى الرد على السؤال الثانى الخاص بصورة المجتمع الذى يحقق فيه كل إنسان إرادته من خلال التصور الذهنى ولا زيادة ، أى بغير حاجة إلى كد أو تعب أو آلات من أى نوع كان . وإذا كنا قد استنبطنا الرد على السؤال الأول مما يحيط بنا وفى داخل جسدنا ، فإن الرد على هذا السؤال يستلزم أن تستحضر من جديد كل الذى قلناه لك فى الفصل الرابع ، خاصا بأنه كل ما دار فى ذهن البشرية مجتمعة على أنه موجود أو سيوجد فلا يمكن إلا أن يكون هذا الشىء موجوداً بالفعل أو أنه كان أوسيكون[1] . لأنه لا معنى إطلاقا لأن يدور فى الذهن أمر لا يكون من قبيل الذكريات الماضية ، أو انعكاسات الحاضر ، أو مبدأ لخلق شىء سيكون . ولقد تساءلنا فى ختام هذا الفصل إذا كنت لا تزال ذاكراً — وإنك لكذلك إن شاء الله — أليس باستطاعتنا قياسا على ما أثبتناه ، أن نتساءل عن مستقبل البشر ، وقد وعدنا بالرد على هذا السؤال فى هذا التذييل .

مثل البشر الأعلى فى الحياة

لم ينفك البشر فى أى عصر من العصور ، ولا فى أى بلد من البلاد ، ولا فى ظل أى ظرف من الظروف عن التطلع إلى حياة كاملة تخلو من الكد والتعب والظلم والإجحاف ، ينال الإنسان فيها حظه من متع الحياة وفقاً لمشيئته ورغبته ، ولا يكدره فيها شجار أو خصام أو حرب ، ولا يعانى فيها حسداً أو حقداً ، ولا يتألم فيها بأى نوع من الألم ولا يمرض أو يموت .

هذه الصورة لحياة إنسانية كاملة قد تعلق البشر بها على مر العصور والدهور ، يستوى فى ذلك المؤمنون والملحدون ، المتدينون والكافرون ، الإلاهيون والطبيعيون والماديون . والخلاف الوحيد الذى وجد بين هؤلاء

(١) انظر صفحة ١٣٦ .

وأولئك ، أن الأولين تخيلوا عدم إمكان تحقق هذه الصورة على الأرض ، فارتفعوا بها إلى السماء فى حياة ثانية ، أما الآخرون فقد قالوا أن ليس ثمة حياة سوى هذه الحياة الدنيا ، وأن هذه الجنة المأمولة يجب أن تتحقق هنا فينعم بنو الإنسان بكل هذه الطيبات ، والحياة المثالية التى يؤملون فيها ويصبون إليها .

وهكذا لن تجد الإنسان إلا بين مؤمل فى جنة سماوية ، أو جنة أرضية ، وفى ذلك يقول « ول ديورانت » فى كتابه قصة الحضارة الذى استعرض فيه كل تاريخ البشر وتفكيرهم :

« يمكن تشبيه عقيدتى النعيم فى الدار الآخرة أو جنة الدنيا ، بدلوين يتبادلان النزول فى بئر فإذا نزلت إحداهما ارتفعت الأخرى . فعندما ضعف شأن الأديان اليونانية والرومانية القديمة ، ثارت الاضطرابات الشيوعية فى أثينا عام (٤٣٠ ق . م) وبدأت الثورة فى روما عام (١٣٣ ق . م) فلما أن أخفقت هاتان الحركتان ، نجحت العقيدة القائلة بالبعث والنشور التى بلغت ذروتها فى الديانة المسيحية . فلما أن ضعفت العقيدة المسيحية فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد عادت الشيوعية إلى الظهور[١] » .

فإذا أردنا أن نرسم مستقبل البشرية ، فليس أمامنا إلا أن نستوحى صورة الجنة السماوية كما تصورها البشر فى كل زمان ومكان ، وكذلك الجنة الأرضية التى تصورها غير المؤمنين بجنة فى السماء ، فيكون القسم المشترك من الصورة هو الذى يحدد بلا جدال أو شبهة ، مستقبل البشرية الذى ترنو إليه والذى يجب أن تعمل على تحقيقه .

الجنة عند القبائل البدائية

تظهر قصة الجنة فى جميع القصص الشعبية فى العالم كله ، فالهنود الحمر يقولون :

---

(١) قصة الحضارة — جزء ٣ — مجلد ٣ — ص ٢٩١ .

« إن جميع الهنود الطيبين حين يموتون يصعدون إلى عالم الأرواح ، بعيداً جداً عن النجوم حيث يجدون نساء حسناوات لا تلحقهن أبداً كهولة ولا بدانة ، وأرضاً بهيجة للصيد زاخرة دائماً بالغزلان لا ينقص عددها أبدا مهما يكثر صيدها[1] » .

أما أهالى مكسيكا القدماء فكانوا يعتقدون أن الرجال الذين يموتون فى الحرب والنساء اللواتى يمتن فى حالة الوضع ، تذهب أرواحهم لتقيم فى قصور فى الشمس ، وبعد أربع سنوات تحل هذه الأرواح فى طيور جميلة تستطيع أن تعيش كما تشاء على الأرض أو فى السماء .

وأهالى جزيرة جرينلاند الذين تقع جزيرتهم فى المنطقة الثلجية ، والذين يستمر الليل عندهم شهوراً فى كل عام ، آمنوا بجنة تصورها بعضهم فى أعماق الأوقيانوس ، وتصورها البعض الآخر فى القمر ، وهذه الجنة فى صيف دائم ونهار لا آخر له ، وتكثر فيها الحيوانات الشهية التى تقدم لهم مسلوقة فى المراجل .

أما أهالى الاسكينديناف القدماء ، فكانوا يعتقدون أن الجنة من نصيب المحاربين الذين يموتون وهم يقاتلون ، حيث يطاف عليهم بالخمر وهم متكئون على الأرائك ينعمون ، ويستمعون إلى الأشعار التى تقال فى مدح أفعالهم والثناء عليهم [2]

الجنة عند الشعوب المتحضرة

أما المصريون القدماء وهم الشعب الزراعى ، فجنتهم هى المثل الأعلى فى الزراعة ، فهناك فى الشمال الشرقى من السماء تقع « حقول يارو » ، هذه الحقول اليانعة الدائمة الاخضرار الوفيرة الخيرات الكثيرة العدس ، حيث

---

(١) ول ديورانت — مباهج الفلسفة .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى — المجلد الثالث — نقلا عن دائرة معارف (لاروس) .

يعلو قمحها فوق أى قمح ينبت على ضفاف النيل ، يعمها السلام والأمن والطمأنينة ، وينال كل فرد فيها نصيبه .

وثمة أرواح أخرى تظل تعلو طبقات الهواء بعد الموت ، حتى تبلغ الشمس (رع) فتقابل أتباع المعبود هناك وتعيش كنجوم أزلية [1] .

أما عند الفرس من أتباع زرادشت « فالأرواح الطيبة تبدأ حياة جديدة بعد الموت فى عالم خال من الشرور والظلام والآلام ، حيث لا موت ولا فساد ولا انحلال أو شيخوخة ، وتعيش كل الخليقة فى خلود دائم حيث يحكم إله النور (أهورمزدا) إلى أبد الآبدين [2] .

ويقول الهنود فى كتابهم المقدس « الفيدا » إن الروح الصالحة بعد الموت يتلقاها « ياما » فيرفعها إلى الجنة لتنعم بكل صنوف اللذائذ الأرضية وقد كملت ودامت إلى الأبد [3] .

وقد حاول بوذا أن يؤسس دينا لا جنة فيه ولا نار ، وجعل محوره يدور على محاولة التخلص من الألم فى هذه الدنيا بالوصول إلى مرتبة « النرفانا » . وقد حارت العقول فى وصف هذه النرفانا ، فقيل إنها انعدام شعور الفرد بفرديته ، وقال بعض أتباع بوذا إنها اتحاد بالله وحياة فى فردوس من السعادة بعد الموت ، ولكن البوذية لم تلبث تحت ضغط حاجة البشر ، أن تحدثت كبقية الأديان الأخرى عن عديد من الجنات تعلوها جنة النعيم ، فثمة جنات حول جبل ميرو الذى سفحه من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ، ومقسم إلى عدة طبقات فى كل طبقة أهلها من الصالحين

---

(١) كتاب تاريخ مصر القديمة — لجيمس هنرى بريستد — ترجمة الدكتور حسن كمال — ص ٤٢ .

(٢) قصة الحضارة — المجلد الأول — الجزء الثانى — وقادة الأديان .

(٣) قصة الحضارة — المجلد الأول — الجزء الثالث .

على حسب درجاتهم ، وفوق هذه الجنات جنات أخرى ثم أخرى تنتهى إلى جنة علوية فى السماء ، حيث يحيا الأبرار فى حالة فناء لا مفكرين ولا غير مفكرين بل فى سعادة مطلقة [1] .

الجنة عند الاغريق

حتى إذا وصلنا إلى الإغريق ، أساتذة الفكر الإنسانى ، وجدنا أن أحد الأديان السائدة بين صفوفهم هى « الأورفية » ، ذات الطقوس السرية ، تتحدث عن جنة ينعم فيها الصالحون بالخلود والسعادة ، وتسمى هذه الجنة جزائر المنعمين .

ولكن أروع تصوير للجنة نراه فى شعر بندار إذ يقول :

« وفى ضياء الشمس الجميل يقيم المتقون ، لا فرق بين أيامهم ولياليهم فى بهجتها وبهائها حيث لا يفعلون ما اعتادوا فعله فى الأيام الخوالى ، عند ما كانوا يكدحون كدحا كنوداً لحرث الأرض وإثارتها ، ليحصلوا على حاجاتهم الباطلة ، أو عند ما كانوا يخوضون عباب البحر بسفنهم . وإنما يقيمون فى نعيم دائم مع الآلهة العظام ، ويقضون معهم حياة خالية من الأحزان مستمتعين فيها بسرور وهناء ، جزاء لهم على ما حفظوا من عهود على ظهر الأرض [2] .

حتى إذا وصلنا إلى أفلاطون أمير فلاسفة اليونان وجدناه يقول لنا : إذا مات الإنسان انتقلت روحه إذا كانت فاضلة إلى « جزائر المباركين » ، وإذا تطهرت الروح خلال الحيويات المختلفة من جميع آثامها ، تحررت من التجسد وصعدت إلى الفردوس تتمتع فيه بالسعادة السرمدية [3] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين — لفريد وجدى .

(٢) قصة الحضارة — جزء ثانى — مجلد ٢ — ص ٣٤٣ .

(٣) قصة الحضارة — جزء ثانى — مجلد ٢ — ص ٤٨٠ .

وورث الرومان كل ما عند الإغريق بالإضافة إلى ما كان عندهم ، حيث كانت عقيدتهم تقول لهم « إن الموتى ينتقلون إلى جنات النعيم »

ويختم شيشرون كتابه عن الجمهورية بوصف الجنة والنعيم الأبدى ، الذى ينعم فيه الصالحون بعد موتهم [1] .

أما فرجيل أعظم شعراء الرومان ، فيخصص الكتاب السادس من ملحمته الكبرى «الإنيادة» ، لوصف الجنة وما تغص به من أودية خضراء ينعم فيها الصالحون إلى أبد الآبدين [2] .

الجنة عند اليهود

ولم يعرف اليهود سوى جنة عدن ، التى أخرج منها آدم وهى على هذه الأرض ، ولم يؤمن اليهود بخلود الروح بعد الموت ، بل لم يتصوروا أن جسد الإنسان ينطوى على روح ، فتراهم يخاطبون ربهم قائلين « الموتى لا يقومون بحمدك فاستبق حياتنا لتستبقى من يعبدك » وكذلك يمكن اعتبارهم بحق حملة لواء الدعوة المادية التى لا تؤمن بجنة فى السماء ، وإنما تسعى لتحقيق أكبر قدر من الخير لنفسها على ظهر هذه الأرض .

ولكن اليهود كسائر البشر ، لم يلبثوا أن آمنوا بالجنة كما يصفها لنا التلمود (مستودع حكمة اليهود ومعارفهم) ، فجنة عدن تقع فى السماء الرابعة ، ولها بابان يحفظهما ستمائة ألف ملك ، فإذا جاءتهم روح تقية ألبسوها تاجين ورقصوا وغنوا لها قائلين «كل خبزك وتمتع» ، ثم يوصلونه

---

(١) قصة الحضارة — جزء ١ — مجلد ٣ ص ٣٣٦ .
(٢) قصة الحضارة — جزء أول — مجلد ثالث ص ٦٣ .

إلى جهة تجرى فيها أربعة أنهار من « لبن وعسل وخمر وماء » ، حيث يجلس الصالحون على موائد من أنفس الأحجار الكريمة ... الخ [1]

وفى القرن السابق على الميلاد ، أصبح اليهود يترقبون نزول مسيح من السماء يحمل الناس جميعاً على الإيمان بالله (يهوه) والشريعة الموسوية . ويسود بعد ذلك عصر طيب تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ما كانت تحمل من قبل ألف مرة ، ويصير الخمر موفوراً ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أصحاء مستمسكين بالفضيلة وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض [2] .

الجنة فى المسيحية

ثم جاء المسيح عيسى بن مريم ، يبشر باقتراب ملكوت السماء ، ويعد المتقين الأبرار بدخول ملكوت السماء .

« طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات .

— طوبى المضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السموات .

— يضىء الصديقون مثل الشمس فى ملكوت أبيهم (الفصل الثامن عشر).

— وعند ما يجىء ابن البشر فى مجده وجميع الملائكة معه ، فعندئذ يجلس على عرش مجده ..

ثم يهب الخلود وملكوت السماء إلى أبد الآبدين للمتقين والصالحين (الفصل السادس والعشرون — إنجيل متى)

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين — مادة جنة.

(٢) قصة الحضارة — جزء ٣ — مجلد ٣ ص ١٨٢ .

ويصف لنا تلميذه يوحنا ملكوت السموات وصفا مسهبا يختمه بقوله:

« وسمعت صوتا عظيما من العرش قائلا : هوذا مسكن الله مع الناس ، وسيسكن معهم ويكونون له شعبا ، والله نفسه يكون معهم إلاها لهم . ويمسح كل دمعة من عيونهم ، ولا يكون بعد موت ولا نواح ولا صراخ ولا وجع ، لأن ما كان سابقا فقد مضى (الفصل ٢١ رؤيا يوحنا)

ويمضى أئمة المسيحية وشعراؤها يصفون لنا الجنـــة وملكوت السموات ، ولعل الكوميديا الإلهية التى ألفها دانتى فى القرن الرابع عشر ، هى التى خلدت أكثر من غيرها ، وفيها يصور لنا ملكوت السماء معتمداً على وصف بطليموس الفلكى للسموات التسع ، فيروح يصعد فى السموات العلا متقابلا مع القديسين والأنبياء والشهداء ، حتى يصل إلى خاتمة المطاف فى السماء التاسعة ، فلا يجد فيها نجوما بل كل ما فيها نور صاف ، ويقول لنا إن كل ما رآه بعدئذ تعجز اللغة عن وصفه ، ويعجز الخيال عن تصوره [1] .

الجنة فى الاسلام

وقبل ذلك كان القرآن وهو آخر ما عرف البشر من كتب سماوية ، يصف جنة الخلد بأكمل وأروع ما وصفها به الواصفون فى سائر الأديان ، وما من سورة من سور القرآن ، إلا وهى تصور لنا نعيم الجنة المقيم ، وتحدد خصائص هذه الحياة الثانية . وبغض النظر عما ورد فى آيات القرآن من تشبيهات واستعارات لم يكن منها مناص لإفهام العرب عن طريق لغتهم ، حقيقة هذا النعيم ، فإن جوهر هذه الآيات كلها إنما يهدف إلى تصوير

(١) قصة الحضارة — الجزء السادس — المجلد الرابع ص ٣٤٢ .

ثلاثة مبادىء بالنسبة لهذه الحياة الثانية ، وهى مفهوم الجنة فى كل زمان ومكان . أما المبدأ الأول فهو خلود الروح إلى أبد الآبدين ، والثانى استمتاع الإنسان بحياة خالية من شوائب الدنيا ومتاعب الحياة المألوفة ، فلا جوع ولا مرض ولا كد أو تعب .

أما المبدأ الثالث فهو أن هذه الحياة ستقوم على الحب والصفاء ، فلا حسد ولا حقد ولا بغضاء أو أطماع ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

— ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين .
— لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين .
— لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما — إلا قيلا سلاما سلاما .
— وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ، الذى أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب .
— وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون .
— لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى .
— وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام .

الجنة الارضية أو المجتمع المثالى

ويظن أقوام أن ما تنادى به الشيوعية هذه الأيام ، من تسفيه القول بوجود جنة فى السماء ، وأن ذلك كله ليس إلا لونا من ألوان الوهم والخيال السقيم ، يتصورون أن الشيوعية فى ذلك قد جاءت بجديد ، نتيجة لتطور العقل البشرى ونضجه ، مع أن هذا القول بإنكار جنة السماء قديم قدم القول بوجودها ، فقد وجد دائما حتى بين القبائل البدائية الساذجة ، من لا يعرف جنة إلا على هذه الأرض ، ومن لا يحفل بحياة إلا بهذه الحياة التى نحياها ، ولقد أشرنا فيما سبق إلى أن اليهود أنفسهم كانوا من حملة لواء هذه

الفكرة فى عصورهم المتقدمة ، والذى يعنينا فى هذا المقام هو ما قلناه من قبل ، من أن القائلين بذلك القول ، الجاحدين بجنة فى السماء قد دعوا إلى جنة فى الأرض .

وكثيراً ما يشار فى هذا الموطن إلى جمهورية أفلاطون ، ولكن أفلاطون كان من المؤمنين بجنة فى السموات وبمجتمع مثالى على هذه الأرض .

ولكن الأقرب إلى تمثيل هذا المذهب هو زينون الرواق ، الذى دعا فى جمهوريته التى نشرها عام ٣٠٠ ق . م إلى نظام شيوعى مثالى ، حيث نرى واحداً من أتباعه يصف لنا « الجزيرة المباركة » فى المحيط الهندى (وقد تكون جزيرة سرنديب) ، وفى هذه الجزيرة يعيش الناس كلهم أكفاء ، لا فى الحقوق فحسب ، بل وفى قدرتهم وذكائهم ، وأنهم كلهم يعملون على قدم المساواة ، ويقتسمون ثمار عملهم بالتساوى ، ويشتركون كلهم إذا جاء دورهم فى تصريف شئون الحكومة .

وليس فى هذه الجزيرة فقر ولا غنى ، ولا حرب بين الطبقات ، وأن الطبيعة تنتج فيها الفاكهة الموفورة بلا حاجة إلى جهد ، وأن الناس يعيشون فيها متآخين متحابين [1] .

جمهورية كونفشيوس المثالية

ومن الصين فى القرن السادس قبل الميلاد ، يدعو كونفشيوس البشر إلى جمهوريته السعيدة ، جمهورية « التوافق العظيم » — : « وعندئذ فسوف تصبح الدنيا كلها جمهورية واحدة ، يتعاون الناس فيها فى إخلاص ومحبة عاملين من أجل السلام العالمى . فى هذه الدولة لن ينظر الإنسان لوالديه

(١) الجزء الثالث — المجلد الثانى — حياة اليونان — ص ٢٠ .

باعتبارهم آباءه دون غيرهم ، كما لن ينظر إلى أبنائه باعتبارهم أولاده فقط ، وسيحصل كل رجل على حقه وكل امرأة على شخصيتها ، ستختفى الأنانية ولن تجد نافذة لتطل منها ، سيتطهر وجه الأرض من اللصوص والمجرمين والخونة والأشرار .

ستتحول الدنيا كلها إلى « التوافق العظيم » [1] .

الاشتراكية المثالية

وتتكرر الدعوات والصيحات إلى مجتمع مثالى على هذه الأرض ، حيث لا ظلم ولا طغيان ولا فقر ولا حرب أو خصام ، ومن حين لآخر يطلع الكتاب والفلاسفة والشعراء بطوباهم ، ومثلهم العليا للمجتمع الإنسانى .

فهذا توماس مور الإنجليزى يكتب لنا فى القرن السادس عشر عن طوباه أو جزيرته المثالية ، فيصف لنا المجتمع وكيف يجب أن يكون ، على لسان رحالة برتغالى (رفاييل) كما رآه فى جزيرة الخيال ، الأمر الذى استحق توماس مور من أجله أن يكون أبا الاشتراكية المثالية فى العصر الحديث [2] .

أيمانه كوندورسيه

ويفرغ لنا كوندورسيه أحد زعماء الثورة الفرنسية إيمانه بمستقبل الإنسان فى كتابه « تاريخ تقدم الروح الإنسانى » ، وإن الظروف التى كتب فيها كتابه وهو على عتبة الموت ، هارباً من أصدقاء الأمس الذين يطلبون رأسه ، وسقوط هذه الرأس بالفعل بعد كتابة هذا الكتاب تحت المقصلة ، كل ذلك من شأنه أن يجعل من كتابه عن مستقبل الإنسان أشبه بنبوءة

---

(١) صورة حية لقادة الأديان — ص ٦٧ Relgious Leaders

(٢) الاقتصاد — للدكتور محمد حلمى مراد .

تجىء من ضمير الوجود إذ يقول : « إن مبادىء الثورة عن إيمان القرن الثامن عشر بالعقل ستنتشر فوق الأرض بكاملها — والحرية والمساواة — مساواة صحيحة فى الاقتصاد والاجتماع والفكر ستقوى باستمرار واطراد ، وسيخيم السلام على الأرض ، وستعتبر الحرب أكبر وباء وأفظع جريمة ، بل أكثر من ذلك كله فإن تنظيم المعرفة على شكل أفضل ، وتسخير الذكاء فى تحسين كيفية الإنسان العضو الحى ، سيؤدى إلى القضاء على الأمراض ، وتطويل معدل الحياة الإنسانية الطيبة .

أى صورة رائعة للجنس البشرى إذ يتحرر من قيوده ، وينعتق من عبودية الصدفة ، ويسير بخطى أكيدة على طريق الحقيقة والفضيلة والسعادة . ناسيا البخل والخوف والحسد والعذاب والفساد ، إنه هناك ليعيش مع إخوانه فى نعيم خلقه عقله . تغنيه محبته للإنسانية أطهر الأفراح [1] »

جنة الشيوعية

حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث ، نجد التبشير بالجنة الأرضية يصل إلى ذروته لدى الماركسيين ، فيحدثوننا عن التطور الذى ستصل إليه الإنسانية من خلال الاشتراكية فالشيوعية فالمجتمع اللاطبقى ، عند ما يختفى نهائياً من المجتمع كل ظل من التفرقة بين البشر ، فلا كبير ولا صغير ولا حاكم ولا محكوم ولا غنى ولا فقير ، بل إخوان متعاونون متحابون بدون حاجة إلى دولة أو حكومة تحكمهم ، بدون حاجة إلى بوليس أو جيش أو سجون أو محاكم [2] ، فالملكية التى تدنس النفوس وتغرس فيها الحقد

---

(١) تكوين العقل الحديث — جولد هرمان راندال — ٥٥٠ .

(٢) عبر انجلز عن زوال الدولة فى مؤلفه « ضد دورنج » قائلا « حالما لاتوجد بعد أى طبقة اجتماعية تخضع ، وحالما يلغى مع السيطرة الطبقية الكفاح من أجل الوجود الفردى ، الذى كان مؤسساً على الفوضى السابقة فى الإنتاج. وتلغى معها المصارعات=

والحسد والأنانية ، لا يعود لها وجود فلا يبقى من الناس إلا أن يتحابوا ويتآخوا ، وستتولى الآلات عملية الإنتاج فلا يحتاج الإنسان للكدح أو الشقاء ، وسيغزر الإنتاج نتيجة التفوق العلمى بحيث يستطيع كل إنسان أن يحصل على كل ما يحتاجه بغير ثمن وبدون جهد أو مقابل من أى نوع كان ، وسيصل العلم من الرقى والإبداع بحيث يصبح الإنسان قادراً على القضاء على المرض كما قضى على الفقر ، بل وأن يقضى على الموت نفسه فيصبح من الخالدين .

وليس هذا الذى تدعو له الشيوعية سوى جنة السماء وقد قامت على الأرض .

أى الجنتين ستتحقق

وقد حق لنا أن نتساءل بعد هذا الاستعراض أى الجنتين ستكون جنة الأرض أم جنة السماء ؟ وأغلب الظن أن الجنتين ستوجدان حتما ، مادام العقل البشرى قد فكر فى هذه وتلك .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن الأرض فى نهاية الأمر ليست سوى أحد كواكب السماء ، فلو أن إنسانا كان يعيش على كوكب آخر لتطلع إلى الكوكب الأرضى وهو سابح فى السماء ، باعتباره يتطلع إلى السماء .

فالجنة آتية لا ريب فيها ، ما دامت قد ألحت على ذهن الإنسان بهذه الصورة ، وما دام قد جعلها هدفا نهائيا له لا ينفك يسعى للوصول إليه .

= وأوجه التجاوز ، فإنه لن يبقى شىء يعاقب يمكن أن يجعل من الضرورى قيام قوة قمع أى دولة . . . ويغدو تدخل سلطة الدولة فى العلاقات الاجتماعية ، غير مجد فى نطاق بعد آخر . . . وتحل محل حكومة الأشخاص إدارة الأشياء وتوجية عملية الإنتاج فالدولة لا تلغى ، ولكنها تذبل .

(وقاية النظام الاجتماعى — محمد عصفور — ص ١٨٣) .

وهناك بادرتان فى عصرنا الحديث تقطعان بأن البشر سائرون نحو الغاية التى ينشدونها .

أما البادرة الأولى ، فهى هذا التقارب بين أرجاء الكرة الأرضية ، بحيث أصبح الوصول إلى أى طرف من أطرافه ، يتحقق بأسرع مما يصل القروى فيه من قريته إلى إحدى القرى المجاورة .

لقد حدثنا راكبو الأقمار الصناعية بانتقالهم من قارة لأخرى فى بضع دقائق . وإذا كان هذا فعل الصواريخ التى لم يعم استعمالها بعد ، فإن الطائرة النفاثة أصبحت تنقل من مشرق الدنيا حتى مغربها فى بضع ساعات . أما انتقال الأخبار فقد أصبح يتم بأسرع مما يحدث بين متخاطبين فى حجرة واحدة ، ولا يكاد الحادث يقع فى أى ركن من أركان العالم ، حتى يتسامع به البشر فيتجاوبون معه حزناً أو فرحاً أو قلقاً أو ضيقاً أو فرجا . . . الخ .

وتعمل الفنون والآداب من خلال السينما والإذاعة والتلفزيون ، على توحيد مشاعر البشر وأذواقهم وآدابهم وعاداتهم ، فالرواية السينمائية أصبحت تعرض فى مئات الدور من السينما فى شتى أرجاء العالم فى وقت واحد ، فيتجاوب معها الملايين بمشاعر واحدة وأحاسيس مشتركة ، سواء كانت بكاء أو ضحكا أو إعجاباً أو استهجانا أو تفكيرا .

ولم يعد اختلاف اللغة يؤلف حاجزاً يحول دون التفاهم ، فكل دولة أصبحت تذيع أخبارها بشتى اللغات ، وتعرض كل ما يتصل بها بشتى اللغات كذلك . وعندما يجتمع ممثلو الشعوب فى أى مناسبة من المناسبات ، يتكلم كل إنسان بلغته الخاصة ، وتتولى الترجمة الفورية إفهام ما يقول لكل إنسان بلغته .

ويعمل البشر الآن متكاتفين على حل المشكلات الإنسانية بطريقة

دولية ، وإذا كانت هيئة الأمم فى بداية الطريق من الناحية السياسية ، فهى ليست كذلك فى الناحية العلمية أو الاجتماعية أو الصحية ، فقد أصبح ينبثق منها عديد من المنظمات للعمل دوليا من خلال الجهود المشتركة ، لمواجهة مشكلات العمل والعمال والصحة وزيادة الإنتاج فى الزراعة والصناعة والتعليم والخدمات ، ولعل أروع مثل على هذا التعاون الدولى ، ما يجرى فى بلادنا من محاولة لإنقاذ آثار النوبة ، باعتبارها تراثاً عالمياً إنسانياً على العالم كله أن يتضافر على إنقاذها .

ولم يعد هذا التفكير فى وحدة العالم ، وقفاً على المنظمة العالمية ، بل إن الدول الكبرى والغنية قد راحت تمد يد الإعانة المالية والفنية للشعوب التى اضطرتها ظروف الاستعمار القديمة على التخلف . وأصبحت الدول الناشئة تطالب بهذه الإعانات لا على سبيل الاستجداء ، ولكن على سبيل الشعور بحق البشرية المشترك فى كل ما على الأرض من ثروات قد خلقت من أجل البشر جميعاً ، لا من أجل فئة من الفئات أو شعب دون شعب ، وأمة دون أمة .

وقد أدركت الشعوب القوية والغنية ، أن العالم اليوم أصبح وحدة اقتصادية واحدة ، وسوقاً واحدة ، وأنه لا سبيل باحتفاظهم بغناهم إذا ظل أهل الفقر على فقرهم ، غير قادرين على شراء منتجاتهم . وعلى ذلك فقد أصبح العمل على رفع مستوى البشرية كلها ، هو الصيحة التى تتردد فى كل مكان ، ذلك أن الفقر والجهل والمرض كأى ميكروب يتربص الدوائر بالإنسانية كلها ، ووجوده فى أى ركن من أركان العالم ، معناه قيام الخطر على رؤوس الجميع ، ومن هنا رأينا التنافس على أشده بين الشرق والغرب ، فى مد يد المساعدة للبناء والإنشاء فى كل مكان .

حقاً لا يزال هذا الإحساس فى بدايته ، ولا تزال آثار الماضى من الاستعمار والاستغلال ، تعرقل الجهود المبذولة فى هذا الاتجاه العالمى الإنسانى ،

ولا تزال بذور الشك والخوف من تكرر المآسى الماضية ، يحجب عن بعض الأنظار التطور الكبير المدى الذى طرأ على علاقات البشر ، ومع ذلك فإن الحقيقة الثابتة المشرقة تشير إلى أن البشرية تستقبل عهداً جديداً ، تتجه فيه نحو عالم واحد تحكمه حكومة واحدة ، على أساس قيم مشتركة وقانون إنسانى واحد .

نفوذ الإنسان إلى الفضاء الخارجى :

أما البادرة الثانية التى تدل فى عصرنا الحديث على أن البشر سائرون بالفعل نحو الوحدة على هذا الكوكب على الأقل ، وهى فى نظرنا تعطى للظاهرة الأولى قوة لم تكن لها من قبل ، فهى نجاح الإنسان بطريقة مادية من التحرر من الجاذبية الأرضية ، تمهيداً للوصول إلى القمر وبقية الكواكب الأخرى ، بكل ما يحمله هذا التطور الكبير من إمكانيات واحتمالات لقدرة الإنسان وتغلبه على الزمان والمكان ، والإحاطة بأسرار الوجود والحياة ، وكل ما من شأنه أن يجعل من المتصور إمكان القضاء على الأمراض بالفعل ، وإطالة الحياة . ولعله مما يجدر ملاحظته أن هذا العالم الجديد الذى انفتح للبشر سيظل إلى آماد طويلة فى متناول أفراد من البشر ، سيكون عليهم أن يواجهوا هذه العوالم المجهولة غير معتمدين إلا على قدرتهم الذاتية ، مما سيكشف للبشر أكثر وأكثر عن حقيقة قانون الطاقة الإنسانية الذى قلنا به .

ماذا يجب علينا أن نفعل ؟

وإذا كانت الدلائل تدل هكذا على أن الإنسان سائر فى الطريق نحو الأمام ، نحو الأمل المنشود فى حياة أكثر أمنا وعدلا ورخاء وحرية ، حياة خالية من الشوائب التى لا تزال تملؤها ، فهل نستطيع أن نحدد ما الذى يجب على الإنسان فعله لتقريب هذا اليوم الموعود ؟ أحسب أن ذلك بات فى قدرتنا ، ما دام أن هدف الإنسانية قد أصبح واضحاً ومحدداً ، فإن ذلك

يزودنا بميزان دقيق لمعرفة ما يجوز من أعمالنا ومالا يجوز ، ما يحق علينا أن نقوم به من أعمال ، وما يجب ألا نقوم به من هذه الأعمال . وفى عبارة محددة مايمكن اعتباره خيرا مطلقا فى كل زمان أو مكان ، ومايمكن اعتباره شراً مطلقاً فى كل زمان أو مكان . فكل قول أو فعل أو حركة أو تصرف من نوع الهدف النهائى الذى تنشده الإنسانية ، فهو لا يمكن أن يكون إلا خيراً ، وخيراً مطلقاً ما دام أنه يحقق هذا الهدف المنشود ولو للحظة واحدة ، أو على الأقل يصور لنا إمكان تحقق الهدف المنشود . وعلى العكس من ذلك فكل فعل أو قول أو حركة أو تصرف يقع فى الاتجاه المضاد للهدف المنشود ، فهو لا يمكن أن يكون إلا شراً وشرا مطلقا ، لأنه إما يبعدنا عن الهدف المنشود ولو بمقدار لحظة من الزمن ، أو على الأقل يصور لنا استحالة هذا الهدف المنشود ولو فى لحظة واحدة .

بهذا المقياس البسيط والممعن فى البساطة ، نستطيع أن نقيس خيرية الأمور وشرها . ولنحاول الآن أن نقيس به بعض الأمور مما اعتاد الناس أن يتباحثوا ويتناظروا فيه مختلفين .

المثالية والواقع

إن أول خلاف يقوم بين البشر فى تفكيرهم وحياتهم الذهنية كلها ، والذى ينعكس على أعمالهم بعد ذلك ، هو هذه المقارنة المستمرة بين المثالية والواقع ، ولما كانت المثالية لا تعنى شيئاً سوى هذا الهدف الذى ينشده البشر ، فإن كل حديث عن وجوب الأخذ بالأمر الواقع والنزول على أحكام الأمر الواقع والرضاء بالأمر الواقع ، مهما كان هذا الواقع يغص بالمفاسد والشرور والنقائص التى تضاد الهدف المنشود ، فإن ذلك لا يمكن أن يكون إلا شراً وشراً محضاً بلا جدال أو شبهة ، لأنه تعويق للبشر عن السير نحو هدفهم المنشود . يستوى فى ذلك أن تكون الدعوة للواقع دعوة عملية

أو دعوة فكرية بحتة ، كهذه الفلسفات التى لا تعترف إلا بالأمر الواقع المحسوس الملموس ، فإن ذلك كله صرف للبشر عن الاندفاع نحو مثلهم العليا ، التى تقررت على مر الأجيال والدهور ، وحثهم على احترام الواقع المادى بكل ما ينطوى عليه هذا الواقع المادى من بلاء وشقاء .

وعلى العكس من ذلك فإن كل دعوة مثالية تدعو لكل ما يصبو إليه البشر ويتمنونه ، فهى لا يمكن إلا أن تكون خيراً محضاً بلا نزاع أو شبهة ، لأنها على أقل تقدير تذكر البشر بما يجب عليهم أن يتجهوا صوبه ، وأن يعملوا على تحقيقه ، ولو للحظة واحدة من الزمان .

إطعام الطعام

ولقد رأينا ونحن نستعرض الجنة وصورها المختلفة عند المؤمنين والماديين على السواء ، أن الحصول على الطعام الشهى بدون مجهود ، وبالقدر الذى يريده الإنسان ، يحتل المكان الأول فى تصور جنة السماء والأرض معا . وإذن فكل ما يحقق للبشر أفراداً أو جماعات هذا الهدف أو بعضه ، فهو خير وخير مطلق على شريطة ألا يتم ذلك على حساب الآخرين . وكل عامل وكل مساهم فى تقديم الطعام للناس، يقوم بأجل الأعمال وأكثرها تحقيقاً لآمال البشر . وعلى الضد من ذلك كل من يتسبب بطريق مباشر فى تجويع الناس ، والتضييق عليهم فى موضوع الطعام ، كل إسراف فى تناول الطعام يؤدى إلى حرمان الآخرين منه فهو شر بلا جدال أو شبهة ، لأنه على خلاف الهدف النهائى للبشرية ، وهو توفر الطعام لكل البشر على السواء .

الألم والمرض

والمثل الأعلى للبشر الذى تخيلوا الجنة على صورته ، يقوم على حياة لا تعرف المرض أو الألم ، فكل عمل أو تصرف حتى ولو بالقول يؤدى إلى ألم إنسان أو إمراضه فهو شر بلا جدال أو شبهة ، وعلى العكس من

ذلك كل فعل يؤدى إلى تخفيف الألم عن الناس ، كل محاربة للمرض فى أجزائه ومجموعة ، بالنسبة لفرد واحد أو جماعة فهو خير مطلق وخير عميم ، لأنه من نوع الهدف الذى نشده البشر وينشدونه فى كل زمان ومكان .

الحياة والموت

وليس هناك ما يتمناه البشر أعظم من طول العمر ، فكل إنسان يدعو للآخر بطول العمر كأعظم هبة يمكن أن تمنح للإنسان ، وقد تصور البشر جميعاً الجنة على أساس أن الموت فيها لا يلحق الإنسان ، وحتى الماديون يسعون لإطالة حياة الإنسان والقضاء على الموت لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فالحياة إذن لا الموت هدف البشر النهائى ، ومن ثم فباستطاعتنا أن نقرر طبقاً للمقياس الذى اصطنعناه ؛ أن كل عمل أو تصرف يؤدى إلى إزهاق الروح البشرية فهو شر مطلق بلا جدال أو شبهة ، وليس يغير من هذا الوضع أن يكون هذا الإزهاق دفاعاً عن النفس ، أو قصاصاً من مجرم ، أو أن يتم بحكم القانون ، فذلك كله لا يحول الموت من شر إلى خير ، ولذلك فإن الدعوات الداعية إلى إلغاء عقوبة الإعدام لأى سبب من الأسباب هى دعوات خيرة بلا جدال أو شبهة ، وعكس هذه الدعوات إلى الإبقاء على عقوبة الإعدام لأى سبب من الأسباب . وسيظل الناس يقتلون بعضهم بعضا ، ما لم يؤمنوا بقدسية النفس البشرية ، وأن ليس من حق أى إنسان أو جماعة أن تزهق روح إنسان أياً كان السبب أو الدافع[1] .

---

(١) عبر القرآن عن هذا المبدأ أروع تعبير وهو يقص علينا أول جريمة ارتكبت فى الوجود ، إذ رفض هابيل أن يدافع عن نفسه ضد أخيه قابيل وآثر أن يموت من أن تمتد يده بالأذى لأخيه ولو على سبيل الدفاع . « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » . (المائدة — ٢٧) .

وأعرف أن كثيرين عند مطالعة هذا الذى نقول به سيحتجون بالقرآن الذى أباح الموت قصاصاً ، فقال قوله الكريم « النفس بالنفس » « ولكم فى القصاص حياة » =

وإذا كان قتل إنسان واحد لأى سبب من الأسباب لا يمكن أن يكون إلا شراً مطلقاً ، إذ هو يعوق البشرية عن بلوغ هدفها ولو للحظة واحدة ، فكم بالأحرى يكون حكمنا على القتل بالجملة من خلال الفتن والثورات والحروب ؟ لا ينبغى أن نتردد فى اعتبار ذلك شراً مطلقاً لأنه إهدار لكل ما يهدف إليه البشر من مثل أعلى فى الحياة ، والحق أن الحرب تجمع كل ما يضاد هذا الهدف فهى التى تجيع الناس وتؤلم الناس وتسبب المرض والضيق للناس ، وهى التى تقطع الوشائج والروابط الإنسانية ، وهى التى تطلق الحقد والبغض والظمأ للدماء من عقالها ، وهى فى نهاية الأمر تدمر وتخرب وتحرق ثم تقتل، فهى تجمع كل الشرور والآثام التى يمكن أن يرتكبها فرد أو جماعة .

المساواة بين البشر

وتصور البشر مثلهم الأعلى على شكل مجتمع تسوده المساواة بين البشر فى سائر الميادين ، فى الحظ والقدرة والكرامة والحرية والشعور بالاستقلال ، وليست الجنة سوى مجتمع قد خلا من الاستعباد والاستغلال والظلم

= « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به » « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ولكن الذين يشيرون إلى هذه الآيات ينسون أن القرآن لم يجعل من ذلك مثلا أعلى أو الهدف النهائى الذى يمكن أن يسعى إليه البشر ، فما من مرة قال هذا القول إلا وذكر أن خيراً منه العفو والصفح ، فإذا كان القصاص حقاً « فمن تصدق به فهو كفارة له ». (المائدة — ٤٥) وإذا كان الرد بالمثل أسلوب يجب أن يتبع لإقرار السلام فيقول القرآن « فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » فهو يضيف على الفور « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (النحل ١٢٦) وإذا قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » فإنه يردفها بالقول « فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (الشورى ٤٠ — ٤٣) وهكذا يجعل القرآن الدرجة العليا هى من نصيب العفو والصفح وليست فى جانب القصاص . وتلك هى سنة القرآن فى كثير من الموضوعات ، يبين حكم الواقع ثم يردفه بالمثل الأعلى الذى يجب أن يسعى البشر لتحقيقه .

« اقرأ فى هذا المعنى « كما تحدث القرآن » (للأستاذ الكبير خالد محمد خالد — ص ٣٧)

والإجحاف ، واستعلاء إنسان على أخيه الإنسان ، أو انتقاص إنسان من قدر إنسان . وإذن فكل قول أو فعل أو تصرف يهدف إلى تقرير حق الإنسان فى المساواة المطلقة فى الحرية والإرادة والكرامة والحصول على طيبات الحياة فهو خير مطلق بلا جدال أو شبهة ، لأنه من نوع الهدف النهائى لبنى الإنسان. وعلى الضد من ذلك كل قول أو فعل أو تصرف من شأنه الإخلال بهذه المساواة ، كل مساس بكرامة إنسان أو حرية إنسان أو إرادة إنسان ، إلا بالقدر اللازم لمنع العدوان على حرية الآخرين وحقهم فى المساواة ، فهو شر بلا جدال أو شبهة ، لأنه تعويق للبشر عن بلوغ الهدف النهائى .

الحب والكره

ومثل البشرية الأعلى كما صورته فى الجنة الأرضية أو السماوية ، أن تخلو الحياة بين الناس من الحقد والكراهية والبغض والحسد ، يصبو الناس جميعاً إلى أن يعيشوا فى الحب وللحب وبالحب ، فكل قول أو فعل أو تصرف من شأنه أن يؤجج روح الكراهية بين الناس لأى سبب من الأسباب ، كل تصرف وكل دعوة لا تجعل الحب للبشر كل البشر سداها ولحمتها ، فهى دعوة غير إنسانية وهى شر مطلق بلا جدال أو شبهة ، لأنها فى الاتجاه المضاد لما يرنو إليه البشر ، وما جعلوه قبلتهم وهدفهم النهائى . وكل دعوة تدعو للحب ، حب الأعداء قبل الأصدقاء ، حب الغرباء قبل المعارف ، كل دعوة للتسامح لنسيان الماضى الكريه ، للصفح ، لعدم الأخذ بالثأر ، لعدم الأذى لأى سبب من الأسباب ، فهى دعوة خيرة بلا جدال أو شبهة ، لأنها من نوع ما يصبو إليه البشر مجتمعين .

التوحيد بين البشر

وأخيراً فقد تصور البشر ، بدون استثناء ، جنتهم سواء كانت على الأرض أو فى السماء ، لا تعرف حدوداً ولا جمارك أو فواصل ، لا تعرف

دولا متباينة ولا تعرف أوطانا متفرقة . لم يتخيل البشر الجنة تفرق بين الناس لسواد جلدهم ، أو لطول قامتهم ، أو للون دمائهم . المجتمع الذى يصبو إليه البشر مجتمع قد خلا من التفاخر بالقوميات والعصبيات والمذاهب والأديان ، فالجميع فى هذا الفردوس قد أدركوا الحقيقة المؤكدة وهى أنهم نسلوا جميعاً من أم وأب واحدين ، بل إن الأم نفسها قد خرجت من الأب، فعلى البشر أن يحيوا حياة واحدة متكاملة . لقد خرجوا من الواحد وإلى الواحد يعودون . وإذن فكل عمل أو قول أو تصرف يعمل فى هذا الاتجاه فهو خير مطلق بلا جدال أو شبهة ، لأنه من نوع الهدف المنشود . وكل قول أو فعل يفرق بين البشر بسبب الدين أو الجنس أو المذهب ، كل تأجيج للخلافات والتعصب وإثارة النعرات ، كل ما يظهر البشر متعادين متصارعين فهو شر وشر مطلق بلا جدال أو شبهة ، لأنه تعويق للبشرية عن بلوغ هدفها النهائى .

الوسيلة يجب أن تكون من نوع الهدف كذلك

وهكذا نستطيع أن نمضى إلى مالا نهاية فى تعديد ما يمكن أن يعد خيراً وما يمكن أن يعد شراً ، ونحن ندع لكل قارىء على حدة أن يقوم بهذا العمل بنفسه بعد أن زودناه بالمعيار وآلة القياس . ولكن الأمر الذى لا نستطيع إلا أن نشير إليه ونؤكده ونحن فى صدد ما هو خير وما هو شر، أن الوسائل هى دائماً جزء لا يتجزأ من الأهداف ، ويجب أن تقاس الوسائل بنفس المعيار الذى نقيس به أى عمل من الأعمال ، فالشر لا ينقلب بحال من الأحوال إلى خير بمقولة أنه يراد به الخير . إن إشقاء البشر لا يمكن أن يتحول إلى خير لمجرد القول إن المراد بهذا الشقاء هو خير البشرية ، إن قتل الناس بالجملة خلال أى ثورة أو فتنة لا يمكن أن يكون خيراً لأن أهداف الثورة خيرة ، إن أى حرب لا يمكن أن تنقلب إلى خير لأى سبب

من الأسباب بمقولة إن أهدافها النهائية خيرة ، فالحرب هى الحرب شر وإثم وعمل على خلاف كل القيم التى ينشدها البشر . ليس هناك ما هو أتعس وحقيق بكل رثاء من دعوات وحركات تدعو للمؤاخاة بين البشر ، عن طريق التحريض على قتل أو إبادة فريق آخر من البشر قل أو كثر ، لأن هذا الفريق هو أيضاً من البشر . ليس هناك مايدعو للإشفاق والرثاء من حركات ودعوات تهدف إلى إعلاء الكرامة البشرية وتدعيم الحرية البشرية ، من خلال إهدار كرامة البعض أو حرية البعض ، فحرية البشر كل لا يتجزأ ، وكرامة البشر كل لا يتجزأ ، وحياة البشر وسعادتهم وكل ما يتصل بهم كل لا يتجزأ . وفى كلمة يجب اعتبار القول بأن الغاية تبرر الواسطة هو شر مطلق بلا جدال أو شبهة . ولا يحتجن علينا أحد بواقع الحياة ، وأن القصاص والانتقام والدفاع عن النفس ، والقوة لا ترد إلا بالقوة ، والنظام الفاسد سيظل يتحكم فى الناس إلى أن يدفع بالقوة ، لا يحتجن أحد علينا بهذا الواقع ، فقد بدأنا بحثنا كله من هذه النقطة نقطة الواقع ، وقلنا إن كل تمسك بالواقع هو شر مطلق بلا جدال أو شبهة ، فلو ظللنا نتمسك بهذا الواقع فسنظل غارقين فيه حتى الأذقان ولن ندلف إلى مثلنا الأعلى أبداً ، لن ندخل الجنة أبداً إذا ظللنا نعمل على أساس الواقع الممقوت المضاد لكل ما يتمناه البشر . ولعل استعراضنا المسهب لحياة البشر منذ أقدم عصور التاريخ فى كل زمان ومكان ، قد أقنع كل إنسان أن البشر لم يحققوا أى خير أو تقدم من أى نوع كان فى أى ميدان من ميادين النشاط الإنسانى الاجتماعى أو الإنتاجى أو الفنى أو العلمى ، إلا على أساس التمرد على الأمر الواقع والخروج من تحت براثنه وسلطانه .

فلنطهر أذهاننا

وإذا عرفنا الآن المقياس الذى نقيس به أمورنا وأعمالنا ، أيها خير وأيها شرير ، وإذا عرفنا قبل ذلك من قانون الطاقة الإنسانية ، أن ما يقع فى

الخارج سواء لنا أو للآخرين ليس إلا تحقيقاً لما فى أذهاننا ، أما وقد عرفنا خطورة مايدور فى أذهاننا وارتباطه بما يقع فى الـكون كله ، فلم يعد أمامنا لـكى نحقق السعادة لأنفسنا وللآخرين ، لـكى نقرب اليوم الموعود الذى يتحقق فيه مثل البشر الأعلى فى جنة السموات والأرض معاً ، إلا أن نطهر أذهاننا من كل الصور التى تضاد الهدف النهائى للبشر ، فـكل صورة للحقد أو الانتقام أو الغل والحسد ، كل صورة للطمع فى سلب الآخرين أو الاستعلاء على الآخرين أو ظلم الآخرين ، كل صورة من صور التجبر والتـكبر والتحكم ، يجب ألا يكون لها أى محل فى تفـكيرنا ، يجب أن ننقى أذهاننا منها وإلا كنا عاملين على إبقاء هذه الشرور فى الـكون إلى الأبد ، ونـكون قد أخرنا بذلك وصولنا ووصول البشر إلى الهدف النهائى .

ولنملأ أذهاننا ونجعل تركيزنا على جميع الصور التى يهدف البشر لتحقيقها . لنملأ أنفسنا بالمثل العليا ، بصور المحبة الشاملة ، بصور الأخوة والتعاون بين البشر ، بصور الصفاء والوفاق والسلام والحب . ولا ينزعن هذه الصورة من أذهاننا خطأ الآخرين أو عدوانهم أو قسوتهم ، فلو قابلنا البغض بالبغض لزادت كمية البغض فى الـكون ، ولو قابلنا القسوة بالقسوة لزادت كمية القسوة فى الـكون . فليكن الحب هو شعارنا ودثارنا وسلاحنا ومصدر قوتنا وانطلاقنا ، فالله هو الحب ولا شىء غير الحب ، ولا حقيقة فى الوجود يقوم عليها الـكون سوى الحب .

معاً على الطريق

ولنـكن على ثقة ويقين بأننا إذ نفعل ذلك فنحن على الطريق ، الطريق السلطانى ، الطريق المستقيم ، أقصر الطرق التى تؤدى إلى الغاية . ومجرد السير على الطريق المستقيم يؤدى بنا إلى السعادة المنشودة والأمل العظيم ، مجرد السير فى الطريق نحو الغاية هو النجاح الذى لا نجاح بعده ، هو

الأمن والطمأنينة وراحة الضمير ، هو القوة كلها وهو الخلود والبقاء الذى لا يطاوله بقاء .

وعلى الضد من ذلك ، فإن السير فى الاتجاه المضاد لما ينشده البشر أجمعون ، لا يمكن أن يكون إلا شراً كله ، لا يمكن إلا أن يملأ نفس السائر فيه بكل ألوان الخوف والقلق والشقاء والتعاسة ، حتى ولو كان يسكن أضخم القصور ، حتى ولو كان يملك سلطان الدنيا بأسرها ، كيف لا وهو يبعد كلما مضت به الأيام والحوادث عن الهدف المنشود . وما عليك إلا أن تقارن بين نفسك وأنت تضرب فى الاتجاه المضاد لبيتك الذى تلخصت فى الوصول إليه سعادتك ، وبينك وأنت فى الطريق نحو بيتك حيث الهدوء والراحة والدفء والحب فى انتظارك .

لنمض على الطريق نحو الغاية التى ينشدها البشر ، ونحن مؤمنون بأنه لن يصيبنا أو ينالنا فى هذا الطريق إلا الخير والخير المطلق ، لا تجعل عبيد الواقع يصورون لك أن السير فى الطريق نحو المثل الأعلى قد يجعلك فقيرا ، أو يجعلك صغيراً أو يجعلك مغموراً أو ينتهى بك إلى الموت فى النهاية ، فكل ذلك غير صحيح وإنما الصحيح هو عكسه تماما . إن الذى رفع على الصليب هو الذى يتعبد باسمه الناس . إن الذى حاربهم الناس هم الأنبياء والرسل والمصلحون ، إن الذين ملكوا ملاء الأرض ذهباً قد أصبحوا فى طى النسيان ، أما الذين لم يكنزوا مالا وآثروا عليه التمسك بالمثل الأعلى فى الحياة وما ينبغى عليه أن تكون ، هم وحدهم الخالدون وهم وحدهم المكرمون ، وهم وحدهم الذين يذكرهم الناس وسيذكرونهم إلى أبد الآبدين .

نداء

أيها البشر فى سائر بقاع الأرض ، أيها الناس من جميع الأجناس والألوان والقوميات والأديان والمذاهب ، أيها البيض والسود والحمر والصفر ، أيها

الأقوياء والضعفاء ، أيها المنتصرون والمنهزمون ، أيها الظالمون والمظلومون ، تعالوا جميعاً نبدأ من جديد ، لنسدل ستاراً على الماضى ، لنكف عن نبش القبور ، لنتوقف عن نكء الجروح . لنسر معاً على الطريق ، لا يؤذى بعضنا بعضا ، ولا ينهب بعضنا بعضا ، ولا يسرق بعضنا بعضا ، ولا يتحكم بعضنا فى بعض ، ولا يستغل بعضنا بعضا ، معا على الطريق فى تفاهم ومحبة وإخاء ، معاً على الطريق فى صفاء ووفاء وسلام ، معاً على الطريق نحو الأمة الواحدة والوطن الواحد والإنسانية الواحدة ، نحو العدل المطلق والخير المطلق والحب المطلق ، والمساواة المطلقة .

معاً على الطريق نحو الحقيقة والحق ، نحو الجنة والمثل الأعلى ، نحو الله نجده أمامنا ، نجده تجاهنا ، نجده معنا ، نجده فينا « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ »

والحمد لله رب العالمين .

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

هذا الكون أهو من صنع الإنسان

الموضوع صفحة

الفصل الرابع

كل ما يدور فى عقل البشر إما أنه كان أو كائن أو سيكون

الموضوع صفحة

الفصل الخامس

الإنسان مم تكون وكيف تكون ؟

الموضوع — صفحة

الفصل السادس

الإرادة الإنسانية

الموضوع — صفحة

الفصل السابع

الإيمان

الموضوع صفحة

الفصل العاشر

قانون الطاقة الإنسانية

الموضوع صفحة

تذييل

أي طريق نسلك

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

كتب للمؤلف

كتب سياسية

١ — إيمانى
٢ — الأرض الطيبة
٣ — وراء القضبان
٤ — الاشتراكية التى ندعو إليها
٥ — فى ظلال المشنقة
٦ — قصة مصر (بالإنجليزية طبع نيويورك)
٧ — رسالة إلى هتلر (طبع نيويورك بالعربية والإنجليزية)

كتب اجتماعية وعلمية

٨ — الزواج والمرأة (فى حقوق المرأة السياسية)
٩ — رسالة فى الحرب
١٠ — رسالة فى المجد (العلم والاقتصاد)
١١ — الطاقة الإنسانية

كتب رحلات

١٢ — مشاهداتى فى جزيرة العرب
١٣ — يقظة العملاق (رحلة فى آسيا)
١٤ — أمة تبعث (رحلة فى الهند)
١٥ — من وحى الجنوب (رحلة فى منابع النيل)

كتب قانونية

١٦ — قضية مقتل النقراشى (مرافعة)
١٧ — علاقات العمل
١٨ — قضية التحريض على حرق القاهرة
١٩ — مجموعة تشريعات العمل

مسرحيات

٢٠ — من الحياة (مسرحيتان اجتماعيتان)
٢١ — نور يسطع فى الظلام (مترجمة عن تولستوى)

قصص

٢٢ — أزهار — قصة مصر قبل الحرب العالمية الثانية

تحت الطبع

٢٣ — محظية الملك — قصة مصر من الحرب حتى قيام الثورة

شكر

إننى إذ أحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقنى لإعادة طبع هذا الكتاب فلا أستطيع إلا أن أشكر السادة القراء والإخوان والأصدقاء الذين تقبلوا الطبعة الأولى من هذا الكتاب بقبول حسن ، ويحتم على واجبى أن أنوه بصفة خاصة بجهود أخى الأستاذ محمد المعلم الذى أخذ على عاتقه إصدار هذه الطبعة لتعميم النفع بالكتاب وكذلك أخوى الأستاذين عبد العزيز الدسوقى ومحمود مهدى اللذين توليا الإشراف على طبع الكتاب ومراجعته وتصحيحه .

ا . ح

القاهرة فى ٣/١٠/١٩٦٣ .



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١